مزة

فسير

رآن الكريم

١٠

297.1
H23
V.6-

297.207:H23tA V.6-10

حمزه ، محمود محمد .

تفسير القرآن الكريم

297.207
H23tA
V. 6-10
c. 1

MAR

JAFET LIB.
20 AUG 1976

JAFET LIB.
1 JUN 1980

JAFET LIB.
10 MAR 1980

I. Lib.

297.201
H23t A
v.6-10
c.1

تفسير القرآن الكريم

الجزء السادس

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول . ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه. أن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم . تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

مِنْ سُورَةِ النِّسَاء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية ١٤٨ إلى الآية ١٥٢

لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً — ١ — . إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ ، فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا — ٢ — . إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ : نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً ، أُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً — ٣ — . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً — ٤ — .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الجهر بالسوء	المجاهرة بالسيئ من الأقوال .
إلا منْ ظُلم	ما عدا مجاهرةَ المظلوم بالدعاء على الظالم .
إن تُبدوا خيراً	إن تظهروا أيَّ خير من الأقوال والأفعال .
ويريدون أن يُفرِّقوا بين الله ورسله	ويريدون أن يؤمنوا بالله دون رسله .
نؤمن ببعض ونكفر ببعض	نُصدِّق ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم .
ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا	ويريدون أن يتخذوا طريقاً وسطاً بين الكفر والإيمان

مجمل المعنى

١ — من الآداب التي يجب أن يتحلى بها المؤمن ، ألا يجاهر بذمِّ أحد ، أو ينشر بين الناس مساوئه ، سواء أكان ذلك فى خضوره أم فى غيابه ، لأن المجاهرة بالذمِّ ، وإعلان المساوئ ، تفسد العلاقات ، وتؤدِّى إلى خصومات قد يتفاقم شرها ، ويستشْرِى ضررها ، والله سبحانه لا يحب إعلان السوء من القول ، ويغضب ممن يفعل ذلك ، اللهم إلا جهر من ظُلم : بدُعائه على ظالمه ، ورفع صوته بالتظلم منه ، وإعلان ظُلمه بين الناس ، فإن الله لا يؤاخِذُ المظلوم عليه ، ولقد قال تعالى : « ولمنِ انتصر بعد ظُلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتق دعوة

المظلوم ، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » ، فدعاء المسروق على من سَرَقه جائز ، ودعاء المعتدَى عليه على المعتدِى سائغ ، وقد دعا صلى الله عليه وسلم على أهل مكة بالجدب والقحط ، فقال : « اللهم اشْدُدْ وطأتك عليهم ، واجعلها عليهم سنيناً كَسِنِي يوسف » ، والله سميع دعوة المظلوم ، عليم بالظالم ، فيجازيه على ظلمه بما يستحقه .

٢ — إن تظهروا أيها الناس أى خير من الأقوال والأفعال ، على ألا يكون هذا على سبيل المباهاة أو المنّ ، أو تفعلوه سرًّا ، أو تصفحوا عن سوء ينالكم ممن أساء إليكم ، ولكم حق مؤاخذته — فإنكم تتخلّقون بأكرم الشمائل وأفضلها ، وتبرهنون على أنكم لا تحقدون ولا تضمرون لأحد سوءاً ، وتتصفون بخلائق المولى جل وعلا ؛ وكان الله ولا يزال عفوًّا قديراً ، يُكثِر الصفح عن العُصاة ، مع تمام قدرته على أن يعاقبهم أشدَّ العقاب ، وفى هذا حَضٌّ للمظلوم على أن يعفُوَ عن ظالمه ، بعد أن أجاز الله له أن يُذيع ظلمه ، إيثاراً لمكارم الأخلاق .

٣ — إن الذين يكفرون بالله ورسُلِه ، على حسب ما يؤدّى إليه مذهبُهم ، وتقتضيه آراؤهم ، بأن يؤمنوا بالله دون رسُلِه ، أو يقولوا : نؤمن ببعضِ الأنبياء ونكفر بسائرهم ، كما يفعل أهل الكتاب ، كاليهود ، آمنوا بالتوراة وموسى ، وكفروا بالإنجيل وعيسى ، والنصارى ، آمنوا بالإنجيل وعيسى ، وكفروا بالقرآن ومحمد ، أو أن يتخذوا لهم طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر ، أولئك هم الكافرون ، الموغلون فى الكفر حقًّا ويقيناً ، الذين لا يُعتدُّ بإيمانهم ، إذ لا واسطةَ بين الإيمان والكفر ، ولا بين الحق والباطل ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ والإيمان لا يتحقق إلا بالإيمان بالله ورسله ، وتصديق الرسل فيما بلّغوه عن الله جملة وتفصيلا ، فمن يُؤمنُ ببعض الأنبياء

ويكفُر بسائرهم ، كمن يكفر بهم جميعاً ، وقد أعدّ الله للكافرين عذاباً يَلْقَوْنَ منه كل أنواع الإهانة .

٤ — أما الذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، فأولئك سوف يؤتيهم الله ثواب أعمالهم يوم القيامة ، وكان الله غفوراً لما فرط منهم ، رحيماً بهم ، بمضاعفة حسناتهم .

(٢)

من الآية ١٥٣ إلى الآية ١٥٩ من سورة النساء

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، فقالوا : أَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، فَعَفَوْنَا عَنْ ذٰلِكَ ، وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً —١— . وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ، وَقُلْنَا لَهُمُ : ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً ، وَقُلْنَا لَهُمْ : لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً —٢— . فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللّٰهِ ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ : قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ، فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً . وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً —٣— . وَقَوْلِهِمْ : إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّٰهِ ، وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ، وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ، بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً —٤— . وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً — ٥ — .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
عِياناً .	جَهْرَةً
اتخذوا العجل إلهاً يعبدونه .	اتخذوا العجل
نَصراً مؤزَّراً بيِّناً ، على الرغم من عِناد قومه ولجاجِهم .	سلطاناً مبيناً
بسبب الميثاق المأخوذ عليهم .	بميثاقهم
ادخلوا باب بيتِ المقدس خاضعين .	ادخلوا البابَ سُجَّداً
لا تعتَدوا فى يوم راحتكم ، باصطياد الحيتان من السمك	لا تَعْدُوا فى السَّبْتِ
أخذنا منهم عهداً مؤكداً ، باليمين المغلظة .	أخذنا منهم ميثاقاً غليظاً
فبسبب نقضِهم ميثاقهم ، وما هنا : زائدة .	فبما نقضِهم ميثاقَهم
قلوبنا مغشَّاةٌ بأغطيةٍ فلا تفهم قولَك ، وغُلْفٌ : جمعُ غِلاف .	قلوبُنا غُلْفٌ
ختم الله عليها بسبب كفرهم .	طَبَعَ الله عليها بكفرهم
فلا يؤمن منهم إلا القليلُ ، كعبدالله بن سلاَم وأصحابه .	فلا يؤمنون إلا قليلا
كذباً عظيماً ، وافتراء شديداً ، برمْيِها بالزِّنى .	بهتاناً عظيماً
التبَس عليهم الأمرُ فيه واشتبه .	شُبِّهَ لهم
ما لهم يقينٌ بقتله ، اللهم إلا مجرَّدَ الظن .	ما لهُم به من عِلمٍ إلا اتباع الظن

الألفاظ	شرحها
رفعَه الله إليه	رفع قدْره ، وأعْلى منزلته .
وإنْ من أهل الكتاب إلا ليُؤمِننَّ به قبل موته	ليس أحد من اليهود فى زمن عيسى ، إلا يؤمِنُ به قبل أن تخرجَ روحُه من جسده .

قال جماعة من اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقاً فأتِنا بكتاب من السماء ينزل جملة ، محرّراً بخط سماوى ، على ألواح كما كانت التوراة ، نعاينه حين نزوله. فأنزل الله : « يسألك أهل الكتاب . . . » ، إلى آخر الآية .

مجمل المعنى

١ — يطلب منك اليهود يا محمد ، أن تسأل ربك أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء ، ليكون آية يَعجز جميع الخلق أن يأتوا بمثلها ، وشاهدةً على رسالتك ، ودالّةً على نبوّتك . فلا يعظُمَنّ عليك سؤالهم . فإنهم من جراءتهم على الله ، واغترارهم بحلمه ، سأل أسلافهم موسى أكبر من ذلك . فقالوا له : أرِنا اللهَ عِياناً ، بحيث نُعاينه وننظر إليه . فأخذتهم الصاعقةُ بسبب ظلمهم ، وطلبهم ما يستحيل وقوعه . فاضطربوا وأُغمِىَ عليهم ، من شدة ما رأوه من هولها ، وما سمعوه من صوتها . فلما أفاقوا من غشيتهمْ ، أعلنوا توبتهم . لكنهم لما ذهب موسى لمُناجاة ربّه ، لم يتّعظوا بما أصابهم ، بل عبدوا العجل ، واتخذوه إلهاً من دون خالقهم ، الذى أراهم من قدرته وشدة بطشه ما أراهم ، مقلدين فى ذلك المصريين الذين يعبدون العجل (أبيس)

من بعد ما جاءتهم الأدلة البيِّنة على صدق موسى . التى أظهرها لفرعون وقَوْمِه . من العَصا واليد البيضاء ، وفَلْق البحر الأحمر لهم ليَعْبُرُوه . فصفحنا عما أتَوْه بعد توبتهم ، وآتينا موسى سلطاناً بيِّناً ، بأن نصرناه وقوَّيْناه على قومه ، على الرغم من عنادهم ولجاجهم ، ومن هذا يتضح أن عِرْق اليهود الدَّسَّاس راسخ فى العناد والكفر ، وأن جحودهم صنائعَ المعروف طبيعىَّ فيهم . وما اقترحوه عليك يا محمد ، ليس بأول اقتراح لهم .

٢ - ولما امتنعوا عن قبول شريعة التوراة التى سألوا موسى أن يأتيهم بها . وأخذ عليهم الميثاقَ أن يعملوا بأحكامها ، رفع الله عليهم الطُّور - وهو الجبلُ المعروف بطور سَيْناء - فصار فوقهم كأنه ظُلَّةٌ ، ليخافوا فلا ينقُضُوا الميثاق . فلما رأوا الخطر مُحْدِقاً بهم ، أعلنوا عدولهم عن نقْض الميثاق . ثم أمرهم الله على لسان موسى عليه السلام أن يدخلوا بيت المقدِس من باب عيَّنَه لهم ، بعد انقضاء مدة التِّيه ، متطامنين خاشعين ، فصاروا يسخَرُون ويستهزئون عند دخولهم ، ويحرِّفون الكلمة التى ألقاها إليهم ، ثم أمرهم الله على لسان داود عليه السلام ، ألا يتجاوزوا ما أباحه الله لهم ، فلا يصطادوا الحيتان يوم السبت يوم راحتهم ، ليختبر مقدار طاعتهم ، فاحتالوا للاصطياد بحبس الحيتان ، ليصطادوها فى غير يوم السبت ، وأخذ الله منهم عهداً وثيقاً مؤكداً على السمع والطاعة أن يأتمروا بأوامره ، ويجتنبوا نواهيَه ، ولكنهم لم يفعلوا (تراجع الصفحات ٤٥-٥٦ من تفسير الجزء الأول) .

٣ - فبسبب مخالفتهم الميثاق الذى تعهدوا بإنفاذه ونقضوه ، وكُفْرِهم بالأدلة القاطعة على صدق أنبيائه ، وقتلهم الأنبياء بغير حق كما فعلوا مع زكريا ويحيى ، وقولهم لك يا محمد : قلوبُنا مغشَّاةٌ بأغطية خِلقيَّة ، فهى لا تعى

شيئاً مما تقول. أو هي في أكنَّة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وَقْر. ومن بيننا وبينك حجاب. وليست هي كما يزعمون. ولكنهم لعنادهم، واستكبارهم عن الإذعان للحق. ختم الله على قلوبهم فحجبها عن التوفيق والتدبُّر في آيات الله. فهي كما قال الله عنها: «أفلا يتدبَّرون القرآن. أم على قلوب أقفالها»؟ فلا يؤمن إلا عدد قليل منهم. كعبد الله بن سلام وأصحابه. وبسبب كفرهم بعيسى عليه السلام، ورميهم أمَّهُ مريم بنت عمران بأقبح ما تُرمى به امرأة وهو الزنى. وزعْمِهم أنهم قتلوا عيسى؛ بسبب كل أولئك مما بيَّناه وفصلناه. استحقوا غضب الله ولعنته.

٤ — ولقد كانوا كاذبين في افتخارهم، وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم صَلْباً. وما قتلوه وما صلبوه، ولكن التبس عليهم الأمرُ فيه. فقد كان له تلميذٌ خائن من تلاميذه، وهو يهوذا الأسخَرْيوطي. فتآمر مع كهنة اليهود على أن يدلهم على عيسى. في نظير أجر زهيد يدفعونه إليه. وكان يهوذا يُشبه عيسى شبهاً كبيراً. بحيث لا يشكُّ من رآه أنه عيسى. فأُخِذ وصلب. حينما ظهر لهم على زعم أنه عيسى. والمكر السيء لا يحيق إلا بأهله. ونجا عيسى من شرِّ اليهود؛ ووقوع الشبه بين اثنين معروفٌ مألوف. يدل على هذا أنه لما وقعت حادثة الصَّلب والقتل. اختلَفَ اليهود أنفسهم فيمن صُلب وقُتل. وساور بعضهم الشكُّ في المصلوب. فقالوا: إن كان عيسى هو الذي صُلب فأين يهوذا؟ وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى. ولكنَّ الجسم جسم يهوذا. وعلى كل حال. فلم يكن لدى اليهود يقين باتٌّ في مصير عيسى. وإنما كانوا يتبعون الظن الذي تخيَّلوه، وهو أن المصلوب عيسى. والحقيقة التي لا امراء فيها أنهم لم يصلُبوا عيسى ولم يقتلوه، بل رفع اللهُ قدره، وأعلى منزلته، ونجَّاه من كَيْد

اليهود ، فلم تمتد يد السوء إليه . واستوفى أجله الذى قدَّره الله له ، وعصمه من أعدائه ، ومات كما يموتُ غيرُه من الناس ، أما القول بصلْبه ، ووضْع اليهود إكليلا من الشَّوك على رأسه ، وبَصْقِهم فى وجهه ، فإنا نبرأ إلى الله منه ، وكان الله عزيزاً لا يُغالَب فيما يريده ، حكيما فى جميع أفعاله ، ومعنى المسيح فى اللغة العبرية : المبارَك ، ومعنى مريم : العابدة .

٥ — وليس أحد من اليهود المعاصرين لعيسى ، إلا ليؤمننَّ بأن عيسى عبدُ الله ورسوله ، قبل أن تفارق روحُه جسده ، لاعتقادهم بما رأوْا من معجزاته الدَّالة على صدقه ، أنه نبى مرسل من عند الله إليهم ، لكن لا ينفعهم إيمانهم ، ويوم القيامة يكون عيسى شهيداً على اليهود ، فيكذبهم فى ادِّعائهم أنهم صلبوه ، ويكذِّب النصارى فى ادعائهم أنه ابن الله .

(٣)

من الآية ١٦٠ إلى الآية ١٦٢ من سورة النساء

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا ، حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا ، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا —١— لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ، وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فبظلم من الذين هادوا	فبسبب ظلم وقع من اليهود .
وبصدهم عن سبيل الله	وبسبب صرفهم ومنعهم الناس عن الطريق الحق .
أعتدْنا	أعددنا وهيأنا .
الراسخون فى العلم	المتمكنون الثابتون .

مجمل المعنى

١ — فبسبب ظلم وقع من اليهود ، حيث كفروا وعبدوا العجل ، وأسرفوا فى ارتكاب المعاصى ، وبسبب صرفهم الناس عن الطريق القويم الموصّل إلى معرفة الحق ، وبسبب أخذهم الرِّبا وقد نُهوا عنه فى التوراة، وبسبب أكلهم أموالَ الناس بالباطل كالرِّشوة ونحوها — بسبب هذا كله. حرمنا عليهم طيبات من الرزق كانت حلالا لهم، كلحوم الإبل ، وكل شحم غير مختلط بعظم أو على عظم ، وكالثَّرْبِ : وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكَرِش أو الأمعاء، وأعددنا للمُصِرِّين على الكفر منهم عذاباً مؤلماً وجيعاً ، سيذوقونه فى الآخرة ، كما ذاقوا ألم الحرمان فى الدّنيا ؛ ومن العجيب أن اليهود على الرغم من أن الله نهاهم عن الرِّبا فى التوراة ، يُسرفون فى التعامل به، ضاربين بنصوص التّوراة الصحيحة عُرض الحائط. وهم فيما بينهم يحرمونه على أنفسهم ، أما مع غيرهم فلا يتورَّعُون عن امتصاص دمه ، وخراب بيته ، لا تأخذهم فيه رحمة ولا شفقة .

٢ — لكن الراسخون فى العلم منهم ، العارفون بأحكام الله التى جاءت بها أنبياؤه ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، يَنْأَون عن متابعة اليهود فى أوزارهم، لأنّهم يعلمون أنهم حَرَّفوا التوراة، ودَسُّوا فيها ما ليس منها، وكذلك المؤمنون الذين يصدقون بما أنزل عليك من القرآن ، وما أنزل من قبلك ، من الكتب التى أنزلت على الأنبياء قبلك ، كالمهاجرين والأنصار ، لأنهم عرفوا أنك رسول الله حقاً، وأن اتّباعك واجب ، والذين يؤدّون الصلاة حق الأداء ، والذين يعطون الزكاة ، ولا يقصرون فى إعطائها ، والذين يصدّقون بالله ، وبالبَعْثِ والحساب بعد الممات ، لا يعترضهم

شكٌ ، ولا تُزلزلهم شبهة ، أولئك سيعطيهم الله جزاء جزيلا على ما كان منهم من طاعة الله .

ونصبت كلمة « المقيمين » على المدح ، وخُصَّتْ به لأن الصلاة عماد الدين ، وهى أشرف الطاعات . ولهذا نظائر فى كلام العرب من ذلك قول خرنَق بنت عفّان من بنى قيس ، تصف قومها بالظهور على العدو ، ونحر الجُزُر للأضياف ، وملازمة الحرب ، والعفة عن الفواحش :

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين همُ ... سُمُّ العداة وآفة الجُزُرْ
النازلين بكل معترك ... والطيِّبون معاقد الأزْرْ

فكلمة النازلين : صفة ثانية لقومى ، الواقعة فاعلا ، نصبت على المدح .

(٤)

من الآية ١٦٣ إلى الآية ١٦٩ من سورة النساء

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَرُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا — ١ — . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا — ٢ — . لٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا — ٣ — . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا — ٤ — . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا . إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا — ٥ — .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
أولاد يعقوب الاثنىْ عشر ، وهم بمثابة القبائل من العرب فى ولد إسماعيل كقريش ، وقد سبق الكلام عنهم فى الجزء الأول ، الصفحة ١٠٢	الأسباط
الكتاب المنزل على داود عليه السلام .	زَبُوراً
مبشرين بالثواب من آمن .	مبشِّرين
منذرين العذاب من كفر .	مُنذِرين

كان اليهود كما قدمنا قد اقترحوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتى لهم بكتاب محرّر بخط سماوى ، على ألواح تنزل جملة ، كما كانت التوراة ، يُعَايِنونه حين نزوله ، فردّ الله عليهم بقوله : « إنا أوحينا إليك . . . »

مجمل المعنى

١ — إن شأن محمد فيما نوحى إليه ، كشأن سائر الأنبياء ، فنحن نوحى إليه كما أوحينا إلى نوح ، وإلى النبيين من بعده ، وكما أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وخص الله هؤلاء الأنبياء بالذكر ، مع أن كلمة « النبيين » تشملهم ، تعظيماً لهم ، وتنويهاً بشأنهم ، فإبراهيم أبو الأنبياء ، وعيسى آخرُهم قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، والباقون أشرفُ الأنبياء وأشهرهم ؛

كما آتينا داود الكتاب المسمّى بالزبور ، وكان إنزاله منجّماً كالقرآن ، فلم يكن القرآن بِدْعاً فى إنزاله منجّماً .

٢ — وأرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من قبلِ إنزالِ هذه السورة ، وأرسلنا رُسُلا لم نقصُصْهم عليك ، وخصَصْنا موسى بأنْ كلّمناه تكليماً ، كما كلّمناك ليلة الإسراء . أرسلنا هؤلاء الرسل ليكونوا مبشرين بالثواب لمَنْ أطاع وآمن ، ومنذرين العذاب الأليم مَنْ عصى وكفر ، لكيلا يكون للناس بَعْدَ إرسالنا الرسلَ إليهم ليبلغوهم دعوتنا حجة ، كأن يقولوا : هلا أرسلْتَ إلينا رسولا فينبّهنا ويبيّن لنا شرائعك . ويعلمناما لم نكن نعلمه ؛ فأرسلنا الرسل لقطع أعذارهم ، وكان الله عزيزاً فى مُلكه ، لا يُغلب فيما يريده ، حكيما فى أمر النبوّة ، وتخصيص كل نبى بالمعجزات التى تلائم قومه .

٣ — ولما سئل اليهود عن نبوة رسول الله ، بعد أن بيّن الله أنه أوحىَ إليه كما أوحى إلى الأنبياء قبله أنكروها ، فنزل قوله تعالى : « لكن الله يشهد . . . » ، والمعنى : إن جحدتم أيها اليهود نبوة محمد وأنكرتموها ، فإن الله يشهد بما أنزله عليك من القرآن المعجز ، الدال على نبوّتك ، وقد أنزله الله عالماً بتأليفه ، على نظم يعجز عنه كل بليغ ، وفيه ما يحتاج إليه الناس فى معاشهم ومعادهم ، والملائكةُ يشهدون بذلك أيضاً ، وعلى رأسهم جبريلُ الذى ينزل عليك بالوحى ، وكفى بالله شهيداً عن الاستشهاد بغيره ، بما أقام من الحجج على نبوّتك .

٤ — إن الذين كفروا بالله ورسوله ، وصرفوا الناس عن سبيل الحق والهدى ، وهو دين الإسلام الذى فيه صلاحهم وخلاصهم من رِبْقَة الكفر ،

بكتمانهم نعت محمد فى التوراة كما فعل اليهود، قد ضلُّوا ضلالا بعيداً، لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال .

٥ — إن الذين كفروا وظلموا محمداً صلى الله عليه وسلم ، بإنكار نبوّته ، وجحود رسالته، لم يكن الله ليغفر لهم ما اجترحوا من السيّئات، ولا ليهديهم طريقاً إلاّ الطريق المؤدّى إلى جهنم. يخلّدون فيها أبداً. وكان ذلك على الله هيّناً سهلا ، لا يعسُر عليه تنفيذه .

(٥)

من الآية ١٧٠ إلى الآية ١٧٣ من سورة النساء

يا أيها النَّاسُ ، قَدْ جاءكُمُ الرَّسُولُ بِالحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ، وكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً — ١ — . يا أَهْلَ الكِتابِ ، لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ ، إنَّما المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ، أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَلاَ تَقُولُوا : ثَلاثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إنَّما اللهُ إلٰهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوات وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً — ٢ — . لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ، وَلاَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ ، فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذابًا أَلِيمًا ، وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا — ٣ — .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فآمنوا خيراً لكم	فآمنوا يكن إيمانكم خيراً لكم .
يأهل الكتاب	يأهل الإنجيل — وهم النصارى .
لا تغلوا فى دينكم	لا تتجاوزوا الحد فى دينكم .
وكلمتُه	وبشارتُه .
رُوحٌ منه	وبَثٌّ فيه الحياة بروح أودعها اللهُ جسده من عنده .
ولا تقولوا ثلاثةٌ	ولا تقولوا : الآلهة ثلاثة ، أو الله مكون من ثلاثة أقانيم : الأب والابن والرُّوح القُدُس .
انتهوا خيراً لكم	ارجعوا عن عقيدة التثليث يكن رجوعكم خيراً لكم .
سبحانه أن يكون له ولد	أسبح الله تسبيحاً . وأنزهه تنزيهاً ، أن يكون له ولد .
يستنكف	يأنف ويتكبر .
الملائكة المقربون	حملة عرش المولى جل وعلا ، وجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل .

مجمل المعنى

١ — يأيها الناس كافةً ، قد جاءكم رسولُنا محمد بالدين الحق ، من الإله الذى تَعنُو لربوبيته الجباه ، فآمنوا يكن إيمانكم خيراً لكم مما أنتم عليه ، وإن تكفروا فإن الله غنىٌّ عنكم ، لا يضرّه كفركم ، ولا ينفعه إيمانكم ، فكل ما فى السموات والأرض مِلْكٌ له ، لا يشاركه فيه غيره ، وأنتم من جملة

عبيده . ومن كان هذا شأنه ، فهو قادر على تعذيبكم على كفركم ، وكان الله عليماً بخلقه ، يعلم سرّهم ونجواهم ، حكيماً فى صنعه وتدبيره .

٢ — يأيها النصارى ، لا تتجاوزوا الحد فى تقدير عيسى ، ولا تُفْرِطوا فى رفع شأنه إلى درجة اتخاذه إلهاً لكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، وهو تنزيهُهُ عن الشريك والولد ، فليس المسيح عيسى ابن مريم إلا رسولا من عند الله كسائر الرسل ، مكوَّناً بكلمته ، وهو إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون ، وببشارةٍ أوصلها على لسان جبريل إلى مريم — وهو معنى قوله : «إن الله يبشرك بكلمةٍ منه» — وبثَّ فيه الحياة بروح منه ، أودعه إياها كسائر البشر ، بأن أفاض عليه ما يحيا به من الرُّوح التى هى من أمرِ الله ومشيئته ، فآمنوا بالله الواحد الأحد ، الفَرْد الصمد ، وبرسله ، ولا تقولوا : إن عيسى ثالث ثلاثة : الأب والابن والروح القُدُس ، ارجعوا عن هذه العقيدة ، يكن رجوعكم عنها خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، منزَّه عن أن يكون له ولد ، إذ لو كان له ولد لكان له من يُماثله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ، وكل ما فى السموات وما فى الأرض ملك وعبيد له ، وعيسى من جملة ما فى السموات وما فى الأرض ، فهو عبد من عبيده ، وكفى بالله حافظاً ، وإذا كان مستقلاً بالحفظ ، فهو غير محتاج إلى من يُعينه أو يقوم مقامه .

٣ — قدم وفد من نصارى نَجران باليمن ، على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له : أتعيبُ صاحبنا ؟ فقال لهم : ومن صاحبكم ؟ قالوا : عيسى ، قال : وبأى شىء عِبْتُه ؟ قالوا : تقول : إنه عبد الله ورسوله ، فقال : إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله ، ونزل قوله تعالى : «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله» ، والمعنى : لن يأنف المسيح أو يتعاظم أو يترفع أن يكون

عبداً لله ، مستمراً على طاعته وعبادته ، فإن أول كلمة جرى بها لسانه وهو طفل : إني عبد الله . كما لا يستنكف الملائكة المقربون من الله سبحانه وتعالى أن يكونوا عبيداً لله ، فإذا كان تشريف عيسى أنه خُلق من غير أب ، فالملائكةُ خُلقوا من غير أبٍ ولا أم ، ومن يستنكف عن عبادة الله ، ويستكبر عن طاعته وطاعة رسله ، فقد أعد الله لهم عذاباً أليماً ، يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وخشعوا وتواضعوا ، وعبدوا الله حق عبادته ، فإنه يوفيهم ثواب أعمالهم ، ويضاعف حسناتهم أضعافاً مضاعفة ، وأما الذين استنكفوا عن عبادته واستكبروا ، فيعذبهم عذاباً لا يحيط به وصف ، ولا يجدون لهم من غير الله وليًّا يدفع عنهم عذابه ، ولا نصيراً يحميهم من عقابه .

(٦)

من الآية ١٧٤ إلى الآية ١٧٦ من سورة النساء

يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً —١—. يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ: إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ، فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ —٢—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
برهان	حجّة ودليل — وهو بعث الرسول عليه الصلاة والسلام .
نوراً مبيناً	نوراً لديننا — وهو القرآن الكريم .
اعتصموا به	لجئوا إلى الله فى أن يعصمهم من زَيْغ الشيطان .
فَضْل	إحسان .

الألفاظ	شرحها
يهديهم إليه صراطاً مستقيماً	يهديهم الصراط المستقيم الموصل إليه .
الكَلاَلة	من لا والد له ولا ولد .
أخت	أخت شقيقة أو لأب .
وهو يرثها إن لم يكن لها ولد	والأخ يرث جميع ما تركته أخته . إن لم يكن لها ولد .
فإن كانتا اثنتين	فإن كانت الأختان اثنتين فصاعداً .
يبيِّن الله لكم أن تضلوا	يبيّن لكم حكم الكَلاَلة . خشية أن تضِلوا .

مجمل المعنى

١ — يأيها المكلفون كافة ، قد جاءكم دليل وبرهان على أن الدين عند الله الإسلام ، وهو إرسالنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، لكيلا يكون لكم حجة إن ادّعيتم أنكم لم تبلّغوا الدعوة إلى هذا الدين ، فلا عذر لكم إن بقيتم على كفركم ، وأنزلنا إليكم كتاباً بيّناً واضحاً ، يشتمل على ما ينفعكم فى دنياكم وأخراكم ، فأما الذين آمنوا بالله ، ولجئوا إليه فى أن يُثَبّتهم على الإيمان ، ويصونهم من زيغ الشيطان . فسينالون من الثواب بقدر إيمانهم وعملهم ، رحمة منه وإحساناً ، ويهديهم الصراط المستقيم الموصّل إليه ، وهو الدّين الحقّ .

٢ — مرض جابر بن عبد الله ، فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له جابر : إنى كلالة ، فكيف أصنع فى مالى ؟ فنزل قوله تعالى : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة . . . » ، وهى آخر آية نزلت فى الأحكام

والمعنى : يسألونك أن تفتيهم فيمن مات وليس له والد ولا ولد . فقل لهم : الله يُفتيكم فيها . فإن مات امرؤ وليس له والد ولا ولد ، وله أخت شقيقة أو أخت لأب ، فلها نصف ما ترك المتوفى من الميراث . وأخوها يرث جميع ما تركته الأخت إن لم يكن لها ولد ، ذكراً كان أو أنثى . فإن كان لها ولد ذكر ، حجب أخاها ، وإن كان لها ولد أنثى ، أخذت نصيبها ، وأخذ أخو المتوفاة ما بقى بعد نصيب البنت ، أما الأخ والأخت لأم ، فقد تقدم الكلام عن كل منهما فى الصفحة ١٠٣ من تفسير الجزء الرابع . عند شرح قوله تعالى : « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت ، فلكل واحد منهما السُّدس » ، هذا إذا لم يكن للمتوفى أب . فإن كان له أب حجب الإخوة والأخوات ، فإن كان للمتوفى أختان أو أكثر ، فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كان الورثة إخوة رجالا ونساء ، فللذكر منهم مثل نصيب الأنثيين ؛ يبيّن الله لكم أحكام دينكم فى الكلالة ، كراهةَ أن تضلوا ، والله عليم علماً شاملا بما فيه مصلحتكم ومنفعتكم .

سورة المائدة

نزلت بالمدينة ، ما عدا آية : يسألونك ماذا أحل لهم ، فقد نزلت بعرفات ،
وآياتها مائة وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

(١)

من الآية الأولى إلى الآية الثانية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ
إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ، غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ
مَا يُرِيدُ — ١ — . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ، وَلَا الشَّهْرَ
الْحَرَامَ ، وَلَا الْهَدْيَ ، وَلَا الْقَلَائِدَ ، وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا — ٢ — .
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
أَنْ تَعْتَدُوا — ٣ — . وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ — ٤ — .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
العهود المؤكّدة بينكم وبين أنفسكم أو غيركم ، شفهية أو مكتوبة .	العُقود
البهيمة : كل حي لا يميِّز ، والأنعام : الإبل والبقر والغنم .	بهيمةُ الأنعام
إلا ما يتلى عليكم تحريمُه فى آية : حرمت عليكم الميْتَة . . .	إلا ما يُتلى عليكم
حال كونكم لا تُحلُّون الصيد وأنتم مُحْرِمون .	غير محلى الصيد وأنتم حُرُم
لا تستحلوا كلَّ ما جُعِلَ عَلَماً على الطّاعة فى الحج فتتركوه .	لا تُحِلُّوا شعائر الله
ولا تُحلوا القتال أو السَّبيَ فى الشهر الحرام .	ولا الشهرَ الحرامَ
ولا تُحلوا التعرض إلى ما أُهدِي إلى الحرَم من الأنعام ليُذبح .	ولا الهَدْيَ
ولا تُحلوا ما يقلَّد به الهدى من نعل ، أو حبل ، أو قشر شجر ؛ ليُعرَف به	ولا القلائد
ولا تُحلوا أفعال من يقصد البيت الحرام من المشركين للتجارة .	ولا آمِّين البيت الحرام
وإذا تحللتم من الإحرام .	وإذا حللتم
ولا يحملنكم بُغْضُ قوم .	ولا يجرمنكم شنآنُ قوم

الألفاظ	شرحها
أن صدوكم عن المسجد الحرام	أن منعوكم دخول المسجد الحرام عام الحُدَيْبية .
على البر والتقوى	على التوسع فى الخير ، واتقاء ما يضر فى الدين والدنيا .
على الإثم والعدوان	على المعصية ، وتجاوز حدود الله .

مجمل المعنى

١ — يأيها الذين أقَرُّوا بوحدانية الله ، وصدقوا رسوله فيما جاء به من شرائع الدِّين ، أوفوا بالعهود التى عاهدتموها ، وأوجبتم على أنفسكم أن تلتزموها ، وأتمُّوا ما تعاقدتم عليه وافياً كاملا ، ولا تنكثوا بنقضه بعد توكيده ، وهذه العقود :

(ا) إما أن تكون بين الخالق جلَّ شأنه وبين العبد ، كالأحكام التى شرعها الله للمكلَّفين .

(ب) وإما أن تكون بين العبد وبين نفسه ، كعقد اليمين على فعل شىء مُباح .

(ح) وإما أن تكون بين الإنسان وبين غيره ، كعَقد الزواج والشركة .

وتشمل العقود : (١) عقدالإيمان ، (٢)وعقدَ الزواج ، (٣) وعقدَ الشركة ، (٤) وعقد اليمين ، (٥) وعقد البيع والشراء ، (٦) وعقد العهد ، (٧) وعقد الوصية ، (٨) وعقد الإجارة . وهذه العقود على أنواع :

(ا) ما يجب الوفاء به ، كالنذور المتعلقة بالقُربى إلى الله سبحانه وتعالى ، كأن يقول إنسان : لله علىَّ نذر إن عافانى الله أن أصوم أسبوعاً .

(ب) ما يستحب الوفاء به ويجوز تركُه ، كمن حلف على شيء مباح ، فله أن يكفِّر عنه ولا يفعله ، وله أن يفعله .

(ح) ما يستحب عدم الوفاء به ، كمن حلف على شيء ، ثم رأى غيره خيراً منه ، فيستحب الإتيان بما هو خير ، والتكفير عن اليمين .

(د) ما يجب ترك الوفاء به ، كمن حلَف أن يرتكب معصية .

وأساس العقود فى الإسلام : أنه يجب على كل مؤمن أن يفى بما عقده وارتبط به ، ما لم يكن هناك مانع .

ثم أخذ الله يفصِّل بعض هذه العقود ، فبيَّن أنه أحل للمؤمنين بهائم الأنعام من الإبل والبقر والغنم ، مستأنسها ووحشيِّها ، إلا ما يتلى عليهم ، فى قوله : « حرمت عليكم الميتة والدم . . . » ، على أنه لا يجوز لهم الاصطياد أو الأكل مما اصطادوه وما اصطيد لهم ، مما يُشبه هذه الأصناف التى أحلها الله ، كالظِّباء وبقر الوحش ، وهم مُحْرِمون بالحج أو العمرة أو كليهما ، فلا يجوز الصيد لمن كان فى أرض الحرَم ، ولو لم يكن مُحرماً ، ولا الصيد للمحرم بالحج أو العمرة ، ولو كان خارج حدود الحرَم ، وحكم الله فيما يحلِّل ويحرِّم يجب إنفاذه ، ولا معقِّب لما أراد .

٢ — وقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن الأعمال الآتى بيانها :

(ا) أن يتعدَّوا حدود الله فى أمر من أمور مناسك الحج ، فلا يجوز أن يجعلوا هذه الشعائر : كالوقوف بعرفة ، والطَّواف ، والسعْىِ ، ورمى الجِمار ، حلالا لهم ، يتصرَّفون فيها كما يشاءون ، بل يجب أن يقوموا بها ، ويتقيدوا بآدابها ، على حسب ما بيَّنه لهم الشرع .

(ب) وأن يُحلوا أى شهر من الأشهر الحُرُم التى حرَّم الله القتال فيها ، فيُجيزوا لأنفسهم قتال المشركين فيها .

(ﺣ) وأن يُحلوا لأنفسهم الهَدْى الذى يهْدَى إلى الكعبة من الأنعام تقرباً إلى الله، للتوسعة على المقيمين بالحرم، بأن يحولوا دون وصوله إلى بيت الله، أو يأخذوه اغتصاباً، أو سرقة، أو يساعدوا على حبسه عند من أخذه.

(ﺀ) وأن يُحلوا التعرض للقلائد التى توضع فى أعناق الإبل، من حبل، أو نعل خَلَق، أو لِحاء شجر من شجر الحرم، للدَّلالة على أنها من الهَدْى، فلا يتعرَّض لها أحد، ولا تُنزَع منها قلائدها.

(ﻫ) وأن يحلوا منع المشركين الذين يقصدون البيت الحرام للتعبّد، وابتغاء رضوان الله، أو لالتماس الأرباح فى التجارة، بل يؤمّنُوهم على أنفسهم وأموالهم.

فإذا خرجتم أيها المؤمنون من إحرامكم أو من أرض الحرَم، فاصطادوا إن شئتم، فإن التحريم مقصور على أرض الحرَم، وبعضُ هذه الأمور التى سبق بيانها قد نسخه ما تقدم فى قوله تعالى: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل: قتال فيه كبير...»: (تراجع الصفحتان ٩٥ و٩٦ من تفسير الجزء الثانى، فى الفقرتين ٨ و٩)، ونسخه أيضا ماسيأتى فى سورة التوبة فى قوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم»، وقوله: «فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا»، وبهذا لا يمكّن المشرك من الحج، ولا يؤمّن فى الأشهر الحرام، وإن أهْدَى وقلّد وحجّ، وإذا كانت هذه الآية قد نزلت بعد فتح مكة، وبعد أن بسط المسلمون سلطانهم على البيت الحرام، فأحكامها عامة، تشمل ما يمكن أن يحدث فى أى زمان.

٣ — وكان المشركون قد صدّوا المسلمين سنة ست للهجرة عن دخول مكة ، وزيارةِ المسجد الحرام ، والطوافِ به للعُمْرة ، عام الحديبية — كما تقدم فى صفحة ٩٠ من تفسير الجزء الأول ، فنهى الله المسلمين عن مقابلة عدوان المشركين بمثله ، بعد أن تغلّبوا عليهم ، والمعنى : لا يحملنكم بُغْضُ قوم ، وتعدّيهم عليكم ، فى صدّكم عن زيارة المسجد الحرام ، على أن تقابلوا عُدْوانهم بمثله .

٤ — وتعاونوا على التوسع فى فعل الخير ، وجميع أنواع الطاعات ، واتّقاء كل ما يضرّكم فى دينكم ودنياكم ، وقد بيّنّا صنوفاً من البرّ عند تفسير قوله تعالى : «ليس البرَّ أن تُولّوا وجوهكم ...» ، فتراجع فى الصفحات من ٣٣ — ٣٦ من تفسير الجزء الثانى ، ولا تتعاونوا على المعاصى ومجاوزة حدود الله ، واتقوا الله ، واخشوا عقابه وبطشه ، إنه شديد العقاب ، عزيز ذو انتقام .

(٢)

من الآية الثالثة إلى الآية الخامسة من سورة المائدة

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ، وَالدَّمُ ، وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ ، وَالْمَوْقُوذَةُ ، وَالْمُتَرَدِّيَةُ ، وَالنَّطِيحَةُ ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ، وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ — ١ — . وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ — ٢ — . الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ، فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا — ٣ — . فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ — ٤ — . يَسْأَلُونَكَ : مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ؟ قُلْ : أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ، وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ، تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ — ٥ — . وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ — ٦ — . وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ — ٧ — . الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، مُحْصِنِينَ غَيْرَ

مُسَافِحِينَ ، وَلَا مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ، وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ذكّيتُم	أدركتُم ذبحه ، وفيه حياة مستقرّة ، تجعلُه يضطرب اضطراب المذبوح .
وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق	معرفة ما قسمَ الله لكم من أمور الغيب بالاستعانة بالقِداح . خروجٌ عن طاعة الله
اليوم يئس الذين كفروا من دينكم	الآن فى الوقت الحاضر . يئس الكفّار من إبطال دينكم .
أتممت عليكم نعمتى	أتممت عليكم الهداية والتوفيق .
مَخْمَصة	مجاعة يتعرض الإنسان بسببها للموت .
غير مُتجانِف لإثم	غير منحرف لمعصية ، بأن يأكل المحرّم تلذُّذاً ، كما يفعل بعض أكلة لحم الخنزير من المسلمين .
الطيبات	ما لا تنفِر من أكله الطباعُ السليمة .
الجوارح	التى تكسب الصيد لأصحابها ، من الكلاب والسباع والطّير ، جمع جارحة ، من جرَح إذا كسَب ، قال تعالى : « ويعلم ما جرَحتم بالنهار » : أى كسبتم .

الألفاظ	شرحها
مكلِّبين	معلِّمين ، ومدرِّبين إيّاها على الصيد .
فكلوا مما أمسكن عليكم	فكلوا من الصيد الذى لم تأكل منه الجوارح . بل أمسكَتْه على صاحبها .
واذكروا اسم الله عليه	اذكروا اسم الله عند إطلاق ما درَّبْتموه من الجوارح على الصيد .
وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم	وذبائح اليهود والنصارى حلال لكم .
والمحصَنَات من المؤمنات	والحرائر العفائف المؤمنات .
أجورَهن	مهورهن
مُحْصِنين	متزوِّجين بهن .
غير مسافحين	غير مجاهرين بالزنى .
ولا مُتَّخِذِى أخدان	ولا متخذين إياهن خليلاتٍ ، تزنون بهن سرًّا .
بالإيمان	بشرائع الله وأحكامه .
حَبِط عمله	سقط ثوابُ عملِه .

مجمل المعنى

١ — هذا بيان لما سبق فى قوله : « إلا ما يتلى عليكم » . وإيضاح للأصناف التى حرَّمها الله على المؤمنين وهى :

(ا) لحم الميْتَة — ما عدا السمك والجراد — وهى التى تموت من غير ذبح شرعىّ ، وذلك لاستقذارها ، فتنبو عنها الطباع السليمة ، ولأنها ربما ماتت من جراء مرض مُعْدٍ ، تنتقل عدواه إلى الإنسان ، أو من عارض لا يُؤمَن ضرره .

(ب) الدم المسفوح : وهو الدم الذى ينزل من حيوان بشَقّ عرق فيه ، فيؤخذ الدم وتملأ به المُصران — جمع مصير — ويُشوَى ويؤكل . وقد حرّمه الله : لأن الدم مسرحُ الجراثيم ، وقد يكون فيه من الجراثيم ما لا تميته حرارةُ النار . فتنتقل العدوى من الحيوان المريض إلى الإنسان السليم ، ولأنه عَسِر الهضم . ويستثنى مما تكوّن من الدم : الكبد والطحال .

(ح) لحم الخنزير : لقذارته . فإن أشهى غذاء له القاذورات والنجاسات ، وأكل لحمه يسبب الديدان الشريطية ، كالدودة الوحيدة . وهى دودة قتّالة فتاكة . ودودة أخرى يسميها الأطباء : الشعرة الحلزونية ، هذا إلى أن لحمه أعسر اللحوم هضماً ، لكثرة ما يختلط به من الشّحم . وقد أخبرنا أحد الأفاضل أن لحم الخنزير موبوء بطفيليّات تخترق الأمعاء ، وتصل إلى العضلات . فتتكاثر وينشأ عنها مرض خطير . يبدأ باضطراب فى المعدة . وطفح على الجلد . ثم يتطور إلى ألم فى الأطراف . وصُداع وأرَق . ويقال : إن ١٢ ٪ من سكان الولايات المتحدة يصابون بهذا المرض . وإن نسبة الوفيَات فى المصابين تبلغ أحياناً ٣٠ ٪

(د) وما نودى عليه باسم غير اسم الله عند ذبحه . كما يفعل المجوس وعبّاد الأوثان ، فهم ينادون باسم ما يعبدونه عند الذبح ، وكما يقوله بعض العوام حين يذبحون حيواناً لأحد الأولياء . فيقولون مثلا : يا سيد يا بدوى ، إذا كان هو المنذور له ، يرجون أن يتقبل منهم نذرهم ، ويقضى حاجتهم ، ولا يذكرون اسم الله . فأكل لحمه محرّم . لأنهم ذكروا اسم غير الله ، والله واهب النعم ، وهو الذى أحل لهم هذا الحيوان ، وسخره لهم .

(وقد سبق ذكر هذه الأصناف الأربعة ، فى الصفحة ٢٧ من تفسير الجزء الثانى)

(هـ) والمنخنقة : وهى التى ماتت بالخنق ، بأن تُدخِل رأسها بين شعبتين من شجرة ، أو فى موضع لا تستطيع التخلّص منه ، فتموت ، أو تختنق بحبل الصائد ، أو بحبل من يُوثِقها ، وهى فى حكم الميتة ، وكان بعض العرب فى الجاهلية يأكلونها .

(و) والموقوذة : وهى التى تُضرَب بعصاً أو بحجر أو بحديدة ، حتى تنحلّ قوتها فتموت ، وكان العرب يأكلونها فى الجاهلية ؛ وحرّمها الله لأنها كالميتة ، ولأن القتل على هذه الصورة محرّم فى الإسلام ، إذ فيه تعذيب للحيوان .

(ز) والمتردِّيَة : وهى التى سقطت من عُلْو إلى سُفل ، أو تردّت فى بئر فماتت ، وتدخل فى حكم الميتة ، لاحتباس دمها فيها ، وقد يكون فيه من الجراثيم ما يُعرّض الآكل من لحمها إلى التلف .

(ح) والنَّطِيحةُ : وهى المنطوحة التى نطحتها أخرى ، فماتت من النطح ، من غير أن يكون للإنسان عمل فى إماتتها .

(ط) وما قتلته بعض سباع الوحوش ، كالأسد أو الذئب ، سواء أأكل منه الوحش أم لم يأكل ، وهو فى حكم الميتة ، وكان العرب فى الجاهلية يأكلون مما افترسته الوحوش ، مع أن الطّباع السليمة تنفر منه ؛ ويستثنى من المنخنقة وما بعدها : ما أُدْرِك وفيه الروح ، وبقيّة رمق ، فإن كان فيه عينٌ تطرف ، أو ذنَب يتحرّك ، أو رِجْل تركُض ، فذُبح ذبحاً شرعياً ، بقطع الحلقوم والمرىء بأداة حادّة ، وانفجر دمه ، حلّ أكل لحمه .

(ى) وما ذُبح على النُّصُب ، والنصبُ : أحجار كانت منصوبةٌ حول

الكعبة ، يذبح عليها كفار مكة ، قُربة إلى أصنامهم . وهو من جنس ما أُهِلَّ به لغير الله عند ذبحه . وقد يكون بعيداً عن الأصنام ، أما ما ذبح على النُّصب . فلابد أن يذبح على تلك الأحجار ، قربة للأصنام ، وينشر لحمه عليها .

٢ — هذه محرمات عشرة ، خاصة بالطعام ، وكان لأهل الجاهلية خرافات حرّمها الله على المؤمنين . وهي الاستقسام بالأزلام . والاستقسام : طلب الإنسان معرفة ما قسمه الله له من أمور الغيب ، التي اختص بها وحده . والأزلام : جمع زَلَم . وهي قطع من الخشب على هيئة السّهم الذي لا ريش له ولا نَصْل ، تسمى قِداحاً ، وهي ثلاثة : قِدْح مكتوب عليه : أمرني ربي ، وقدح مكتوب عليه : نهاني ربي ، وثالث غُفْل لا شيء عليه ، فإذا أراد الجاهلي أن يلي أمراً عظيماً : كسفر ، أو غزو ، أو زواج ، ذهب إلى الكاهن ، واستقسم بالأزلام التي تكون موضوعة في جراب ، فإن خرَج له : أمرني ربي ، مضى لسبيله ، وأنفذ ما عزم عليه ، وإن خرج : نهاني ربي ، أمسك عما عزم عليه ، وإن خرج الغُفل أجال القداح ، حتى يخرج له الآمر أو الناهي ؛ وقد بيّن الله أن الاستقسام بالأزلام خروج عن طاعة الله ، لأنه طلب لما في علم الغيب وضلال ، للاعتقاد بأن الاستقسام يوصّل إليه .

٣ — اليوم . وهو يوم عرفة ، عام حِجّة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة ، وكان يومَ جمعة ، وكان النبيّ واقفاً على ناقته العَضْباء . وهو اليومُ الذي نزلت فيه هذه الآية ، وقبل وفاة الرسول بواحد وثمانين يوماً — الآن أيها المؤمنون ، يئِس الكفار أن يُبْطلوا دينكم ، وأن يَغلبوكم على أمْرِكم ، كما كانوا يرومون ، وقد بدّل لكم الله بخوفكم أمْناً ، وبضعفكم قوّة ، وبفقركم غِنى ، فلا تخشَوْا أن يَظاهروا عليكم ، فقد صرتم في منعة وبأس ،

واخشونى . فلا تخالفوا أمرى . ولا ترتكبوا من المعاصى ما يعرّضكم لعقابى ؛ اليوم أكْمَلْتُ لكم أحكام دينكم . وكفيتكم كل ما كنتم تخافونه بالنصر والغلَبة . وبيَّنت لكم حدودى وفرائضى . وحلالى وحرامى ، بإنزال ما أنزلت . وبيان ما بيَّنت . وأتممت عليكم نعمتى ، بإبطال مساوئ الجاهلية . وخُلوص البيت الحرام لكم . وإجلاء المشركين عنه . واخترت لكم الإسلام ديناً . وأظهرته على الأديان كلها .

٤ — وأراد الله أن يُتم ما تقدم ذكره فى المطاعم التى حرّمها . فبيّن أنها وإن كانت محرّمة . إلا أنها تحل فى حالة الاضطرار . فللمضطر أن يتناول شيئاً من المحرّمات . على شريطة أن يكون الجوع قد بلغ منه حدًّا تغلب فيه مظِنةُ الهلاك . وأن يكون غير منحرِف لمعصية . وغير متعمِّد ارتكابها . فلا تباح هذه الرُّخصة لمن يأكل فوق ما يُمْسِك رمَقه تلذّذاً . ولا لمَن كان قاطعَ طريق . فإن تناول المُضْطر شيئاً من هذه المحرّمات — غير باغ ولا عاد — فإن الله غفور لا يؤاخذه إذا أكل المحرَّم ، رحيم بعباده . إذ أباح لهم أكل المحرّمات عند الاضطرار .

٥ — كان طبيعيًّا أن يسأل المؤمنون عما أحِلّ لهم من المطاعم . فردّ الله عليهم . بأننا أحللنا لكم كل ما يستطاب . مما لا تنفِر منه الطباع السليمة . وأحللنا لكم ما تصطاده الجوارح التى علّمتموها . وهى التى تتخذ للصيد من كلاب وفهود . وبُزاة وبَواشق . وصُقور وعِقبان . على أن تكونوا قد دربّتموها . وعلّمتموها مما علمكم الله . فتعلمونهن آدابَ الصيد من حِيل : ومن إمساك المصِيد عليكم . وعدَم الأكل منه — ومدرِّبُ الجوارح يسمى «مُكلِّباً» : لأن التدريب أكثر ما يكون فى الكلاب — والمَصِيدُ بالجوارح لا يحلّ إلا إذا كانت مُعلَّمة . وعلامة تعليمها : أنها إذا أرسِلت انطلقت .

وإذا زُجِرت ازجرت ، وإذا أمِرت ائتمرت ، وإذا أريد إبقاؤها لم تفرَّ ، وإذا اصطادت حَبَسَت المصيد على صاحبها ، ولم تأخذ منه شيئاً ، فإذا تكرَّر ذلك منها ثلاث مرات ، صارت معلَّمةً . فإن أرسلها الصائد للصيد ، وذكَرَ اسمَ الله عند إطلاقها ، وصادت شيئاً ، وجرَحَتْه أو قتلته ، وأدركه الصائد ميتاً ، فهو حلال ، ويُعَدُّ جُرح الجوارح كالذَّبح ، على شريطة ألا تأكل مما تصيد . وبهذا تكون قد أمسكت المصيد على صاحبها ، أما إذا أكلت منه ، فأصحُّ الأقوال عندنا أن المصيد لا يحل ، لأن الجوارحَ قد أمسكن المصيدَ على أنفسهن ، لا على الصائد .

٦ — وينبغي عند إرسال الجوارح للصيد ، أن يذكُر الصائدُ اسم الله ، فإن وصل المصيد إلى الصائد قبل أن يُقتل ، ذبحه ، وكرَّر اسم الله عند ذبحه ، وإن وصل إليه مقتولا ، أجزأه ذكر اسم الله عند إرسال الجوارح ، وإن نسي الصائد ذكر اسم الله فلا حَرَج عليه ؛ وصيد السهم والبنادق كصيد المعلَّم من الجوارح ، إذا ذكر الصائد اسم الله عند إطلاق سهمه أو بندقيته .

٧ — واتقوا الله أيها الصائدون ، واحذروا مخالفته في تحليل ما أحلَّه ، وتحريم ما حرَّمه ، إن الله سريع الحساب ، يؤاخذكم بما جلَّ ودق من أموركم .

٨ — ثم ذكر الله أحكاماً أخرى تتناول الذبائح وغيرها ، وتعمُّ اليهود والنصارى ، فبيَّن أنه في يوم عرفة الذي سبقت الإشارة إليه ، أحلَّ للمسلمين ذبائحَ اليهود والنصارى ، إذا كان مما يحل للمسلمين أكل لحمه ، وبهذا يخرج لحم الخنزير ، كما أحل لليهود والنصارى ذبائح المسلمين ، وكذلك أحل للمسلمين زواج الحرائر العفائف من المؤمنات ، كما أحل لهم زواج الحرائر

العفائف من اليهود والنصارى ، إذا أدّوْا إليهن مهورهن . على أن يكون الأزواج من المؤمنين أعِفَّاء ، لا يرتكبون الفاحشة جهراً ، ولا متخذين من هؤلاء الكتابيات خليلات يزنون بهن سرًّا ؛ وفى هذا إشعار بترك الزنى سرًّا وجهراً ، ومن يرتد عن الإيمان ، أو ينكرْ شرائع الإسلام وتكاليفه ، فقد سقط ثواب ما عمله من عمل صالح ، وخاب ، وخسر دنياه وآخرته .

(٣)

من الآية السادسة إلى الآية السابعة من سورة المائدة

يـٰأيها الذين آمنوا، إذا قمتم إلى الصلاة، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنباً فاطهروا، وإن كنتم مرضى أو على سفر، أو جاء أحد منكم من الغائط، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء، فتيمموا صعيداً طيباً، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه —١— . ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريد ليطهركم، وليتم نعمته عليكم، لعلكم تشكرون —٢— . واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به، إذ قلتم سمعنا وأطعنا، واتقوا الله، إن الله عليم بذات الصدور —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إذا قمتم إلى الصلاة	إذا أردتم القيام لأداء الصلاة، وأنتم محدثون حدثاً أصغر.

الألفاظ	شرحها
إلى الكعبين	مع الكعبين . وهما العظمان الناتئان فى كل رِجل ، عند مفصل الساق والقدم .
فاطّهّروا	فاغتسلوا غُسلا يعمّ البدن ، مع المضمضة والاستنشاق .
وإن كنتم مرضى	وإن مرضتم مرضاً يضرّه الماء .
جاء أحد منكم من الغائط	أحدث حدثاً أصغر ، بخروج شىء من أحد السبيلين ، والغائط : المكان المعدّ لقضاء الحاجة (الكنيف) .
لا مستم النساء	باشرتم النساء .
فتيمّموا صعيداً طيّباً	فاقصدوا تراباً طاهراً .
حَرَج	ضيق ومشقة .
ميثاقه الذى واثقكم به	عَهْدَه الذى عاهدتموه عليه ، حين قلتم لرسوله : سمعنا وأطعنا .
بذات الصدور	بما تنطوى عليه القلوب .

مجمل المعنى

١ ــ أداء العبادات ، من العقود التى بينَ العبدِ وربّه ، وفى قوله أول السورة : «أوْفُوا بالعقود» ، أمرٌ لعباده أن يقوموا بعهد العبودية ، حتى يقوموا بحقوق الربوبيّة ، وأعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، وهى لا يمكن أداؤها إلا بالوضوء ، لهذا بدأ الله بذكر فرائض الوضوء .

والمعنى : يأيها المؤمنون ، إذا أردتم القيام لأداء الصلاة ، وكنتم مُحْدِثين حدثاً أصغر ، فافعلوا ما يأتى :

(ا) اغسلوا وجوهكم بإمْرار الماء عليها ؛ وحَدُّ الوجه طولا من مَنْبِت الشعر إلى أسفل الذقَن ، وعَرْضاً ما بين شحمتَى الأذنين .

(ب) واغْسِلوا أيديَكم مع المرافق .

(ح) وامسحوا برءوسكم ، والباء : إما زائدة ، فتقتضى زيادتها مسحَ الرأس كلّه ، كما فى مذهب مالك ، وإما للتبعيض ، فيُمسح أقلُّ ما يقع عليه المسح ولو بعض شعره ، كما فى مذهب الشافعى ، وقدَّره أبو حنيفة برُبُع الرأس .

(ء) واغسلوا الرجلين مع الكعبين .

فإن كنتم أيها المؤمنون جنباً وأردتم الصلاة ، فاغتسلوا غُسلا يعمُّ جميع أبدانكم ، مع المضمضة والاستنشاق ، قبل أدائها ؛ وإن كنتم مرضى مرضاً يضرُّه الماء ، أو كنتم مسافرين سفراً طويلا أو قصيراً ، وأحدث أحدٌ منكم حدثاً أصغر ، أو باشرتم النساء فلم تجدوا ماء ، فاقصدوا تراباً طاهراً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه بضربتين ، (وقد فصلنا التيمم فى الصفحة ١٩ — ٢٠ الفقرة السادسة ، من تفسير الجزء الخامس) ؛ وذهب الشافعىّ إلى أن المراد بالملامسة مجرَّدُ مَسّ البشرة ، وهى عنده تنقض الوضوء إن كانت المرأة غير مَحْرَم ، وذهب مالك إلى أن اللمس إن كان بشهوة نقض الوضوء ، وإلا فلا . وذهب أبو حنيفة إلى أن اللمس لا ينقض الوضوء ولو بشهوة .

٢ — ما يريد الله بالأمر بالوضوء للصلاة ، وبالغُسل من الجنابة ، وبالتيمم بالتراب الطاهر ؛ أن يضيِّق أو يشُقَّ عليكم ، لأنه لا يشرع إلا ما فيه خير ومنفعة لكم ، ولكنه يريد نظافتكم ، وتطهير قلوبكم ، وإتمام نعمته عليكم ؛

فإن فى الوضوء تنظيفَ الأعضاء الظاهرة المعرَّضة لتأثير الجو ، وما فيه من غُبار وجراثيم ، وتنظيفَ أعضاء الحواسِّ ، وتنشيطَ الجسم . وفى الصلاة ووقوف الإنسان بين يدى الله خمس مرات كلَّ يوم ، إشعارٌ بهيبته وعظمته ، فيعمل ما يرضيه ، ويبتعد عما يُغضبه . كما أن الصلاة تُعوِّد الإنسان الترتيب والنظام ، والمحافظةَ على الوقت ، بما فيها من ترتيب الأوقات ، وتعوِّده التواضع ، فإن وقوفه فى أثنائها خاشعاً ، ووضعَ جبهته وأنفِه على الأرض ، يُذهب منه الكبرياء والغرور ، ويعوِّده شُكر من صنعَ معه جميلا ، إذ فى أدائها قيامٌ بشكر المولى على آلائه ، وحَمْدُه على جزيل نعمائه .

٣ — واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم بالإسلام ، وحافظوا على ميثاقه الذى عاهدكم عليه ، حين بايَعْتُم رسوله صلى الله عليه وسلم فى العَقَبة الثانية ، فى السنة الثالثة عشرة من النبوّة ، على السمع والطاعة ، وفى العُسْر واليسر ، على أن مجرَّدَ قبولِ دعوة الإسلام والدخولِ فيه ، يُعد فى الحقيقة ميثاقاً على السمع والطاعة ، يستوى فى ذلك من دخل فى الإسلام أو نشأ فيه ، إلى يوم القيامة ، واتقوا الله بالمحافظة على عهودكم ومواثيقكم ، واحذروا أن تنقضوها ، إن الله عليم بخفايا صدوركم ، مطّلع على سِرِّكم ونجواكم ، وهذا نوع من العقود التى أمر الله فى صدر السورة بالوفاء بها .

(٤)

من الآية الثامنة إلى الآية الحادية عشرة من سورة المائدة

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ ، شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللّٰهَ ، إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ —١— . وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ —٢— . يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللّٰهَ ، وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قَوَّامين لله	كثيرى القيام بحقوق الله ، مواظبين عليها ، مجتهدين فيها .
شهداء بالقسط	شهداء بالحق لوجه الله ، لا لغرض دنيوىّ .
ولا يجرمنَّكُم شنآنُ قوم	لا يحملنكم بُغض قوم .
هو أقربُ للتقوى	هو : أى العدل ، أقرب للتقوى .
إذْ همَّ قوم	إذْ أراد وقصد جماعةٌ .
أن يَبْسُطوا إليكم أيديهم	أن يمدُّوا إليكم أيديهم ليفتكوا بكم .

وهذا نوع من العقود التى تجب المحافظة عليها

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، لا تتوانَوْا عن القيام بحقوق الله ، وواظبوا على أدائها ، وأدُّوا الشهادة على وجهها لوجه الله ، لا لغرض دنيوىّ ، مهما كان المشهود له أو عليه ، ولا تحملنَّكم شدة بغضكم لأعدائكم ، على أن تتنكبوا سبيل العدل ، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل ، كالتمثيل بقتلاهم كما فعلوا معكم ، أو قتل نسائهم وصبيانهم ، أو نقض عهدهم معكم ، تشفِّياً مما فى قلوبكم منهم ، وقد فرضت عليكم العدل ، فاعدلوا مع أعدائكم ، كما تعدلون مع أوليائكم ، فإن العدل أقربُ لاتقاء غضب الله وسخطه ، وأدنى إلى طاعته ، وأبعد عن الجور والهوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون ، لا يخفى عليه شىء من أموركم ، فيجازيكم على حسب عملكم .

٢ — وعد الله الذين اقترن إيمانهم بالأعمال الصالحات ، التى منها العدل والتقوى ، أن لهم مغفرة لذنوبهم ، وثواباً جزيلا على أعمالهم الصالحة . أما الذين كفروا وكذّبوا بما أمددنا به رسولنا من الحجج الدّالة على صدق رسالته ، فأولئك أصحاب الجحيم ، يَصْلَوْن نارها ، مخلَّدين فيها أبداً .

٣ — حدث أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعُسْفان — وهو مكان على مرحلتين من مكة فى طريق المدينة — وأراد أن يصلى الظهر مع أصحابه ، فلما أدّاها ، ندم المشركون على أنهم لم ينتهزوا فرصة صلاتهم ، فيهمُّوا بالمسلمين ويَفْتِكوا بهم ، فقال قائل منهم : إن لهم صلاةً تليها ، فافعلوا فى أثنائها ما شئتم ، فأنزل الله بين الصلاتين كيفية صلاة الخوف ، وردّ كيدَ المشركين فى نحورهم ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : « إذ همّ قوم

أن يبسطوا إليكم أيديهم » ، وقد أوضحنا كيفية صلاة الخوف عند تفسير قوله تعالى : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ». (راجع الصفحة ٧٤ من تفسير الجزء الخامس) . ويروى المفسرون رواية أخرى ، وهى وإن لم تقترن بنزول هذه الآية ، لكنها نزلت للتذكير بهذه القصة ، لبيان بعض آلاء الله على المؤمنين ، وذلك أن عمرو بن أمية الضَّمْرى ، لقى رجلين معهما أمانٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتَلهما ، ولم يكن يعلم أن معهما أماناً ، فأتى رسولُ الله إلى بنى النَّضير ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وطلحة والزُّبَير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكان بينه وبين بنى النضير عهد على ألا يحاربوه ، وأن يعينوه على الدِّيات ، فلما طلب منهم أن يعينوه على ديتى القتيلين ، أظهروا له القَبول ، وقال له حُيَىُّ بن أخطب : اجلس أبا القاسم ، حتى نُطعمك ونجمعَ لك ، ونعطيكَ ما سألتنا ، وأجلسوه تحت الحِصن بجانب جدار ، ثم انفرد حُيَىُّ بن أخطب بقومه ، وقال لهم : إن الفُرصة قد سنحت للفتك بمحمد ووجوه صحابته ، فاطرحوا عليه حجارة من سَطح الحِصن ، واقتلوه بها ، واعتلُّوا فى تأخُّرهم بصنع الطعام ، ليتسع لهم الوقت فى تنفيذ المؤامرة ، ثم أوعزوا إلى رجل منهم أن يلقى عليه رَحًى عظيمة ، فنزل جبريل ، وأخبر النبىَّ بما تآمر عليه اليهود ، فقام هو وأصحابه من مجلسهم .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا اذكروا آلاء الله عليكم ، حين قصد جماعة من اليهود أن يبطشوا بكم ، ويقتلوا نبيكم ووجوه صحابته ، فكف أيديهم عنكم ، ومنعهم مما أرادوا بكم ، ودفَعَ المضرة عنكم ، بإبلاغ رسوله نبأ مؤامرتهم ، واتقوا الله فى رعاية حقوق نعمته ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ، فهو حسبكم فى درء المخاطر ، وجلب المنافع .

(٥)

من الآية ١٢ إلى الآية ١٤ من سورة المائدة

وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللهُ : إِنِّي مَعَكُمْ ، لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ، وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ ، وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي ، وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ، وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ، لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ ، فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ —١— . فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ —٢— . وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا نَصَارَىٰ ، أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ، فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بعثنا منهم اثنى عشر نقيباً	أرسلنا زعماء من أسباطهم الاثنْى عشر ، إلى أرض الجبَّارين ، ليكونوا كُفَلاء عنكم .
إنى معكم	إنى ناصركم ومعينكم .
عزَّرْتموهم	نصرتموهم .
أقرضتم الله قرضاً حسناً	أنفقتم فى سبيل الله عن طِيب نفس .
فبما نقضهم ميثاقهم	فبسبب نقضهم عهدهم . ، وما : زائدة
لعنَّاهم	أبعدناهم عن رحمتنا .
وجعلْنا قلوبهم قاسية	جعلنا قلوبهم لا تلين لقبول الإيمان .
يحرِّفون الكلم عن مواضعه	يبدِّلون التوراةَ عن الأوضاع التى وضعها الله فيها .
ونَسُوا حظًّا مما ذُكِّروا به	ونسوا نصيباً مما أمِروا به فى التوراة ، وهو اتباع محمد .
على خائنة منهم	على خيانة منهم ، بنقض العهد وغيره .
إلا قليلا منهم	ما عدا قليلا ممن أسلم منهم .
أغرينا بينهم العداوة	أوقعنا بينهم العداوة .

هذا نوع من العقود ، أخذه الله على اليهود والنصارى ، فبعد أن بيَّن ميثاقه الذي واثق به المؤمنين على السمع والطاعة لرسوله ، ذكر أنه سبق أن أخذ هذا الميثاق على أهل الكتاب ، ولكنهم نقضوه ، فاستحقوا لعنة الله فى الدنيا ، وعذابه الأليم فى الآخرة .

قصة الجبّارين

لما خرج بنو إسرائيل من مصر ، ونجَوْا من ظلم فرعون وقومه ، أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء — وهي مدينة في الغَوْر من أرض الأردن — ليقاتلوا الجبّارين الذين سيأتي ذكرهم قريباً ، وأخبرهم أنه سينصرهم عليهم ، وأمر جل شأنه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سِبْط كفيلا عليهم ، بالوفاء فيما أمِروا به ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق أن يعملوا بما يأمرهم به موسى . فلما دنَوا من أرض الجبّارين « بكنعان » ، بعث موسى النقباء يتجسسون أخبار الجبارين ، ونهاهم أن يخبروا قومهم عند عودتهم بما يرونه . فلما وصل هؤلاء النقباء إلى أرض الجبّارين ، رأوا أجساماً ضخاماً ، ذوى بأس شديد ، فهالهم ما رأوا ، وهابوا أن يلتقوا بهم في قتال . فلما رجعوا أخبروا قومهم بما رأوا من ضخامة أجسام الجبارين ، وشدة بأسهم ، مخالفين بذلك أمر موسى ، فانهارت فيهم القوّة المعنوية ، واشتد خوفهم من الجبّارين . وقالوا لموسى : «اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون» ومن الجبّارين : عُوجُ بن عُنُق ، الذى يصوغ العامة له خرافات عجيبة ، ويسميه صاحب القاموس المحيط : عُوج بن عُوق .

مجمل المعنى

١ — لا تستعظموا أيها المسلمون أمر الذين همّوا ببسط أيديهم إليكم من هؤلاء اليهود ، ولا أمْر الغدر الذى حاولوه وأرادوه بكم ، فإن ذلك قد ورِثوه من أخلاق أسلافهم ، فهم يسيرون على مناهجهم ، ويقتفون أثرهم . فلقد أخذنا في زمن موسى ميثاقاً وعهداً على اليهود ، أن يخلِصوا لموسى ،

ويتّبعوا أمره، وحذَّرهم معصيته ، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، من كل سِبط نقيب ، ليتعرفوا أحوال الجبَّارين وأسرارَهم ، ويتجسسوا عليهم توطئةً لقتالهم ، لتكون أرجاء موطناً يستقرون فيه ، وأمرناهم أن يبذلوا غاية جهدهم فى الاستيلاء عليها ، وقلنا لهم : إنى ناصركم ومعينكم ، ولئن أقمتم الصلاة على وجهها ، وآتيتم الزكاة المفروضة عليكم فى أموالكم ، وجاهدتم فى سبيلى ، وآمنتم برسلى ، ونصرتموهم ، وأنفقتم فى سبيل الخير عن طيب نفس ، لأسترنَّ بعفوى وصفحى كل ما سلف من جرائمكم ، ولأدخلنكم يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن جحد منكم يا معشر بنى إسرائيل شيئاً مما أمرته به ، أو ركب رأسه فى شىء مما نهيته عنه ، فقد أخطأ قصد الطريق الواضح ، وحاد عن الصراط المستقيم ، ولكنهم نكثوا عهدهم ، ونقضوا ميثاقهم .

٢ — فبسبب نكث اليهود عهدهم ، ونقضِهم ميثاقَهم الذى أخذناه عليهم ، استحقّوا لعنتنا ، والطردَ من رحمتنا ، وجعلنا قلوبهم غليظةً صُلْبة يابسة ، لا تؤثّر فيها حُجّةٌ ولا موعظة ، ولا تُذْعن للحق ، ولا تَلين لقبول الإيمان ، وكان من مظاهر غلظة قلوبهم القاسية الجاحدة الجامدة ، وعدم توفيقهم إلى الهداية ، أنهم صاروا يحرّفون كلام الله فى التوراة ، عن الأوضاع التى وضعها الله فيها ، لتطابق أهواءهم ، ويغيّرون ما يَدُلُّ دلالة صريحة على نعت محمد وغيره من الأنبياء كعيسى ، ويبدّلون ما يدل على البشارة ببعثتهما ، ويقولون لجهَّالهم : هذا كلام الله ، وتركوا نصيباً وافياً ، وقدراً كبيراً مما ورد فيها ، وستستمر يا محمد تطلع على خيانة وغدْر منهم ، ونقض لميثاقهم ، لأن ذلك دأبُهم وعادتهم ، ما عدا قليلا ممن أسلم منهم ، فإنهم لم يخونوا ولم يغدروا ، فاعف عنهم يا محمد إن تابوا ، واصفح عنهم إن آمنوا ، وعاملهم بالإحسان ، فإن الله يحب المحسنين .

٣ — وهناك طائفة أخرى يسمّون أنفسهم نصارَى ، لا تقل جرأةً عن اليهود في نَكْثِ العهود ، ونقض المواثيق ، فقد أخذنا عليهم الميثاق بأن يُظهروا من إنجيلهم ما أخبر به عيسى ، من أنه مصدِّقٌ برسول يأتي من بعده اسمه أحمد . ولا يخفوه ، فتركوا نصيباً مما ذُكِرَ على لسان عيسى ، كما فعل اليهود . وسلكوا مسلك الأمّةِ الضالّة من اليهود ، فبدّلوا كذلك دينهم ، ونقضوا ميثاقهم ، وزيّفوا ما نزل على عيسى من التبشير بمحمد ، واتبعوا أهواءهم ، فحرّشنا بعضهم ببعض ، وفرّقناهم فِرقاً متعدّدة ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . بما يجرى بينهم من الخصومات بسبب الجدال في الدين ، واختلافهم في أمْرِ المسيح ، وتناقضِ مذاهبهم ، وتعارضِ أناجيلهم ، وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون ، من نقضهم مواثيقَهم وعهودَهم .

(٦)

من الآية ١٥ إلى الآية ١٦ من سورة المائدة

يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ ، قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ — ١ و ٢ — .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تُخْفُونَ من الكتاب	تخفون من التوراة والإنجيل .
ويعفو عن كثير	ويتجاوز عن كثير مما تخفونه ، فلا يفضحكم بإظهاره .
نورٌ وكتاب مبين	رسول هاد ، وكتاب واضح .
اتّبع رضوانه	اتّبع رضاه بالإيمان .

مجمل المعنى

١ — يأيها اليهود والنصارى ، قد جاءكم رسولنا محمد ، يظهر لكم كثيراً مما كنتم تخفونه من التوراة والإنجيل ، كَنَعْتِ محمد فيهما ، وآيةِ الرجم فى التوراة ،

وبشارة عيسى بأحمد فى الإنجيل ، ويتجاوز عن كثير مما تُخفونه، حتى لا يفضحكم بتبيانه ، ما لم يكن الباعث على إظهاره أمراً دينياً ، قد جاءكم من الله رسول يرشدكم إلى ما فيه صلاحكم ديناً ودنيا ، وقرآن واضح الإعجاز ، يهدى به الله إلى طريق السّلامة — وهى شرائع الله وأحكامه — من اتّبع رضاه بالإيمان به ، ويخرجهم من ظُلمة الكفر إلى نور الإيمان بإرادته وتوفيقه ، ويهديهم إلى أقرب الطرق إلى الله ، وهو الإسلام .

٢ — ولهاتين الآيتين قصّة ، فقد حدث أن جماعة من اليهود أتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسألونه عن رَجم الزانى ، فقال عليه الصلاة والسلام : أيُكم أعلم ؟ فأشاروا إلى ابن صُوريا ، فقال له الرسول : أنت أعلمهم ؟ فقال : سل عما شئت ، فأعاد عليه الرسول : أنت أعلمهم ؟ قال : إنهم يزعمون ذلك ، فقال له الرسول : بالذى أنزل التوراة على موسى ، وبالذى رفع الطّور على بنى إسرائيل ، وبالمواثيق التى أخِذت عليهم ، أن تقولَ الحق ، فأخذت ابن صوريا رِعدة ، وقال : إن نساءنا نساء حسان ، فلما كثر فينا الزنى جَلدنا مائة ، وحلقنا الرءوس ، فحكم عليهم بالرجم .

(٧)

من الآية ١٧ إلى الآية ١٩ من سورة المائدة .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ؟ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ —١— . وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ —٢— . يٰأَهْلَ الْكِتَابِ ، قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فمن يملك من الله شيئاً	من يستطيع أن يمنع من قدرة الله وإرادته شيئاً ؟
نحن أبناء الله وأحباؤه	نحن مقرّبون إلى الله ومحبوبون . قربَ الأبناء ومحبتهم من آبائهم .

الألفاظ	شرحها
على فترة من الرسل	على انقطاع دام ٥٧٠ سنة ، بين ميلادى عيسى ومحمد .

مجمل المعنى

١ — لقد كفر الذين زعموا أن الله هو المسيح ابن مريم ، ودليل بطلان ما زعموه: أول عبارة من إنجيل يوحنا وهى : فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، وقد أطلق المسيحيون لفظ الكلمة على المسيح ، فصار معنى عبارة إنجيل يوحنا : الله هو المسيح ابنُ مريم . وهو نفس ما أسنده القرآن الكريم إليهم . وقد كتب يوحنا إنجيله فى العُشر الأخير من القرن الأول من ميلاد عيسى . فقل يا محمد لهؤلاء المتجرئين على مقام الألوهية ، تفنيداً لهذا الزعم الباطل ، وتبكيتاً لهم : من يستطيع أن يمنع إرادة الله ، إن شاء أن يهلك عيسى وأمّه ، بل يهلك جميع من فى الأرض ؟ وإذا كان عيسى معرّضاً للفناء كغيره من المخلوقات . فكيف يكون إلهاً ؟ فالله واحد أحد ، فَرْد صمد ، لم يلد ولم يولد ، له ملك السموات والأرض وما بينهما ، ومن قَدَرَ على خلقهما من العدم ، قادر على خلق آدم من غير أبٍ ولا أمّ ، وعلى خلق حوّاء من غير أم ، وعلى خلق عيسى من غير أب ، فهو يخلق على حسب مشيئته ، وهو قادر على كل شىء ، فمتى تعلقت مشيئته بشىء ، نفذت بقدرته ، فاعتبروا يا أولى البصائر والأبصار .

٢ — وقالت اليهود والنصارى : نحن المقربون من الله قربَ الأبناء من الآباء ،

وهوَ لنا فى الحب والرحمة والشفقة كأبينا . فقل لهم يا محمد : إن صح ما زعمتم . فلِمَ يعذبكم بذنوبكم ؟ ومن كان بهذه المنزلة التى تدّعونها من المولى جل شأنه . لا يعذّب ولا يفعلُ ما يوجب تعذيبه . وقد عذّبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ . واعترفتم أيها اليهود أن النار لن تمسّكم فى الآخرة إلا أياماً معدودة تعذّبون فيها . وهذا يتنافى مع العلاقة التى تزعمونها . فإن الأب لا يعذّب ولده . والحبيب لا يعذّب حبيبه . فارجعوا عن غروركم . فأنتم كاذبون فى زعمكم . وإنما أنتم بشر من جملة من خلقهم . لكم ما لهم . وعليكم ما عليهم . وهو يغفر لمن يشاء ممن آمن به وبرسله . ويعذّب من يشاء ممن كفر به وعصَى رسله . ولله وحده ملك السموات والأرض وما بينهما . وإليه المرجع يوم القيامة . فيجازى المحسن بإحسانه . والمسىء بإساءته .

٣ — يأهل الكتاب من يهود ونصارى . قد جاءكم رسولنا محمد . المبشَّر به فى كتبكم . يبيّن لكم شرائع الدين وأحكامَه . بعد انقطاع الوحى . وعدم إرسال رسل . مدة تتجاوز نحو ستة قرون . ليقطع معذرتكم . اتقاء أن تقولوا معتذرين عن كفركم : ما جاءنا بشير يبشرنا بحسن عاقبة المؤمنين . ولا نذير يخوفنا سوء عاقبة المفسدين الضالين . فقد جاءكم محمد بشيراً ونذيرا . فلا عُذْرَ لكم بعد ذلك فى بقائكم على كفركم وعنادكم . والله على كل شىء قدير . فيعذبكم إن لم تتبعوه .

(٨)

من الآية ٢٠ إلى الآية ٢٦ من سورة المائدة

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ ، اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً ، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ — ١ — . يَا قَوْمِ ، ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ، وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ ، فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . قَالُوا : يَا مُوسَى ، إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ . وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ — ٢ — . قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا : ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ . وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ — ٣ — . قَالُوا : يَا مُوسَى ، إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ ، إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ — ٤ — . قَالَ : رَبِّ ، إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ — ٥ — . قَالَ : فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ، فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ — ٦ — .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وجَعَلَكم ملوكاً	وجعلكم أحراراً مالكين زمام أموركم ، بعد أن كنتم عبيداً أرقّاء فى مصر .
الأرضَ المقدَّسة	الأرض المطهَّرة ، وهى أرض الشام التى فيها أريحاء.
التى كتبَ الله لكم	التى قدَّر الله لكم أن تسكنوها .
ولا ترتدُّوا على أدباركم	ولا تنهزموا أمام العدو خوف البطش بكم .
فتنقلبوا خاسرين	فترجعوا وقد خسرتم النصر فى المعركة ، وخسرتم ثواب الله فى الآخرة .
جبارين	عمالقة غلابين ، لا تتأتى مقاومتهم ، والجبار : من يُجْبِرُ غيره على فعل ما يريده .
من الذين يخافون	من الذين يخافون الله ويتقونه .
أنعم الله عليهما	أنعم الله عليهما بالإيمان الصحيح ، والعصمة من إفشاء ما أطلعناهما عليه من أمر الجبارين .
ادخُلُوا عليهم الباب	ادخلوا عليهم بابَ مدينتهم ، وفاجئوهم .
فافرُقْ	فافصِلْ .
يتيهون فى الأرض	يتحيرون فى قطعة من الأرض ، يهيمون فيها على وجوههم ، ولا يخرجون منها .
لا تأس	لا تحزن ، ولا تتأسف .

مجمل المعنى ، وتتمة قصة الجبّارين

١ — لما أفشى نقباء الأسباط أمر الجبارين لبنى إسرائيل ، وتحدثوا إليهم عن ضخامة أجسامهم ، وشدة بأسهم ، فزع بنو إسرائيل ، ورفضوا أن يحاربوهم جُبْناً وضعفاً ، فأخذ موسى عليه السلام يبيّن لهم أن هذا أمر من الله سبحانه وتعالى ، أوحى به إليه ، وأراد به أن يتخذوا من هذه الأرض المطهّرة مستقرًّا ومُقاماً بعدهجرتهم من مصر ، فراراً من ظلم فرعون وقومه ، وذكّرهم موسى بآلاء الله عليهم ، إذ جعل فيهم أنبياء ، فلم يبعث فى أمة من الأنبياء مثل ما بعث فيهم ، وجعلهم أحراراً مالكين زمام أمورهم ، وتدبير شئونهم ، بعد أن كانوا عبيداً أذلاء لفرعون وقومه ، يستخدمونهم رغم أنوفهم فى بناء معابدهم وهياكلهم ، فصاروا يتمتعون بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحريّة ، وسياسة شئونهم ، كما أن الله تعالى أعطاهم من النعم ما لم يعطه أحداً من خلقه ، فأنزل عليهم المنّ والسّلوى ، وفجّر لهم الماء من الحجارة ، وفلَق لهم البحر الأحمر ليعبروه من شاطئه الغربى إلى شاطئه الشرقى ، ثم أطبقه على فرعون وقومه ، الذين كادوا يُدركونهم ، وظلّل عليهم الغمام .

٢ — ثم أخذ موسى يحضّهم على قتال الجبارين ، ليتخذوا من بلادهم موطناً كثير الخيرات ، ويبثُّ فيهم روح الشجاعة والإقدام ، ويبيّن لهم أن « أريحاء » وما حولها هى الأرض المطهّرة من الآفات ، التى لا يعتريها قحط ولا جَدْب ، وهى التى قدّر الله لهم — إن سمعوا قوله — أن يسكنوها ، لتكون موطنهم ، وموضع آمالهم ، وملتقى أحلامهم ، وطلب منهم أن يتذرعوا بالشجاعة فى ملاقاة أعدائهم ، وأن يصدوا هجماتهم ، وألا ينهزموا أمامهم ، أو ينثنوا عن مقصِدهم ، وألا يتراجعوا فيخسروا المعركة ،

ويُطمِعوا فيهم أعداءهم . ولكن موسى كان كمن ينفخ فى حديد بارد ، فكانت فرائص بنى إسرائيل ترتعد فرقاً مما سمعوا من نقبائهم عن أخبار الجبابرة ، بل لقد بلغ بهم الخوف أن قالوا : ليتنا مُتْنا بمصر ، حتى لا نكلَّفَ القيام بهذا الغزو الذى لا محيص عن خذلاننا فيه ، ثم جمعوا أطراف شجاعتهم ، وأعلنوا عصيانهم ، وقالوا : يا موسى : إن فيها قوماً جبّارين ، لا تتأتى لنا مقاومتهم ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها ، فإنا داخلون . وإن تعجب فعجب أن يعلّقوا دخولهم فيها على خروج الجبابرة منها ، مع أنهم سكانها ، لا يغادرونها إلا إذا غلبهم أعداؤهم عليها ، ثم كيف يستولون على أرض وهم قابعون لا يتحركون ، خائرة عزائمهم عن مقاتلة أعدائهم ؟

٣ — قال رجلان من النقباء ، وهما كالب بن يَفُنَّة ، ويوشَع بن نون ، من الذين يخافون الله سبحانه وتعالى ويتقونه ، أنعم الله عليهما بالإيمان والطاعة والعصمة ، فكتما ما اطّلعا عليه من أمر الجبارين ، ولم يُفشياه إلا إلى موسى وحده ، ولم يفشوه لقومهم كما فعل سائر النقباء مخالفين أمر موسى — قال هذان النقيبان لبنى إسرائيل : ادخلوا على الجبارين باب المدينة ، مفاجئين لهم ، وكُرُّوا عليهم كَرَّةَ رجل واحد . فإذا دخلتم الباب عليهم ، أذْهلتهم المفاجأة ، فأعملتم فيهم سيوفكم ورماحكم ، حتى تخورَ عزائمهم ، ويُلقوا سلاحهم ، وينصركم الله عليهم ، وعلى الله وحده فتوكلوا ، إن كنتم مصدقين بوعده فى نصركم على لسان نبيكم ، وبأنه قادر على الوفاء لكم بوعده ، ولكن اليهود الذين من دأبهم العناد والمكابرة ، رَجَموهما بالحجارة ، وقالوا : أنصدقكما ونكذب عشرة ؟

٤ — مع وعد الله بنى إسرائيل بالنصر إن امتثلوا لأمره ، لم يسلس لموسى قيادهم ، ولم تلن عريكتهم ، بل أمعنوا فى العناد ، وقالوا لموسى ، رافعين لواء

التمرد والعصيان : إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، ثم أسرفوا فى الاستهانة بأمر الله ورسوله ، وعدم المبالاة ، فقالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا منتظرون .

٥ — لم يبق فى قوس صبر موسى مَنْزَع ، ولم يسعْهُ إلا أن يفوِّض أمره إلى الله ، ويشكو بثَّه وحزنه إليه ، قائلا : إنى لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك ، إلا أمر نفسى وأمر أخى هرون ، ونحن على تمام الاستعداد لتنفيذ أمرك ، وتحقيق وعدك ، فاقض بيننا وبين هؤلاء القوم ، الذين خرجوا عن طاعتك ، وحادوا عن سبيلك .

٦ — فأجاب الله سؤاله ، وقال له : إن الأرض المقدسة محرَّم عليهم دخولها مدة أربعين سنة ، يظلون تائهين حائرين ، فلا تحزن على هؤلاء القوم الكافرين ، وقد ظلوا هذه الحِقبة ، يسيرون فى قطعة من صحراء سيناء لا تتجاوز ثلاثين فرسخاً فى تسعة ، كانوا يسيرون الليل كلَّه جادِّين ، فإذا أصبحوا ، إذاهم بعد دورتهم المرهقة ، فى الموضع الذى ابتدءوا منه ، ولم يكن حالُهم بالنهار خيراً من حالهم بالليل ، وهكذا نَفَذَت فيهم مشيئة الله ، وكانوا يأكلون المنّ والسَّلوى ، ويشربون من الماء الذى فجَّره لهم موسى ، ويلبسون من الثياب التى حملوها معهم من مصر ، حتى فنى كبراؤهم ، وهلك رؤساؤهم ، وانقرضت هذه الطائفة المتمرِّدة ، ومات موسى وأخوه هرون فى هذه الحقبة الطويلة ، وقاد يوشع بن نون — وكان الله قد أعزه بالنبوة — أبناء هؤلاء العصاة ، وسار بهم ، وقاتل الجبّارين ، وانتصر عليهم ، ووقفت له حركة الفَلَك ساعة قبل غروب الشمس يوم الجمعة ، حتى يفرغ من قتالهم ، قبل أن يدخل يوم السبت ، الذى يحرُم فيه القتال .

(٩)

من الآية ٢٧ إلى الآية ٣٢ من سورة المائدة

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا، فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، قَالَ: لَأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي، مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ، فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ —١—. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ، فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ —٢—. فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ، لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ: يَا وَيْلَتَا! أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ، فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي؟ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ —٣—. مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ، ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ —٤—.

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
بالصدق .	بالحق
هو ما يُتقرَّب به إلى الله ، من ذبائح ونحوها .	قُرْباناً
مَدَدْتَ .	بَسَطْتَ
أن ترجعَ يوم الحساب بذنب قتلى .	أن تبوء بإثمى
زيَّنت له وسوَّلت وسهَّلت .	فطوَّعت
ينبش فى الأرض .	يبحثُ فى الأرض
جُثَّة أخيه .	سوءة أخيه
كلمة جزع وتحسُّر وندم ، والويل : الهلاك .	يا وَيْلتا
قضَيْنا على بنى إسرائيل .	كتبْنا على بنى إسرائيل
من قَتل نفساً من غير أن تكون قتلَتْ نفْساً أخرى .	من قَتل نفْساً بغيرِ نَفْس
من قتل نفساً لم تكن مفسدة فى الأرض .	أو فساد فى الأرض
ومن امتنع عن قتلها إلا بحق .	ومن أحياها
لمتجاوزُون الحدَّ بالكفر والقتل .	لمُسرفون

قصة قابيلَ وهابيل

يقول الله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربَّكم الذى خلَقكم من نَفْس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وَبثَّ منهما رجالا كثيراً ونساء » ، فالمولى جل وعلا خلق آدمَ من طين ، وخلق زوجته حوَّاء من ضِلعه الأيسر ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، ليتناسلوا ، وتعمُرَ بهم الأرض ، ولكى يتم هذا العُمران ، كان لابد

أن يتزوج أولاد آدم بعضُهم من بعض ، وقد اقتضت مشيئة الله أن تلد حواء توءمين : ذكراً وأنثى ، فى بطن واحد غالباً ؛ فكان آدم يزاوج بين أولاده ، بحيث يتزوج الذكر أنثى ولدت مع غيره ، وحدث أن كانت توءم قابيل أجملَ من توءم هابيل ، فلما أراد آدم المزاوجة بين الذكرين والأنثيين على النحو الذى أراده ، ثار قابيل ، وأراد أن يستأثر بتوءمته ، وقال : أنا أحق بتوءمتى ، وأنا أكبر من هابيل ، وخشى آدم أن يستشرى الشرُّ بينهما ، فطلب منهما أن يقرِّبا قرباناً لله ، فن قُبل قربانه كان أحق أن يتزوج توءمة قابيل ؛ وكان قابيل صاحب زرع ، فقدَّم أخسَّ ما عنده ، وكان هابيل صاحب غنم ، فقدَّم أفضل ما عنده ، فتقبَّل الله قُربان هابيل ؛ وكيفية قبول القُربان : أن تنزل نار بيضاء من السماء ، فتأكل القربان الذى يرضى الله عنه ، (راجع الصفحة ٨٠ الفقرة الرابعة ، من تفسير الجزء الرابع) ، وصار من حق هابيل أن يتزوج توءمة قابيل ، لكن قابيل ازداد سخطاً ، ولم يُرضه حُكم الله ، فتوعَّد هابيل بالقتل ، لكن هابيل فوّض أمره إلى الله ، وقال لأخيه قابيل : إن مددت إلىَّ يد السوء ، فلن أقابلك بمثلها ، لكن الشر كان قد تمكن من قابيل ، فانتهز فرصة نوم أخيه هابيل ، فشدَخ رأسه بحجر فقتله ، ولكنه بعد قتله ، حار فيما يفعله بجثة أخيه المقتول ، ولم تكن له من قبل معرفة بدفن الميت ، لأن هابيل أول ميت على وجه الأرض من بنى آدم ، فبعث الله غرابين اقتتلا ، فقتل أحدهما الآخر ، فأخذ القاتل يحفر الأرض بمنقاره ورجليه ، حتى عمل حُفرة وارى فيها جثة الغراب المقتول ، فأحس قابيل حسرة ، لأنه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه الغراب ، وعزَّ عليه أن يقتدىَ بغراب ، ولكن لابد مما ليس منه بد ، ثم ندم على ما فعله بأخيه ، وحفر له حفرةً ، وارى جثته فيها .

أراد الله سبحانه وتعالى بإنزال هذه القصة ، أن يوطِّن رسوله على ما يراه من

ظُلم اليهود وحسدهم ، حيث حاولوا قتله ، ونقضوا عهودهم ومواثيقهم معه ، ليعلمَ أن الظلم طبيعيّ فى الإنسان ، حتى بين الأخ وأخيه ، فى أول عهد الإنسان بالحياة على الأرض .

مجمل المعنى

١ — اقرأ يا محمد على أهل الكتاب وعلى قومك ، قصة هابيل وقابيل ابنى آدم بالصِّدق كما حدثت ، لتعلم ما جُبل عليه الناس من التباغض والتحاسد ، والبغْى والقتل ، فقد قرّبا إلى الله قرباناً ، فتقبّل قربان هابيل لصدقه وإخلاصه ، ولم يتقبل قربان قابيل لحسده وتمرُّده على أبيه ، فقال قابيل لأخيه وهو مَغيظ محنَق لفرط حسده : وربى لأقتلنك ؛ فقال هابيل : ولمَ تقتلنى ولم أجنِ ذنباً ، ولا علىّ فى قبول الله قربانى ؟ وإنما يتقبل الله القُربان من المؤمن التقىّ المطيع ، لئن مددت إلىّ يدك لتقتلنى ، فإنى على الرغم من أنى أقوى منك ، أتحرَّج عن مقابلة عدوانك بمثله ، فلا أجزيك السيئة بالسيئة ، لأنى أخاف الله سبحانه وتعالى أن يرانى باسطاً يدى لإراقة الدماء ، إنى إذا استسلمت لك ، فلكى تحمل إثم قتلى ، وإثمك الذى من أجله لم يقبل الله قربانك ، لعصيانك أمر أبينا آدم ، فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء من يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق .

٢ — فزينت لقابيل نفسه الأمّارة بالسوء أن يقتل أخاه هابيل ، فقتله ، فخسر دنياه بغضب والديه عليه ، وصار حزيناً مطروداً ما بقى من حياته ، وخسر آخرته ، لقتله نفْساً حرَّم الله قتلها إلا بالحق .

٣ — ولما قتل أخاه لم يدر ما يصنع بجثته ، لأنه أول ميت من بنى آدم على الأرض ، فبعث الله غراباً ينبش التراب بمنقاره ورجليه ، ليدفن غراباً

آخر قتله ، فألقى الغراب المقتول فى الحفرة وهال التراب عليه ، ليُرى قابيل كيف يوارى جثة أخيه ، فبدت على قابيل الحسرة وشدة الألم ، وقال : واحسرتاه على ما جنيت ! أبلغ منى العجز ألا أهتدى إلى ما اهتدى إليه هذا الغراب ؟ أبلغ بى الأمر أن أقتدى بغراب ، وأن أكون تلميذاً له فى معرفة مواراة جثة أخى ؟ وندم أشد الندم على فعله وتبرّؤ أبويه منه .

٤ — بسبب ما فعله قابيل مع هابيل ، قضينا على بنى إسرائيل : أنه من قتل نفْساً بغير نفس يحق عليها القصاص ، أو قتل نفساً من غير أن تكون قد عاثت فى الأرض فساداً ، أو استحقت القتل ، كارتداد عن الدين أو قطْع طريق ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، لانتهاكه حرمة الدماء ، وتجرىء الناس عليها ، ومن أحيا الأنفس بصيانتها وعدم الفتك بها ، وامتناعه عن القتل ، فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً ، لأن من استحل دم إنسان بغير حق ، استحل دماء الناس جميعاً ، ومن عصم دم إنسان ، فكأنه عصم دماء الناس جميعاً ؛ والغرض من هذا تفظيعُ قتل الأنفس ، والحرص على حمايتها من جريمة القتل ، ولقد جاءت بنى إسرائيل رسلُنا بالمعجزات والآيات الواضحة ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمجاوزون الحدّ بالكفر والقتل ، فقد كفروا بالأنبياء، بل قتلوهم بغير حق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

(١٠)

من الآية ٣٣ إلى الآية ٣٤ من سورة المائدة

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً، أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ — ١ —. ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ — ٢ —.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يحاربون الله ورسوله	يعتدون على أولياء الله ورسوله ، بالقتل أو السلب أو السرقة .
ويسعَوْن فى الأرض فساداً	يُفسدون بقطع الطريق ، أو يتسبَّبون فى اضطراب الأمن العام .
من خلاف	بقطع اليد اليمنى مع الرِّجل اليسرى .
أو يُنفَوْا من الأرض	أو ينفوا من بلد إلى آخر يُسجنون فيه .
ذلك	ذلك الجزاء المذكور من تقتيل أو تصليب أو تقطيع أو نفى .
خزى فى الدنيا	ذُلٌّ وفضيحة .

قصة العُرَنيِّين

قدم جماعة من العُرَنيِّين — من قبيلة عُرَيْنَة — إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سنة ست للهجرة ، فأصابهم مرض ، فأمر لهم رسول الله بنوق من إبل الصدقة ، يشربون ألبانها ، فلما صحُّوا عمدوا إلى الراعى فقطعوا يديه ورِجْليه ، وغرزوا الشوك فى عينيه ، حتى مات ، ثم استاقوا النوق ، وارتدُّوا عن الإسلام ، فبلغ النبيَّ خبرهم ، فأرسل جماعة من المسلمين فى طلبهم ، فأدركوهم وقد أشرفوا على بلادهم ، فأمر رسول الله بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسَمْل عيونهم ، وإلقائهم فى «الحرَّة» — وهى أرض فى خارج المدينة ، ذاتُ حجارة سوداء — حتى ماتوا ؛ وإنما استحقوا هذا العقاب الصارم الحازم ، لأن الله يقول : «وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها» ، ويقول : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» ، فمثَّلوا فَمُثِّل بهم ، ولكيلا يجترئ أحد على مثل فعلهم .

مجمل المعنى

١ — إنما جزاءُ الذين يعتدون على أولياء الله ورسوله وهم المسلمون : بالقتل أو السَّلب أو قطع الطريق أو السرقة ، ويعيثون فى الأرض فساداً : بتأليف العِصابات المسلَّحة للنهب والسلب ، وقتل من يقاومهم ، أو يعبثون بقوانين الحكومة ابتغاء الفساد ، وتعريض الأمن العام للاضطراب ، أو يقومون بإحراق المزارع والمنازل والمتاجر ، ونشر الفوضى والذعر بين الناس — إنما جزاء هؤلاء أن يعاملوا على النحو الآتى :

(ا) بالقتل لمن قَتل منهم فقط .

(ب) أو بالصَّلب لمن قَتل وسَلب المال، وهل يصلب بعد أن يُقتل، أو يصلب حياً حتى يموت ؟ خلاف بين الأئمة .

(ح) أو بقطع الأيدى والأرجل من خلاف، لمن سَلب المال ولم يَقتل، فتقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، على أن يُكوَى العضو المقطوع بالنار أو الزيت ، حتى لا يُستنزف دم الجانى فيموت ، أو يُقطع النزيف بأى طريق طبى آخر .

(د) أو بالنفى من بلد إلى آخر ، مع الحبس فى هذا البلد الآخر ، لمن هدّدوا الناس بالبطش بهم ، إن لم يدفعوا لهم أتاوة، كما تفعل بعض العصابات ، (كعصابة الخط التى نشرت الذعر فى صعيد مصر) .

وولى الأمر مخيَّر بين هذه العقوبات لكل قاطع طريق، لأن قطعة الطريق يؤدى إلى انقطاع الناس عن السفر ، وسدّ أبواب التجارة أمامهم ، ومصادرتهم فى حرية تنقلهم .

٢ — ذلك الجزاء الذى سبق بيانه، يكون للجُناة ذُلاً وفضيحة فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب أشد ، واستثنى الله من تابوا من هؤلاء المعتدين، من قَبْلِ القُدرة والقبض عليهم، فهؤلاء يغفر الله لهم ذنوبهم، ويترفَّق بهم ، لكن هذا إنما يكون فى الحقوق المتعلقة به ، أما القصاص وحقوق المعتدَى عليهم ، فلا يسقُطان بالتوبة ، بل لابد أن تؤدّى الحقوق لأصحابها .

(١١)

من الآية ٣٥ إلى الآية ٣٧ من سورة المائدة

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اتَّقُوا اللَّهَ، وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ — ١ — . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ — ٢ — .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وابتغوا إليه الوسيلة	اطلبو ما تتوسلون به إلى ثوابه، من عمل الطاعات، وترك المعاصي .
جاهدوا فى سبيله	جاهدوا أنفسكم، وجاهدوا أعداء دين الله، لتفوزوا بمرضاته .

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون، أطيعوا الله واخشَوْا عقابه، واعملوا ما يوصِّلكم إلى الفوز بثوابه، والزُّلفى منه، بالعمل الصالح، وجاهدوا أنفسكم بمنعها من المعاصى،

وحَمْلها على سلوك أقوم مسلك ، وجاهدوا فى سبيل إعلاء دين الله ، لعلكم تفوزون بمرضاته ؛ أما توسُّل العامة بقبور الأولياء والصالحين ، واعتقادُهم أنهم يتوصلون بهم إلى قضاء حاجتهم ، أو أنهم يستشفعون لهم عند الله فى بلوغ مآربهم ، فأمرٌ مخالف للدين ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعانِ » ، ويقول : « إن الذين تَدعُون من دون الله عبادٌ أمثالُكم » .

٢ — إن الكفار لو كانوا يملكون كل ما فى الأرض من صنوف الأموال ، ومثله معه ، وأرادوا أن يبذلوا كل هذا فديةً لنفوسهم من عذاب الله يوم القيامة ، ما تقبَّل الله منهم ، ولا سبيل لهم إلى الخلاص من العقاب على كفرهم ، ولهم عذاب مؤلم وجيع ، لا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ، يتمنَّوْن أن يخرجوا من النار ، ولكنهم يتمنَّوْن المستحيل ، ويحاولون محاولة فاشلة ، فلن يخرجوا من النار أبداً ، ولهم فيها عذاب دائم .

(١٢)

من الآية ٣٨ إلى الآية ٤٠ من سورة المائدة

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ، جَزَاءً بِمَا كَسَبَا ، نَكَالًا مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ —١— . فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ ، فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٢— . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
والسارق والسارقة	الذى سرق والتى سرقت .
فاقطعوا أيديَهما	فاقطعوا اليد اليمنى لكل منهما .
نكالا من الله	عقوبة من الله .
من بعد ظُلمه	من بعد ظلمه الناس بسرقة أموالهم .

مجمل المعنى

١ — بيّن الله أن حكمه فى كل سارق وسارقة قطع يده اليمنى من الكوع — وهو العظم الذى فى أسفل الإبهام — والسرقة : أخذ مال الغير خفية ، وإنما يجب القطع إذا كان المسروق يقوّم بربع دينار فصاعداً ، لقوله

عليه الصلاة والسلام : « لا تقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعداً » ، فإن عاد السارق إلى السرقة ، قُطعت رجله اليسرى من مفصل القدم ، ثم اليد اليسرى ، ثم الرجل اليمنى ، فإن سرق بعد ذلك عُزِّر وحبس ، ويجب حسم العضو المقطوع بالنار أو الزيت المغلى ، أو بعلاج طبى آخر ، حتى لا يُستنزف دم السارق ، وهذا القطع فرضه الله جزاء بما كسب كلٌّ سارق وسارقة ، عقوبة لهما ، والله غالب على تنفيذ أمره ، حكيم فى صنعه .

٢ — فمن تاب من بعد ظلمه الناس بأخذ أموالهم بالسرقة ، ورجع عن اقتراف هذه المعصية ، وأصلح أمره وعمله بمداومته على التوبة ، وإقلاعه عن السرقة ، وعزم على ألا يعود إليها أبداً ، فإن الله يقبل توبته ، إن الله غفور رحيم ، على أن توبته لا تُسقط حدّ الله فى القطع ، ولا حقّ المسروق فى رد ماله ، وقد بيّنت السُّنة أن السارق إن عفا عنه المسروق قبل أن يرفع أمره إلى الحاكم ، سقط القطع ؛ قال صفوان بن أمية : كنت نائماً فى المسجد ، علىّ ثوب خزٍّ ثمنه ثلاثون درهماً ، فجاء رجل فاختلسه منى ، فأُتِىَ به إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأمر به لتُقطع يمينه ؛ قال صفوان : فأتيت النبىّ وقلت له : أتقطعها من أجل ثلاثين درهماً ؟ أنا أبيعه الثوب وأنسئه ثمنه ، ولا تقطع يمينه ، فقال النبىّ : فهلا كان هذا قبل أن تأتينى به ؟

٣ — ألم تعلم يا محمد ، أن الله له ملك السموات والأرض ، يعذّب من يشاء تعذيبه ، ويغفر لمن يشاء المغفرة له ، ولا معقّب لما قضى به ، والله على كل شىء قدير .

(١٣)

من الآية ٤١ الى الآية ٤٣ من سورة المائدة

يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ ، لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ، مِنَ
الَّذِينَ قَالُوا : آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ —١— . وَمِنَ الَّذِينَ
هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ،
يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ : إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا
فَخُذُوهُ ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا —٢— وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ
تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ
قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ —٣— .
سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ، أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ
بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ
شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ —٤— . وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا
حُكْمُ اللَّهِ ، ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ؟ وَمَا أُولَٰئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الذين يُسارعون فى الكفر	الذين إذا وجدوا فرصة لإظهار الكفر بادروا إلى انتهازها .
من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تُؤمن قلوبهم	من المنافقين الذين يُبطنون الكفر ، ويظهرون الإسلام .
سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك	سمّاعون لأهل خيبر ، الذين لم يحضروا مجلسك .
إن أوتيتم هذا فخذوه	إن أفتاكم بالجلد فاقبلوه .
ومن يُرد الله فتنته	ومن تعلقت إرادة الله بأن يُختبر فى دينه ، فدل الاختبار على ضلاله وكفره .
أكّالون للسُّحت	أكالون للكسب الدنىء ، والحرام الخبيث .
التوراة فيها حُكم الله	فى التوراة حكم الله برجم الزانى والزانية .
يتولَّوْن	يُعْرِضون .

قصة زانيين من اليهود

زنى شريف متزوج من يهود خيبر — وهى على ثمانية بُرُد من المدينة لمن بريد الشام ، كان بها سبعة حصون ، غزاها رسول الله ، فقطع المسافة بينها وبين المدينة فى ثلاثة أيام — زنى بشريفة متزوّجة ، وحُكم الله فى التوراة أن يُرجما ، فكره يهود خيبر رجمهما ، وأرادوا أن يترخّصوا فى عدم الرجم ، فأرسلوهما مع رَهْط

منهم إلى بنى قُريظة المقيمين فى « فَدَك » ، وهى قرية بينها وبين المدينة يومان — ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حكم الله فيهما ، لعلهم يَصلون إلى تخفيف الحكم عن الزانيين ، وكان هذا عجيباً من اليهود ، فى أنهم أصحاب شريعة ، وعندهم التوراة ، فيرغبون عنها ، ويتحاكمون إلى نبى جاء بشريعة أخرى ، هذا إلى أنهم لم يؤمنوا به ، وقالوا لمن أرسلوهم : إن أفتاكم محمد بالجلد والتحميم — وهو تسويد الوجه بالفحم ونحوه — فاقبلوا حُكمه ، وإن أفتاكم بالرَّجم فلا تقبلوه ، فلما عرضوا على رسول الله أمر الزانيين ، قال لهم : ماذا تجدون فى كتبكم ؟ قالوا : نُسوِّد وجوههما ونجلدهما ، فقال لهم : كذبتم ، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فجاءوا بالتوراة ، وجاءوا بقارئ أعور ، وهو ابن صُورِياء ، حتى إذا أتى إلى موضع الرجم ، وضع يده عليه ، وقرأ ما قبله وما بعده ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا آية الرجم ، فقالوا : يا محمد ، إن فيها آية الرجم ، ولكنا كنا نتكاتمه فيما بيننا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرُجما عند باب المسجد ، ونزلت هذه الآيات متضمنة هذه الحادثة .

مجمل المعنى

١ — يأيها الرسول ، لا يحزُنك الذين يبادرون إلى الكفر ، فيظهرونه إن وجدوا فرصه تسنح لهم ، أو قوة تَعصمهم من التبعة ، وهم المنافقون الذين يقولون بألسنتهم مكراً وخداعاً : آمنا ، ولكن قلوبهم ما زالت منطوية على الكفر ، فإنا سنفضحهم ، ونكشف لك أمرهم .

٢ — ومن اليهود قوم كثيرو السماع للكذب الذى افتراه أحبارهم ، سماع قبولٍ وتصديق ، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، ولم يحضروا مجلسك ،

وتجافَوْا عنك تكبّراً وإمعاناً فى البغضاء، وهم يهود خيبر الذين يحرفون كلام الله وأحكامَه فى التوراة ، عن الأوضاع التى وضعها الله فيها ، على حسب أهوائهم ، إما بإبدال كلمة بكلمة ، وإما بإخفاء ما فى التوراة وكتمانه — يقول يهود خيبر لمن أرسلوهم لاستفتاء الرسول فى أمر الزانيين: إن أفتاكم محمد بهذا الحكم ، وهو الجلد والتحميم ، فخذوه واقبلوه ، وإن أفتاكم بغيره فاحذروا أن تقبلوه .

٣ — ومن تعلّقت إرادة الله أن يُختبر فى دينه، فدل الاختبار على ضلاله وكُفره ، وحاد عن الصراط المستقيم ، — كهولاء اليهود الذين يعرفون الحق ويحيدون عنه — فلن تستطيع له أيها الرسول رد شىء مما قضى الله به عليه ؛ أولئك الذين لم تتعلق إرادة الله بتطهير قلوبهم من الكفر والنفاق ، لهم فى الدنيا هوان وذل وفضيحة ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، بالخلود فى النار ، يقاسون أهوالها ، كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ، ليذوقوا العذاب .

٤ — هؤلاء اليهود يسمع بعضهم من بعض الأكاذيب والمفتريات ، وَيفشو بينهم أكل الحرام : كالرشوة ونحوها ، ويُحابون ذوى الثراء منهم ، ويُصدر أحبارهم ورؤساؤهم أحكاماً على حسب أهواء طالبيها ، فإن جاءرك ليتحاكموا إليك ، فأنت مخيّر بين أن تحكم بينهم ، وبين أن تُعرض عنهم ، وإن تُعرض عنهم فلن يضرُّوك شيئاً ، لأن الله يعصمك من الناس ، وإن اخترت الحكم بينهم ،فاحكم بالعدل الذى أمر الله به، إن الله يحب العادلين فى أحكامهم ، فيحفظهم ، ويعظم شأنهم ، ويرضى عنهم .

٥ — وإنه لعجيب أمر هؤلاء اليهود فى تحكيمهم إياك ، مع أنهم أصحاب شريعة ، منصوص عليها فى التوراة ، وأنت نبىّ أتيت بشريعة أخرى ،

فكيف يتحاكمون إليك فى شأن الزانيين ، وعندهم التوراة منصوص فيها حكم الله بالرجم ؟ فهم ما قصدوا بالتحاكم إليك معرفة الحق ، وإقامة الشرع ، وإنما توهَّموا أن لديك حكماً أهون عليهم من حُكم التوراة ، وإن لم يطابق ما فى التوراة الصحيحة ، على أنهم — على سبيل الفرض — إن رضوا به ، ورأوا أنه موافق لشريعتهم ، فسيعرضون عن حكمك ؛ وسبب ذلك أنهم ليسوا بالمؤمنين إيماناً صحيحاً بكتابهم ، لإعراضهم عنه أولا ، وليسوا أيضاً مؤمنين بك ، فإن المؤمن الصادق بشريعة ، لا يعدل عنها إلى غيرها ؛ وهؤلاء اليهود تركوا حكم التوراة التى يدعون الإيمان بها ، لأنه لم يوافق هواهم ، وجاءوا يطلبون حكمك ، لعله يوافق هواهم ، ثم يتولون ويُعرضون عنه ، فليسوا بالمؤمنين بالتوراة ولا بك .

(١٤)

من الآية ٤٤ إلى الآية ٤٥ من سورة المائدة

إنَّا أنزلنا التوراةَ فيها هُدًى ونورٌ، يحكُمُ بها النبيُّونَ الذينَ أسلَمُوا للذينَ هادُوا، والرَّبَّانيُّونَ والأحبارُ بما استُحفِظُوا من كتابِ اللهِ وكانُوا عليهِ شُهداءَ، فلا تخشَوُا النَّاسَ واخشَوْنِ، ولا تشترُوا بآياتِي ثمنًا قليلًا، ومَنْ لم يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الكافِرُونَ –١–. وكتَبْنا عليهِمْ فيها: أنَّ النفسَ بالنَّفسِ، والعينَ بالعينِ، والأنفَ بالأنفِ، والأُذُنَ بالأُذُنِ، والسِّنَّ بالسِّنِّ، والجُرُوحَ قِصاصٌ؛ فمَنْ تصدَّقَ بهِ فهُوَ كفَّارةٌ لهُ، ومَنْ لم يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ، فأولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ –٢–.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
هُدًى	هداية من الضلال .
نُور	بيان لأحكام الله .
أسلموا	انقادوا لله ، مخلصين الدين له .
والرَّبَّانيون	العلماء الذين يُعنون بالعلوم الإلهية ، وهم كبار كهنة اليهود .

الألفاظ	شرحها
الأحبار	الفقهاء من اليهود .
بما استُحفِظوا من كتاب الله	يحكمون بسبب ما أودعهم الله من العلم بالتوراة ، وائتمنهم عليها ، على أن يحفظوها ، فلا يضيعوها ولا يغيروها ، ولا يبدلوها ، ولا يحرفوها .
وكانوا عليه شهداء	وكانوا رقباء على ما استُحفِظوه ، وعلى من يريد العبث به .
فلا تخشَوُا الناس	فلا تخافوا أحداً من الخلق ، فى إظهار ما فى التوراة من نعْت محمد ، ومن آية الرجم ، وغيرهما .
ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا	ولا تستبدلوا بآياتى فى التوراة ثمناً زهيداً ، تأخذونه على كتمان ما فيها .
النفس بالنفس	النفس تقتل بالنفس التى قتلتها من غير حق .
العين بالعين	العين تفقأ فى نظير العين المفقوءة .
الأنف بالأنف	الأنف يجدع فى نظير الأنف المجدوع .
الأذن بالأذن	الأذن تصلم فى نظير الأذن المصلومة .
السن بالسن	السن تقلَع فى نظير السن المقلوعة .
الجروح قصاص	ذات قصاص ، فمن جَرح يُجرح بمثل ماجَرح .
فمن تصدق به	فمن تصدق بالقصاص وعفا عن الجانى .
فهو كفارة له	فالتصدُّق يكفِّر الله به ذنوب المتصدِّق .

مجمل المعنى

١ — إننا أنزلنا التوراة فيها هدى يهدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، وفيها نور يكشف عما تشابه على بنى إسرائيل من الأحكام ، لتكون قانوناً يَحكم بها لليهود خاصة ، النبيّون الذين انقادوا لله مخلصين له الدين ، وأتوا بعد موسى من بنى إسرائيل ، ويحكم بها زُهاد اليهود وعُبّادهم ، وعلماؤهم وفقهاؤهم ، السالكون مسلك أنبيائهم ، فى الأزمنة والأمكنة التى ليس فيها أنبياء ، هؤلاء جميعاً يحكمون بسبب أمر الله إياهم أن يحفظوا التوراة من التضييع والتحريف ، وكانوا على ما استحفظوه رقباء ، يحمونه من كل تغيير أو تبديل ، ويبيّنون ما خفى منه ؛ فلا تخشَوا الناس أيها اليهود ، واتبعوا الصالحين من أسلافكم ، بالعمل بما فى التوراة ، ولا تداهنوا فى أحكامها خشية سلطان ظالم ، أو محاباةً لكبير ، واخشونى وحدى ، فإنى أنا الضار النافع ، ولا تستبدلوا بأحكامى التى أنزلتها فيها ثمناً زهيداً ، بسبب رشوة أو جاه ، فإن الثمن وإن جَلّ لا يساوى شيئاً ، بالنسبة إلى ما يصيبكم بمخالفة أمرى ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، مستهيناً به ، أو منكراً له ، فأولئك هم الكافرون .

٢ — وفرضنا على بنى إسرائيل فى التوراة ، أن النفس تقتل بالنفس ، فمن قتل آخر عمداً بغير حق قُتل ، وأن العين المفقوءة تُفقأ فى نظيرها عين الفاقئ ، وأن الأنف المجدوع يُجدع فى نظيره أنف الجادع ، وأن الأذن المصلومة تُصلم فى نظيرها أذن الصالم ، وأن السن المقلوعة تقلع فى نظيرها سنُّ القالع ، وأن الجروح ذات قِصاص ، فمن جرح غيره جُرحاً اقتُص

منه بمثل الجرح الذى جرحه، ما لم يكن القصاص مُتلفاً ، فمن تصدّق من المصابين بما ثبت من حق القِصاص على الجانى بالعفو عنه ، فصدقتُه كفّارة له، يكفّر الله بها بعض ذنوبه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الظالمون ، لظلمهم بالحكم على خلاف ما أنزل الله .

(١٥)

من الآية ٤٦ إلى الآية ٤٧ من سورة المائدة

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ —١—. وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ —٢—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وقَفَّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم	أتبعنا على آثار أنبياء بنى إسرائيل عيسى ابن مريم.
مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة	مصدقاً لما قبله من التوراة .
ومُصدِّقاً	وأرسلنا عيسى مصدِّقاً .
الفاسقون	المتمردون ، الخارجون عن طاعة الله .

مجمل المعنى

١ — وبعثنا عيسى بعد الأنبياء الذين كانوا يتبعون شريعة التوراة ، متبعاً آثارهم ، جارياً على سنتهم، مصدِّقاً للتوراة التى نزلت قبله ، وأنزلنا

عليه الإنجيل ، فيه - كما فى التوراة - هدى من الضلال ، ونور يُبْصِرُ به طالب الحق الطريق الموصِّل إليه - أنزلنا الإنجيل مصدقاً لما قبله من التوراة ، وهدى وموعظة لمن اتقى الله .

٢ - وقلنا : ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الأحكام ، وأمرناهم بالعمل به ، ثم بما تقرِّره شريعة محمد بعد بعثته ، كما أمرناهم بإظهار ما يدلّ على رسالته ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم المتمرّدون ، الخارجون عن طاعة الله وأحكامه .

(١٦)

من الآية ٤٨ إلى الآية ٥٠ من سورة المائدة

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ —١—. وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ —٢—. أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ؟ —٣—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من الكتاب	من الكتب المنزلة قبل القرآن .
ومُهيمناً عليه	ورقيباً على سائر الكتب قبله ، وقائماً عليها ، والهيمنة : القيام على الشيء .
شِرعة	شريعة .
مِنهاجاً	طريقاً واضحاً فى الدين ، تسيرون فيه .
ليبلوكم	ليختبركم ويمتحنكم .
استَبِقوا الخيرات	سارعوا إلى الخيرات .
أن يفتِنوك	أن يُضلوك .
تولَّوْا	أعرضوا .
يَبغون	يطلبون .
لقوم يُوقِنون	عند قوم يتدبَّرون الأمور .

لما بيّن الله أمر التوراة وما فيها من هُدى وأحكام، يقوم على تنفيذها أنبياء بنى إسرائيل والرَّبانيون والأحبار منهم ، وأمْرَ الإنجيل وما فيه من هدى ونور ، ناسب أن يذكر أنه أنزل القرآن على سيّد المرسلين ، وبيّن منزلته من الكتب التى قبله ، فأنزل قوله : « وأنزلنا إليك الكتاب . . . » .

مجمل المعنى

١ — وأنزلنا إليك القرآن أيها الرسول المصطفى ، مصدّقاً لما قبله من الكتب المنزلة ، ومقرراً أنها من عند الله ، ورقيباً على سائر الكتب التى أنزِلت ، وشهيداً على

ما أحدث بها من عبثوا بأصولها ، بتحريف الكلم عن مواضعه ؛ وقد حفظناهذا القرآن من كل ما اعترى غيره : « إنا نحن نزّلنا الذّكر، وإنا له لحافظون» ، فاحكم أيها الرسول بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إليك ، بما أنزل الله فى القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه ، ولا تتبعْ أهواءهم بالانحراف إلى ما يشتهونه ، كما يفعل رؤساؤهم ، الكلٍّ منكم أيها الأمم من مسلمين وكتابيّين ،جعلنا شريعة أوجبْنا عليكم إقامة أحكامها، وطريقاً واضحاً فى الدين فرضنا عليكم سلوكه ، ينسخ لاحقُه سابقَه،ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة،متفقة على دين واحد، فى جميع العصور ، ولو اقتضت مشيئته أن يجمعكم على دين الإسلام لنفذت مشيئته ، لكنه فرّقكم فرقاً ، ومنحكم العقول المفكّرة ، ليختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة ، المناسبة لكل أمة فى كل زمان ، ليتميّز المطيع من العاصى ، والخبيثُ من الطيب ، وليتبين أى الناس يُذعن لها ، وأيهم يزيغ عن الحق ، ويحيدعن الصراط السوىّ ، فسارعوا إلى الخيرات ، وابتدروها انتهازاً للفرصة ، ورغبة فى إحراز قصب السبق فيها ، لأنها هى المقصودة من جميع الشرائع ومناهج الدين . ولا تجعلوا من الدين والشرائع وسيلة للخلاف والتفرق ، إلى الله مرجعكم جميعاً يوم البعث ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون، بالجزاء الفاصل بين المحقّ والمبطل ، والعامل والمقصر ، فكل بما كسب رهين، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر .

٢ — حدث أن أحبار اليهود قال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى محمد ، لعلنا نَفتنُه عن دينه، فلما ذهبوا إليه ، قالوا له : يا محمد ، قد عرَفت أنا أحبار اليهود ، وأنا إن اتبعناك تبعنا اليهود كلهم ، وإنّ بيننا وبين قومنا خصومة ، فجئنا نتحاكم إليك ، لتقضىَ لنا عليهم ، ونحن نؤمن بك ونصدّقك ، فنزل قوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله . . . »، والمعنى :

أنزلنا عليك أيها الرسول القرآن ، لتحكم بين اليهود بما أنزل الله فيه ، ولا تتّبع ميولهم وأغراضهم ومآربهم ، واحذرهم أن يخدعوك ويضلّوك ، ويصرفوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن أعرضوا عن الحكم الذى أنزله الله عليك ، وأرادوا غيره ، وفشلوا فى محاولتهم خداعك ، فاعلم أن مشيئة الله اقتضت — بسبب عصيانهم وخداعهم — أن يصيبهم بالعقوبة فى الدنيا ، ببعض ذنوبهم التى اقترفوها ؛ وقد عاقبهم فى خلافة عمر ، بإجلائهم إلى الشام جميعاً — وسيجازيهم فى الآخرة على عصيانهم وتمردهم ، وإن كثيراً من الناس لمسرفون فى العصيان والتمرد ، والخروج عن طاعة الله .

٣ — وتحاكم إليه بنو قريظة وبنو النضير فى خصومة ، إذ كان يبغى بنو قريظة أن تكون دية القُرَظى ضِعف دية النضيرى ، كما كان الأمر فى الجاهلية ، لمكان للقوة والضعف بينهما ، فنزل قوله تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون . . . ؟ » ، والمعنى : أيطلب منك القُرَظيّون أن تحكم لهم بما كان متّبعاً زمن الجاهلية ، مخالِفاً لحكم القرآن ، ويتولّوْن عن قبول حكمك ، إن حكمت لهم على غير ما يريدون ؟ إنه لا يكون أحد حكمه أحسنُ من حكم الله ، عند قوم يتدبرون الأمور ، ويقيسونها بمقياس العدل والإنصاف .

(١٧)

من الآية ٥١ إلى الآية ٥٣ من سورة المائدة

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ — ١ — . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ : نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ، فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ — ٢ — . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ — ٣ — .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أولياء	أنصاراً وأصدقاء تُوادُّونهم .
فى قلوبهم مرض	فى قلوبهم ضعف اعتقاد .
يُسارعون فيهم	يسارعون إلى مودّتهم .
دائرة	مصيبة من مصائب الزمان كقحط ، أو يصير الأمر إلى الكفار .

الألفاظ	شرحها
بالفتح حَبِطَتْ أعمالهم	بالنصر لنبيه . بطلت أعمالهُم الصالحة .

كان من الضرورى بعد أن استقر الأمر للمسلمين ، أن ينظم رسولُ الله شئونهم ، وأن يعمل على ما يكفل الطمأنينة والسلام لهم من أعدائهم ، وكان بجزيرة العرب وما تاخمها طوائفُ من اليهود والنصارى ، تظهر البغى والحسد للمسلمين ، على ما وصلوا إليه من المنعة وشدة البأس ، وجماعة من المنافقين ، كانوا أشدّ خطراً من أعدائهم ، لاختلاطهم بالمسلمين ، والكيد لهم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم .

وحدث أن عُبادة بن الصامت ، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لى موالىَ من اليهود كثيراً عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله منهم ، وأوالى الله ورسوله ، فقال المنافق عبد الله بن أبىّ : إنى رجل أخاف الدوائر ، ولا أبرأ من وِلاية موالىّ ، فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . . . » .

مجمل المعنى

١ — ينهَى الله المؤمنين أن يتخذوا من أعدائهم من اليهود والنصارى أنصاراً وحُلفاء ، فاليهود بعضهم أولياء بعض ، والنصارى بعضهم أولياء بعض ، ويبيّن أن من وادّهم ، واتخذ منهم أصدقاء وحلفاء ، فإنه يكون من حزبهم ، ويكون الله ورسوله بريئَيْن منه ، والله لا يهدى القوم الذين

ظلموا أنفسهم ، بتعريضهم لعقاب الله ، بموالاة أعداء الله ، وأعداء رسوله والمسلمين .

٢ — وترى أيها الرسول المنافقين الذين فى إيمانهم ضعف ، الضالعين مع أعدائكم ، كلما وجدوا فرصة لتوثيق الصلة بهم ، سارعوا إليها ، يقولون : نخشى أن تقع بنا مصيبة ، وداهية تحيط بنا ، إذا دار الزمان على المسلمين ، فنحتاج إلى نصرة أعدائهم ، فنحن نتّخذ عندهم يداً فى السَّراء ، ننتفع بها عند الضَّراء ، تأميناً لمستقبلنا ، فإن الدهر قُلَّب ، وقد تزول دولة المسلمين ، ويتحوّل النصر إلى المشركين ؛ فلا تعبأ أيها الرسول بأمر هؤلاء المنافقين ، فالرجاء فى فضل الله تعالى ، وصِدْقُه فيما وعدك به من النصر ، وإظهار دين الحق على الأديان كلها ، أمر متحقّق الوقوع ، وعسى أن يأتى أمرُنا بفضيحتهم ، وهتْك أستار نفاقهم ، فيصبحوا نادمين على ما أضمروه فى أنفسهم ، من اتخاذ الأولياء من أعداء المؤمنين .

٣ — ويقول المؤمنون بعضهم لبعض ، حين فضح الله ما كان يبطنه هؤلاء المنافقون من الكيد للمسلمين ، تعجباً من حالهم : أهؤلاء هم الذين كانوا يَحْلِفون بالله أغلظ الأيمان ، جاهدين فى أدائها : إنهم لمنكم ، وإنهم لمعكم على السَّراء والضَّراء، وكانوا يقولون : « لئن قوتلتم لننصرنكم » فما أبطل أعمال هؤلاء المنافقين ! وما أخسرهم فى الدنيا والآخرة ! ولقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جُنده ، وهزَم حزب المنافقين وحده ، وخذل الكافرين ، وفضح المنافقين ، وكانت العاقبة للمتقين .

(١٨)

من الآية ٥٤ إلى الآية ٥٨ من سورة المائدة

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ —١— . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ —٢— . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من يرتد منكم عن دينه	من يرجع عن دين الإسلام .
يأتى الله بقوم	يأتى الله بدلهم بقوم .
أذلَّةٍ على المؤمنين	عاطفين على المؤمنين ، فهم معهم كالنَّاقة الذلول ، التى تنقاد لراكبها .
أعزَّة على الكافرين	أشدّاء على الكفار ، يتغلبون عليهم .
ذلك	ما تقدم من أوصاف القوم .
يؤتيه من يشاء	يمنحه من يشاء .
واسع	كثير الفضل .
عليم	يعلم من هو أهل للفضل علماً شاملا .
راكعون	خاشعون خاضعون .
هُزُوا	سُخرية .
ناديتم إلى الصلاة	أذّن المؤذّن للصلاة .

ارتداد بعض العرب عن الإسلام

من الأحداث التى أخبر الله عنها فى كتابه الكريم قبل وقوعها ، ارتدادُ بعض العرب عن الإسلام ، فقد ارتدّ جماعة منهم فى أواخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فى ثلاث قبائل وهى :

(١) بنو مُدْلِج ، ورئيسهم ذو الخِمار : الأسودُ بن كعب العَنْسى ؛ كان كاهناً ، فتنبَّأ باليمن ، واستولى على بعض بلاده ، وجعل يدّعى السِّحر ،

ويدعو إليه الناس ، فكتب رسول الله إلى عامله باليمن : مُعاذِ بن جبل ، وإلى سادات اليمن ، فأهلك الله الأسودَ العَنسى قبيل وفاة رسول الله ، وأخبر الرسول المسلمين بقتله ليلة قُتل ، نقلا عن الوحى ، فسُرُّوا سروراً عظيماً .

(ب) وبنو حَنيفة ، قوم مسَيْلِمة الكذاب بن حبيب ، تنبأ باليمامة ، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً يقول فيه : من مُسَيْلِمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله ؛ أما بعد ، فإنى أشْرِكت فى الأمر معك ، وإنَّ لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكنَّ قريشاً قوم يعتدون ؛ وقدِم برسالته إلى المدينة رسولان ، فلما قرأ رسول الله كتابه ، قال للرسولَيْن : فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقول كما قال ، فقال رسول الله : أمَا والله ، لولا أن الرسُل لا تُقتل ، لضربت أعناقكما ، ثم كتب إلى مسيلِمة : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى مسيلِمة الكذّاب ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ؛ وكان ذلك سنة عشرٍ للهجرة ، ثم حاربه أبو بكر بعد وفاة الرسول ، بجنودٍ من المسلمين ، وقتله وحشىٌّ قاتل سيدنا حمزة فى غزوة أحُد بعد إسلامه ، وكان يقول : قتلت فى جاهليتى خير الناس ، وقتلت فى إسلامى شرَّ الناس .

(ح) وبنو أسد ، بزعامة طُلَيْحة بن خُوَيلد ، ادعى أنه نبي ورسول ، وأيّد دعواه بالتنبؤ بموقع ماء ، فى يوم كان قومه فى موقعة قريبة منه ، ويكاد الظمأ يقتلهم ، فبعث أبو بكر إليه خالد بن الوليد بعد وفاة الرسول ، فانهزم ، وفرّ إلى الشام ، ثم أسلم وحسُن إسلامه .

وقد تنبأ فى زمن أبي بكر سَبْعُ فِرَق ، ومنعوا الزكاة ، منهم بعض

بنى تميم ، الذين بايعوا سَجاح بنت المنذر الكاهنة . وقد تزوّجت مسيلمة ، ولها معه قصّة ماجنة ، يضيق المقام عنها ، ونعِفُّ عن ذكرها ؛ وفى المتنبئين فى عهد أبى بكر ، ومنعهم الزكاة ، خَطب خطبته المشهورة ، التى يقول فيها : والله لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه ؛ وارتدّ فى عهد عمر جَبَلَةُ بن الأيهم ، آخر ملوك غسان بالشام ، لأن أعرابياً وطئ إزاره وهو يطوف بالكعبة ، فلطمه جبلة ، فأراد عمر أن يقتص منه ، فهرب إلى الشام وتنصر .

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى دين الكفر ، فإن ارتدادهم لا يفُتُّ فى عضد المسلمين ، فسوف يشتد أزر المسلمين ويقوى ساعدهم بقوم بدلهم ، يحبهم الله ويحبونه ، وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم عقب نزول هذه الآية إلى أبى موسى الأشعرى ، وقال : « هم قوم هذا » — وأبو موسى الأشعرى من اليمن — كما ضرب بيده على عاتق سلْمان الفارسىّ ، وقال : « هؤلاء ذووه » — وسلمان الفارسىّ من فارس — هؤلاء القوم ، هم أناس موطّئو الأكناف للمسلمين ، شديدو العطف والحنوّ عليهم ، يصيرون مع المسلمين كالناقة الذلول مع راكبها ، أشداء على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون إذا خرجوا للجهاد أن يعتب عليهم عاتب ، كما يحدث مع المنافقين حين يلومهم الكفار على خروجهم للجهاد مع رسول الله ، ولا يعملون عملا يلحقهم بسببه لوم لائم ، بل يعملون لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، ابتغاء رضا الله ، ذلك فضل الله يمنحه من شاء من عباده ، والله كثير الفضل ، عليم بمن يستحقه .

٢ - ولما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود ، قال : يا رسول الله : إن قومَنا من بنى قُريظة وبنى النَّضير قد هجرونا ، وأقسموا ألا يجالسونا ، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبُعْد المنازل ، فنزل قوله : «إنما وليُّكم الله ...» ، فقال ابن سلام : رضينا بالله ورسوله والمؤمنين أولياء ، والمعنى : لا تبالوا بمجافاة اليهود لكم ، ومغاضبتهم إياكم ، وحرمانكم الاتصال بهم ، فإنما وليُّكم الله ورسوله والمؤمنون ، وهم الذين يقيمون الصلاة فى أوقاتها بجميع حقوقها ، ويؤدون الزكاة ، وهم خاشعون فى صلاتهم ، متواضعون فى أداء زكاتهم ؛ ومن يتخذ الله ورسوله والمؤمنين أولياء فلن يُغلب ، وحالفه التوفيق والسَّداد ، لأن رسول الله والمؤمنين حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون المنتصرون .

٣ - وكان بعض اليهود والمشركين يضحكون من المسلمين حين يركعون ويسجدون ، ويسخرون منهم ، ويهزءون بهم ، إذا أذّن المؤذن للصلاة ، فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً . . . » ، والمعنى : يأيها المؤمنون ، لا تتخذوا من اليهود الذين يستهزئون بدينكم ، ويسخرون منكم حين تؤدون صلاتكم ، ولا الكفار الذين أشركوا بالله ، أصدقاء وأنصارًا وأحباباً ، بل جانبوهم وقاطعوهم ، واتقوا الله ، فلا تضعُوا الموالاة فى غير موضعها ، إن كنتم مؤمنين إيماناً صادقاً ، وتودُّون أن تحافظوا على كرامة هذا الإيمان ، ولا تقبلوا مهانته ؛ هؤلاء اليهود - لعبثهم ومجونهم وسوء أدبهم - إذا أذّن المؤذن للصلاة ، تندّروا على الأذان ، وقالوا : لقد ابتدع محمد شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم ، فهم يصيحون صياح البعير ، فما أقبحه من صوت ! وما أسمجه من أمر ! ثم يتضاحكون ويتغامزون ؛ ذلك العبث

بسبب أنهم قوم لا يعقلون حقيقة الدِّين ، ولو علموا لخشعت قلوبهم لذكر الله ، ولو عقلوا ما اجترءوا على ما اجترحوا ؛ ولا منافاة بين أن يكون عمل اليهود والكفار هذا عقب قدوم المسلمين إلى المدينة ، وبين نزول سورة المائدة فى أخريات سُوَر القرآن ، لأن فى سرد هذه الحوادث ، توجيهاً للمسلمين ، وإعلاناً لهم بما كانو يلاقون من عناء فى أداء عبادتهم .

(١٩)

من الآية ٥٩ إلى الآية ٦٣ من سورة المائدة

قُلْ : يٰأَهْلَ الْكِتَابِ ، هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّٰهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ؟ —١— . قُلْ : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّٰهِ ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللّٰهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا ، وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ —٢— . وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ ، وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ . وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٣— . لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ، وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تنقمون منا	تُنكرون منا ، وتعيبون علينا .
مَثُوبة	جزاء ثابتاً عند الله .

شرحها	الألفاظ
العجل أو الكهنة أو الشيطان .	الطاغوت
طريق الحق الواضح .	سواء السبيل
إذا جاءكم منافقو اليهود .	وإذا جاءوكم
وقد دخلوا إليكم متلبسين بالكفر .	وقد دخلوا بالكفر
وهم قد خرجوا من عندكم متلبّسين أيضاً بالكفر .	وهم قد خرجوا به
كثيراً من اليهود .	كثيراً منهم
الحرام .	السُّحْت
هلا ينهاهم ويزجرهم رؤساؤهم وفقهاؤهم .	لولا ينهاهم الربانيون والأحبار

سأل جماعة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمن يؤمن هُوَ به ، فقال : « أومن بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » . فلما ذكر عيسى ، جحدوا نُبوّته ، وقالوا : والله ما نعلم أهل دين أقلّ حظّاً فى الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شرّاً من دينكم ، ونحن لا نؤمن بعيسى ، ولا نؤمن بمن يؤمن به ، فنزل قوله تعالى : « قل : يأهل الكتاب هل تنقمون منا . . . » .

مجمل المعنى

١ – يأيها اليهود ، هل تنكرون منا مخالفتكم فى عقيدتكم ، وهى إيماننا بالله وبالكتب المنزلة كلها ، وتعيبون علينا ، وتكرهوننا من أجله ، مع أنه شىء لا يعاب ؟ وهل تسخطون منا أن أكثركم خارجون عن حظيرة

الإيمان الصحيح ؟ فمن منا أحق بالإنكار على غيره ، أنحن أم أنتم ؟ إنكم لقوم ظالمون .

٢ - قل لهم أيها الرسول : هل أخبركم بشر مما تنكرونه علينا ؟ هو دين من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القِردة والخنازير ، وعبد الطاغوت ، وهم أنتم ، أبعَدكم الله من رحمته ، وسخِط عليكم لكفركم ، وانهماككم فى المعاصى ، وسلب من أسلافكم عقولهم وتفكيرهم ، لما ارتكبوه من الآثام والأوزار ، حتى صاروا بمنزلة القردة والخنازير ، وعبدوا العجل والكهنة ، واستذلهم الشيطان فخضعوا لوسوسته ، فمن منا أهدى سبيلا ؟ أولئك أيها الرسول شر مكاناً ، إذ لا مكان لهم فى الآخرة إلا النار ، وأضل عن الطريق المستقيم .

٣ - وإذا جاءكم المنافقون منهم ، زعموا أنهم مؤمنون ، مع أنهم أيها الرسول يخرجون من عندك متلبسين بالكفر كما دخلوا ، لم ينتفعوا بحضورهم مجلسَك ، ولم يؤثر فيهم ما سمعوا منك ، فحالهم حين خروجهم من عندك هى نفس حالهم عند دخولهم ، والله أعلم بما كانوا يكتمون من سوء قصدهم ، بتسقُّط أخبار المسلمين ، وإبلاغِها لأعدائكم ؛ وترى كثيراً من هؤلاء اليهود يسارعون فى الكذب بادعائهم الإيمان ، ويسارعون فى مجاوزة الحد ، بارتكاب المعاصى ، ويسارعون فى أكل الحرام بما يتناولونه من الرشا ، لبئس شيئاً يعملونه : هذه الأمور القبيحة .

٤ - هلا ينهاهم ويزجرهم علماؤهم ورؤساؤهم ، عن قولهم الكذب ، وأكلهم الحرام ، لبئس شيئاً يصنعه هؤلاء الربانيون والأحبار : من الرضا بارتكاب هذه القبائح والمنكرات ؛ وهذه الآية تدل على أن تارك النهى عن المنكر ، كمرتكب المنكر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، وفى الآية أيضاً توبيخ للعلماء ، الذين يتركون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(٢٠)

من الآية ٦٤ إلى الآية ٦٦ من سورة المائدة

وَقَالَتِ الْيَهُودُ : يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ، يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ —١—. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا —٢—. وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ —٣—. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ —٤—. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ —٥—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مغلولة	مقبوضة عن إدرار الرزق علينا ، يريدون أن الله قد بخِل عليهم ، وأصل الغَلّ : وضع اليد على الصدر عند العنق ، وهو ضد البسط .
غُلَّت أيديهم	دعاء عليهم بأن يمسك أيديهم عن فعل الخير .
مبسوطتان	ممدوتان بالجود والسخاء .
يُنفِق كيف يشاء	يوسّع ويضيّق على حسب مشيئته ، ومقتضى حكمته .
ألقينا بينهم العداوة والبغضاء	أوقعنا بين اليهود والنصارى العداوة والبغضاء .
للحرب	لمحاربة رسول الله .
أطفأها الله	ردّهم بغيظهم لم ينالوا خيراً .
لكفّرْنا عنهم سيئاتهم	سترنا عليهم سيئاتهم ، بغفراننا إياها .
أقاموا التوراة والإنجيل	عملوا بما فيهما ، ولم يحرّفوهما .
لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم	لوسّع عليهم الرزق ، وأفاضه عليهم من كل جهة .
أمّةٌ مقتصدة	اتبعت سبيل القصد والعدل .
ساء ما يعملون	بئس ما كانوا يعملون .

كان اليهود فى سعة من العيش ، وبَسطة فى الغنى ، فلما عصَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كفّ الله عنهم ما كان يبسطه لهم من الرزق ، فقال فِنْحاص بن عازوراء رأس يهود بنى قَيْنُقاع : يد الله مغلولة عنّا ، فنزل قوله تعالى : « وقالت اليهود : يد الله مغلولة » .

مجمل المعنى

١ — وقالت اليهود عندما أحسُّوا غضب الله عليهم بتضييق الرزق : إن الله قد بخِل علينا بما كان يمُدُّنا به من الرزق ، وأمسك عنا نعمته ، وقبض عنا خيره وبركته ، وقتر علينا فى عطائه ؛ غُلَّت أيديهم وشُلَّت ، وأمسكت عن الإنفاق فى سبيل الخير ، وطُردوا من رحمة الله ، بسبب افترائهم هذا — وهاتان الجملتان يراد بهما الدعاء عليهم — فالله هو الجواد السخىّ ، يبسط يديه بالنعم على من يشاء ، ومن يبسُطُ يديه معاً لابد أن يبلغ أقصى غاية الجود — وليس لله يد ، ولكن لما كان عطاء الناس وبذلُ معروفهم ، يكون غالباً باليد ، جرى كتاب الله على المألوف فى الأساليب العربية — وبسْط اليد فى البذل ، وقبضها عن العطاء ، مما لهج به الشعراء ، قال بعضهم :

تعوّد بسط الكف حتى لو انه ثناها لقبْض لم تُطعه أناملُه

وروى النيسابورى فى تفسيره ، أن يهودياً من ذوى النفوذ فى عصره ، كان قد سمع بقول الله تعالى : «غُلَّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا» ، فدعا بمصحف مكتوب بأحسن خط ، ثم قال : أين هذه الآية ؟ فأرَوْه إياها ، فحاها ، فلم يمض أسبوع إلا وقد سخط عليه السلطان ، فبعث فى طلبه ، وأمر بغَلّ يديه ، ثم حملوه إليه على هذه الحالة ، فأمر بقتله ؛ وإذا كانت يدا الله مبسوطتين ، فهو يوسّع ويضيّق على حسب مشيئته ، ومقتضى حكمته ، ولا اعتراض لأحد عليه .

٢ — وليزيدَنّ ما أنزل الله إليك يا محمد من ربك من القرآن كثيراً من اليهود طغياناً وكفراً ، فكلما سمعوه ازدادوا طغياناً على طغيانهم ، وكفراً على

كفرهم ، مع أنه كان الأجْدَرُ بهم أن يُدْعِنوا لك ، ويؤمنوا بك .
فمثلهم كمثل المريض الذى يزداد مرضه إذا تناول الغِذاء الصالح للأصحّاء .

٣ - وأوقعنا بين اليهود والنصارى العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، فلا تتوافق قلوبهم ، ولا تتطابق أفعالهم ، ولا تتّحد كلمتهم ، فلا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة - وقد ظهرت هذه العداوة فى الحرب العالمية الأولى ، إذ نكل الألمان باليهود أشد تنكيل ، وأبادوا طائفة كبيرة منهم ؛ فكلما أوقدوا نار الحرب بين المسلمين ، وحاولوا إثارة الفتن والشر ، كف الله عنهم شرهم ، وخذلهم ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، فتقاعدوا عنها ، ولا غَرْوَ ! فهم قوم طُبعوا على الشر والفساد ، يمشون بين المسلمين بالنميمة ، والدس والوقيعة ، والله لا يحب المفسدين ، بل يبغضهم ، ويجازيهم على شرورهم وآثامهم بما يستحقون .

٤ - ولو أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا بمحمد ، واتقوا ما حرم الله من المعاصى ، لسترنا عليهم سيئاتهم التى اقترفوها بغفرانها لهم ، ولم نؤاخذهم عليها ، لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، ولأدخلناهم جنات النعيم .

٥ - ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل بالعمل بمافيهما ، ولم يحرفوهما ولم يبدلوهما ، وأذاعوا ما فيهما من نعت محمد ، والتبشير برسالته ، وقاموا بتطبيق أحكامهما ، وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من القرآن على لسان محمد ، الذى بشّرت به كتبهم - لو أنهم فعلوا ذلك ، لوسع الله عليهم أرزاقهم ، وأفاض عليهم من بركات السماء والأرض ، بالإكثار من ثمار الأشجار ، وغَلات الزروع ، ولكن الله قبض يده عنهم ، لكفرهم ومعاصيهم ؛ على أن منهم طائفة سلكت سبيل القصد والعدل ، وهم الذين آمنوا ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، وبعض النصارى ، وكثيرون منهم معاندون ، ككعب بن الأشرف ، والروم ، فبئس ما يعملون ! وما أقبح ما يفعلون !

(٢١)

من الآية ٦٧ إلى الآية ٦٩ من سورة المائدة

يٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ، بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ —١— . قُلْ : يٰأَهْلَ الْكِتَابِ ، لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ —٢— . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ، وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى ، مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإن لم تَفعل	إن كتمت شيئاً مما أُوحِيَ إليك .
فما بلَّغت رسالته	فما أدَّيت رسالة ربك على الوجه المطلوب .
لستم على شيء	لستم على دين صحيح .

الألفاظ	شرحها
حتى تقيموا التوراة والإنجيل	حتى تُراعوا أحكامهما ، وتحفظوهما من التحريف .
فلا تأس	فلا تحزن ولا تتأسف .
الصابئون	قوم خرجوا على اليهود والنصارى ، وعَبَدوا الملائكة والكواكب .

مجمل المعنى

١ — يأيها الرسول ، بلغ جميع ما أنزل عليك من ربك كائناً ما كان ، غير متهيب ، ولا مراقب أحداً ، ولا خائف أن ينالك أيّ مكروه أبداً ، وإن لم تبلغه جميعه ، وكتمت شيئاً منه ، لم تكن أدّيت رسالة ربك على الوجه المطلوب منك ، فلا تخش بأساً ، فالله يكفُل لك ألا يصيبك من أحد أى مكروه ، ويحميك من كل أذى ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين ، فلا يبلّغهم أمنيتهم فيك ، ولا يمكنهم مما أرادوا بك .

٢ — هذا البلاغ الذى نأمرك به ، هو أن تُجابه اليهود والنصارى بأنهم ليسوا على دين يُعتدّ به ، وليسوا على شىء من الحق والصِّدق ، لأنهم يعتنقون عقيدة باطلة ، مخالفة لما أنزلنا عليهم فى التوراة والإنجيل ، اللذين لم يتناولهما تحريف ولا تبديل ، وسيظلون على عقيدة فاسدة ، إلى أن يعملوا بمقتضى ما أنزلناه عليهم فيهما من نعتك ، والتبشير برسالتك ، وليزيدَنّ ما أنزل عليك من ربك فى كتابه كثيراً من اليهود والنصارى طغياناً على طغيانهم ، وكفراً على كفرهم ، إمعاناً منهم فى عداوتك ومعاندتك ، فلا تحزن ولا تتأسف على القوم الكافرين ، إذا لم يؤمنوا

بك ، فما عليك إلا البلاغ ، هذا ما رأينا أنه أدنى إلى الصواب فى تفسير هاتين الآيتين ، لأن هذه السورة من آخر ما نزل من القرآن الكريم ، فليس من المعقول أن يكون الأمر بالتبليغ فحسب ، فقد كان فى بدء البعثة ، يدل على هذا ما روى أن جماعة من اليهود أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : ألستَ تُقِرّ أن التوراة حق ؟ قال : بلى ، فقالوا : فإنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها ، فنزل قوله تعالى : «قُل يأهل الكتاب لستم على شىء . . . » .

٣ — إن الذين آمنوا ، واليهود ، والصابئون كذلك ، والنصارى ، من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وعمل عملا صالحاً ، فلا خوف عليهم يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على فوات ما يستحقونه من الثواب ، وهذه الآية تدل على أنّ الصابئين الذين ضلّوا ، وخرجوا عن أديان أهل الكتاب كلها ، إن تابوا وآمنوا بالله ورسوله إيماناً صادقاً ، وعمِلوا الأعمال الصالحة ، يتقبّل الله منهم توبتهم ، ويُدخلهم جنّته ، فيكون غيرهم من أهل الكتاب أولى بغفران الله ، إن استقاموا على الإيمان وأصلحوا — ووقعت : الصابئون هنا مرفوعة ، لأنها مبتدأ ، خبرها محذوف ، والتقدير : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا وكذا ، والصابئون كذلك ، ومثلُه فى كلام العرب كثير ، ومن ذلك قول ضابئ بن الحرث البُرجُمىّ :

فمن يكُ أمسى بالمدينة رَحْلُه فإنى وقيّار بها لَغريب

فوقعت « قيار » مرفوعة ، وقيار : اسم جمل ضابئ ؛ واجترأ بعض أعداء الإسلام على ادعاء الخطأ فى القرآن الكريم ، وألّفوا فى ذلك كتباً ، وعدُّوا رفع الصابئين من هذا الخطأ ، وجهل هؤلاء السخفاء ، أن النحوَ وُضع بعد نزول القرآن ، فإذا قصّر النحو عن الإحاطة بما ثبت عن العرب ، فليس العيب عيب القرآن ، وإنما العيب سُقم الأفهام .

(٢٢)

من الآية ٧٠ إلى الآية ٧١ من سورة المائدة

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ ، وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ ، فَرِيقًا كَذَّبُوا ، وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ -١- . وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، فَعَمُوا وَصَمُّوا ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ -٢- .

شرح الألفاظ ،

الألفاظ	شرحها
ألا تكون فتنة	ألا يقع عليهم بلاء وعذاب .
بصير بما يعملون	مُطَّلع على أعمالهم .

مجمل المعنى

١ – لقد أخذنا على بنى إسرائيل العهود والمواثيق المؤكدة فى التوراة ، أن يؤمنوا بمحمد عند بعثته ، فنقضوها ، وحرَّفوا كتابهم ، وأرسلنا إليهم رسلا منهم ليعظوهم ، ويبيِّنوا لهم أمر دينهم ، فكانوا كلما جاءهم رسول بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاقِّ التكاليف ، استكبروا وأعرضوا ،

وطغوْا وبغوْا ، فكذَّبوا فريقاً منهم إعراضاً وعصياناً ، كما فعلوا مع عيسى ، وقتلوا فريقاً ، كما فعلوا مع زكريا ويحيي ، وحاولوا قتل عيسى .

٢ — وظن بنو إسرائيل ألا يصيبهم بلاء وعذاب ، لأنهم كما يزعمون أبناء الله وأحبّاؤه ، بسبب تماديهم فى تكذيب الرسل وقتلهم ، فعمُوا عن الحق فلم يُبصِروه ، وعن الدِّين ودلائله فلم يهتدوا إليه ، وصمُّوا عن استماع الحق ، كما فعلوا مع هرون حين عبدوا العجل ، ثم تاب الله عليهم بعد أن أعلنوا توبتهم ، ثم تكرر من كثير منهم العمى والصَّمم كرّة أخرى ، والله مطلع عليهم ، فيجازيهم على أعمالهم .

(٢٣)

من الآية ٧٢ إلى الآية ٧٦ من سورة المائدة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وقَالَ الْمَسِيحُ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ —١— . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ، لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ —٢— . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ؟ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٣— . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ، كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، أُنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ —٤— . قُلْ : أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ؟ وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أنصار	أعوان .
ثالثُ ثلاثة	ثالث آلهة ثلاثة هو أحدهم ، والآخران عيسى وأمُّه ، أو الابن والروح القُدُس .
وما مِن إلهٍ إلا إلهٌ واحد	لا يوجد إله مّا إلا إله واحد ، متصف بالوحدانية .
خلت	مضت .
وأمُّه صدّيقة	وأمه كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق ، ويبالغن فى الاتصاف به .
كانا يأكلان الطعام	كانا كغيرهما من الأحياء ، يتناولان الطعام ، ومن تناوله احتاج إلى صرف فضلاته بالبول والغائط ، وهذا لا يتناسب مع مقام الألوهية .
الآيات	البراهين الدالة على وحدانيتنا .
أنى يؤفكون	كيف يُصرفون عن الحق مع قيام البرهان ؟
من دون الله	من غير الله .

مجمل المعنى

١ — لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح لهؤلاء الكفار الذين يؤمنون بهذه العقيدة من بنى إسرائيل أيام حياته : يا بنى إسرائيل ، اعبدوا الله ربي وربكم ، فإنى عبدٌ من عباده مثلكم ، وهو

خالقي وخالقكم ، ولست ابناً له كما تزعمون ، إنه من يشرك في عبادة الله أحداً ، أو ينسب إلى غيره ما يختص به من الصفات والأفعال ، فقد حرّم الله عليه دخول الجنة المعدّة للموحّدين ، ومأواه النار المعدة للمشركين ، الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها لعذاب الله على شركهم ، وعدلوا عن طريق الحق ، وليس للظالمين أحد من الأعوان والأنصار يمنعهم من عذاب الله يوم القيامة ، وقوله : « إنه من يشرك بالله . . . » إلى آخر الآية ، يحتمل أن يكون من كلام عيسى ، ويحتمل أن يكون من كلام المولى جل وعلا لهؤلاء المشركين ، للتنبيه على أنهم إن كانوا ينسُبون الألوهية إلى عيسى تعظيماً له ، وتقرّباً منه ، فإنه برىء منهم .

٢ — لقد كفرت طائفة أخرى من النصارى ، قالوا بالتثليث ، وهو أن الله أحدُ أقانيم ثلاثة ، والأقنومان الآخران : عيسى وأمه ، أو أن الثلاثة الأقانيم — الأصول — : الأب والابن والروح القدُس ، (تراجع الصفحة ٢٢ من تفسير هذا الجزء) ، والحال أنه لا يوجد إله مّا إلا إله واحد ، لا إله إلا هو ، فرد صمد لم يلد ، ولم يولَد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وإن لم ينته هؤلاء الذين يقولون بالتثليث عما يقولون ، ليُصيبنّ الذين أصرّوا على زعمهم ، ولم يُقلعوا عنه ، عذاب مؤلم في نار جهنم ،

٣ — أفلا يتوب إلى الله الذين يؤمنون بالتثليث من النصارى ، عن هذه العقيدة الفاسدة ، والأقوال الزائفة ، ويستغفرونه مما قالوا ، بتوحيده وتنزيهه عن أن يكون له شريك ؟ والله غفور رحيم ، يغفر لهم ذنوبهم ، ويمنحهم العفو من فضله ؛ والاستفهام هنا : للتوبيخ .

٤ — ليس المسيح ابن مريم إلا رسولا كسائر الرسل الذين أرسِلوا من قبله ، خصّه الله بمعجزات كما خصّهم بها ، فإن كان قد مكنه من إحياء الموتى ،

فقد مكّن موسى من إحياء العصا ، حتى صارت حية تسعى ، وإن كان الله قد خلقه من غير أب ، فقد خلق حواء من غير أم ، وخلق آدم من غير أب ولا أم ، وما مريم أم عيسى إلا كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق ، ويتّسمن بالفضل ، وقد صدقت فى تبرئة نفسها حين رماها اليهود بالزنى ، وكان عيسى وأمّه يعيشان كما يعيش جميع الناس ، ويأكلان الطعام كسائر الأحياء ، ومن افتقر إلى الطعام ليعيش ويحيا ، كان مضطراً إلى أن يتبوّل ويتغوّط ، لتصريف فضلات الطعام ، كغيره من سائر الحيوان ، وهذا يتنافى مع الربوبيّة ، ويدل على أنهما بشر كسائر الناس ؛ فانظر يا محمد وتعجب ! كيف نبين لهؤلاء المشركين البراهين الدّالة على وحدانيتنا ، ثم انظر كيف يصرفون عن استماع الحقّ وتأمُّله ، والإصاخة إليه ، مع قيام البرهان عليه ، ويُعرضون عنه عناداً واستكباراً .

٥ — قل لهم يا محمد : أتعبدون من غير الله ما لا يملك لكم ضرّاً إن تركتم عبادته ، ولا نفعاً إن عبدتموه ؟ بل هو لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ، وهو عيسى عليه السلام وأمُّه ، وإن ملك أحدهما شيئاً ، فبما يمده الله به ، لا بقدرته هو ، والله هو السميع لأقوالهم ، العليم بأفعالهم ، وعقائدهم ، فيجازيهم عليها بما يستحقون .

(٢٤)

من الآية ٧٧ إلى الآية ٨١ من سورة المائدة

قُلْ : يٰأَهْلَ الْكِتَابِ ، لاَ تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ، وَأَضَلُّوا كَثِيراً ، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ —١— . لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ —٢— . تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ : أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَفِى الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ —٣— . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِىِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَلٰكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لاتَغْلُوافى دينكم غير الحق	لا تُفرطوا في دينكم إفراطاً تتجاوزون فيه الحق وتخالفونه .

الألفاظ	شرحها
أهواء قوم	الأهواء : جمع هوى ، وهو الباطل الموافق لما ترغب فيه النفس .
قدضلّوا من قبل	وقد ضلّوا قبل بعث الرسول .
وضلوا عن سواء السبيل	وضلوا عن الحقّ بعد مبعث الرسول .
على لسان داود وعيسى ابن مريم	فى الزبور والإنجيل .
لا يتناهون عن منكر	لا ينهى بعضهم بعضاً عن اقتراف المعاصى ومعاودتها .
يتولّون الذين كفروا	يُوادّون الكفار بمكة ، ليتعاونوا معاً على محاربة الرسول .
سخط الله عليهم	غضب الله عليهم .

مجمل المعنى

١ — يأهل الكتاب من يهود ونصارى ، لا تتجاوزوا الحدّ فى دينكم ، تجاوزاً يؤدى إلى مخالفة الحق الواضح ، فترفَعُوا أيها النصارى عيسى وأمّه إلى مقام الألوهية ، أو تُنزلوا أيها اليهود عيسى عن مرتبة الرسل ، وتَرْموا أمه بالزنى ، ولا تتبعوا أهواء قوم من أسلافكم وأئمتكم ، قد ضلّوا فى شريعتهم من قبله ، بتحريفها وتغييرها وتبديلها ، قبل مبعث محمد عليه الصلاة والسلام ، وابتدعوا ما ليس فيها ، وأضلّوا كثيراً ممن شايعوهم على بِدعِهم وضلالهم ، أو أحسنوا الظن بهم ، وضلّوا عن قصد السبيل وهو الإسلام ، بعد مبعث محمد ، بتكذيبه ومقاومة دعوته .

٢ — لعَن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود فى الزبور الذى أنزله الله عليه ، وعلى لسان عيسى فى الإنجيل الذى أنزله الله عليه ، فقد جاء فيهما : « ملعون من يكفُر من بنى إسرائيل بالله ، أو بأحد من رسله » ، وإنما استحقوا هذا اللعن والطرد من رحمة الله ، بسبب عصيانهم واعتدائهم ، إذ أحلُّوا لأنفسهم ما حرّمه الله عليهم بغياً وعدْواً ، واقترفوا المنكرات والمعاصى جهرة ، وكانوا لإمعانهم فيها ، لا ينهَى بعضهم بعضاً عن ارتكابها ، ولا يخضعون لمقتضى الآداب والفضائل ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقصُ على بنى إسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول له : اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحلّ لك ، ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه ، فلما فعلوا ذلك ، ضرب الله قلوب بعضهم ببعضٍ » ، ألا سُحْقاً لهؤلاء القوم ، وما أسوأ ما كانوا يفعلون ! والنهى عن المنكر فرض على من أطاقه من المسلمين ، إن أمِنَ الضرر على نفسه ، فإن خاف الضرر ، أنكره بقلبه ، وهجر من يفعل المنكر فلا يخالطه ، وفى الآية دليل على النهى عن مجالسة المجرمين ، وحضٌّ على هجرانهم .

٣ — ترى كثيراً من اليهود ، ككعب بن الأشرف وأصحابه ، يودُّون كفار مكة ، ويخرجون إليهم ليتفقوا معهم على محاربتك ، بُغضاً وحسداً لك ، فبئس عملا قدَّموه . يرِدون به على الله يوم القيامة ، فيستوجب سخطه عليهم ، ويستحقُّون من أجله خلودهم فى العذاب أبد الآبدين .

٤ — ولو كانوا يُقلعون عن عنادهم ، ويؤمنون بالله ، ويصدّقون برسوله ، وما أنزل عليه من القرآن ، ما اتخذوا هؤلاء الكفار أولياء وأصدقاء ، لأن الإيمان يزَعهُم عن توليهم ، ولكن كثيراً منهم خارجون عن طاعته ، مُفرِطون فى العناد ، والقليل لا تأثير له ، فهم جميعاً غارقون فى الضلال ، ممعنون فيه .

فهرس الجزء السادس

الرقم المسلسل	أسماء السور	أرقام الآيات فى السور	الصفحات
١	النساء	من ١٤٨ — ١٥٢	من ٣ — ٦
٢	»	» ١٥٣ — ١٥٩	» ٧ — ١٢
٣	»	» ١٦٠ — ١٦٢	» ١٣ — ١٥
٤	»	» ١٦٣ — ١٦٩	» ١٦ — ١٩
٥	»	» ١٧٠ — ١٧٣	» ٢٠ — ٢٣
٦	»	» ١٧٤ — آخر السورة	» ٢٤ — ٢٦
١	المائدة	» ١ — ٢	» ٢٧ — ٣٢
٢	»	» ٣ — ٥	» ٣٣ — ٤١
٣	»	» ٦ — ٧	» ٤٢ — ٤٥
٤	»	» ٨ — ١١	» ٤٦ — ٤٨
٥	»	» ١٢ — ١٤	» ٤٩ — ٥٣
٦	»	» ١٥ — ١٦	» ٥٤ — ٥٥
٧	»	» ١٧ — ١٩	» ٥٦ — ٥٨
٨	»	» ٢٠ — ٢٦	» ٥٩ — ٦٣
٩	»	» ٢٧ — ٣٢	» ٦٤ — ٦٨
١٠	»	» ٣٣ — ٣٤	» ٦٩ — ٧١
١١	»	» ٣٥ — ٣٧	» ٧٢ — ٧٣
١٢	»	» ٣٨ — ٤٠	» ٧٤ — ٧٥
١٣	»	» ٤١ — ٤٣	» ٧٦ — ٨٠
١٤	»	» ٤٤ — ٤٥	» ٨١ — ٨٤
١٥	»	» ٤٦ — ٤٧	» ٨٥ — ٨٦
١٦	»	» ٤٨ — ٥٠	» ٨٧ — ٩٠
١٧	»	» ٥١ — ٥٣	» ٩١ — ٩٣
١٨	»	» ٥٤ — ٥٨	» ٩٤ — ٩٩
١٩	»	» ٥٩ — ٦٣	» ١٠٠ — ١٠٢
٢٠	»	» ٦٤ — ٦٦	» ١٠٣ — ١٠٦
٢١	»	» ٦٧ — ٦٩	» ١٠٧ — ١٠٩
٢٢	»	» ٧٠ — ٧١	» ١١٠ — ١١١
٢٣	»	» ٧٢ — ٧٦	» ١١٢ — ١١٥
٢٤	»	» ٧٧ — ٨١	» ١١٦ — ١١٨

١٩٥٤/٤٠٥٦

تفسير القرآن الكريم

الجزء السابع

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

من سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من الآية ٨٢ إلى الآية ٨٦ من سورة المائدة

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا
نَصَارَى : ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا ، وَأَنَّهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ -١- . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ، تَرَى
أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ : رَبَّنَا
آمَنَّا ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ -٢- . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللّٰهِ
وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ، وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ
الصَّالِحِينَ ؟ ! -٣- . فَأَثَابَهُمُ اللّٰهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الذين أشركوا	كفار مكة .
رهباناً	جمع راهب ، وهو المنقطع للعبادة فى دير أو صومعة ، الذى يحرم نفسه لذائذ الطعام ، والتنعم بالزواج .
تَرى أعينهم تفيضُ من الدمع	ترى أعينهم تمتلىء بالدمع ، حتى يتدفق من جوانبها لكثرته
فاكتُبنا مع الشاهدين	فاكتبنا مع المقرّين بنبيك وكتابِك .
وما لنا لا نؤمن بالله	وأى مانع يمنعنا من الإيمان بالله ؟

هجرة المسلمين إلى الحبشة

لما اشتد أذَى قريش للمسلمين ، أشار عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتفرّقوا فى الأرض ، فسألوا : أين نذهب ؟ فنصَحَ لهم أن يذهبوا إلى الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظلَمُ عنده أحدٌ ، حتى يجعل الله لهم فَرَجاً مما هم فيه ، فهاجر جماعة منهم إليها ، منهم من خرج بأهله ، ومنهم من خرج وحده ، فراراً إلى الله بدينهم ، وكانوا جميعاً أحدَ عشرَ رجلا وأربعَ نساء ، وأقاموا فى خير جِوار من النجاشىّ ؛ لم يسترح أهل مكة إلى هجرة المسلمين إلى الحبشة ، خَشية أن ينشروا الإسلامَ بها ، فأرسلوا عَمرَو بنَ العاص — قَبلَ إسلامه — وعبد الله بنَ أبى ربيعة ، إلى النجاشى ، ومعهما هدايا إليه ، مما يُستطرفُ

من متاع مكة ، ولم يتركوا بطريقاً إلا أهدوا إليه هدية ، وقالوا للرسولين : ادفعا إلى كل بطريق هديته ، قبل أن تكلما النجاشيّ ، ثم قدّما إلى النجاشيّ هداياه ، وسَلاه أن يسلم إليكما المسلمين قبل أن يكلمهم ، فأبى النجاشيّ أن يفعل ، حتى يسمع ما يقول المسلمون ، ثم جمعهم ، فتكلم جعفر بن أبي طالب أحدُ المهاجرين ، وابن عم رسول الله ، كلاماً ألمّ فيه بما كانوا عليه زمن الجاهلية من ضَلال ، وما صاروا إليه بعد الإسلام من التحلى بمكارم الأخلاق ، فقال له النجاشيّ : هل معك مما جاء به محمد من عند الله شيء تقرؤه عليّ ؟ قال : نعم ، وتلا عليه وعلى بطارقته سورة مريم ، إلى قوله حكاية عن عيسى عليه السلام : « والسلامُ عليّ يومَ وُلدتُ ، ويومَ أموتُ ، ويوم أبعثُ حياً » ، فلما سمع النجاشيُّ وبطارقته ما قرأه جعفر بن أبي طالب ، بكوا حتى اخضلّت لِحاهُمْ — ابتلّت — ثم قال النجاشيّ : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرجان من نَبْعٍ واحد ، ثم قال للرسولين : انطلقا ، فوالله لا أسلمهم إليكما ، رُدُّوا إليهم هداياهم ، فلا حاجة لى بها .

مجمل المعنى

١ — لَتجدَنّ يا محمد أشدّ الناس عداوةً لك ولمن آمن بك ، اليهودَ والمشركين ، أما اليهودُ فلانهماكهم فى اتباع الهوى ، وتجرّئهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم ، وأما المشركون فلشدة شكيمتهم ، وركونهم إلى تقليد من سبقوهم ، وإيغالهم فى العناد ، ولتجدنّ أقربَهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، لتواضعهم ، ولينِ جانبهم ، ورقة قلوبهم ، وسرعة انقيادهم إلى الحق ، ذلك بسبب أن منهم قسيسين يتولون تربية أتباعهم تربية دينية ، ورهباناً زاهدين فى الدنيا ولذائذها ، منقطعين لعبادة الله ،

وأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق إذا عرفوه ، ولا يتعاظمون عن الانقياد إليه كما يفعل اليهود .

٢ — وإذا سمع هؤلاء النصارى ما أُنزِل إلى الرسول من القرآن ، ترى أعينهم تفيض دموعها ، لشدة خشيتهم ، ورقة قلوبهم ، لأنهم عرفوا بعض الحق مما أوحينا به إليك ، ولمجرد أنهم سمعوا قليلا من القرآن ، فكيف بهم إن تُلِيَ عليهم كثير منه ؟ يقولون : ربَّنا آمنَّا بكتابك ورسولك ، لأنهم عرفوا مما قرءوه فى كتبهم ، ومما تناقلوه عن أسلافهم ، أن نبياً سيبعث ، وأن الإنجيل قد بشَّر به ، وأنه قد حان حِينه ، وآن أوانه ، فاكتبنا ربَّنا مع الشاهدين ، الذين يُقِرُّونَ بنبيك وبكتابك .

٣ — وأى مانع يمنعنا من الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته ، وبما جاءنا من الحق على لسان هذا الرسول ، بعد أن ظهر لنا أنه هو الذى بَشَّر به المسيح ؟ وإنا لنطمع بإيماننا به ، أن يدخلنا ربنا فى زُمرَة القوم الذين صلَحت نفوسهم ، باعتناق العقائد الصحيحة ، وهم أتباع هذا النبىّ ، الذين لمسنا فيهم أثر صلاحهم ، بعدما كانوا فيه من عَماية الجاهلية ، وضلالة الوثنية .

٤ — فجزاهم الله على ما قالوا جناتٍ فى الدار الآخرة ، تجرى من تحتها الأنهار يخلدون فيها ، وذلك عند الله جزاء المحسنين ، الذين تخشع قلوبهم لذكر الله وما نَزَل من الحق ؛ والذين كفروا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا ، وصدْق رسولنا ، أولئك أصحاب الجحيم ، يلقون فيها نكالا وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة ، وعذاباً أليماً .

(٢)

من الآية ٨٧ إلى الآية ٨٨ من سورة المائدة

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ -١- . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
طيباتِ ما أحلَّ اللهُ	ما لذَّ وطابَ مما أحلَّهُ اللهُ .
ولا تعتدوا	ولا تتعدَّوْا حدودَ اللهِ وأوامره .

المبالغة فى الزهد

رُوِيَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصَفَ لأصحابه القيامة وأهوالها يوماً ، وبالغ فى إنذار من لا يؤدى حقوق الله والناس ، فاجتمع عشرةٌ منهم فى بيت عثمان بن مظعون ، واتفقوا على أن يلتزموا الصيام نهاراً ، والقيام ليلا ، وأن يلبَسوا المُسوح ، ويعتزلوا النساء ، وألا يناموا على فراش ، وألا يأكلوا لحماً ولا دَسماً ، وألا يتناولوا من الطعام إلا ما يُمْسِك رمَقَهم ؛ فبلغ ذلك رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فأتى دارَ عثمان بن مظعون فلم يجدْه ، فقال لامرأته : أحقٌّ ما بلغنى عن زوجك وأصحابه ؟ فكرِهتْ أن تُنكر ، وكرِهت أن تقول ما لا يراه زوجُها ، فقالت : يا رسول الله ، إن كان عثمان قد أخبرك فقد صَدَقك ، وانصرف رسول الله ، فلما دخل عثمان داره أخبرته زوجته ، فأتى رسول الله هو وأصحابُه ، فقال عليه الصلاة والسلام: أنبئتُ أنكم اتفقتم على كذا وكذا ، قالوا : نعم يا رسول الله ، وما أردنا إلا الخير ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى لم أوَمرْ بذلك ، وإن لأنفسكم عليكم حقاً ، فصوموا وأفطِروا ، وقوموا وناموا ، فإنى أصوم وأفطِر ، وأقوم وأنام، وآكلُ اللحم والدسَمَ ، وأباشر النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ، ثم نزل قوله : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا . . . . »

مجمل المعنى

١ - يأيها المؤمنون ، إن الدين يُسرٌ ، وما جعل الله عليكم فى الدين من حَرَج ، ولا رهبانيةَ فى الإسلام ، فلا تحرّموا على أنفسكم ما لذّ وطاب مما أحله الله لكم ، ولا تتعدوا حدود الله ، ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه ، إن الله لا يحب من يتجاوزون أوامر الله ، أو يفعلون ما نهى الله عنه .

٢ - وكلوا حلالا طيباً ما لذّ وطاب مما أحلّ الله لكم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، فلا تتعدوا حدود ما أحله وحرمه

(٣)

الآية ٨٩ من سورة المائدة

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ : إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ، أَوْ كِسْوَتُهُمْ ، أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ —١— . ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
باللغو فى أيمانكم	بما يصدرُ عن الإنسان ، مما يسبق إليه اللسان ، من غير قَصْدِ الحلف .
بما عقَّدتم الأيمان	بالأيمان التى حلفتموها عن قصد ، وحنثتم فيها .
فكفارته	فكفارة نَكْثِ اليمين ، والكفارة : هى التى يُمْحى بعدها أثرُ الخطيئة .
أوسط ما تطعمون أهليكم	من أغلب ما تطعمونه لأهاليكم ، لا أدناه ولا أعلاه .

كان الذين حرّموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله لهم ، قد حلفوا على تحريمها ، فلما نُهوا عنه ، قالوا : كيف نصنع بأيماننا ؟ فنزل قوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله . . . » .

مجمل المعنى

١ — فى الآية حضٌّ على تَرْك الحلف ، لأن من اعتاد لسانه كثرة الحلف ، لا يصدَّق وإن كان صادقاً ، وهناك أيمان تجرى على اللسان ، ولا يُقصَد بها الحلف ، تسمى لغواً ، وهى الأيمان التى تصدر من الإنسان عن غير قصد ، كأن تقول : لا والله ما رأيت فلاناً ، أو بلى والله قابلته ، أو الحلف على ما يغلب على ظنه أنه صحيح ، ثم يتضح عدم صحته ؛ واللغو من الأيمان لا يؤاخذ الله الإنسان عليه ، وإنما يؤاخذه على نكث الأيمان التى يُوقعها بالقصد والنية ، فإن كان حانثاً فلا يرفع عنه الوزرُ ، إلا إذا أدى كفارة اليمين التى حنث فيها ، وتكون الكفارة بإحدى وسائل ثلاث ، والحالف مخير فى اختيار إحداها ، وهى :

ا : إطعام عشرة مساكين ، بحيث يكون الطعام مطابقاً لأغلب ما يُطعمه الحالف لأهله ، قدراً ونوعاً ، وأفضل طعام للمساكين ، ما كان من الخبز واللحم .

ب : أو كسوة عشرة مساكين ، بأن يكسوَ كل واحد منهم ثوباً يستر عامةَ بدنه .

حـ : أو تحرير رقبة مؤمنة من الرقّ .

فمن لم يجد فى مكنته القيامَ بأحد هذه الثلاثة : الإطعام أو الكسوة

أو عتق الرقبة ، بأن لم يكن له فضل على رأس ماله الذى يعيش به ، أو كان فقيراً عاجزاً عن القيام بأحدها ، أو منَعه تحريم الرِّق ، كفَّر عن الحنث فى يمينه بصيام ثلاثة أيام متتابعات .

٢ ـ ذلك الذى سبق هو كفارة أيمانكم إذا حلفتم وحنثتم ، واحفظوا أيمانكم ، بأن تضنوا بها ، ولا تبذلوها فى كل أمْرٍ ، وقلّلوا منها ما استطعتم ، ولا تجعلوا الله عرضةً لأيمانكم وقد أوضحنا شيئاً عن الأيمان فى الصفحة ١٠٨ من تفسير الجزء الثانى ؛ كذلك البيان الذى سبق ذكره ، يبين الله لكم شرائعه وأحكامه ، لعلكم تشكرون .

٣ ـ ولا ينعقد الحَلِف إلا إذا كان بالله ، أو باسم من أسمائه الحسنى : كالرحمن والسميع ، أو صفاته العليا : كعزته وقدرته ، وعلمه وعظمته ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمُتْ » ؛ أما الحلف بالنبىّ والأولياء والأب ، فلا كفّارةَ له عند الحِنث ، وقد يكون الحِنْثُ مستحباً ، إذا رأى الحالف العدولَ عما حلف عليه ، لأنه رأى غيره أفضل منه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : من حلف على يمين ، ورأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذى هو خير .

(٤)

من الآية ٩٠ إلى الآية ٩٣ من سورة المائدة

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ، وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ ، رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ —١— . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ —٢— . وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ —٣— . لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ، إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الميسر	القمار .
الأنصاب	هى التى ينصبها المشركون ، ويقيمونها لعبادة غير الله .

الألفاظ	شرحها
الأزلام	قِداح الاستقسام ، وسنشرحها فيما يلى
رِجسٌ	خبيث قذر ، وإثم وعمل قبيح .
من عمل الشيطان	يزينه الشيطان لكم .
يصدّكم	يصرفكم ويمنعكم .
جناح	إثم وذنب .
فيما طعموا	فيما تناولوه من الخمر قبل التحريم .

أتى سعدُ بن أبي وقّاص جماعة من الأنصار ، وهم فى بستان ، وأمامهم رأسُ جزور مشوى ، وزقٌّ من خمر ، فأكل وشرب معهم حتى انتشوا ، فلما سكروا تفاخروا ، فقال سعد : المهاجرون خيرٌ من الأنصار ، فأخذ رجل من الأنصار لَحْيَ بعير — وهو منبت الأسنان — فضرب به سعداً فجرح أنفه ، فأتى سعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فنزلت هذه الآيات ، (يراجع الجزء الثانى ، ص ١٠٠ — ١٠١)

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، إن المسكرَ الذى يخامرُ العقل ويغطيه من أنواع الأشربة ، والميسرَ « وهو القمار على كافة صوَرِه وأنواعه » ، وعبادة الأنصاب « وهى الأصنام التى ينصبها المشركون ويقيمونها للعبادة من دون الله » ، سواء أكانت مصوّرة أم غير مصورة ، والاستقسام بالأزلام — « وهى ثلاثة قداح ، كان العرب يستعملونها لمعرفة ما قسمه الله لهم من أمور

الغيب ، إذا أرادوا سَفراً أو زواجاً أو نحوهما ، مكتوب على أحدها : أمرنى ربى ، وعلى الثانى : نهانى ربى ، والثالث : غُفلٌ لا كتابةَ عليه » ، وقد فصَّلْنَا هذا فى الصفحة ٣٨ من تفسير الجزء السادس ، عند تفسير قوله تعالى : « وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق » — كل هذا إثم وعملٌ قبيح ، يزينّه لكم الشيطان ، فاجتنبوه لتفلحوا فى حياتكم ، وتفوزوا برضا الله تعالى ؛ وهذه الآية وما بعدها نسخت الآية التى نزلت فى الخمر ، المذكورة فى الصفحة ٩٨ من تفسير الجزء الثانى .

٢ — إنما يريد الشيطان بتزيينه لكم شُربَ الخمر ولعْب الميسر ، أن يوقع بينكم العداوةَ والبغضاء ، فإن شارب الخمر متى سَكِر فَقدَ عقلَه وهُدَى ، فصدر من فلتات لسانه من الأقوال ، ومن حَركاته من الأفعال ، ما يسوءُ غيرَه ، وكثيراً ما يؤدِّى هذا إلى التشاحن والتشاجر ، أو يجرُّ إلى معصية ، شرٍّ من شرب الخمر ، وهى ارتكابُ الزنى ؛ ولعب الميسر يحقد فيه الخاسر على الرابح ، وقد تمتد يد الخاسر إلى ما ليس له ، أو ما فى عُهدْته من أموال الحكومة ، فيخسر وظيفته ، ويُساق مكبلا إلى السجن ، وكثيراً ما أفضت خسارة لاعب الميسر إلى الانتحار ؛ هذا إلى أنه يفرِّط فى حق أسْرته ، فيهمل حاجاتهم الضرورية ، لحاجته الملحة إلى المال الذى يقامر به ، كما أنَّ شرب الخمر ولعب الميسر يصرفان الإنسان عن ذكر الله وعن الصلاة ، لأن شارب الخمر يفقد عقله الذى يذكره آلاءَ الله ونعمَه ، وينصرف إلى الاستغراق فى لهوه وملاذِّه ، ولو حاول الصلاة لم يستطع أداءها ؛ والمقامر يتجه بكل جوارحه إلى اللعب الذى يرجو منه الربح ، ويخشى الخسارة ، فإن كان كاسباً انشرح صدره ، ومنعه حبُّ الكسب عن القيام لأداء الصلاة لئلا يخونه الحظ ، وإن كان خاسراً أصابه من الغم والكدر ما يحثه على الاحتيال لاسترداد خسارته ، فلا يخطر

بباله ذكر الله ، ولا يفكر فى أداء الصلاة ، وإن صلى كان كلُّ تفكيره منصرفاً إلى ما أصابه من الربح أو الخسارة ، فيسهو عن القيام بأداء فرائض الصلاة ، ويدخل فيمن عناهم الله تعالى بقوله : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون » ؛ فهل أنتم أيها العاكفون على هاتين الرّذيلتين ، العاصون لأوامر الله ، الخارجون عن طاعته ، منتهون عنهما ؟ أو أنكم لم يؤثّرْ فيكم وعظٌ ولا زجرٌ ؟ وكان عمر رضى الله عنه لمّا رأى ما فى الخمر من المفاسد ، قال : اللهم بيِّنْ لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فلما نزل قوله : « فهل أنتم منتهون » ؟ قال : انتهينا يا رب ، وعلى إثر تحريم الخمر ، كلّف رسول الله منادياً ينادى فى المدينة : « ألا إن الخمر قد حُرِّمتْ » ، فكسرت الدّنان ، وأريقت الخمر فى سكك المدينة .

٣ — وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فى جميع ما أمرا به ونَهيا عنه ، واحذروا مخالفتهما ، فإن أعرضتم ولم تعملوا بما أمرتم به ، فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ، وهو لم يألُ جهداً فى إبلاغكم ، فقامت الحجة عليكم ، وانقطع ما قد تتعللون به ، ولم يبق بعد ذلك إلا العقاب الأليم .

٤ — ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات : الأحياء منهم والأموات ، الغائب منهم والشاهد ، الذين شربوا الخمر قبل تحريمها ، إثمٌ ولا ذنب فيما تناولوه منها ، إذا اتقوا المحرمات ، وآمنوا بما أنزله الله تعالى فيها ، وعملوا الأعمال الصالحة ، وكلما حُرِّمَ عليهم شىءٌ من المباحات اتقوْه ، واستمرّوا على ما هم عليه من الإيمان ، ثم ثبتوا على اتقاء كل معصية ، وابتعدوا عن كل حرام ، وتحرّوا الإحسان فى كل أعمالهم ، وأتوا بها بعيدة عن كل الشُّبهات ، والله يحب المحسنين .

(٥)

من الآية ٩٤ إلى الآية ٩٧ من سورة المائدة

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّٰهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ، لِيَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ —١— . يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا ، فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، —٢— . أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، —٣— . عَفَا اللّٰهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ ، وَاللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ —٤— أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ، وَاتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ —٥— . جَعَلَ اللّٰهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ، وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ، ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ليبلونكم	ليختبرنّكم .
بالغيب	ما هو غائب عن مرأى العيون .
وأنتم حرُم	وأنتم محرِمون .
فجزاء مثل ما قتل من النَّعم	فعليه جزاء من الإبل والبقر والغنم ، يماثل ما قتله .
ذوا عدل	رجلان عادلان منكم ، فيهما فطنة .
هدْياً بالغ الكعبة	يُهدى إلى الحرَم ، ويصل إليه ، ويذبح فيه ، ويُتصدق بلحمه على المساكين .
كفارة	ما يمحى بها أثر الخطيئة .
أو عَدْل ذلك صياماً	أو عليه ما يعادل ذلك الطعام صياماً ؛ فيصوم عن كل مُدٍّ يوماً ، والمد : كيل ، وهو رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز .
ليذوق وبال أمره	ليذوق جزاء شر عمله .
عما سلف	عما مضى .
وطعامه	ما يطعمه من صيد البحر .
وللسيارة	وللمسافرين منكم ، يتزودون به .
حرم عليكم صيد البر	حرم عليكم صيد ما يعيش فى البر .
ما دمتم حُرُماً	مادمتم محرمين .
البيت الحرام	البيت المحرم وهو الكعبة .

الألفاظ	شرحها
الشهر الحرام	الشهر الذى تؤدَّى فيه مناسك الحج ، ويحرم فيه القتال ، وهو ذو الحِجة .
قياماً للناس	يقوم به أمْرُ معاشهم ومعادهم .
الهَدْى	ما يهْدَى من الأنعام إلى الكعبة .
القلائد	الإبل التى تقلَّد بنعل ، أو لحاء شجر ، أو غيرها ، ليعلم أنها هَدْى .

فى عام الحديبية ، سنة ست للهجرة ، أذَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين بالحجّ ، فخرج فى أول ذى القَعدة ، ومعه من المهاجرين والأنصار ومن لَحِقَ بهم من العرب ألف وأربعمائة ، فلما كانوا عند ذى الحُلَيْفة — وهى قرية بينها وبين المدينة نحو سبعة أميال ، وهى ميقات أهل المدينة — أحرَموا عندها ، فلما غادروها فى طريقهم إلى مكة محرمين ، كانت طوائف من الوحوش ، وأسرابٌ من الطير تغشاهم ، والصيد ألذ الطعام وأطيبه ، والحاجة فى السفر الطويل الشاق إليه شديدة ، وسهولة تناوله تغرى به ، فنزلت هذه الآيات .

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون من ذكر وأنثى ، لنَعاملنكم معاملةَ من يختبركم بشىء من الصيد ، ليتبين المطيع من المخالف منكم ، ولنعوِّدَنكم الثبات عند المِحَن ، فنرْسل إليكم الصيدَ ، فيتمكن القريب منه من صيده بيده ، ويتمكن البعيد منه من صيده برُمحه ، أو إحدى آلاته ، وليتميز الخائفُ من الله ،

وهو من يستطيع الصيد منكم فى موضع بعيد عن الرُّقَباء ، ولا يقعُ عليه نظر الناس ، ومع ذلك لا يحاول صيد شيء منه ، مع أنه فى متناوَل يده أو رمحه ، ويُؤْثر طاعة الله وشظف العيش ، على تناول شهىّ الطعام — ليتميز هذا ممن لا يخاف الله ، ويجترئ على اصطياد صَيْد مُحرَّم ، فمن اعتدى بعد ذلك الابتلاء ، واصطادَ شيئاً مما حرمه الله عليه ، فله عذاب أليم ، لأن من لا يملك زمام نفسه ، ولا يراعى حكمَ الله تعالى فى أمثال هذا الابتلاء ، يستحق غضب الله وعذابه .

٢ — يأيها المؤمنون ، لا تقتلوا الصيد الذى تريدون أكل لحمه ، وأنتم محرمون بحجّ أو عمرة ، وإن كان ذلك فى أرض الحِلّ ، سواء أكان القتل بذبْحِه ، أم بإزهاق رُوحه على أية صورةٍ ، ومن قتله منكم متعمِّداً ، ذاكراً لإحرامه ، عالماً بحرمة قتل ما يقتله ، فعليه جزاء يماثلُ ما قتل من النَّعم فى الخلقة والهيئة ، يحكم به رجلان عادلان من المسلمين ، لهما فطنة ومقدرة على تمييز الأشياء المتماثلة ، ففى النعامة ناقة أو بعير ، وفى بقر الوحش وحمار الوحش بقرة ، وفى الظبى شاةٌ ، على أن يكون ما يُفتدَى به من النَّعم مشترًى من أقرب الأمكنة إلى مكان الصيد ، وفى أقرب الأزمنة إلى وقت الصيد ، وعلى أن يكون هذا الجزاء المحكوم به من النَّعم هَديا ، يُهْدَى إلى الكعبة ، فيصل إليها ، ويُذبَحُ عندها ، ويُتصدق بلحمه على المساكين ، ولا يجوز أن يذبح حيث كان ، فإن لم يكن للصيد مماثل من النَّعم كالعصفور والجراد ، قُوِّمَ المقتول ، وقام القاتل بدفع قيمته للمساكين .

٣ — يكون الجزاء على الصورة التى ذكرناها ، أو يكون بكفارة ، فيطْعِم عدداً من المساكين على حسب القدر الذى سبق بيانه ، بمقدار ثمن الهَدْى ، فالجانى مخيَّرٌ أن يشترى هدْياً يماثل ما قتله ، يُهدى به إلى الكعبة ، أو

أن يشترى بقيمته طعاماً ، على أن يُعطِىَ كلّ مسكين نصف صاع من بُرٍّ ، أو صاعا من غيره ، ولا يجوز أن يطعم مسكيناً أقل من نصف صاع ، فإن بقى ما لا يبلغ طعام مسكين ، تصدق به ، أو صام عنه يوماً كاملا ، أو يكون الجزاء بصيام أيام بقدْرِ عدد المساكين ؛ ويتضح مما تقدم أن للجانى أن يختار بين الهدى والإطعام والصيام ، وهو مذهب أبى حنيفة ، وإنما وجب ذلك الجزاء من الهدى أو الإطعام أو الصوم ، على من قتل الصيد وهو مُحرِمٌ ، ليذوق مضرّة عمله ، ووخامة عاقبته .

٤ — عفا الله عما مضى من قتل الصيد قبل تحريمه ، ومن عاد ففعل متعمّداً وهو مُحرِم ، بعد أن أوجب الله عليه الجزاء ، فإنه ينتقم منه فى الآخرة ، لأن الجزاء فى الدنيا لم يردَعْه عن الإصرار على العودة ؛ ويتضح من هذا أن الجزاء فى الدنيا إنما يمنع العقاب فى الآخرة ، إذا لم يتكرر الذنب ، فإن تكرر استحق مرتكبه الجزاء فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ؛ والله غالب على أمره ، ذو انتقام ممن عصاه .

٥ — أحلّ الله لكم صيد الحيوانات المائية ، سواء أكنتم مُحْرِمين أم غير محرمين ، فلكم أن تصطادوها فى الحل والحرم ، وتستمتعوا بأكلها فى الإقامة والسفر ، وأحل الله لكم الطعام المتخذ منها ، سواء أصِدْتموه أم صاده غيركم ، أم ألقاه البحر إليكم ميتاً ، وَحرّم الله عليكم صيد البر ما دمتم مُحرمين ، واستثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة ليس على المحرِم فى قتلها جُناح ، وهى العقرب ، والفأرة ، والغراب ، والحِدَأة ، والكلْب العقور ؛ واتقوا الله الذى إليه تحشرون يوم القيامة ، فيما نهاكم عنه .

٦ — جعل الله الكعبة — وهى البيت الحرام — سبباً لقيام الناس فيها بأمر معاشهم ومعادهم ، وإصلاح أمورهم ، فيربح التاجر ، ويلوذ بها الخائف ، ويأمن فى رحابها الضعيف ، فلا يتعرض له أحد ، ويجتمع الناس حولها

من كل فجٍّ عميق، ليذكروا اسم الله فى أيام معلومات، وجعل الشهر الحرام وهو شهر ذى الحِجَّة، وقتاً يقصد فيه المسلمون البيت الحرام، لأداء مناسك الحج، ومتى اجتمعوا فى صعيد واحد، أمكنهم أن يتشاوروا فيما يُصْلح أحوالهم، ويوثّق صلاتهم؛ وجعل الهَدْى الذى يُهْدى إلى الكعبة مؤدّياً إلى التوسعة على الفقراء والمساكين، وخصّ الله القلائد بالذكر، لأن الثواب فيها أكثر؛ ذلك التشريع الذى شرعه الله، من أوضح الدلائل على بالغ حكمته، وعظيم قدرته، وعلمه بخفايا أمورنا، لأن علمه محيط بكل ما فى السموات وما فى الأرض، لا يعزب عنه شىء جل أو دقّ.

(٦)

من الآية ٩٨ إلى الآية ١٠٠ من سورة المائدة

اِعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ —١— .
مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، واللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ —٢— . قُلْ : لَا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ
أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ ، لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الخبيث	الحرام .
الطيب	الحلال
أعجبك	سرّك .
الألباب	العقول الراجحة .

مجمل المعنى

١ — اعلموا أيها المكلفون أن الله شديد العقاب لمن عصاه ، غفور رحيم لمن أطاعه ، لأن الإيمان لا يتم إلا بالخوف والرجاء ، وفى هذه الآية وعيد لمن

هتك محارم الله ، واستغرق فى المعاصى ، ووَعدٌ لمن حافظ على حُرُماته، بفعل ما أَمَرَ به ، والانتهاء عما نهى عنه .

٢ — ولما بيَّن الله الوعيد والوعد فى الآية السابقة ، أتبعها بأن مهمة الرسول مقصورة على التبليغ ، وأن رسوله عليه الصلاة والسلام قد قام به على حسب ما أمر الله، وبقى الأمر فى عهدة المكلَّفين الذين بَلغَتْهُمُ الدعوة، والله يعلم ما يظهرونه ويكتمونه ، ومطَّلع على سرهم ونجواهم ، فإن خالفوا فليعلموا أنه شديد العقاب ، وإن أطاعوا فليعلموا أنه غفور رحيم .

٣ — ولما زجر الله عن المعصية ، ورغَّب فى الطاعة فى الآية الأولى ، وأتبعه بالتكليف فى الآية الثانية بقوله : « ما على الرسول إلا البلاغ » ، وأنه يعلم من الناس سرهم وَعلَنَهم، أمر رسوله المصطفى أن يقول لهم : لا يستوى عند الله الحرامُ والحلال، والفاجر والبَرُّ ، والمفسدُ والمصلح ، ولو أعجبك أيها المكلَّف كثرةُ الخبيث ، لأنه لا يساوى شيئاً عند الله ، بل ترجَحُ به كفَّة السيئات ؛ وقد حدث أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: إن الخمر كانت تجارتنا، وقد جمعتُ من التجارة فيها مالا ، فهل ينفعنى إن عملت فيه بطاعة الله تعالى ، فأجابه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « إن أنفقته فى حَجٍّ أو جهاد لم يعدلْ جَناحَ بعوضة ، إن الله تعالى لا يقبل إلا الطيب » ، فاتقوا الله يا ذوى العقول الراجحة فى تجنب الخبيث وإن كثر ، وآثروا عليه الطيب وإن قلَّ ، فإن العبْرة بالعمَل من حيث كونُه حسناً أو قبيحاً ، لا من حيث كونه كثيراً أو قليلا .

(٧)

من الآية ١٠١ إلى الآية ١٠٢ من سورة المائدة

يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ ، عَفَا اللهُ عَنْهَا ، وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ -١- . قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ، ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن تُبْدَ لكم تسؤكم	إن يظهرها الله لكم تغمكم ، لما فيها من المشقة عليكم .
حين ينزَّلُ القرآن	فى أيام حياة الرسول ونزول الوحى .
تُبْدَ لكم	بان لكم حُكم الله فيها .
عفا الله عنها	عفا الله عن مسألتكم عنها ، فلا تعودوا لمثلها .
سألها قوم من قبلكم	سأل مثل هذه الأسئلة قوم من قبلكم أنبياءهم .
أصبحوا بها كافرين	صاروا بسببها كفاراً .

كثرة السؤال

خطب رسول الله يوماً فقال : قد فرض الله عليكم الحج فحجُّوا ، فقال الأقرع بن حابس : أكلَّ عام يا رسول الله ؟ فأعرَض عنه ، فكرَّر سؤاله والرسولُ يُعرض عنه ، فلما سأله الثالثة ، قال رسول الله : « لا ، ولو قلت نعم لوجَبَتْ ، ولو وَجَبَتْ ما استطعتم ، فاتركونى ما تركتكم ، وإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرْتم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نُهيتم عن شىء فدَعوه » ، ونزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم . . . » .

وحدث أن سأله الصحابة حتى أرهقوه بالأسئلة التى لا يَعنيهم أمرُها ، فصعد المنبر وهو غضبان ، وطلب منهم أن يسألوا عما يشاءون ، فقال رجل منهم : أين أبى؟ فقال رسول الله : فى النارِ ، وقال آخر مَنْ أبى ؟ فقال حُذَافة ، وكان يُدْعى لغيره ، فقال عُمرُ رضى الله عنه : يا رسول الله ، رضينا بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً ، نعوذ بالله من الفتن ، إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرْك ، والله أعلم مَنْ آباؤنا ، فسكن غضب الرسول .

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون الملحُّون فى سؤال رسولى عما لم أنزِل به قرآناً ولا وحياً ، لا تسألوا عنه ، فإنكم إن سألتم عن أشياء لم أفرضها عليكم ، بتحليل أمور لم أحللها لكم ، وتحريم أشياءَ لم أحرِّمها عليكم ، لزمكم من أحكامها مشقة وشدة مئونة ، وفى ذلك غمكم ومساءتكم ، ولكنكم إن تريثتم ، وسألتم عنها بعد نزول القرآن

بها ، بان لكم حكمى فيها ؛ عفا الله عن مسألتكم عما لا يَعنيكم ، فلا تعودوا لمثلها أبداً ، والله غفور حليم ، لا يعاجلكم بعقوبة ما فَرَطَ منكم ؛

٢ — قد سأل قوم من قبلكم أنبياءهم مثل هذه الأسئلة ، فأجيبوا إلى سؤالهم ، ثم صاروا بسببها كافرين ، كقوم صالح ، سألوا نبيهم أن يأتى لهم بناقة ، ثم عقروها وكفروا بها ، وقوم عيسى ، سألوا نبيهم أن يأتى إليهم بمائدة من السماء ، فأنزلها الله عليهم ، ثم كفروا بها .

(٨)

من الآية ١٠٣ إلى الآية ١٠٤ من سورة المائدة

مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ ، ولٰـكِنَّ الذين كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الـكَذِبَ ، وأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ —١— . وإذا قيل لهم : تعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلَى الرسولِ ، قَالُوا : حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُون ؟ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ما جعل الله	ما شرع الله .
حسبنا	كافينا .

مجمل المعنى

١ — ابتدع العرب فى الجاهلية أموراً شرعوها لأنفسهم ، وتابعهم عليها مَنْ بعدهم من أعقابهم ، فحرموا على أنفسهم أربعة من الأنعام ، وهى :

(١) البَحيرة : وهى الناقة التى تلد خمسة أبطن ، آخرها ذكر ، فيبْحرُون أذنها —أى يشقُّونها — ويُخلون سبيلها ، فلا تُركبُ ولا تحلب ، ولا يُحمل عليها شىء ، ولا تُطرد عن ماء ، ولا تُمنع من مرعى .

(ب) والسائبة : وهى الناقة التى تنتج عشرة أبطن من الإناث ، فلا تُركب ، ولا يُجزّ وبرُها ، ولا يُحلب لبنها إلا لضيف ، وتسيَّب للأصنام ، فيأخذها السدَنة ، ولا يطعم أحد من لبنها ، إلا أبناء السبيل.

(حـ) والوَصيلة : وهى الشاة التى إن ولدَتْ أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى معاً قالوا : وصَلت الأنثى أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

(د) والحامى : وهو فحل الإبل (الطَّلوقة) ، إذا أخرج من صُلبه عشرة أبطن حرموا ركوبه ، ولا يمنعونه من ماء أو مرعى ، وقالوا : قد حَمى ظهره .

والله سبحانه وتعالى لم يشرع شيئاً من ذلك ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، بنسبة تحريم هذه الأنعام إليه ، فيقولون : إن الله أمرَنا بهذا ، والله منزَّه عن أن يأمر بما افتروه عليه ، وأكثرهم لا يعقلون الحلال والحرام ، ولا يميِّز المباح من المحرم ، وإنما هم قلَّدوا آباءهم ، وورثوا هذه العادات القبيحة عنهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالا وحراماً ، قل : آلله أذن لكم ، أم على الله تفترون ؟ » .

٢ — وإذا قيل لهم : تعالَوْا نحتكم إلى ما أنزل الله فى كتابه الحكيم ، وإلى الرسول الذى أنزل عليه هذا الكتاب ، لتقفوا على ضلالكم فى تحريم ما حرمتم ، قالوا لقصور عقولهم ، وانهماكهم فى التقليد : يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا ، فلا نُعنَى بغيره ، ولا نلتفت إلى ما عداه ؛ أيكفيهم تقليد آبائهم بلا رويَّة ولا تبصُّر ، ولو كان آباؤهم جهلة ضالين ؟ ، إن الاقتداء إنما يكون بذوى العقول الراجحة ، والأفكار السامية ؛ وعلى كل حال ، لا يليق بهم أن يكونوا إمَّعات يسيرون فى ركاب غيرهم ، بلا تفكر ولا تدبُّر .

(٩)

الآية ١٠٥ من سورة المائدة

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، —١— . إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
عليكم أنفسكم	احفظوها وقوموا على إصلاحها .
مرجعكم	رجوعكم يوم القيامة .

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، الزموا أنفسكم ، واحفظوها من ارتكاب المعاصى ، واقتراف الآثام ، لا يضركم ضلال غيركم ، إذا كنتم قد سلكتم سبيل الرشد والهدى ؛ وقد روى أن مُعاذ بن جبل ، قال : يا رسول الله ، أخبرنى عن قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . . . » الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا معاذ ، مُرُوا بالمعروف ، وتناهَوْا عن المنكر ، فإذا رأيتم شُحًّا مطاعاً ، وهوى مُتبَعاً وُدنيا مؤثَرَة ، وإعجاب كل امرئ

برأيه ، فعليكم أنفسكم ، لا يضركم ضلال غيركم ، فإن وراءكم أياماً ، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهن مثلُ أجر خمسين رجلا ، يعملون مثل عملكم» ؛ وعلى هذا لا يتم الاهتداء إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمن ترك ذلك مع القدرة عليه أثم ؛ وخطب أبو بكر رضى الله عنه فقال : أيها الناس ، إنكم لَتَتْلُوا آية من كتاب الله : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . . . » الآية ، وتضعونها فى غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يُغَيِّروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

٢ — إلى الله لا إلى أحد سواه رجوعكم يوم القيامة جميعاً ، فيخبركم بما كنتم تعملونه فى الدنيا ، وتعرفون ما يستحقه كل واحد منكم من ثواب أو عقاب .

(١٠)

من الآية ١٠٦ إلى الآية ١٠٨ من سورة المائدة

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ : اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ — إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ — تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ، فَيُقْسِمَانِ بِاللّٰهِ — إِنِ ارْتَبْتُمْ — : لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّٰهِ ، إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ —١— . فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ، فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمَا الْأَوْلَيَانِ ، فَيُقْسِمَانِ بِاللّٰهِ : لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ، وَمَا اعْتَدَيْنَا ، إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ —٢— . ذٰلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا ، أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ، وَاتَّقُوا اللّٰهَ وَاسْمَعُوا ، وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ —٣— .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
الإشهاد الذى يكون بينكم .	شهادة بينكم
شاهد أمارات الموت .	حضر أحدكم الموت
اثنان عادلان من المسلمين .	اثنان ذوا عدل منكم
أو آخران من غير ملتكم .	أو آخران من غيركم
سافرتم للتجارة أو غيرها .	ضربتم فى الأرض
قاربتم انقضاء آجالكم .	أصابتكم مصيبة الموت
تحتفظون بهما من بعد صلاة العصر .	تحبسونهما من بعد الصلاة
إن شك الورثة فى شهادتهما .	إن ارتبتم
لا نستبدل بالقسم بالله عَرَضاً من عروض الدنيا .	لا نشترى به ثمناً
ولو كان المشهود له ذا قرابة منا .	ولو كان ذا قربى
اطُّلع بعد حلف الشاهدين .	عُثر
فعلا ما يستوجب الإثم ، ككذب فى الشهادة ، وخيانة للموصِى .	استحقا إثما
من الورثة الذين جَنَى عليهم كذب الشاهدين .	من الذين استحق عليهم
هما الأحقَّان بالشهادة ، لقرابتهما للموصِى ، ومعرفتهما إياه .	الأوليان
وما تجاوزنا الحق بشهادتنا .	وما اعتدينا
أقرب .	أدنى
على نحو ما حُمِّلوها من غير تحريف .	على وجهها
تُبطِلَ أيمانهم بعد أيمان الورثة .	تُرَدَّ أيمان بعد أيمانهم

قصة جام بُدَيل

كان تميمٌ الداريُّ، وعَدِيُّ بن بَدَّاء النصرانيين يتجران، فيترددان بين مكة والمدينة والشام، فخرجا مرة إلى الشام، وخرج معهما بُدَيل بن أبي مارية، مولى عمرو بن العاص من بني سَهْم للتجارة، وكان مسلماً، وكان في سلعته جامٌ من فضة، مزين بصفائح من الذهب، وهو أعظم ما عنده، فلما كانوا ببعض الطريق، مرض بُدَيل، فأوصىَ إليهما أن يوصلا ما ترك إلى أهله، وكتب بأمتعته كتاباً دسَّه فيها، ولم يُخبرهما به، فلما مات، أخذ تميمٌ وعديٌّ الجامَ من أمتعته، وقدِما إلى أهل بُدَيل، ودفعا إليهم أمتعته، عدا الجام! فلما فتح أهلُ بُديل أمتعته، وقرءوا كتابه، بحثوا عن الجام فلم يجدوه، فسألوا تميما وعدياً عنه، فقالا: ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره، فذهب أهلُ بُدَيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشكَوْا إليه تميما وعديّا، فنزل قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم»، إلى قوله: «إنّا إذن لمن الآثمين»، فأحضر رسول الله تميما وعدياً، فاستحلفهما بما يعظم على أهل دينهما، فحلفا أنهما لم يأخذا الجام، فخلّى سبيلهما، ثم ظهر الجام عُندهما بعد مدة، وادّعياه لأنفسهما، فترافع أهلُ بُديل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم.، فنزل قوله: «فإن عُثر على أنهما استحقا إثماً . . .»، إلى قوله: «أو يخافوا أن تُردأيمان بعد أيمانهم»؛ فقام عمرو بن العاص والمطلبُ بن أبي رفاعة السهميان، فحلفا بالله: لشهادتنا أحق من شهادة النصرانيَّيْن، وأن الجام لبُدَيل، فرد رسول الله الجام إلى أهل بُدَيل، ثم إن تميما أسلم بعد ذلك.

مجمل المعنى

١ — يأيها المؤمنون ، إن سافر أحدكم للتجارة أو نحوها ، وحضرته الوفاة ، وشاهد أمارات الموت ، وأراد أن يوصى ، فليُشهد على وصيَّته اثنين مسلمين عادلين مستقيمين — إنْ وجدهما — أو آخرَيْن من غير المسلمين إن لم يجد منهم أحداً ، ليشهدا بما أوصى به المحتضر ، وعليكم حين تستشهدون بالشاهدين ، أن تُمسكوهما ، وتوقفوهما بعد صلاة العصر ، إذ هو أنسب الأوقات للشهادة ، لاجتماع الناس وتكاثرهم ، بعد فراغهم من معظم أعمال النهار ، فيحلفان بالله ، إن شككتم فى صدق قولهما ، فيما يُقرَّان به مما سمعاه من الموصى قبلَ موته : أننا لا نشترى بما نُقسم عليه ثمناً ، ولو كان المقسَم له من أقاربنا ، وأننا لا نحلف بالله كذباً ، وأننا لا نكتم شهادةً أوجبها الله علينا ، وأننا إذا اشترينا بالقسم ثمناً ، أو راعينا به قريباً ، بأن كذَبْنا لمنفعة أنفسنا ، أو منفعة قريب لنا ، أو كتمنا شهادة لله ؛ كلَّها أو بعضها ، نَكونُ من الآثمين ؛ ويتضح مما تقدم أن القسم لا يكون إلا حين الشك فى صدق الشاهدين ، ويرى بعضهم أن الحلِف يكون إذا كان الشاهدان غير مسلمين .

٢ — فإذا ظهر أن الشاهدين الحالفين استحقا ما يستوجب الإثم : بكذبهما ، أو بأداء الشهادة على غير وجهها ، أو خانا الموصى فى شىء من تركتِه ، مع ائتمانه إياهما عليها ، وجب لإحقاق الحق ردُّ الشاهدين الأولين ، وأن يقوم مقامهما من أولياء الميت الوارثين ، شاهدان يؤديان شهادة تُبطل شهادتهما ، هذان الشاهدان هما الأحقَّان بالشهادة ، لمعرفتهما أحوال الموصى ، فيقسمان بالله لَشهادتنا أصدقُ من الشاهدين الأوَّلين ، وأولى

بأن تُقبْل ، وأن شهادة مَنْ قبلهما كاذبة ، وأنهما قد تجاوزا الحق في شهادتهما ، ووضعا الباطل موضع الحق ، وأنهما يكونان فى عداد الظالمين لأنفسهم ، بتعريضهم لسخط الله وانتقامه ، إن كانا كاذبين .

٣ — ذلك الذى ذكر من تكليف الشاهد أداء الشهادة على مشهد من الناس ، بعد صلاة العصر ، وحلفه الأيمان المُغَلَّظة على أن يقول الحق ، أقربُ الوسائل إلى أن يؤدى الشهود شهادتهم ، على وجهها الصحيح ، من غير تحريف ولا خيانة ، رغبة فى ثواب الله ، أو خوفَ الفضيحة التى تلحق بهم ، إن كذبوا أو ظهرت خيانتهم ، أو أن تُردَّ أيمانهم ، وتبطل بعد أداء أيمان الورثة ؛ واتقوا الله أيها المؤمنون فى أداء شهادتكم ، واتركوا الخيانة والكذب ، واسمعوا أحكام الله سماع قبول ، فإن لم تتقوا ولم تسمعوا ، خرجتم عن طاعة الله ، واستحققتم عقابه .

(١١)

من الآية ١٠٩ إلى الآية ١١٥ من سورة المائدة

يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ ، فَيَقُولُ : مَاذَا أُجِبْتُمْ ؟ قَالُوا :
لاَ عِلْمَ لَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ -١- . إِذْ قَالَ اللهُ :
يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ، إِذْ
أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ
عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ، فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ،
وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ،
وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ -٢- . وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى
الْحَوَارِيِّينَ : أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ، قَالُوا : آمَنَّا ، وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا
مُسْلِمُونَ -٣- . إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ،
هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ قَالَ :
اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ -٤- . قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ
مِنْهَا ، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ، وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ، وَنَكُونَ عَلَيْهَا

مِنَ الشَّاهِدِينَ —٥— . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : اللَّهُمَّ رَبَّنَا ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ، وَآيَةً مِنْكَ ، وَارْزُقْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ —٦— . قَالَ اللهُ : إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ، فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يوم يَجمعُ الله الرسُل	يوم القيامة يجمع الله الرسل .
ماذا أجبتُمْ	بماذا أجابكم من أُرسلتم إليهم ، حين دعوتموهم إلى طاعة الله ؟
أيدتك بروح القدس	قويتك برسول الوحى ، وهو جبريل .
فى المهد	وأنت طفل ، والمهد : الفراش يهيأ للصبى .
وكهلا	وأنت كهل ، والكهل من وَخطهُ الشيب ، أو من جاوز الثلاثين .
الكتاب	الكتابة .
الحكمة	العلم وحسن التدبير .
الأكمه	من ولد أعمى .
الأبرص	المصاب بالبرص ، وهو بياض يظهر فى ظاهر البدن .
تخرِج الموتى	تخرج الموتى من قبورهم أحياء .

الألفاظ	شرحها
إن هذا إلا سحر مبين	ما هذا إلا سحر بيِّن .
الحواريين	المخلصين فى السر والعلن .
مسلمون	منقادون لطاعتك .
مائدة	خِوانا عليه الطعام .
تكون لنا عيداً	يكون يومُ نزولها عيداً نعظمه .
وآية منك	علامة دالة على قدرتك .

مجمل المعنى

١ — يجمع الله الرسل يوم القيامة ، فيقول لهم : بأى شىء أجابكم قومكم حين أرسلناكم إليهم ، ودعوتموهم إلى طاعتى وتوحيدى ، ونبذ ما يعبدونه دونى ؟ فيقول الرسل : إننا لا نحيط بما قالوه ، وأنت تعلم ما نعلمه مما أجابونا به وأظهروه ، وتعلم مالا نعلمه مما أضمروه لنا فى صدورهم ، إنك وحدك المحيط بكل شىء علماً ، المتخصص بعلم الغيب ! وعبَّر الله بالماضى فى قوله : قالوا لا علم لنا ، لإفادة تحقق الوقوع .

٢ — وقد ذكر الله فى الآية الأولى سؤال الرسل وإجابتهم مجملة ، وذكر فيما بعدها على التفصيل ما يحدث لواحد منهم ، ليكون نموذجاً ومثالا لما يحدث لغيره ، وخَصَّ عيسى بالذكر ، لأن من قومه من فرّطوا بادعائهم أنه ساحر ، ومن أفرطوا بادعائهم أنه إله ! يقول الله له : اذكر إنعامى عليك وعلى والدتك ، حين قوّيتك بجبريل ، الذى نرسله إلى رسلنا ليثبتهم فى المواقف التى من شأن البشر أن يضعفوا فيها ، وقويتُ والدتك فى تبرئة نفسها من الزنى ، حين اتهمها قومك به ، ومكنتك من أن تكلم الناس فى

المهد ، بما يبرئها مما رماها به المفترون ، كما تكلمهم وأنت كهل ، واذكر يا عيسى سابغَ فضلى عليك ، بأن علمتك الكتابة ، وحسنَ الرأى ، والتدبير ، والعلم الصحيح ، وفقهتك فى إدراك ما فى التوراة والإنجيل ، واذكر آلائى المترادفة عليك ، إذ تصنع من الطين صُوراً تصور الطيور بقدرتى ، فتنفخ فيها فيستحيل كلٌ منها طائراً حيًّا بما أودعته فيها من الحياة بقدرتى ، ومنحتك القدرة على أن تجعل من يولد أعمى بصيراً ، ومن يصابُ بالبرص سليما ، واذكر إنعامى عليك إذ مكنتك من أن تخرج الموتى من قبورهم أحياء ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك حين هموا بقتلك ، مع ما أتيت به لهم من المعجزات الواضحة على صدق دعوتك ، فقال المعاندون الكافرون منهم : ما هذا الذى أتيت به إلا سحر بيِّن ، وأنه تمْويه وتخييل باطل ، فلا نعتد بشىء مما ظهر على يديك من خوارق العادات .

٣ — واذكر نَعْمائى عليك يوم ألهمت الخلصاء من أتباعك أن يعلنوا إيمانهم بى ، وبأنك مرسل من لَدُنِّى ، حين كذبك بنو إسرائيل ، فأذعنوا وانقادوا ، وقالوا : آمنا بالله ربّا ، وبعيسى رسولا ، وأشهدوا على أنفسهم أنهم مطيعون ، مخلصون فى إيمانهم .

٤ — ومع أن الحواريين من خلصائك ، الذين يؤمنون بك فى السر والعلن ، فإنهم بشر ، فأرادوا التثبت والاطمئنان ، كما فعل إبراهيم ، فإنه — مع نبوته — قال مخاطباً ربه : « رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال : أوَ لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى » ، ومع أنهم قالوا : آمنا ، وأشْهدوا على أنفسهم أنهم مطيعون منقادون ، قالوا فى الوقت نفسه لعيسى : هل يطيعك ربّك ، ويجيب سؤالك ، ويحقق طلبك ، إن

سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ فقال لهم عيسى منكراً عليهم هذا الطلب : اتقوا الله ، فلا تقترحوا مثل هذه المقترحات التى كان يقترح مثلها أسلافكم على موسى ، فإن المؤمن الصادق فى إيمانه ، لا يليق به أن يقترح على ربّه ما لم تـجْرِبه سنةُ الكون ، فما دمتم مؤمنين بكمال قدرة الله ، وصحة نبوّتى ، فلا تطلبوا مثل هذا الطلب .

٥ ــ قالوا : نريد أن نتبرك بالأكل منها ، ويزداد يقيننا بانضمام مشاهدة كمال قدرة الله ، إلى صدق إيماننا ، ونعلم أنك قد صدَقتنا بأنك رسول الله ، فإن الرسول مستجاب الدعاء ، ونكون من الشاهدين على حصول هذه المعجزة عند بنى إسرائيل ، فيؤمن المستعد للإيمان ، ويزداد المؤمن إيماناً .

٦ ــ قال عيسى ابن مريم ، لما رأى أن لهم غرضاً شريفاً فى طلبهم : اللهم ياربّنا ، أنزل علينا مائدة من السماء ، يكون يومُ نزولها يومَ عيد وفرح وسرور لأهل زماننا ، ولمن يأتى بعدنا ، وعلامة منك دالة على قدرتك وعلى نبوّتى ، وارزقنا الشكر عليها ، وأنت خير الرازقين .

٧ ــ قال الله : إنى مُنَزّل المائدة عليكم ، إجابة لسؤالكم ، فمن يكفر بعد هذه المعجزة منكم ، فإنى أعذبه تعذيباً لا أعذب مثله أحداً من العالمين ؛ وقد عذب من كفر منهم بالمسخ ، فسلب منهم تفكيرهم وعقولهم ، حتى صاروا كالقردة والخنازير ؛ أما ما احتوت عليه المائدة من الطعام : أهو سمكة مشوية ليس فيها شوك ، يسيل منها الدسم ، ومعها ملح وخل ، أم هو خبز ولحم ، أم هو غير ذلك ، وأما ما قيل عن عدد الذين أكلوا من المائدة ، وأما كيفية نزولها ــ فكل هذا لا يتعلق به غرض من أغراض التفسير ، وبعضهم قال : إن الله لما هدد من يكفر بعد نزول المائدة بالعذاب الشديد ، أبوا أن تنزل عليهم .

(١٢)

من الآية ١١٦ إلى الآية ١٢٥ من سورة المائدة

وَإِذْ قَالَ اللهُ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، أَأَنْتَ قلت لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ ! مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ -١- . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ : أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ -٢- . إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ -٣- . قَالَ اللهُ هَذَا يَومُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ -٤- . لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ -٥- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من دون الله	من غير الله .
سبحانك	أنزهك وأُبعدك عن أن يكون لك شريك .
ماليس لى بحق	ما لا يحق لى أن أقوله .
شهيداً	مراقباً أعمالهم .
العزيز الحكيم	القوى القادر ، الذى لا تصدر أعماله إلا عن حكمة
قال الله هذا	يقول الله هذا يوم القيامة .
خالدين	باقين أبداً .
وما فيهن	وما فى السموات والأرض ، من كواكب وجبال ، وأنهار وغيرها .

مجمل المعنى

١ — ادّعى قوم أن عيسى وأمه إلهان ، وسيسأل الله سيدنا عيسى يوم القيامة بحضور قومه، توبيخاً لهم : هل قلت لهؤلاء الناس : اتخذونى وأمى إلهين معبودين من دون الله ؟ فيجيب سيدنا عيسى عليه السلام : إننى أنزهك أن أقول فى حقك هذا الكلام ،ولا يصح لى أن أقوله ، ولو قلته — فرْضاً — لعلمْته، لأنك تعلم ما أخفيه فى نفسى ، فأنت بما أظْهِرُه أعلم ، أما أنا فلا أعلم شيئاً مما يحيط به واسع علمك ، لأنك وحدك منفرد بعلمِ الغيب .

٢ — ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ، وهو أن يعبدوك وحدك ، لأنك ربى وربهم ،

وكنت أشهد أعمالهم وأراقبها ، وأحملهم على العمل بموجب أمرك ، فى أثناء حياتى ، فلما قبضتنى إليك ، وانتهت رسالتى فيهم ، كنت أنت المراقب لأعمالهم ، فلا أعلم ما وقع منهم بعدى .

٣ — فإن تعذبهم فإنهم عبادك ، والمالك يتصرف فى عبيده كيف يشاء ، وقد استحقوا العذاب لعبادتهم غيرك ، ولا اعتراض على المالك المطلق التصرف فيما يفعله بملكه ، وإن تغفر لهم ذنوبهم ، فأنت القادر القوىّ على الثواب والعقاب ، لا يصدُرُ أمرك إلا عن حكمة .

٤ — يقول الله هذا لعيسى يوم القيامة ، يوم يُثاب الصادقون على صدقهم ، فيستمتعون بنعيم دائم ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وذلك هو الفوز العظيم ، ولا عجب ! فإن الله الذى له ملك السموات والأرض وما فيهن قد رضى عليهم ، فأعد لهم ما تقَرُّ به عيونهم ، وتنشرح له صدورهم

سورة الأنعام

نزلت بمكة ، ما عدا تسع آيات ، نزلت بالمدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

من الآية الأولى إلى الآية السادسة

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ -١- . هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ قَضَى أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ -٢- . وَهُوَ اللّٰهُ فِى السَّمٰوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ . وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ -٣- . وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ -٤- . فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ -٥- . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ؟ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا ، وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ -٦- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وجعل الظلمات والنور	وخلق الظلمات والنور .
بربهم يعدلون	يسوّون بربهم غيرَه فى العبادة .
قضى أجلا	قدّر للناس وقتاً يموتون عند انتهائه .
وأجَلٌ مسمى عنده	وعنده أجل مضروب لبعثكم يوم القيامة ، لا يعلمه إلا هو .
تمترون	تَشُكُّون فى البعث .
ويعلم ما تكسبون	ويعلم ما تعملون من خير أو شر .
وما تأتيهم من آية من آيات ربهم	وما يأتيهم دليل أو معجزة ، أو آية من القرآن من عند الله .
بالحق	بالقرآن .
أنباء	أخبار .
كم أهلكنا من قبلهم من قرن	أهلكنا قبلهم كثيراً من الأمم الماضية .
مكَّنَّاهم فى الأرض ما لم نمكن لكم	منحناهم من القوة والسلطان ما لم تبلغوه .
وأرسلنا السماء عليهم مدراراً	وأرسلنا عليهم المطر غزيراً متتابعاً .

مجمل المعنى

١ — الله وحده هو المستحق للحمد على نعمه العظيمة ، التى أسبغها على خلقه ، فقد خلق السموات ورفعها من غير عمد ، وزينها بالكواكب ، وأحكم التماسك والتجاذب بينها ، كل يسبح فى فلكه على نظام دقيق ، وخلق الأرض التى نسير فوقها ، ونستخرج منها المعادن ، ونزرع فيها أقواتنا وأقوات حيواناتنا ، وفجر فيها العيون ، وبث فيها من كل دابة ، وخلق الظلمات والنور يتعاقبان ، فلليل ظُلمته لنسكن فيه ، وللنهار نُوره لنبتغى فيه من فضله ، لا يعدو أحدهما على الآخر ؛ وهذه النعم الجزيلة ، كانت تقتضى من جميع خلقه الذين غرقوا فى بحار إحسانه الثناء عليه ، والشكر له ، ولكن الذين كفروا مع هذه الآلاء المترادفة ، يُسوون فى العبادة بينه وبين حجارة ينصبونها ، ويجعلونها عديلا له فى العبادة ، ويتخذونها أنداداً له ، مع أنها لا تقدر على شيء ، بل هى لا تستطيع لأنفسها نفعاً ولا ضرا ، فيكفرون نعمته ، ويجحدون فضله .

٢ — من مظاهر قدرة الله أنه خلق الإنسان الأول ، وهو أبوكم آدمُ من طين ، ثم قدر لكل فرد من أفراد ذريته وقتاً يموت عند انقضائه ، وعنده أجل مضروب معيَّن لا يعلمه غيره ، ولا يقف على وقت حلوله سواه ، وهو وقت البعث من القبور ؛ وأجلُ الموت وإن كان لا يعلمه إلا الله أيضاً ، فإنه يمكن أن يُعلم إجمالا على وجه التقريب ، من ظهور أماراته ، وبما هو الأعم الأغلب فى أعمار الناس ، بالتجربة والمشاهدة ، أما وقت البعث فلا سبيل إلى معرفته ؛ ثم أنتم أيها الكفار تشكُّون وتستبعدون حدوث البعث ، وتظنون استحالة وقوعه ، مع أن الذى خلقكم من العدم

أول مرة ، أهونُ عليه أن يُعيد إلى الحياة ما تفرق من مادة أجسامكم فى الأرض .

٣ — وهو الإله المستحق وحده للعبادة ، المتصرف فى السموات وفى الأرض ، يعلم ما تسرون به بينكم ، وما تكنه ضمائركم ، وما تجهرون به من قول أو فعل ، ويعلم ما تفعلون من خير أو شرّ ، فيثيت على الأول ، ويعاقب على الثانى .

٤ — وإن أهل مكة دأبهم العناد والمكابرة ، لا يظهر لهم دليل من أدلة نبوتك ، أو معجزة من المعجزات الدالة على صدقك ، مع تحديهم بها ، إلا استكبروا عن قبولها ، وأعرضوا عنها ، تاركين النظر فيها ، غير ملتفتين إليها ، ولا عجب ! فقد كذبوا بالقرآن ، وهو سيدُ الأدلة على نبوتك وصدقك ، مع تحديهم به ، وعجزهم عن الجرى فى مضماره ، وما دام هذا ديدنهم ، وما داموا مصرين على عنادهم ، فسوف يظهر لهم صحة أخبار ما كانوا يستهزئون به ، عند ذيوع الإسلام ، وارتفاع شأنه ، وسوف يتضح لهم يوم القيامة أن ماأنذرهم به بالقرآن ، أمر لا مِرْية فيه .

٥ — ومع هذا ، ألم يروا فى أسفارهم — وهم أهل تجارة ورحلة — أننا أهلكنا مِنْ قبلهم أمماً كثيرة من الأمم الماضية ، أعطيناهم من القوة ، وسعة الرزق ، ومنحناهم من السلطان والنفوذ والمَنَعة ، ما لم يبلغه هؤلاء الكفار ، فقد نحتوا لهم من الجبال بيوتاً ، وأمددْناهم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، ونخل طلعها هضيم ، وأرسلنا عليهم المطر غزيراً متتابعاً ، فلا يجدون مشقة فى سَقى أرضهم ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحت مساكنهم ، فعاشوا فى خِصب وسعة ، بين الأنهار والزروع والثمار ، فلما جحدوا آلاءنا ، وكفروا بأنعمنا ، لم يغن ذلك عنهم شيئاً ، فأهلكناهم بسبب

ما اقترفوا من الذنوب ، وعصيان من أرسلنا إليهم من الرسل ، وأوجدنا من بعدهم أمماً آخرين ؛ فمَنْ قَدَرَ على إهلاك الطغاة المستكبرين من الأمم الماضية ، مع ما كانوا عليه من القوة والمنَعة ، قادرٌ على أن ينكّل بكفار مكّة ، ويذيقهم وبال أمرهم .

(٢)

من الآية ٧ إلى الآية ١١ من سورة الأنعام

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ، لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ –١– وَقَالُوا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ، ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ –٢– . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ، وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ –٣– . وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ –٤– . قُلْ : سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فى قرطاس	فى ورق .
إن هذا إلا سحر مبين	ما هذا إلا سحر بيّن واضح .
لولا أنزل عليه ملك	هلاّ أنزل عليه أحد الملائكة لنصدقه .
لقُضى الأمر	لحق عليهم الأمرُ بإهلاكهم ، وانتهى البتُّ فيه .
وللبسنا عليهم ما يلبسون	ولالتبس عليهم الأمر واشتبه ، وكان سبيله معهم كسبيلك يا محمد .
حاق	نزل .

الكتاب وشاهدوه

قال النضر بن الحارث ، وعبدُ الله بن أمية ، ونوفلُ بن خويلد — لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما دعا أهلَ مكة إلى عبادة الله ، ونبذ عبادة الأصنام : يامحمد ، لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى ، وأنك رسوله ، فنزل قوله تعالى: « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس . . . » .

مجمل المعنى

١ — ولو نزلنا عليك يامحمد كتاباً من السماء مكتوباً فى وَرَق ، ورآه أهلُ مكة نازلا من السماء كما اقترحوا ، ولمسوه عند وصوله إلى الأرض، لقالوا تعنتاً وعناداً : ما هذا إلا سحر ظاهر ، وقالوا : هلا أنزل عليه مَلك يكلمنا ، ويخبرنا أنه نبىّ ، ويكون معه نذيراً ؛ ألا فليعلموا أننا لو أنزلنا مَلكاً كما اقترحوا ، ولم يؤمنوا ، لتم الأمر بإهلاكهم ، كما حق الهلاك على الأمم الذين من قبلهم ، حين أنفذنا أمرنا فيهم ، ثم لا يُمهلون طرفةَ عين لتوبة أو معذرة ، ثم إننا لو أنزلنا مَلكاً قريناً لك يعاينونه ، لجعلناه على صورة رجل ، ليتمكنوا من مشاهدته ، لأنهم لا يستطيعون أن يَرَوْا هذا الجسم النورانى ، إلا بعدَ أن يتجسم فى صورة رجل ، حتى لا ينفروا منه ، كما حدث حين أرسل الله بعض الملائكة إلى إبراهيم ولوط ، فإنهم أتوْه فى صورة الآدميين — لو أنزلنا مَلكاً لالتبس عليهم الأمر واشتبه ، وقالوا للملك : لستَ مَلكاً ، وإنما أنت بشر ، فلا نؤمن بك ، فيقعون فى اللبس ،

ويختلط عليهم الأمر ، وقد كان رؤساء الكفار يموّهون على الصغار منهم فى أمر الرسول ، فبين الله أنه لو أنزل عليهم مَلكاً فرأوه رجلا ، للحق رؤساءهم من اللبس ما لحق ضعفاءهم .

٢ — ولقد استهزئ برسل من قبلك يامحمد ، وسخر منهم الكفار ، فلا تبتئس إن قال لك قومك ساخرين : أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ فقومُ نوح سخروا منه وهو يصنع السفينة ، وقالوا له : لقد صرت نجاراً بعد أن كنت نبيًّا ، وهذه سُنة الكفار ، ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ، فنزل بالذين سخروا منهم وبال استهزائهم من أنواع العذاب ، ونصرنا رسلنا والذين آمنوا بهم ، فتأسَّ يا محمد واصبر ، ولا تهتم بما تلقاه من قومك ، كالوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، وأبى جهل ، وأضرابهم .

٣ — قل لهؤلاء المكذبين : سيروا فى الأرض ثم انظروا وتأملوا كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم ، فقد أهلكناهم ، واستأصلنا شأفتهم ، ومنهم بعض القبائل العربية ، كعاد وثمود .

(٣)

من الآية ١٢ إلى الآية ٢٠ من سورة الأنعام

قلْ لِمَنْ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ قُلْ : لِلّٰهِ ؛ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ : لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ -١- . وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُلْ : أَغَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ، فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ؟ -٢- . قُلْ : إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ : إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ -٣- . وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ -٤- . قُلْ : أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ : اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِىَ إِلَىَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ، أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّٰهِ آلِهَةً أُخْرَى ؟ قُلْ : لَا أَشْهَدُ ، قُلْ : إِنَّمَا هُوَ

إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ —. الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ —٦، ٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كتب ربكم على نفسه الرحمة	وعدت ذاته العلية بالرحمة بعباده ، مِنَّة وتفضُّلا .
الذين خسروا أنفسهم	أنتم أيها الكفار الذين أفسدوا فطرتهم ، وعطلوا عقولهم .
وله ما سكن فى الليل والنهار	كل ما سكن أو تحرك فى الليل والنهار فى قبضة الله
وليًّا	معبوداً وناصراً .
فاطر السموات والأرض	مُبدعهما على غير مثال سبق .
وهو يطعم ولا يطعم	وهو يَرزُق ولا يُرزَق .
أول من أسلم	أسبقُ أُمتى إلى الاعتراف بتوحيد الله ، والانقياد إلى طاعته .
من يصرف عنه يومئذ	من يُمنع عنه العذاب يوم القيامة .
القاهر	القادر المستعلى .
الخبير	الذى يعلم ظواهر الخلق وبواطنهم .
أى شىء أكبر شهادة	أى شىء شهادته أعظم شهادة وأصدقها ؟ .
ومن بلغ	وأنذرُ منْ بلغه القرآن .

مجمل المعنى

١ - قل يا محمد لكفار مكة ، الجاحدين لرسالتك ، توبيخاً لهم على عبادتهم أحجاراً لا تضر ولا تنفع : لمن هذه المخلوقاتُ التى فى السموات والأرض خلقاً وملكاً وتصرُّفاً ؟ فإن تثاقلوا عن الجواب مع وضوح السؤال ، فقل لهم : إنها من غير شك لله ، وَعدت ذاته العلية بالرحمة لخلقه تفضلا وإحساناً ، فرحمته دائماً تسبق غضبه ، ومن رحمته هداية خلقه إلى معرفته وتوحيده ، بالأدلة القاطعة ، ومن رحمته ورأفته بعباده ، أن يرجئْ عقوبتكم على تكذيبكم رسوله إلى يوم القيامة الذى لا شكّ فيه ، فيجمعكم للحساب والجزاء على ما كسبتم وقدمتم ، أنتم أيها الكفار الذين أفسدوا فطرتهم ، وعطلوا عقولهم ، وأعرضوا عن قبول الحق عناداً واستكباراً ، فهم مصرّون على الكفر ، منهمكون فى تقليد آبائهم ، غارقون فى بحار الضلال .

٢ - ولما وجد الكفارُ أن رسول الله ماض فى دعوته ولا يباليهم ، وأن دعوته تلقى قبولا عند ذوى الفطرة السليمة ، قالوا له : علمنا أن مَا يحملك على ما تفعل إلا الحاجة ، فنحن نجمع لك من أموالنا ماتشاء ، حتى تصير أغنانا ، فقال الله لهم : أخبرهم يا محمد ، أن جميع المخلوقات فى قبضة الله ، فهو القادر وحده على أن يغنينى ، وهو الذى يملك الناطق والصامت ، والساكن والمتحرك ، يحيط علمه بكل شىء ، فى أى وقت من أوقات الليل والنهار ، وهو السميع العليم ، الذى يسمع ويعلم دبيب النملة فى الليلة الظلماء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف أتخذُ غيره معبوداً وناصراً ؟ وكيف تطلبون منى أن أعبد غيره أيها الجاهلون؟ وهو القادر الذى أبدع السموات والأرض على غير مثال سبق ، وهو

الذى يرزق الناس، ولا يحتاج إلى شىء مما يرزقه لغيره ، لأنه غنى عن كل ما سواه .

٣ – قل للكفار أيها الرسول ، بعد أن أوردت الآيات والبراهين على وجوب عبادة الله وحده ، وعلى أنك لا تتخذ غير الله معبوداً وناصراً – قل لهم : إنى أمِرتُ من لدن خالقى أن أكونَ أولَ من أسلم وجهه لله سبحانه وتعالى، حين اختارنى للرسالة ، ونُهيتُ عن الشرك ، فكيف تطلبونه منى أيها العاصون؟ وإنى أخاف إن عصيت ربى بمخالفة أمرْه ونهيه ، عذاب يوم عظيم ، لا بيع فيه ولا خُلّة ولا شفاعة ، وهو يوم القيامة ، فلا تطمعوا فى غير مطمع ، ومن يُصرف عنه العذاب فى ذلك اليوم العظيم ، فإنما يكون ذلك برحمة من الله وبإنعامه، فيفوز بدخول الجنة ، وهو الفوز الذى لا فوز يعادله .

٤ – وإن ينزلْ بك ضُرّ : كمرض أو فقر ، فلا يقدر على تفريجه وإزالته ودفعه إلا هو ، وإن يُصبك خير : كصحة ورخاء ونعمة ، فمن الله القادر على كل شىء ، ولا رادّ لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو القاهر المستعلى فوق عباده بالغلبة والقدرة، الذى لا يُعجزه شىء ، وهو الحكيم فى تدبيره ، الخبير ببواطن عباده وظواهرهم . رَوَى ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوماً : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامَك، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فقد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله لك، لم يقدروا عليه ، واعمل لله بالشكر واليقين ، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

٥ — وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أما وجد الله رسولا غيرك ؟ ما نرى أحدا يُصدِّقك فيما تقول ، لقد سألنا عنك اليهود والنصارى ، فقالوا : ليس لك عندهم ذكرٌ ولا صفة ، فإذا كان أهلُ الكتاب قد أنكروك ، فأتنا بمنْ يشهد لك أنك رسولُ الله ، فنزل قوله تعالى : « قل أى شىء أكبرُ شهادة . . . » ، الآية ، والمعنى : قل لهم يا محمد : أى شىء شهادته أكبر وأعظم وأصدق شهادة ؟ فإن تثاقلوا كعادتهم حين تقرَعهم الحجة ، فقل لهم : الذى لا يقع فى شهادته كذب ولا زور هو الله ، وهو شهيد بينى وبينكم على صدق دعوتى ، والقرآن شاهد على صدق نبوتى ، أوحى به إلىّ لأنذركم بما فيه من الوعيد ، وأخوفكم عاقبة عصيانكم ، كما أنذر سائر من علم برسالتى ، وبلغه نزول القرآن علىّ من الإنس والجن إلى يوم القيامة ، فكل من بلغه فهو مكلف اتباعه حتى تقوم الساعة ، ثم وبخ الله المشركين على عبادتهم الأصنام ، فقال : أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ وأمر رسوله أن يجيب بقوله : لا أشهد ، وإنما أشهد أنه تعالى إله واحد لا إله إلا هو ، ولا شريك له ، وإننى برىء مما تشركون من دونه .

٦ — وقد رد الله على اليهود والنصارى والمشركين ، بأن الذين زعموا من رؤساء أهل الكتاب أن محمداً ليس له عندهم ذكرٌ ولا صفة فى التوارة والإنجيل ، إنما هم يعرفون محمداً بصفاته التى يجدونها عندهم فى كتبهم ، كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم ينكرون ما يعرفونه ، ويُؤثرون ما لَهمْ من الجاه والرياسة فى قومهم ، على الإيمان بالرسول النبىّ الأمى ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، لاعتقادهم أن إيمانهم به يَسْلُبُهُم رياستهم ، ويسوّى بينهم وبين سائر المسلمين ، فيخسرون ما يُمدهم به قومهم ، فآثروا

التافه الحقير وهو الرياسة والجاه ، مع خسران أنفسهم ، وبقائهم على الضلال ، على الجليل العظيم ، وهو الإيمان بالرسول الكريم ، الذى يؤدى بهم فى الآخرة إلى النعيم المقيم ، فهم لا يؤمنون لئلا يضيعوا ما هم فيه من رياسة وجاه .

٧ — لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مهاجراً ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لعبد الله بن سَلَام بعد إسلامه : إن الله تعالى أنزل على نبيه عليه الصلاة والسلام أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : إنا نعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنعت الذى نعته الله به فى كتابنا ، إذا رأيناه فيكم عرفناه ، كما يعرف أحدنا ابنه إذ رآه بين الغلمان ، وايْمُ الله لَأَنَا بمحمد أشدُّ معرفةً منى بابنى ، لأنى لا أدرى ما أحْدَثت أمه . . .

(٤)

من الآية ٢١ إلى الآية ٢٦ من سورة الأنعام

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ؟. ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا: وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ –١–. وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ، يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ –٢–. وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ، وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَشْعُرُونَ –٣–.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً	لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب .
نحشرهم	نجمعهم للحساب والجزاء يوم القيامة .
فتنتهم	معذرتهم .
ضلَّ عنهم	غاب عنهم .
أكنَّة	أغطية .
أن يفقهوه	حتى لا يفهموه .
وقْراً	ثقلا فى السمع ، وهو أقل من الصمم .
إن هذا إلا أساطير الأولين	ما القرآن إلا أباطيل ملفَّقة ، عن الأمم الماضية .

مجمل المعنى

١ — لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب ، بنسبة الشريك إليه ، كقولهم : الملائكة بنات الله ، أو الأصنام شفعاؤنا عند الله ، أو كذَّب بالقرآن والمعجزات ، وسماها سحراً . والكافرون لا يفلحون ، ولا يفوزون بما ابتغوْه من إذاعة الأكاذيب فى الدنيا ، وفى يوم القيامة يجمع الله هؤلاء الكفار المكذبين ، الذين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم عند الله ، ويقال لهم : «ما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء» ؟ فأين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم يقربونكم إلى الله زلفى ؟ ثم لم تكن معذرتهم التى

يحاولون بها التخلص مما ارتكبوا إلا الالتجاء إلى الكذب ، كما كانوا يفعلون فى الدنيا ، فيقولون : والله ربِّنا ما كنا مشركين ، فيحلفون ويكذبون ، وينكرون فى مَوقف الحشر شِرْكهم بالله ، مُتوهمين أن هذا ينفعهم ؛ انظر يا محمد كيف كذبوا على أنفسهم بنفى الشرك ، وقد غاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء ، وتأملْ كيف يحلفون لله كما كانوا يحلفون لكم فى الدنيا ، ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون .

٢ — وكان أبو سفيان ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحرث ، وعُتبة وشَيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل وأضرابهم ، اجتمعوا يوماً ، فسمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن ، فقالوا للنضْر : يا أبا قـَتيلة ، ما يقول هذا الرجل ؟ فقال : والذى جعلها — يعنى الكعبة — بيته ، ما أدرى ما يقول ، إلا أنه يحرِّك لسانه ويقول أساطير الأولين ، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية ، وكان النضر كثيرَ الحديث عن القرون الأولى ، وكان يحدث قريشاً ، فيستملحون حديثه ، فنزل قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك . . . » .

والمعنى : من الكفار من يستمع إليك وأنت تتلو القرآن ، وجعلنا على موضع الفهم والإدراك منهم ، — وهى قلوبهم — أغطية تحول دون فهمه ، مجازاةً لهم على كفرهم ،وضربنا على آذانهم حتى لا يسمعوه ، وليس المراد أنهم لا يفقهون ولا يسمعون ، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يفهمون ويسمعون عناداً واستكباراً ، ولا ينقادون إلى الحق ، كانوا بمنزلة من لا يفهم ولا يسمع ؛ وإن يروا كلَّ مُعجزة دالةٍ على صدقك لا يؤمنوا بها ، ويقولوا : إنه سحرٌ ، حتى إذا جاءوك ، يجادلونك ويخاصمونك ؛

يقول المصرُّون منهم على الكفر : مَا هذا الذى أتيت به فى القرآن إلا خرافات ملفّقة ، وأباطيل منمّقة ، تتحدث بها عن الأمم الماضية .

٣ — وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إلى الكعبة ، وأراد أن يصلى ، فلما دخل فى الصلاة قال أبو جهل : من يقوم إلى هذا الرجل فيُفسد عليه صَلاته ؟ فقام ابن الزِّبَعْرَى — قبل إسلامه — فأخذ فَرْثاً ودماً ، فلَطَّخَ به وجه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأتى عمّه أبا طالب ، وقال : يا عمّ ، ألا ترى إلى ما فُعِل بى ؟ فقال أبو طالب : من فعَل بك هذا ؟ قال : عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، فقام أبو طالب وسيفه على عاتقه ، ومشى حتى أتى القوم ، فلما رأوا أبا طالب مُقْبلا جعلوا ينهضون ، فقال أبو طالب : والله لئنْ قام رجل منكم لجلَّلْتُه بسيفى . فقعدوا ، فأخذ فَرْثاً ودماً فلطخ به وجوههم ولِحاهم وثيابهم ، فنزل قوله : «وهم ينهَوْن عنه وينأون عنه...» الآية ، والمعنى : وبعض أعمام محمد ، ومنهم أبو طالب ، ينهَوْن عن إيذائه ، ويزجرون من يتعرّض له ، ولكنهم يتباعدون عن الإيمان به ، وهم بنأيهم عنه ، وإصرارهم على الكفر ، ما يُهلِكون إلا أنفسهم ، بتعريضها لعذاب الله ، وما يشعرون أن ضرر كفرهم عائد عليهم .

(٥)

من الآية ٢٧ إلى الآية ٣٢ من سورة الأنعام

وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ، فَقَالُوا : يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ، وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ؛ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا : إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ —١— . وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، قَالَ : أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَى وَرَبِّنَا ، قَالَ : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ —٢— . قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً : قَالُوا : يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ! وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ —٣— . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ —٤— .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
أوقفهم ملائكة العَذاب على النار .	وُقِفُوا على النار
ظهر لهم ما كانوا يخفونه فى الدنيا ، حين تشهد عليهم جوارحهم .	بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل
ما الحياة إلا الحياة الدنيا ، ولا حياة بعدها .	إن هى إلا حياتنا الدنيا
عُرضوا على ربهم .	وُقِفُوا على ربهم
أليس البعث حقًّا ؟ .	أليس هذا بالحق
القيامة .	الساعة
الحسرة : الغم على ما فات ، والتندم عليه .	يا حسرتنا
على ما ضيعنا فى الدنيا .	على ما فرّطنا فيها
الأوزار : جمع وِزر ، وهو الإثم والذنب ، والمراد : أنهم يشعرون بالمشقة من ثقل ذنوبهم .	وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم
ما أسوأ ما يحملونه من الذنوب !	ساء ما يزرون

مجمل المعنى

١ — ولو ترى أيها الرسول هؤلاء الكفار ، حين يقفهم ملائكة العذاب على النار ، لرأيتهم فى أسوأ حال ، رأيتهم فى ذُلٍّ واستكانة ، يُظهرون الندم على ما سلف منهم ، والحسرة على الذنوب التى اقترفوها ، ويتمنَّوْن أن يعودوا إلى الدنيا ، وألا يُكذبوا بما أنزلنا عليك من القرآن ، وألا يُنكروا

البعث ، وأن يؤمنوا إيماناً صادقاً ، بل إنهم لكاذبون ، فإنهم لم يقولوا هذا إلا بعد أن ظهر لهم سيئات ما عملوا فى صحائفهم ، وشهدت عليهم جوارحهم بما كانوا يخفونه من قَبْلُ فى الدنيا ، لقد شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، وبان لهم كذبهم فى قولهم : والله ربّنا ما كنا مشركين ، ولو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما نُهُوا عنه من المعاصى والكفر والنفاق ، لِخُبْث طويتهم ، وفساد جبلّتِهم ، وسوء استعدادهم ، دَيْدَنُهم الكذب والخداع والمكر ، وقالوا — إن رُدّوا إلى الدنيا — : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين ، وعادوا إلى إنكار البعث والجزاء ، واشتغلوا بلذائذ الحياة التى كانوا منغمسين فيها ، ولم ينفع فيهم اعتبار ولا عظة ، لأنهم مَرَدُوا على الكفر والنفاق .

٢ — ولو ترى أيها الرسول حين عرضهم الملائكة على ربهم ، فقال لهم على لسان ملائكته توبيخاً لهم : أليس البعث الذى كنتم تُنكرونه حقا ؟ قالوا : بلى ، وربّنا إنه لحق ؛ فيقرُّون إقراراً مؤيّداً باليمين ، فيقول الله لهم : ذوقوا العذاب بسبب كفركم وعصيانكم فى الدنيا — لو ترى ذلك لرأيت أمراً عجباً ، ومنظراً غريباً .

٣ — قد خسر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بلقاء الله يوم البعث والجزاء ، إذ فاتهم ما كان يمكن أن يصل إليهم من الغُنم الذى فاز به المؤمنون ، واستوجبوا بكفرهم العذاب الأليم ، حتى إذا جاءهم يومُ القيامة فجأة ، وهم فى أسوأ حال ، قالوا : واحسرتاه على ما ضيعناه من عمرنا فى المعاصى ! وهم يحملون آثامهم على ظهورهم ، ألاما أسوأ ما يحملون ! وقد عبّر الله عن كثرة آثامهم بأنها لفداحتها لا تُحمَل إلا على الظهر ، لأن الظهر هو الذى يستطيع أن يَحْمِلَ الحِمْلَ الثقيل ؛ ولا رَيْبَ أن النفس فيما

تعانيه من سوء أثقال الذنوب ، وما تقاسيه من شقاء وآلام ، حين تَقْدَم على من يحاسبها ، تُشْبِهُ الأجسام فيما تعانيه من الأحمال الثقيلة . التى تنوء بحملها .

٤ — وليست أعمال الحياة الدنيا من طَرَب وَمسرَّة ، وَمرَح ولذة ، إلا كاللعب واللهو ، فى عدم النفع والثبات ، فهى تلهى الناس عما يُعقِب منفعة دائمة ، ولذة حقيقية ، وَللدَّار الآخرة خير للذين يتقون الكفر والمعاصى ، لدوامها وثباتها ، أفلا تعقلون أيها العاصون ، فتزهدوا فى الدنيا الفانية ، وتعملوا للأخرى الباقية ؟

(٦)

من الآية ٣٣ إلى الآية ٣٧ من سورة الأنعام

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا ، وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ —١— . وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ —٢— . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ، ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ —٣— . وَقَالُوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فإنهم لا يكذبونك	فإن الكفار يعتقدون أنك صادق .
الظالمين	الذين ظلموا أنفسهم بجحودهم ، لتعريضها لعذاب الله .
لكلمات الله	لما وَعد به رسلَه من النصر .
كَبُرَ عليك إعراضُهم	عظم وشقّ عليك إعراضهم عن الإيمان بك .
نفقا فى الأرض	سَرَباً فى جوف الأرض .
بآية	ببرهان يدل على صدقك .
فلا تكونن من الجاهلين	فلا تجزَع فى موطن الصبر ، فإن ذلك دأب الجهال .
والموتى يبعثهم الله	المعاندون كالموتى الذين لا يسمعون ، والموتى يبعثهم الله فى الآخرة .

حقد وحسد

التقى الأخنس بن شُريق ، وأبو جهل ، فقال الأخنس : يا أبا الحكَم ، أخبرنى عن محمد : أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس ها هنا أحد يسمع كلامك غيرى ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذَب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصىّ باللواء والسِّقاية والحجابة ، والنَّدْوة والنبوّة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ . وكان الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف بن قصىّ ، يكذّب النبى صلى الله عليه وسلم فى العلانية ، فإذا

خلا مع أهل بيته ، قال : ما محمد من أهل الكذب ، ولا أحسبه إلا صادقاً ، ومرّ أبو جهل وأصحابه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد ، والله ما نكذّبك ، وإنك عندنا لصادق ، وإنما نكذب ما جئتنا به ، لهذا نزلت هذه الآيات .

مجمل المعنى

١ – إننا نعلم إنه ليؤلمك ويغمك ما يقابلك به قومك من تكذيب دعوتك ، فلا يحزنك قولهم ، إنا نعلم ما يُسرّون وما يعلنون ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إنهم فى الحقيقة لا ينسبون إليك الكذب ، لأنهم يعلمون أنك نشأت على أكرم الخِلال ، ولم يجربوا عليك كذباً ، فهم يعتقدون فى قرارة أنفسهم أنك صادق ، ولكنهم يقاومون دعوتك عناداً واستكباراً ، فيجحدون الآيات الدالة على نبوّتك ، ويكذبونها ، ويظلمون أنفسهم بتعريضها لعقاب الله فى الآخرة ، فالتكذيب لآياتى ، وأنا الصبور الحليم ، فتخلق بأخلاقى ، هكذا جرت سنة الكفار مع الأنبياء الذين سبقوك ، فلقد كذبت رسل من قبلك ، فاعتصموا بالصبر ، وأوذوا فلاذوا بالحلم والأناة ، حتى أتاهم نصرنا ، فتأسّ بهم واصبر ، حتى يأتيك النصر ، ولا مبدّل لكلمات الله ، فيما وعد به ، « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جُندنا لهم الغالبون» ، ولقد جاءك من قصص المرسلين ما يسكن جأشك ، ويطمئن قلبك .

٢ – وإن كان قد كبر وشقّ عليك إعراضهم عن الإيمان بك ، وبما أنزلنا عليك من القرآن ، لشدة حرصك على إسلام قومك ، فإن استطعت أن تأتى بالمستحيل ، بأن تطلب لنفسك منفذاً إلى جوف الأرض لتستخرج

لهم آية ، أو مصعداً إلى السماء لتنزل عليهم آية مما اقترحوه عليك ، كتفجير ينبوع من الأرض ، أو الإتيان بالله والملائكة قبيلا ، فافعل ؛ وما دمت لا تستطيع ذلك ، فاصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم ، وهو خير الحاكمين ، ولو شاء الله جمعهم على ماجئت به من الهدى لوفقهم إلى الإيمان ، ولكن لم تتعلق مشيئة الله بإيمانهم ، فلا تزدد رهقاً ، ولا تحرص على طلب ما لم يرده الله ، وفوض أمرهم إليه ، ولا تجزع فى مواطن الصبر ، فإن ذلك دأب الجهال .

٣ – إنما يستجيب دعاءك إلى الإيمان الذين يسمعون سماع تفهم واعتبار ، لا سماع عناد واستكبار ، والكفار فى عدم إصغائهم إلى دعوتك كالموتى ، وإنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، والموتى يبعثهم الله يوم القيامة ، فلا تحاول إيقاظهم فى الدنيا ، ثم إليه يرجعون للحساب ، فيجازى كلاً بعمله .

٤ – وقال رؤساء الكفار : هلا أنزل عليه آية من ربه ، تدل على صدق دعوته ، كناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى ، فقل لهم : إن الله قادر على أن ينزل آية مما اقترحوه ، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن إنزالها مع استمرار كفرهم ، يجلب عليهم البلاء والاستئصال ، لوجوب هلاكهم إن جحدوها ، كما حدث لغيرهم من الأمم الماضية ، فإنزال الآيات ليس خيراً لهم ، بل هو شر لهم .

(٧)

من الآية ٣٨ إلى الآية ٤١ من سورة الأنعام

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ، إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ –١– . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ –٢– . قُلْ : أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ، أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ، فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أُمَمٌ أمثالكم	جماعات مقدّرة أرزاقها وآجالها وأحوالها مثلكم .
ما فرطنا في الكتاب من شيء	ما تركنا شيئاً لم نكتبه في اللوح المحفوظ .
بآياتنا	بآيات القرآن الكريم .

الألفاظ	شرحها
صُمٌّ وبُكْمٌ	كالصم والبكم فى عدم سماعَ الآيات سماعَ قبول ، وفى عدم النطق بالحق .
فى الظلُمات	يخبطون فى ظلمات الكفر والجهل ، والعناد والتقليد .
من يشإ الله يضلِلْه	من تتعلق مشيئة الله بإضلاله ، يضلله .
أرأيتكم	أخبرونى يأهل مكة .
فيكشف ما تدعون إليه	فيكشف الضر الذى تدعون الله إلى كشفه .

مجمل المعنى

١ — ليس فى الأرض دابة تدبُّ فى الأرض على وجهها ، ولا طائر يطير فى الهواء بجناحيه ، إلا طوائفُ مختلفة أمثالكم ، مُقدَّرة أرزاقها وآجالها وأحوالها فى اللوح المحفوظ — وهو شىء أثبت الله فيه ما كان وما يكون ، وما هو كائن إلى يوم القيامة ، لا يعلم حقيقته إلا هو — وذلك التقدير بقدرة الله ، وشمول علمه ، ومحكم تدبيره . فلا يجوز لنا أن نظلمها فى طعامها ، أو أن نقسو عليها ، أو نحمِّل دواب الحمل فوق طاقتها ؛ ما تركنا شيئاً لم يُكتب فى اللوح المحفوظ ، فهو مشتمل على كل ما يجرى فى العالم من الجليل والدقيق ، والعظيم والحقير ، لم يهمل أمر حيوان أو جماد ؛ ثم يجمع الله كل حى يوم القيامة ، فينصف المظلوم من الظالم ، والضعيف من القوىّ ، ويقضى بينهم قضاءه العادل ، ويبلغ من عدله أن يقتصَّ للجمَّاء — الشاة التى لا قرْنَ لها — من القَرْناء — ذات القرنين — ، ثم

يقول لغير بنى آدم : كونوا تراباً ، فيتمنى الكافر حين ينظر ما قدمت يداه ، أن يكون تراباً مثلها .

٢ — والذين كفروا بآياتنا التى أنزلناها فى القرآن ، والبراهين الدالة على صدق نبوّتك ، قد عدموا الانتفاع بحواسّهم ، فهم كالصُّمّ عند سماع هذه الآيات الدالة على ربوبيّتنا ، وكمال علمنا ، وعظيم قدرتنا ، فلا يسمعونها سماع قبول ، وكالبُكْمِ فى عدم نطقهم بالحق الذى يعرفونه ، ولكنهم ينكرونه ، وهم يخبطون فى ظلمات الكفر والجهل ، والعناد والتقليد ؛ من تتعلق مشيئة الله بإضلاله لفساد فطرته ، يُضلله على حسب إرادته ، ومن يشأ هدايته يُرشده إلى الهدى ، ويوفقه إلى الطريق المستقيم . الذى يسلكه المؤمنون ، وهو دين الإسلام .

٣ — قل يا محمد لأهل مكة : كيف يكون حالكم مع ما تعبدون من دون الله ، إن أتاكم عذاب الله فى الدنيا ، كما أتى قبلكم من الأمم الماضية ، أو أتاكم يومُ القيامة بأهواله ، أغيرَ الله تدعون ليكشف الضرّ عنكم ؟ إن كنتم صادقين فى أن الأصنام تنفعكم ، وأنها فى وقت الشدة تحميكم ، فادْعوها ، بل إنكم عند نزولِ الكرب والمحنة لا تدعون إلا الله ، وتخُصُّونه بالالتجاء إليه ، فيكشف ما تدعونه إليه من الشدة إن شاء كشفه ، وتنسون ما كنتم تشركونه معه من الأصنام فى ذلك الوقت نسياناً كليّاً ، لما ركَز فى عقولكم من أن الله وحده هو القادرُ على كشْفِ الضرّ ودفْعه ؛ ويشبه هذا قوله تعالى : « ثم إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون » .

(٨)

من الآية ٤٢ إلى الآية ٤٧ من سورة النساء

وَلقدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ، فَأَخذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ، وَلٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —١— . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ، فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ —٢— . قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّٰهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ، الْآيَاتِ ، ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ —٣— . قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّٰهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ، هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ؟ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
البأساء	الشدة والفقر ، والمصائب فى الأموال .
الضراء	الأمراض والآفات ، والمصائب فى الأبدان .
يتضرعون	يتذللون ويخضعون ، ويعدلُون عن كفرهم ويؤمنون.
بأسُنا	عَذابنا .
ذُكِّروا به	وُعِظوا به .
فتحنا عليهم أبواب كل شيء	فتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، وأغدقنا عليهم النِّعم .
مبلسون	يائسون متحسِّرون .
فقطع دابر القوم الذين ظلموا	فاستأصلنا هؤلاء الكافرين ، والدابر : آخرُ القوم الذى يكون فى أدبارهم .
أرأيتم	أخبرونى .
إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم	إنْ سلب الله منكم السمع والبصر ، فأصمَّكم وأعماكم .
وختم على قلوبكم	وطبع على قلوبكم ، فلا تفهمون شيئاً .
يأتيكم به	يأتيكم بما سلب وختم عليه منكم .
نصرِّف الآيات	نبين الآيات ، ونكررها على صور مختلفة .
يصدِفون	يعرضون .

مجمل المعنى

١ — ولقد أرسلنا رسلنا إلى أمم من قبلك ، فدعوهم إلى عبادتنا فكذبوهم ، فعاقبناهم بالشدة والضيق والفقر ، والآفات والأمراض وغلاء الأسعار ، رجاء أن يخضعوا ويتذللوا ، ويعدلوا عن عصيانهم ويؤمنوا ، فإن من يصيبه الضر يجأر إلى الله بالدعاء ليفرّج عنه كربته ، ولكنهم لم يفعلوا ، فهلا خضعوا وابتهلوا إلينا حين ابتليناهم بالعذاب لنكشف الضر عنهم ، كلا ! بل قستْ قلوبهم فلم تلن للإيمان ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون من المعاصي ، والتمادي في الكفر ، ولم يخطر ببالهم أن ما أصابهم من البؤس والضر بسبب عصيانهم وكفرهم ، وإمعانهم في عتوّهم وضلالهم.

٢ — أمهلناهم حتى نسوا ما وُعظوا به من البأساء والضراء ، فاستمرّوا في غوايتهم وضلالهم ، فاستدرجناهم من حيث لا يعلمون ، بأن أغدقنا عليهم الأموال ، وأسبغنا عليهم النعم الوافرة ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من الخيرات والآلاء ، وانغمسوا في ضُروب النعماء ، واشتغلوا بها عن القيام بحق المنعم ، أخذناهم على غِرّة أخذ عزيز مقتدر ، وبطشنا بهم بطش قاهر جبار ، فإذا هم من هول ما رأوا يائسون متحسرون ، قد تملكهم الغم والحزن على ما كانوا يرفلون فيه من ضروب النعيم ، واستؤصلوا عن آخرهم ، وقطع الله دابرهم ، ولم يبقَ منهم أحد ، والحمد لله رب العالمين الذي ينصر رسله ، ويهلك الكفرة الظلمة ، ويطهر الأرض من أرجاسهم وأدناسهم ، ويخلصها من فساد عقائدهم ، وسوء أعمالهم.

٣ — قل لأهل مكة أيها الرسول : أخبروني ، إن عاقبكم الله ، فسلب منكم سمعكم فأصمكم ، وسلب منكم أبصاركم فأعماكم ، وغطى على مراكز الفهم

والشعور والعقل منكم ، فأصبحتم لا تعقلون شيئاً ، مَنْ إله غيرُ الله يرد إليكم ما سُلب وما غُطى؟ انظر يا محمد كيف نبين لهم الآيات الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ، ونكررها فى صور مختلفة ، ثم هم يعرضون عنها ، ولا يؤمنون ؟

٤ — قل لهم : أخبرونى ، إن أتاكم عذاب الله فجأة من غير مقدمات تدل عليه ، أو جهرة بأن تتقدمه أمارات تشعرهم به ، وتؤذن بحلوله ، هل ينزل سخط الله إلا بالقوم الكافرين منكم ، المصرين على الشرك عناداً وجحوداً ، الذين ظلموا أنفسهم ، بتعريضها لعقاب الله ؟ فهل يهلك غير هؤلاء ؟ أما الرسول ومن آمن به ، فلا يصيبهم أى أذى ، كما جرت بهذا سنة الله مع رسله .

(٩)

من الآية ٤٨ إلى الآية ٥١ من سورة الأنعام

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ —١— . قُلْ : لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ : إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ؟ —٢— . وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يفسُقون	يخرجون عن طاعة الله .
إن أتبع إلا ما يوحى إلى	ما أتبع إلا ما يوحى إلى .
هل يستوى الأعمى والبصير	هل يستوى الكافر والمؤمن ؟ .
أنذر به	خوّف بما يوحى إليك .

مجمل المعنى

وما نرسل المرسلين إلا مبشرين بالجنة مَنْ أطاعهم ، ومخوِّفين بالنار من عصاهم ، ولم نرسلهم ليقترح عليهم الكفار ما يشاءون من الآيات ، أو يتخذوا دعوتهم لهواً ولعباً ، فمن آمن بهم ، وأصلح بإتيانه عمله على وَفق الشريعة ، فلا خوف عليهم من العذاب ، ولا هم يحزنون على فوات الثواب ، والذين كفروا بآياتنا يصيبهم العذاب ، بسبب خروجهم عن طاعتى وطاعة رسلى .

٢ — قل أيها الرسول لمن يقترحون عليك ما يقترحون : ما أنا إلا رسول الله إليكم ، فلا أقول لكم عندى خزائن رزق الله ، لأنه هو وحده الذى عنده خزائن السموات والأرض ، يتصرف فيها كما يشاء ، ولا أدعى أنى أعلم شيئاً من أمور الغيب ، التى اختص بها المولى جل وعلا ، حتى تسألونى عن وقت قيام الساعة ، ووقت إنزال العذاب ، فلا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، ولا أقول : إنى من جنس الملائكة ، أقدر على ما يقدرون عليه ، وإنما أنا عبد يمتثل أمرَ مولاه ، وبشر مثلكم ، يوحَى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد ، وما أتبع إلا ما يوحَى إلىَّ ، هل يستوى الكافر والمؤمن ، والضال والمهتدى ، والجاهل والعالم ، وأعمى البصيرة المقلد جهلا وضلالا ، وذو البصيرة الذى يسير على مقتضى العقل ؟ أفلا تفكِّرون فتميزوا بين الحق والباطل ؟

٣ — وأنذر بما يوحى إليك المؤمنين الذين يُفرِّطون فى إيمانهم بارتكاب المعاصى ،

الذين يخافون شدة وطأة الحشر ، وهولَ الموقف ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله ، وليس لهم من غير الله وليّ ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ، وإن نجاتهم وسعادتهم إنما تكون بأعمالهم ، لعلهم يتقون فيقلعوا عما هم فيه ، ويقبلوا على الطاعات .

(١٠)

من الآية ٥٢ إلى الآية ٥٥ من سورة الأنعام

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ —١— . وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، لِيَقُولُوا : أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ —٢— . وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ، فَقُلْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ : أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ، فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٣— . وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ، وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بالغداة والعشيّ	فى أول النهار وآخره ، والمراد : كل وقت .
يريدون وجهه	يريدون مخلصين وجه الله ، لاعرضاً من عروض الدنيا .

شرحها	الألفاظ
ما عليك شيء من حساب رزقهم ، وما عليهم من حساب رزقك شيء ، لأن الله هو المتكفل بالأرزاق .	ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء
امتحنا بعضهم ببعض .	فتنّا بعضهم ببعض
أهؤلاء الفقراء أنعم الله عليهم بالهداية من بيننا ؟	أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا
قضت ذاته العلية بالرحمة تفضلا وإحساناً .	كتب ربكم على نفسه الرحمة
ولتتضح .	ولتستبين

الإسلام لا يعترف بنظام الطبقات

مر ملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده صُهيب ، وعمّار بن ياسر ، وبلال الفارسى ، وخبّاب ، وغيرهم من ضعفاء المسلمين وفقرائهم ، فقالوا له : يا محمد ، أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا بالإيمان بك ؟ أنقتدى بهؤلاء العبيد والموالى ؟ إنا لنستحى أن نأتيك فنجلس مع هؤلاء الصعاليك ، اطردهم عنك ، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين ، فقالوا : فنحّهم عنا إذا جئنا ، وأبعدهم عنك إن شئت ، فمال رسول الله إلى تحقيق رغبتهم ، طمعاً فى إسلامهم ، فأنزل الله قوله : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ . . . » .

مجمل المعنى

١ ــ ولا تطرد يا محمد الفقراء الموحدين ، الذين يخلصون فى عبادتهم وأعمالهم لله ، ويتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره ، ويذكرون ربهم فى كل وقت ، ويداومون على حضور مجالسك ، لا يبتغون بهذا إلا وجه الله ، لا غرضاً من أغراض الدنيا ، فليس عليك شىء من حساب رزقهم ، وليس عليهم شىء من حساب رزقك ، لأن الله وحده هو المتكفل برزقهم ورزقك . فأقبل عليهم وجالسهم ، ولا تستمع إلى كلام الكفار ، فإنهم لا يريدون إلا الدسّ والوقيعة بينك وبين من آمن بك ، فإن طردتهم كنت ظالماً ، وحاشا أن يقع منك ظلم .

٢ ــ وكما ابتلينا مَنْ قبلك يا محمد ، ابتلينا قومك ، فقدمنا الفقراء الضعفاء على أشراف قريش ، بالسبق إلى الإيمان ، ليقولَ هؤلاء الأشراف الأغنياء : أهؤلاء الضعفاء الفقراء الصعاليك ، هم الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا بالإيمان ، ويُعَدُّون أسبقَ إلى الإسلام ، ويكونون قد اكتسبوا من مجالسة محمد ما لا نعرفه ؟ لو كان هذا الدين خيراً ما سبقَنا أمثال هؤلاء إليه ، لأننا نحن المقدَّمون والرؤساء ، وهم العبيد والفقراء ، ولو علم الله أن هؤلاء خير منا لآثرهم بالغنى والثروة والجاه والقوة دوننا ، فرد الله عليهم بأنه أعلم بالشاكرين لفضله ، فوفقهم إلى الإيمان ، وهداهم إليه .

٣ ــ وإذا جاءك الذين يؤمنون بالقرآن ، وبالبراهين الدالة على صدق دعوتك ، من هؤلاء الضعفاء ، فابدأهم بالسلام تكريماً لهم ، فكان الرسول إذا رآهم قال : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أبدأهم بالسلام » ، وقل لهم : لقد أوجب ربكم على ذاته العلية الرحمة بعباده ، هذه الرحمة هى : أنه من ارتكب ذنباً من غير قصْد ، وهو جاهل بحقيقة ما يَتبعه من المضارّ والمفاسد ، ثم تاب من بَعد ذلك توبة نصوحاً ، وأصلح بعد

توبته بالندم على ما فعل ، والعزم على ألا يعود أبداً ، فإن الله واسع المغفرة والرحمة ، يقبل توبته ، ويعفو عن سيئاته .

٤ - ومثل ذلك التفصيل الذى أوضحناه فيما سبق من الآيات فى هذه السورة ، نفصل الآيات بشأن الطائعين من المؤمنين ، والعاصين من زعماء قريش ، وليتضح لك يا محمد سبيل المجرمين ، كما يتضح سبيل المهتدين ، فتعامل كلا بما يناسبه .

(١١)

من الآية ٥٦ إلى الآية ٥٨ من سورة الأنعام

قُلْ : إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قُلْ : لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ، قَدْ ضَلَلْتُ إِذَنْ ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ —١— . قُلْ : إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى ، وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ ، يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ —٢— . قُلْ : لَوْ أَنَّ عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
تدعُون	تعبدون .
قد ضللت إذن	قد وقعت فى الضلال إن اتبعتها .
بيِّنة	ثقة ويقين ومعرفة .
ما تستعجلون به	ما تتعجلون وقوعه من العذاب .
يقصُّ الحق	يتبع الحق .
لقضى الأمر بينى وبينكم	لانقضى الأمر بينى وبينكم ، بوقوع العذاب بكم

مجمل المعنى

١ – قل يا محمد لأهل مكة : إنى صُرفت بفطرتى ، ونهيت بما أنزل الله علىّ من الآيات الدالة على وحدانيته ، عن عبادة الأصنام التى تعبدونها من دون الله ، فلا تطمعوا فى غير مطمع ، فلن أتابعكم فى ضلالكم الناجم عن أهوائكم الباطلة ، فإنى إن اتبعت أهواءكم – فرضاً – وقعت فى الضلال والشرك، وجانبت سبيل الهدى والرشاد .

٢ – قل لهم أيها الرسول : إنى على ثقة ويقين ومعرفة بالأدلة الواضحة التى تدل على وحدانية ربى ، وهى المعرفة التى تميزُ الحق من الباطل ، وقد كذبتم به ، إذ أشركتم معه غيره ، وليس فى قدرتى ما تقترحونه من العذاب وتستعجلونه ، بقولكم : أمطِر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم ، إذ ليس الحكم فى تعجيل العذاب وتأخيره إلا لله وحده ، يتبع فيه الحق ، ويقضى فيه القضاء العادل ، وهو خير الحاكمين .

٣ – قل لهؤلاء المعاندين : لو أنى أملك ما تستعجلوننى به من العذاب ، لانتهى الأمر بينى وبينكم بإهلاككم ، ولكن الأمر لله سبحانه وتعالى ، وهو أعلم بمن يستحق أن يؤخذ بالعقوبة عاجلا ، ومن ينبغى أن يُمهلَ من الكافرين الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ، بتعريضها لعذاب الله .

(١٢)

من الآية ٥٩ إلى الآية ٦٠ من سورة الأنعام

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ —١— . وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مفاتح الغيب	معرفة الأمور التي تغيب عنا .
إلا في كتاب مبين	إلا أحاط علمه بها ، فهي في ثبات علمه بها كأنها مكتوبة .
يتوفاكم بالليل	ينومكم بالليل للراحة .
جرحتم بالنهار	كسبتم من خير أو شر .
يبعثكم فيه	يوقظكم في النهار .
أجل مسمى	حياة محدودة الزمن في الدنيا .
مرجعكم	رجوعكم .
ينبئكم	يخبركم .

مجمل المعنى

١ – اختص الله سبحانه وتعالى بعلم ما غاب عنا، وما لا نستطيع إدراك كنهه، فهو يعرف وحده متى يبعث الناس من قبورهم يوم القيامة، ومتى ينزل المطر من السماء، وما الذى يحدث للإنسان فى مستقبل حياته، وما يوجد فى بطون الأمهات من الأجِنَّة: أذكر هو أم أنثى؟ وما على ظهر الأرض. وفى جوف البحر من مخلوقات، بل لا تسقط ورقة من شجرة، ولا توجد حبَّة فى باطن الأرض، وما من شىء جافّ أو طرىّ من المخلوقات، إلا أحاط علمه به، إذ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

٢ – واختص الله بكمال القدرة، فهو وحده الذى ينوّمنا بالليل، فلا نستطيع إدراكاً ولا تمييزاً؛ ويعلم ما نكسبه من عمل فى النهار، خيراً كان أم شرًّا، حين يوقظنا فيه؛ ويرد إلينا إدراكنا ونشاطنا بعد استيقاظنا، لنزاول ما هيأنا الله له من عمل، إلى أن تنقضى أعمارنا التى قدرها لنا فى هذه الحياة الدنيا، ثم يبعثنا يوم القيامة، فيخبرنا بما عملناه فى الدنيا فى أثناء حياتنا، ويجازينا عليها، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشر.

(١٣)

من الآية ٦١ إلى الآية ٦٤ من سورة الأنعام

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ —١— ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ، وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ —٢— . قُلْ : مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؟ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ —٣— . قُلِ : اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
القاهر	الغالب بسلطانه وقدرته ، الذى يتصرف فى أمور عباده كما يشاء .
يرسل عليكم حفـظـة	يرسل عليكم ملائكة تُحصى عليكم أقوالكم وأعمالكم.

الألفاظ	شرحها
رسلنا	ملائكتنا أعوانُ مَلك الموت .
لا يُفرِّطون	لا يقصّرون ولا يتوانون .
ثم رُدُّوا إلى الله	ثم يرد الخلق إلى الله بعد البعث ، للحساب والجزاء.
ألا له الحكم	ألا له وحده الفصل . والقضاء النافذ .
أسرعُ الحاسبين	يحاسب الخلق كلهم ، فى أسرع وقت وأقصره .
تضرعاً وخفية	فى تذلل وخضوع . وفى إعلان وإسرار .

مجمل المعنى

١ — قل يأيها النبىّ لأهل مكة : اللهُ هو وحده الغالب على عباده ، المتصرف فى أمورهم ، فلا يُعجزه أحد منهم . ولا يستطيع أحد أن يحول بينه وبين ما يشاء ، ويُرسل عليكم أيها الناس كراماً كاتبين من الملائكة ، يعلمون ما تفعلون من حيث لا تشعرون ، فيكتبون كل ما تعملون من الطاعات والمعاصى ، ولا يغادرون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصَوْها عليكم ، وقيّدوها فى صحائف أعمالكم ، وما يلفظ أحدكم من قول ولا يأتى من عمل ، إلا كُتبَ له ، حتى إذا جاءت أمارات موتكم ، وانتهت آجالكم ، توفتكم رسلُنا ، الموكلون بقبض الأرواح ، أعوانُ ملك الموت ، وهم لا يقصرون ، ولا يتوانون فى تأدية أعمالهم ، فى الأوقات المعينة لها — والواجب علينا أن نؤمن بكل هذا من غير أن ندخل فى تفاصيله ، سواء أعقلنا كيفيته أم لم نعقلها .

٢ — ثم بعد موت الخلائق يُرَدون يوم البعث إلى الله مالكهم ، الذى يتولى وحده أمورهم ، العادل الذى يقضى بينهم بالحق . ألا له وحده الحكم

فى ذلك اليوم ، والقضاء النافذ ، ونظير هذا المعنى قوله : « إن ربك يَقضى بينهم بِحُكمه ، وهو العزيزُ العليم » ، وهو أسرع الحاسبين ، فيحاسب الخلق جميعاً فى أسرع وقت وأقصره .

٣ — قل يا محمد لأهل مكة : من ينجيكم من أهوال البرّ إذا اجتمعت عليكم ظلمة الليل وظلمة السحاب ، واشتبهت عليكم المعالم والآثار ، وتعرضتم للمخاوف والأخطار؟ ومن أهوال البحر إذا اجتمعت عليكم ظلمة الليل وظلمة السحب ، وظلمة البحر ، وتعرضتم لهياج البحر من جرّاء الأعاصير التى تهبُّ عليكم ، وطغَتْ عليكم الأمواج ؟ إنكم فى ذلك الوقت حين يشتد الكربُ ، ويتفاقم الخطب ، تذكرون ربكم ، فتدعُونه فى ضراعة وخضوع ، فى جهركم وإسراركم ، قائلين : إننا نقسم أننا إن انحسرت عنا هذه الشدائد ، وانكشف عنا هذا الكرب ، لنكونَنّ من الطائعين الشاكرين لفضلك ورحمتك .

٤ — قل لهم يا محمد : إنكم لا تتورعون عن نَكث أيمانكم ، فإنكم بعد أن ينجيكم ، ويُفرّج كربتكم ، لا تلبثون أن تعودوا إلى الشرك ، ولا توفُوا بما تعهدتم به .

(١٤)

من الآية ٦٥ إلى الآية ٦٧ من سورة الأنعام

قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ، وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ —١— . انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ . وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ، قُلْ : لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ —٢— . لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من فوقكم	يأتي من فوقُ ، كما فعل مع قوم نوح ولوط ، وأصحاب الفيل .
من تحت أرجلكم	يأتي من تحتُ ، كما فعل مع قارون ، حين خسف به وبداره الأرض .
يلبسكم شيعاً	يجعلكم فرقاً مختلفة الأهواء ، متباينة النزعات ، ويلتبس عليكم أمركم .
ويُذيق بعضكم بأس بعض	ينكـّل كلُّ فريق بالآخر ، بما يملكه من قوة وبأس .

الألفاظ	شرحها
نصرّف الآيات	نبينّها على صور مختلفة .
وكذب به قومك	وكذب قومُك بالقرآن الذى فيه ما حدث للأمم الماضية من العذاب .
لستُ عليكم بوكيل	لستُ بحفيظ عليكم وُكلَ إلىّ أمركم ، فأمنعكم من التكذيب .
لكل نبأ مستقر	لكل خبر وقت ، قدّر الله أن يقع فيه ويستقر .

مجمل المعنى

١ — قل لقومك أيها الرسول : إن الله وحده قادر على إيصال العذاب إليهم بإحدى هذه الطرق : —

(ا) من فوقهم ، كما فعل بقوم نوح ، حين أمر السماء أن تُمطر المطر الغزير ، الذى نجمَ عنه ومن الماء الذى نبع من الأرض طوفانٌ ، أغرق الكافرين ، وحمل السفينة التى أقلّت المؤمنين ؛ وبقوم لُوط ، حين أمطر عليهم حجارة أبادتهم ، وبأصحاب الفيل حين أرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجّيل ، ولو كانوا فى عصر الطيارات لكانت القنابل التى تسقط عليهم كفيلة باستئصالهم .

(ب) أو من تحت أرجلهم . كما حدث لقارون الذى كان يباهى بثروته الضخمة . ويكفرُ بمن أنعم عليه بها ، فخسفَ الله به وبداره الأرض ، ولو كان فى هذا العصر لكانت الغواصات فى البحر ، والألغام فيه ، وفى البر ، كافية للتنكيل بالعاصين .

(ح) أو يجعلهم أحزاباً مختلفة الأهواء ، متباينة النزعات ، كل حزب يؤيّد شيعته ، وينكّل بمشايعي الأحزاب الأخرى ، ومثل ذلك فى عصرنا : الأحزاب التى تجعل كل همها الوصول إلى الحكم بأية وسيلة — ضاربة بمصلحة الوطن عُرض الحائط ، فإذا عارضتها الأحزاب الأخرى ، كالَ كلٌ للآخر التهم جزافاً ، ومن ورائهم عدو يُشعل بينهم نار الفتنة ، ويؤرّث بينهم العداوة والبغضاء ، وكلما تولى حزبٌ الحكم ، أغدق على مشايعيه من مال الدولة ، وأسند الوظائف إلى أنصاره ، غير ناظر إلى كفاية أو امتياز ، بل أصبح من الكفاية عقيرةٌ يرفعها العضو بالهتاف فى المظاهرات ، وهكذا يُذيق كلٌ فريق الآخر بأسه وقوته ، والعدوُّ رابض يتربص ، فتفشو الفتن ، وتكثر الإحن ، وتفسد العلاقات ، وتشتد العداوات ، ولما نزلت هذه الآية ، قال صلى الله عليه وسلم : «أما إنها كائنة ، ولم يأت تأويلها بعد» ، وها قد ظهر فى هذا الزمن تأويلُها ، سبحانك ربى ، ما أصدق كلمتك ، وأبلغ حكمتك !

٢ — انظر يا محمد كيف نكرّر الآيات بالوعد والوعيد ، ونصوّرها صوراً مختلفة ، ونُبين الحجج الدالة على صدق دعوتك ، لعل قومك يفقهون ، ولكنهم كذبوا بالقرآن ، وبما سردنا عليهم من أخبار الأمم الماضية ، ولم يُعيروا ما وقع عليهم من العذاب آذاناً مصغية ، ولا قلوباً واعية ، مع أن هذا القرآن هو الحق الذى لا شك فيه ، وهو الصدق الذى لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، فقل لهم : لست عليكم بوكيل ، وُكل إلىّ أمركم ، ولست بمسيطر عليكم ، فأحملكم على التصديق به ، وإنما أنا منذر ، والله سبحانه وتعالى ، هو الذى يتولى أمركم .

٣ — لكل خبر من الأخبار التى أتى بها القرآن وقت تظهر فيه حقيقته ، وسوف تعلمون صحة ما أنبأ به القرآن، حين تتبيَّن صحة أنبائه من أمور الدنيا ، وقد وقع بعض ما أنبأ به القرآن من أمور الدنيا ، كقوله : « وَعدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنَّهم فى الأرض ، كما استخلفَ الذين من قبلهم ، وَليُمكنَنَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليُبَدلنَّهم من بعد خوفهم أمناً » ، أما فى الآخرة ، فسيعلمون صحة أنبائه حين البعث ، يوم تذهل فيه كلّ مُرضعة عما أرضَعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى .

(١٥)

من الآية ٦٨ إلى الآية ٧٠ من سورة الأنعام

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ، حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ –١– . وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَلَكِنْ ذِكْرَى، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ –٢– . وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا –٣– . وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ، وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا، أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يخوضون فى آياتنا	يَدْخلون فى الحديث عن آيات القرآن بالكذب والباطل .
فأعرض عنهم	فلا تجالسهم ، وقمْ عنهم .

الألفاظ	شرحها
وإما يُنسينك الشيطان بعد الذكرى	وإن فرض أن أنساك الشيطان بوسوسته ، فقعدت معهم بعد التذكر ، أدغمت إن الشرطية فى ما : الزائدة .
ما على الذين يتقون من وحسابهم من شىء	ليس على المتقين الذين يجالسونهم شىء من أوزار الخاطئين إن تركوهم .
ولكنْ ذكرى	ولكن جُعل الإعراض موعظةً وذكرى .
وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً	واترك الذين اتخذوا دينهم للاستهزاء ، فلا تتعرض لهم .
وذكِّر به	وعِظ بالقرآن .
أن تُبْسَل نفس بما كسبت	مخافةَ احتباسها ، وارتهانها فى نار جهنم .
وإن تعدل كل عدل	وإن تُفدَ كلَّ فداء .
أبسلوا بما كسبوا	حُبسوا فى النار بسبب ما اقترفوا ، وعُذّبوا بجرائرهم ، وفضحوا .
شراب من حميم	شراب من ماء بلغ غاية الحرارة .

مجمل المعنى

١ — وإذا رأيت يا محمد ، أو رأى أحد ممنْ آمن بك ، الذين يخوضون فى آيات القرآن ، بتكذيبها والاستهزاء بها ، والطعن فيها ، كما هو دأب كفار قريش ، وديدنهم فى مجالسهم ، وبخاصة حين يجتمعون بك فى المسجد الحرام ، فلا تجالسهم ، وتجنّبهم ، حتى ينتقلوا إلى كلام غيره ، وإن فرض أن شغلك الشيطان بوسوسته ، فنسيت أمرَنا بالإعراض عنهم ، فقعدت معهم فى أثناء خوضهم ، فلا تقعد بعد تذكر الأمر بالإعراض ،

مع القوم الذين ظلموا أنفسهم ، بوضع التكذيب والاستهزاء ، موضع التصديق والتعظيم .

٢ — وما على المتقين لله ، المؤمنين بما أنزلناه عليك ، الذين كانوا يجالسونهم ، شيء مما يحاسب عليه الخائضون من قبائح أقوالهم وأعمالهم ، إن هم تجنبوهم ، ولكن جُعل الأمر بالإعراض موعظة وذكرى ، لعلهم يتقون ما لا ينبغي لهم سماعُه ، من الخوض في آيات الله بالباطل ؛ (وقد تقدم مثل هذا في الصفحة ١٠٢ من تفسير الجزء الخامس ، عند شرح قوله تعالى : « وقد نَزّل عليكم في الكتاب : أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ، ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم ، حتى يخوضوا في حديث غيره ») .

٣ — واترك الذين اتخذوا دينهم هزُواً وسخرية ، فلا تبال بهم ، لأنهم إنما ينصرون دينهم ، ويرفعون من شأنه ، ليتوصلوا به إلى تولى المناصب والرياسة ، وجمع المال ، ويجعلون من الدين وسيلة توصلهم إلى أغراضهم الدنيوية ، ولو تأملنا واستعرضنا أحوال الخلق في زمننا ، لوجدنا بعض الجهلة يتخذون من الدين مظاهر لا تمتّ إلى الشرف بأية صلة ، فيضخمون العمائم ، ويرسلون العذبات على أقفيتهم ، ويطلقون اللحَى ، ليستتروا وراء هذه المظاهر ، وقلوب كثير منهم من الدين هواء ، ولكنهم يفعلون هذا لأن استيلاء حب الدنيا على قلوبهم ، صرفهم عن حقيقة الدين ، فزينوا ظواهرهم ، ليتوسلوا بها إلى حُطام الدنيا الزائل ، « فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل ، فسوف يعلمون » .

٤ — وذكّر بالقرآن مخافة احتباسهم وارتهانهم في نار جهنم ، بسبب جناياتهم ، وسوء أعمالهم ، لعلهم يخافون الله ، فينتهوا عما هم فيه من عَماية وضلالة ، فإنهم ليس لهم من غير الله ناصر ولا شفيع ، يمنع عنهم العذاب يوم القيامة ، وإن يُقدموا أية فدية ، ليتخلصوا من عذاب الله لا تقبل منهم ،

أولئك المحبوسون المرتهنون فى نار جهنم ، بسبب ما اقترفوه من أعمالهم القبيحة ، الذين أسْلِموا للعذاب بسبب جرائرهم ، لهم شراب من ماء يبلغ أقصى درجات الحرارة ، تتقطع به أمعاؤهم ، وعذاب أليم يعمّ أبدانهم ، بسبب كفرهم وعصيانهم .

(١٦)

من الآية ٧١ إلى الآية ٧٣ من سورة الأنعام

قُلْ : أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ، وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ، كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى : ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ –١– وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ : كُنْ ، فَيَكُونُ ، قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ –٢– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أندعو	أنعبد .
نرد على أعقابنا	نعود إلى الشرك ، لأن الإنسان إذا رجع دار على عقبيه .

الألفاظ	شرحها
استهوته الشياطين	أضلَّه مرَدَة الجنّ ، وذهبت بعقله ، فسار هائماً على وجهه .
له أصحاب	لمن استهوته الشياطين رفاقٌ ثابتون على الإيمان .
ائتنا	يقولون له : عد إلى الحق ، فلا يجيبهم .
تُحشرون	تجمعون يوم القيامة .
ويوم يقول كن فيكون	ويوم يقول للشيء : كن ، فيكون على الفور .
يوم ينفخ فى الصور	يوم يبعث الناس من قبورهم ، والصور : البوق .

مجمل المعنى

١ — قل لمشركى قريش يا محمد ، الذين قالوا لك ولمن آمن بك من قومك : اتبعوا سبيلنا ، وعودوا إلى دين آبائكم — قل لهم : أنعبد من غير الله ما لا يقدر على نفعنا وضرنا ، فلا ينفعنا إن دعوناه ، ولا يضرنا إن تركناه ، ونرجع إلى الشرك بعد إذ هدانا الله إلى الإسلام ، وأنقذنا من الشرك ؟ إنا إن فعلنا ذلك فرضاً ، يكون مثلنا كمثل من أصابه خبَل ، أو سلبت الشياطين عقله ، فهام على وجهه فى المهامه والقفار ، وسار حائراً فى الأرض ، ضالا عن الطريق المستقيم ، لا يدرى أين يذهب ، له رفقاء يدعونه إلى الصراط السوىّ ، يقولون له ، هلم إلينا لننقذك مما أنت فيه من الضلال ، فيأبى أن يجيبهم — فقل لهؤلاء المشركين : إن هدى الله هو الإسلام ، وهو وحده الذى هدانا إليه المولى سبحانه وتعالى ، وما عداه ضلال محض ، وغىٌّ صرْف ، وقد أمرنا بالإخلاص لكى ننقاد ، ونستسلم

لرب العالمين ، كما أمرنا بأن نقيم الصلاة ، وأن نجعل إيماننا وقاية لنا من عذاب الله ، وهو الذى يجمعنا يوم القيامة للحساب والجزاء ، فهل بعد هذا تدعوننا إلى عبادة آلهتكم ؟

٢ - وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ، فهو يملك كل ما فيها من الكائنات حقاً ، ويتصرف فيهما تصرف المالك فى ملكه تصرفاً مطلقاً ، ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم ، ونظير هذا قوله تعالى : « ربنا ما خلقت هذا باطلا » (راجع الصفحتين ٨٧ ، ٨٨ من تفسير الجزء الرابع) ، وقوله : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق » ؛ وقول المولى جل وعلا الحق الذى لا مرية فيه ، وقضاؤه العدل نافذ فى جميع الخلائق ؛ وحين تتعلق مشيئته بإيجاد شىء ، يقول له : كن ، فيكون على الفور ، وبأمره هذا تُرد الأرواح إلى أجسادها يوم القيامة ، ويقوم الناس من قبورهم للحساب والجزاء ، والملك يومئذ لله الواحد القهار وحده ، يوم تُجزى كل نفس بما كسبت ، يوم ينفخ فى الصور ، فتأتى الخلائق أفواجاً ؛ والنفخ فى الصور تمثيل وتصوير لبعث الأموات من قبورهم ، وعرْضهم للحساب ، واستجابتهم للدعوة بسرعة ، وقد صاح بهم بوق عظيم ، كما يستجيب الجنود ، فيهبُّون من نومهم ، حين ينفخ أحدُ الجنود فى بوقه نفخة تسمى نفخة الاستيقاظ ، أو أن الله يأمر إسرافيل أن ينفخ فى بوق بطريقة لا يعلمها إلا هو ؛ والله سبحانه وتعالى يعلم ما أسررنا وما أعلنَّا ، وهو الحكيم فى تدبيره ، الخبير ببواطن أمورنا وظواهرها .

(١٧)

من الآية ٧٤ إلى الآية ٨٣ من سورة الأنعام

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ : أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ؟ إِنِّى
أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ -١- وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ
مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ -٢-
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ، قَالَ : هٰذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ
قَالَ : لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ -٣- فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ، قَالَ :
هٰذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ ، قَالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ
مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ -٤- فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً ، قَالَ : هٰذَا
رَبِّى ، هٰذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ ، قَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ
مِمَّا تُشْرِكُونَ -٥- إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ -٦- وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ،
قَالَ : أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ
بِهِ ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ؟ -٧- وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ، وَلَا تَخَافُونَ

أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ فَأَىُّ
الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ ـ٨ـ الَّذِينَ آمَنُوا
وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ ، وَهُمْ
مُهْتَدُونَ ـ٩ـ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ـ١٠ـ

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ملكوت	مُلك ، وعظمة ، وسلطان .
جَنَّ عليه الليل	أظلم عليه الليل .
رأى كوكباً	رأى نجم الزُّهَرة .
أفل	غاب .
بازغاً	طالعاً من وراء الأفق فى بدء طلوعه .
وجّهت وجهى	قصدْتُ بعبادتى .
فطر	خلق .
حنيفاً	مائلا إلى الدين القيّم .
حاجّه قومه	جادلوه فى دينه .
وسع ربى كل شىء علماً	وسع علم ربى كلّ شىء ، وأحاط به .
سلطاناً	حجة وبرهاناً .
ولم يلبسوا	ولم يخلطوا .
حجتنا	دليلنا وبرهاننا على وحدانيتنا .

قصة سيدنا إبراهيم الواردة فى هذه الآيات ، وشرح المعنى

١ — نشأ إبراهيم الخليل عليه السلام أبو الأنبياء بعد نوح بالعراق ، فى سَواد الكوفة ، بين قوم يعبدون الكواكب ، وأصناماً يصنعونها بأيديهم ، وكان أبوه نجاراً ، وممن يصنع هذه الأصنام ويبيعها ، وكان يكلف إبراهيم وهو صغير أن يساعده على بَيعها ، فكان إبراهيم ينادى : من يشترى ما يضرُّه ولا ينفعه ، فلا يُقبلُ على شرائها منه أحد ، فيذهب بها إلى النهر ، ويقول لها استهزاء وسخرية بقومه : اشربى ؛ ولما بلغ أشدّه ، أراد أن ينبّه قومه على ضلالهم ، ويُرشدهم إلى الحقّ من طريق النظر والاستدلال ، وبدأ بأبيه ، فقال له : أتتخذ من الأصنام التى تصنعها آلهةً ؟ إنى أراك وقومك بعبادتها فى ضلال مبين .

٢ — وكما أراد أن يبصّر أباه وقومه بضلالهم ، أراد الله أن يبصّره بدلائل ربوبيته ، ويُريه عظمته وقدرته ، فى خلق السموات والأرض ، وما فيهما من العجائب والبدائع ، ليكون ذلك دليلا حسياً على وجود القادر المبدع ، وليكون فى زُمرة الذين رسخت عقائدهم ، البالغين درجة اليقين ، فى معرفة الله سبحانه وتعالى ، مما يقتضى استحالة ألوهية ما سواه من الأصنام ، أو الكواكب التى عكف قومه على عبادتها .

٣ — فلما أقبل الليل بظلامه ، نظر فى ملكوت السماء ، فرأى كوكب الزُّهَرة يتألق ضوءها فيها ، فقال : هذا ربّى ، وكان غرضه من ذلك أن يُبطلَ قولهم ، بربوبية الكواكب ، بوسيلة يستدرجهم بها إلى الاقتناع بالحجة من طريق العقل ، وذلك بأن ينطق بكلام يوهمهم به أنه على رأيهم ، ثم يفجأهم بالدليل القاطع على بُطلانه ، فمثله كمثل المحامى النابه ،

الذى يستدل على فساد ادعاء الخصم ، بإيراد كلامه ، ثم يكُرُّ عليه بما يبين فساده ، ويُورد الدليل على بُطلانه ، فيكون ذلك أكثرَ إفحاماً للخصم — وهذا ما حدث لإبراهيم ، فعندما قال : هذا ربى ، ظن قومه أنه تا َبعهم فى عبادتهم ، فلما غاب الكوكب ، قال : إنى لا أحب عبادة الآفلين ، فإن الظهور الذى يُعقبه استتار ، يقتضى الحدوث ، والحدوث ينافى الألوهية .

٤ — فلما رأى القمر بازغاً ، منتشر الضوء عند طلوعه ، يشق بنوره ظلمة الليل ، قال على طراز كلامه السابق : هذا ربى ، فلما غرب القمر وغاب ، قال : لئن لم يهدنى ربى إلى الصراط المستقيم ، لأكونَنَّ من القوم الضالين ، فإن ما رأيته لا يصلح للربوبية ، وأراد أن ينبه قومه ، على أن من اتخذ القمر إلهاً وهو مثلُ الكواكب فى الأفول ، يكون ضالاً ، فلجأ إلى التلميح دون التصريح ، بأنَّ من يعبد القمر يكون ضالاً ، ولو قال هذا أولاً لنفر منه قومه ، ولم يُصغوا إلى استدلاله على فساد عبادة الكواكب .

٥ — فلما رأى الشمس بازغة — وقد استقرت على عرش السماء صباحاً — قال ناسجاً على المنوال السابق : هذا ربى ، هذا أكبر ؛ فلما غابت الشمسُ ، خرج من التلميح إلى التصريح الذى يقصده ، وجاهر بالبراءة من آلهتهم المحدَثة ، المحتاجة إلى مُحدث يُحدثها ، وأعلن أنهم يشركون إن عبدوا هذه الآلهة المحدَثة ، وبهذا تم له قيام الحجة عليهم ، ولم يبقَ موضع للشك فى أن هذه الكواكب غيرُ صالحة للعبادة .

٦ — ولما تبرأ من عبادة الكواكب ، توجَّه إلى مُوجدها ومبدعها ، فقال : إنى لا أقصد بعبادتى وطاعتى إلا الله الذى خلق السموات التى تشتمل على

هذه الأجرام . والأرض التى من أجزائها هذه الأصنام التى تعبدونها ، مائلا عن الأديان الباطلة ، والعقائد الزائفة ، إلى الدين القيِّم ، وما أنا من المشركين بالله ، وآمنت بأن الكواكب والشمس والقمر لا يصلح شىء منها للرّبوبية والألوهية .

٧ — كان ينبغى أن يتابعه قومه ، ويتركوا عبادة هذه الكائنات ، ولكنهم معاندون مستكبرون . فجادلوه فى أمر التوحيد تارة بأدلّة فاسدة . وهددوه بأنواع الأذى تارة أخرى . فقال لهم منكراً عليهم مُحاجتهم : أتحاجوننى فى الله الذى خلقكم وسوّاكم ، وقد هدانى إلى إدراك وحدانيته ، وإقامة الدليل على بطلان عقيدتكم بالمشاهدة والحسّ ؟ ولست أخاف ما تهددوننى به من إصابتى بمكروه من معبوداتكم الباطلة ، لعجزها عن حماية نفسها فى أى وقت ، إلا أن تتعلق مشيئة الله بإصابتى بمكروه ، فيكون ذلك من قِبَل الله تعالى ، لا من قِبَل آلهتكم . ولقد أحاط ربى بكل شىء علماً ، فلا يمكن أن يكون لشىء من المخلوقات أى تأثير فى الأفعال الصادرة عنه ، ولا شأن لمعبوداتكم فيما يصدر عنه من ضر أو نفع ، ومن عطاء أو منع . أفتعبدونها بعد أن أوضحت لكم بالدليل القاطع أنها عاجزة عن أى شىء من الضر أو النفع ؟ أفتُعرضون عن التأمل فى أن آلهتكم غير قادرة على جلب أى ضرر لى ؟

٨ — وكيف أخاف أنا هذه الأصنام التى تشركونها فى عبادة الله ، وتجعلونها أنداداً له ، وهى لا تستطيع ضراً ولا نفعاً ، ولا تقدر أن تصيبنى بأى سوء ، ولا تخافون أنتم عاقبة إشراككم فى عبادة الله أصناماً ، لم يُنزل الله عليكم حُجةً بوحْى أو غيره ، يُثبت لكم أنها شركاء له فى الخلق والتدبير ، أو لها شفاعة أو تأثير ؟ . فالله الخالق القادر ، القاهر فوق

عباده ، هو الأحق أن نخشاه ، فأى الفريقين إذنْ أجْدرُ بالأمن ؟ أنحن معشرَ الموحِّدين ، أم أنتم معشرَ المشركين ؟ فتبصَّروا إن كنتم من أهل المعرفة والبصيرة .

٩ — الذين آمنوا ولم يَخلطوا إيمانهم بشرك . هؤلاء وحدهم هم الذين يخصهم الله بالأمن من العذاب يوم القيامة . وهم المهتدون إلى الحق . ومن عداهم فى غىٍّ وضلال .

١٠ — وتلك التى احتج بها إبراهيم على قومه ، واستدل بها على وحدانية الله ، من أفول الكواكب ، وعدم صلاحيتها للربوبية ، هى حجتنا ، أرشدْناه إليها ، وعلمناه إياها ، نرفع فى العلم والحكمة من نشاء درجات رفيعة ، ومراتب عالية ، على حسب ما تقتضيه حكمتنا . إن ربك يا محمد الذى عَلَّمك وهداك ، ورفع ذكرك ، وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه ، حكيم فى صنعه ، يرفع من يشاء ، ويختصّ من يشاء ، عليم بحال من يرفعه ، بصير بسياسة عباده .

(١٨)

من الآية ٨٤ إلى الآية ٩٠ من سورة الأنعام

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ، كُلاً هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ، وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهٰرُونَ ، وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ —١— . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى ، وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ ، كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ —٢— . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ —٣— . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ ، وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ —٤— ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٥— . أُولٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلَاءِ ، فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ —٦— . أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ، قُلْ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ومن ذرِّيته	ومن ذرية نوح ، لأن لوطاً ويونس ليسا من ذرية إبراهيم ، وإنما لوط ابنُ أخيه .
ومن آبائهم	وبعض آبائهم .
وذرِّيَّاتهم	وبعض أبنائهم .
واجتبيناهم	واخترناهم .
لحبِط عنهم ما كانوا يعملون	لسقط ثواب عملهم .
الكتاب	الكتب المنزلة .
الحُكم	الفصلُ فى الأمور على حسب ما يقتضيه الحق والعدل .
وكَّلْنا	وَفَّقنا .
فبهداهم اقتده	فاتبع طريقهم ، واهتد بهداهم .
ذكرى	موعظة .

مجمل المعنى

١ – مَيَّزَ الله سيدنا إبراهيم بأبناء صالحين ، فوهب له إسحق ، ووهب لإسحق يعقوب ، وهداهم جميعاً إلى طاعته ، كما هدى نوحاً إليها من قبل ؛ ومن ذرية نوح : داود وسليمان ابنه ، وأيوب و يوسف بن يعقوب ، وموسى وهرون أخوه الأكبر . وقد جازاهم الله على طاعتهم أحسن الجزاء .

٢ - ومن ذرية نوح أيضاً : زكريا ، وابنه يحيى ، وعيسى ابن مريم ، وإلياس، وكل منهم اشتهر بالزهد والصلاح والتقوى .

٣ - وإسماعيل بن إبراهيم ، واليسع ويونس ، ولوط ابن أخى إبراهيم ، وقد فضلهم الله جميعاً على غيرهم من الناس بالنبوة .

تنبيه : لم يذكر الله هؤلاء الأنبياء مرتبين على حسب تاريخهم وزمانهم ، وإنما قسمهم فى الآيات الثلاث ثلاث طوائف :

(ا) طائفة يجمع بينهم الملك والإمارة، والحكمُ والسيادة ، مع النبوّة والرسالة ، وهم : داود وسليمان ، وأيوب ويوسف ، وموسى وهرون .

(ب) وطائفة يجمع بينهم الزهد والإعراض عن الدنيا ولذّاتها ، والبعد عن زينتها وسلطانها ، ولذلك نعتهم الله بالصالحين ، وهم : زكريا ويحيى ، وعيسى وإلياس .

(ح) وطائفة لم يكونوا من الفريق الأول ولا من الفريق الثانى ، ولكنهم فُضلوا على عالـَمى زمانهم بالنبوة ، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط .

٤ - ولما اختار الله هؤلاء الأنبياء ، وهداهم إلى طاعته ، هدى بعض آبائهم وأبنائهم ، وإخوانهم كذلك .

٥ - وهذه الهداية من المولى جلّ شأنه ، لأنه وحده هو الذى يختص بالهداية من يشاء من عباده ، ولو اتخذ هؤلاء الأنبياء لله شريكاً ، لكانوا مع فضلهم وعلو مقامهم ، مثل غيرهم فى سقوط أعمالهم، وعدم الثواب عليها .

٦ - أولئك الأنبياء هم الذين ميزهم الله بثلاثة أمور : بالنبوّة ، وبالكتب المنزلة ، وبالقضاء بين الناس بالعدل ، وإذا كان بعضهم لم ينزل عليه كتاب ، فقد مكنه الله من الإحاطة بما نزل على غيره ممن سبقه ؛ فإن

يكفر يا محمد هؤلاء المعاندون لك من كفّار قريش، بما منحناك من هذه الأمور الثلاثة ، مع ظهور الحق لهم ، فقد وفّقنا بعض قومك للإيمان بها ، ووكلناهم بأمر رعايتها ، والاستمرار على الإيمان بها .

٧ - أولئك الأنبياء هم الذين هداهم الله لتوحيده ، فاتبع طريقهم ، واثبت عليها ، من تبليغ للدعوة ، وإقامة للحجة ، وصبر على التكذيب والتمرّد ، والجحود والأذى ، وتحمُّل لسفاهة الجهال ، وقل للكفار من قومك : أنا لا أطلب منكم أجراً على تبليغي رسالة الله إليكم ، كما لم يطلب من سبقني من الأنبياء ، وإنما أردت التذكير والعظة .

(١٩)

من الآية ٩١ إلى الآية ٩٢ من سورة الأنعام

وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِذْ قَالُوا : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ : مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ ، تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ؟ قُلِ : اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ -١- وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ، مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ -٢-

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قدره	ما عظّموا الله حق عظمته ، وما عرفوه حق معرفته .
تجعلونه قراطيس	تجزّئون التوراة ، وتكتبونها فى أوراق متفرقة .
ذَرْهم فى خوضهم	اتركهم فى باطلهم
أمَّ القرى ومَن حولها	أهل مكة ، والناس قاطبة فى مشارق الأرض ومغاربها .

الحبر السمين

جاء مالكُ بنُ الصَّيف أحدُ أحبار اليهود — وكان ضخم الجثة — إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، يجادله . فقال له النبيّ : أنشُدُك بالذى أنزل التوراة على موسى ، أما تجد فيها : أن الله يُبغِض الحبر السمين ؟ . قال : نعم ، قال : فأنت الحبرُ السَّمين ، وسمنت من المال الذى يُطعمُكَه اليهود ، فضحك مَنْ حضر . فغضب مالكُ بن الصَّيف ، والتفت إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال : ما أنزل الله على بشرٍ من شىء ، فقال له أصحابه الذين حضروا معه : ويحك ، ولا على موسى ، فقال : إن محمداً أغضبنى ، فاستاء قومُه منه وخلعوه ، وجعلوا مكانهُ كعبَ بن الأشرف ، ونزل قوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا : ما أنزل الله على بشرٍ من شىء » .

مجمل المعنى

١ — إن اليهود ما عظَّموا الله التعظيم اللائق به ، ولا عرفوه حق معرفته ، حين أنكروا إرساله الرسل ، وإنزال الكتب عليهم ، وقالوا للنبيّ وقت أن أرادوا مجادلته فى القرآن ، وإنزال الوحى عليه : ما أنزل الله على إنسان شيئاً ، يريدون المبالغة فى إنكار إنزال القرآن عليك يا محمد ، فقل لهم توبيخاً لهم ونقضاً لكلامهم : إن الله تعالى قد أنزل التوراة على موسى ، التى انقشعت بها ظلمات الكفر ، والشِّرك الذى ورثه آباؤكم عن المصريين ، وجاءت هدايةً لكم من الضلال ، ولا سبيل لكم إلى إنكارها ، فلم لا تجوِّزون إنزال القرآن على محمد ؟ على أنكم جعلتم التوراة أوراقاً متفرقة ، تكتبونها على حسب أهوائكم ، تُظهرون منها ما تشتهون ، وتخفون مالا

تحبون إظهاره، كنعتى فيها، ورجم الزانى المُحصَن، وعُلّمتم أيها اليهود من القرآن ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، زيادة على ما فى التوراة، وبياناً لما التبس عليكم، واختلفتم فيه. ونظير هذا قوله تعالى: «إن هذا القرآن يقصُّ على بنى إسرائيل أكثرَ الذى هم فيه يختلفون»، وقوله: «يأهل الكتاب، قد جاءكم رسولُنا يُبيّنُ لكم كثيراً مما كنتم تُخفون من الكتاب».

٢ — وهذا القرآن كتاب أنزلناه عليك يا محمد، وهو كتاب كثير النفع والفائدة، مصدّق الذى قبله من الكتب من توراة وإنجيل وغيرها، ولتنذرَ به أهل مكة ومَنْ حولها، من أهل الوبرِ والمدَرِ، فى مشارق الأرض ومغاربها، وسُمّيتْ مكةُ أمَّ القرى، لأن فيها الكعبة التى يحج الناس إليها، ويجتمعون فيها كل عام، ولأنها كانت فى ذلك العهد من أعظم قرى الحجاز شأناً؛ والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب، يؤمنون بهذا الكتاب، لأن من صدّق بالآخرة خاف العاقبة. فلا يزال الخوفُ يحمله على النظر والتدبر، حتى يؤمن بالنبىّ وما أنزل عليه من القرآن، ويحافظ على أداء الصلاة لأنها عماد الدين، وعلامة الإيمان، ورأس العبادات.

(٢٠)

من الآية ٩٣ إلى الآية ٩٤ من سورة الأنعام

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ، أَوْ قَالَ : أُوحِيَ إِلَيَّ ، وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ، وَمَنْ قَالَ : سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ ؟ ! –١– . وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ : أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ –٢– . وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ، وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ومن أظلم	لا أحد أظلم .
افترى على الله كذباً	اختلق الكذب على الله ، بأن قال : ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء .
ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله	النضر بن الحارث ، كان يقول : لو نشاء لقلنا مثل هذا .
غمرات الموت	سكرات الموت وشدائده .
باسطو أيديهم	مادُّون أيديهم لقبض أرواحهم الخبيثة .
أخرجوا أنفسكم	أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب .
عذاب الهون	عذاب الذل والهوان .
فُرادَى	منفردين عن الأهل والمال والولد، والخدم والأعوان .
خوّلناكم	أعطيناكم من الأموال .
شفعاءَكم	أصنامكم .
أنهم فيكم شركاءُ	أنهم فى استحقاق عبادتكم شركاءُ لله .
لقد تقطّعَ بينكم	لقد انقطع ما بينكم من صلة .

الآية الأولى هنا إحدى الآيات التسع التى نزلت بالمدينة .

مجمل المعنى

١ ــ لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب :

ا ــ كمالك بن الصّيف ، الذى زعم أن الله ما أنزل على بشر شيئاً ،

وقد تقدم هذا فى الصفحة ١١٢ من هذا الجزء .

ب : أو قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شىء ، كمُسَيْلِمة الكذَّاب ، وعبد الله بن سعد بن أبى سَرْح ، كان يكتب الوحىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نزل قوله تعالى فى سورة « المؤمنون » : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » ، أمرَه بكتابتها ، فلما بلغ الرسول قولَه تعالى : « ثم أنشأناه خلْقاً آخر » ، عجب عبد الله من تفصيل الله لخلْق الإنسان ، فقال : تباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين ، فقال عليه الصلاة والسلام : اكتبها ، فكذلك نزلتْ ، فشكَّ عبد الله ، وقال : لئن كان محمد صادقاً ، لقد أوحىَ إلىَّ قبل أن يُوحَى إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال ، ثم ارتَدَّ ، ولكنه رجع إلى الإسلام ، وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة ، وكان والياً على مصر أيام خلافته ، سنة ٢٥ للهجرة .

حـ : ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، كالنضر بن الحارث ومن لَفَّ لفَّه من المشركين ، كانوا إذا تُليت عليهم آيات القرآن ، قالوا : قد سمعنا ، لو نشاءُ لقلْنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين ، وكان يقول : والطاحنات طحناً ، فالعاجنات عجناً ، فالخابزات خبزاً ، معارضة للقرآن .

٢ — ولو ترى يا محمد هؤلاء الظالمين الذين سبق ذكرهم ، وقد صاروا إلى سكَرات الموت وشدائده ، ثم أدْخلوا جهنم ، والملائكةُ باسطون أيديهم لهم بمطارقَ من حديد يعذبونهم بها ، يقولون لهم تعنيفاً وتعجيزاً : هيَّا أخرجوا أنفسكم وخلصوها من هذا العذاب الأليم إن قدَرتم ، اليوم تُجزَون على سيئات أعمالكم ، عذاب الذل والهوان والاحتقار ، بسبب اختلاقكم الكذب

على الله ، ونَفي إنزال القرآن على رسوله، وبسبب أنكم كنتم تستكبرون عن الإيمان بآيات القرآن ، والبراهين الدالة على وحدانية الله عناداً وتمرُّداً.

– لو ترى هذا يا محمد لرأيت أمراً فظيعاً هائلا .

٣ - ولقد جئتمونا أيها الطغاة المتكبرون للحساب حُفاةً عراة كما ولدتكم أمهاتكم ، لامال لكم ولا أنصار ، ولا أولاد ولا خدم ، مما كنتم تعتزُّون به فى الدنيا، وتركتم ما تفضلنا به عليكم فى الدنيا ، فشغلتم به عن الآخرة ، وراء ظهوركم ، فلم تحملوا معكم منه شيئاً ، وما نرى معكم الأصنام الذين زعمتم أنهم فى استحقاق عبادتكم شركاء لله فى ربوبيته ، لقد تقطّع وصلُكم ، وتَشتت جمعكم ، وانفصم ما بينكم وبينهم ، وذهب عنكم ما كنتم تزعمون أنهم شفعاؤكم .

(٢١)

من الآية ٩٥ إلى الآية ٩٩ من سورة الأنعام

إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ، وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ، مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ —١— انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ —٢— إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فالقُ الحبِّ والنَّوَى	يشق الحب والنوى ، لإنبات النبات والنخل ونحوهما .
فأنى تؤفكون	فكيف تُصرَفون أيها الكفار عمن له هذه القدرة ؟ !
فالق الإصباح	يشق الظلمة بالنور صباحاً .
وجعل الليل سكَناً	وجعل الليل لتسكن فيه النفوس للراحة بعد الحركة نهاراً .
والشمس والقمرَ حسباناً	وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق مُحْكَم .
قد فصلنا الآيات	قد بَيَّنَّا الدلائل على قدرتنا .
أنشأكم من نفس واحدة	خلقكم فى بَدْء وجودكم من آدم .
فمستقَرٌّ ومستودع	لكم فى أصلاب آبائكم مستَقَرّ ، وفى أرحام أمهاتكم مستودع .
فأخرجنا منه خضِراً	فأخرجنا بسبب الماء نباتاً أخضر .
نخرج منه حبًّا متراكباً	نخرج من هذا النبات الأخضر حبًّا يركب بعضه بعضاً ، كما فى سنابل القمح .
طَلْعها	ما يطلع فيها ، ثم يصير ثمراً .
قنوان دانية	عراجين قرُب بعضها من بعض ، وكذلك ثمرها .
مشتبهاً وغير متشابه	بعضه متشابه ، وبعضه غير متشابه ، فى الهيئة والقدر والطعم .
وينعه	ونضْجه .

مجمل المعنى

١ — من مظاهر أفعال الله العجيبة ، الدالَّة على كمال قدرته ، ولطيف صنعه وحكمته ، أنه :

ا : يشق الحب اليابس ، فيخرج منه النبات ، كما يحدث فى القمح والذرة والفول ونحوها .

ب : ويشق النوى ، فيخرج منه النخل ، وأشجار المشمش والخوخ والبرقوق ونحوها .

جـ : ويخرج الحى من الميت ، كالطائر من البيضة ، والنبات الغضّ الطرىّ من الحب ، والنخل والخوخ من النوى ، ففى البيضة جنين حىّ يخرج منه الطائر . وفى الحب مادّة حية ، يخرج منها النبات ، فكل حيوان ونبات يخرج من مادة حية ، ولكن المقصود من كونها ميتة ، أنها لا تظهر عليها علامات الحياة ، من حركة ونمو وغيرهما ، من مقومات الحياة ومظاهرها ، فالحياة فيها كامنة ، ولكنها خامدة خمود الأموات ، فكأنها ميتة .

د : ومخرج الميت من الحى كالبيضة من الدجاجة ، والحب اليابس من النبات الحى النامى .

ذلكم القادر العظيم الشأن ، الساطع البرهان — أيها المعاندون — هو الله المستحق وحده للعبادة ، فكيف تُصرفون عن عبادته إلى غيره ، وتُشركون به من لا يقدر على شىء ؟ وكيف لا تؤمنون به ، مع قيام البرهان على أنه خالق كل شىء ؟

هـ : فالق ظلمة الليل ، ببياض النهار صباحاً ، فى أول ما يبدو من النور عند بُزوغ الفجر الصادق ، فتنقشع الظلمة شيئاً فشيئاً .

و : وجعل الليل وقتاً يسكن فيه الناس إلى الراحة والاطمئنان ، بعد ما نالهم من التعب ، من جَرَّاء حركتهم فى أثناء النهار ، ابتغاءَ الرزق ، وفيه تأوى الطيور إلى عِشاشها ، والحيوانات إلى مرابضها.

ز : وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق ، كل منهما فى فلكه بنظامٍ مُحكم ، لنعرف الأوقات ، ولنعلم عددَ الأيام والشهور والسنين ؛ ذلك الحساب الدقيق الناشئْ عن دَوَران الأرض حول نفسها فى حركتها اليومية ، وفى دورانها حول الشمس فى حركتها السنوية ، بتقدير الله العزيز فى ملكه ، القاهر الذى لا يستعصى عليه شىء ، الذى جعل كل كوكب يسبح فى فلكه ، العليم بما يصلح لعباده ، فى معاشهم ومعادهم .

ح : وخلق النجوم من ثوابت وسيارات ، لهداية خلقه فى ظلمات الليل فى البر والبحر .

وقد بيَّن الله هذه البراهين الدالة على قدرته ، لقوم يعلمون ما ترمى إليه ، فيعملون بموجبها .

ط : وخلق الخلق من نفس واحدة وهو آدم ، أبو البشر ، وخلق من آدم حواء ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، وللخلق من بدء خلقهم ، مستقر للنطفة فى أصلاب آبائهم ، ومستودَع فى أرحام أمهاتهم .

وقد بين الله هذه الآيات التى لا يقدر عليها غيرُه ، المبيِّنة لتفاصيل خَلقِ البشَر ، لقوم يفقهون ما يُتلى عليهم ، ويفطنون إلى دقائقها وخفاياها .

وقد ذكر الله مع النجوم : « يعلمون » ، لأن أمرها فى الاهتداء بها فى

ظلمات البر والبحر ظاهر . أما إنشاء الناس من نفس واحدة ، وتصريفهم في أحوال مختلفة : نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فعظاماً مكسوة باللحم ، فأمر دقيق ، يحتاج إلى فطنة وذكاء ، وعقل راجح ، ولذلك ذكر الله : « يفقهون » ، لأن الفقه : العلم بدقائق الأشياء ، وسبر أغوارها .

ى : وأنزل من السحاب ماء ، تسبب عنه إنبات كل صنف من أصناف النبات ، وأخرج مما أرواه الماء :

(١) نباتاً ملوناً باللون الأخضر ، خلقه من غير صناعة ، غضاً طرياً ، وأخرج من هذا النبات آناً بعد آنٍ ، حباً متراكباً بعضُه فوق بعض . كما في سنابل القمح .

(٢) ونخلا يخرج من طلعه عراجين . تحمل ثماره دانية القطوف ، سهلة التناول .

(٣) وبساتين من أعناب .

(٤) والزيتون والرمان بعضه متشابه ، وبعضه غير متشابه ، في الهيئة والقدر والطعم واللون .

٢ — انظروا أيها المعاندون الكافرون نظر تأمل واعتبار ، إلى ثمر كل صنف من الأصناف التي سبق بيانها حين إثمارها ، كيف يكون ضئيلا غير مستساغ في أول أمره ؟ وانظروا إليه في حال نضجه ، كيف يكون شهياً لذيذاً ؟ يظهر لكم لطف الله وقدرته ، وتدبيره وحكمته .

٣ — إن كلَّ ما تقدم لدلائلُ على وحدانية الله وقدرته ، فإن وجود هذه الثمار المختلفة ، ونقلها من حال إلى حال ، لا يكون إلا بإحداث قادر يعمل ما تقتضيه الحكمة ، لا يعوقه عن فعله معارض يعارضه ، ولا يحول دونه نِدٌّ يعانده .

(٢٢)

من الآية ١٠٠ إلى الآية ١٠٧ من سورة الأنعام

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ، وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ
بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ –١– بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضِ ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ؟
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ –٢– ذَٰلِكُمُ اللَّهُ
رَبُّكُمْ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَاعْبُدُوهُ ،
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ
الْأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ –٣– قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ
رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ –٤– وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ، وَلِيَقُولُوا :
دَرَسْتَ ، وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ
رَبِّكَ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
مَا أَشْرَكُوا ، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الجِنّ	الشياطين الذين سوّلوا لهم عبادة الأصنام فأطاعوهم
وخلَقَهم	وقد علموا أن الله هو خالق الجن .
وخرقوا له بنين وبنات بغير علم	واختلقوا لله بنين وبنات ، من غير أن يعلموا دليلا على ما يزعمون .
سبحانه وتعالى	تنزيهاً لله ، وعلواً كبيراً عما اقترفوه .
بديع السموات والأرض	هو مبدع السموات والأرض ، على غير مثال سبق .
أنّى يكون له ولد	كيف يكون له ولد ؟
ولم تكن له صاحبة	ولم تكن له زوجة ، يكون منها الولد .
وكيل	حفيظ ورقيب .
لا تدركه الأبصار	لا تحيط به الأبصار .
وهو يدرك الأبصار	وعلمه محيط بكل شيء .
بصائر	جمع بصيرة ، وهي للنفس كالعين للجسم .
وليقولوا : درست	ولتكون عاقبة أمرهم أن يقولوا : درست كتب الماضين ، وألّفتَ منها القرآن .

مجمل المعنى

١ — لقد جعل الكفار الشياطين شركاء لله في الرّبوبية والألوهية ، حماقة وجهلا . بأن أطاعوهم حين سوّلوا لهم عبادة الأوثان ، وقد علموا أن الله خلق هذه

الأوثان . فكيف يكونون شركاء لله ، وهى لا تستطيع أن تخلق شيئاً ، «أفمن يخلق كمن لا يخلق» ؟ كما أن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب ومشركى قريش ، اختلقوا لله بنين وبنات ، من غير حجة أو دليل على صحة ما افتروه ، فقال اليهود : عُزَيرٌ ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، تنزّه الله وتعالى عُلُوّاً كبيراً عما يصفونه به ، من نسبة الشريك أو الولد إليه .

٢ — وما شأن الشريك أو الولد مع الله جل شأنه ، وهو القادر على كل شىء ، وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون ؟ فهو الذى خلق السموات والأرض على غير مثال سبق ، وبغير آلة ولا مادّة ، وكيف يكون له ولد ، ولم تكن له زوجة يكون منها الولد ؟ ، وهو الذى من شأنه أن يخلق كل شىء تعلقت به مشيئته ، من الكائنات التى منها ما تسمونه ولداً ، فكيف يكون المخلوق ولداً لخالقه ؟ ؛ وهو الذى يحيط علمُه بكل شىء فى الكون ، فلو كان له ولد لكان هو أعلمَ به ، ولدلّ وجوده على نَقصٍ فى قدرته ، لاحتياجه إلى من يعاونه ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

٣ — ذلك الإله القادر المبدع أيها الكفار ، هو الواحد الأحد ، الفردُ الصمد ، وهو الرب الخالق لكل شىء ، فاعبدوه إذن ، ولا تعبدوا إلا إياه ، لأنه هو وحده الذى يستحق العبادة ، وهو مع كل ما ذكر من صفاته الجليلة ، رقيب على كل شىء فى الكون ، يتصرف فيه ، ويدبره بعلمه وحكمته ، لا يدركه الطَّرف ، ولا يحيط بحقيقته إلا هو ، لأنه اللطيف الذى لا تدركه الحواس ، وهو يدرك الأبصار ، ويحيط علمه بها ، ولا يخفَى عليه شىء من شئونها ، لأنه الخبير بجميع مخلوقاته .

٤ — قد جاءكم حجج وأدلة وآيات تدل على قدرة الله ووحدانيته ، ولكم عقول

تميزون بها الحق من الباطل ، فمن أبصر الحق وآمن ، وعمل عملا صالحاً ، فنفعُ إيمانه عائد على نفسه، ومن عمي عن الحق بإعراضه عنه ، وعدم النظر والاستبصار وضلَّ ، فوبال ضلاله عائد عليه ، وما أنا عليكم برقيب ، وإنما أنا منذر ، والله سبحانه وتعالى هو الرقيب عليكم ، الذى يُحصى عليكم أعمالكم ، ويجازيكم عليها .

٥ – وكما بيّنا لك يا محمد الآيات الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ، فى مواضع مختلفة من القرآن ، نبين لك فى هذه السورة آيات أخرى ، ليهتدى بهديها المستعدون للإيمان ؛ وكُلُّ ما يستطيعه المشركون الجاحدون المعاندون أن يقولوا : قد درست كتب الماضين ، وليس هذا القرآن بوحى ، وإنما هو إفك افتريته، وأعانك عليه قوم آخرون ، وما هو إلا أساطير الأولين ، تملى عليك بكرة وأصيلا . فلا تعتدَّ بمكابرتهم ، ولا تهتم بقولهم، فما أردنا بإنزال القرآن إلا أن نبينه لقوم يعلمونه وينتفعون به .

٦ – اتبع القرآن الذى أوحىَ إليك من ربك الذى لا إله إلا هو ، وأعرضْ عن المشركين ، الذين فسدَت فطرتهم ، ولا تُبال بإصرارهم على الشرك ، ولو شاء الله إيمانهم لآمنوا وما أشركوا ، وما جعلناك عليهم رقيباً مهيمناً عليهم ، تتولى أمورهم ، فتجبرهم على اتباعك ، إن أنت إلا نذير .

(٢٣)

من الآية ١٠٨ إلى الآية ١١٠ من سورة الأنعام

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ، فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —١— وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ : إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ —٢— وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا تَسُبُّوا الذين يَدعون من دون الله	لا تشتموا آلهة المشركين من أصنام وأوثان .
عَدواً بغير علم	اعتداء وظلماً ، وجهلا بالله سبحانه وتعالى .
جَهدَ أيمانهم	غاية ما فى جهدهم من الأيمان .
وما يُشعركم	وما يُدرِيكم ؟

الألفاظ	شرحها
لا يؤمنون	يؤمنون ، ولا هنا : زائدة .
نقلب أفئدتهم	نحوّل قلوبهم عن الحق .
كما لم يؤمنوا به أول مرة	فهم لا يؤمنون ، كما لم يؤمنوا بما أنزل من الآيات من قبل .
نذرهم فى طغيانهم يعمهون	نتركهم فى ضلالهم يتحيرون .

مؤتمر فى بيت أبى طالب

لما حضر أبا طالب الموت ، قالت قريش : انطلقوا بنا ندخل على هذا الرجل ، لنطلبَ منه أن ينهَى عنا ابن أخيه ، فإنا نستحيى أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : كان عمُّه يحميه ، فلما مات قتلوه . فانطلق أبو سفيان ، وأبو جهل ، فى جماعة منهم ، وبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب ، فقالوا له : استأذن لنا على أبى طالب . فقال : هؤلاء مَشيخةُ قومك ، يريدون الدخول عليك ، فأذِنَ لهم عليه ، فقالوا : يا أبا طالب ، أنت كبيرُنا وسيّدنا ، وإن محمداً قد آذانا ، وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعُوَه ، فتنهاه عن ذِكر آلهتنا ، وندعه وإلهه ، فدعا أبو طالب النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقال له : هؤلاء قومك ، وبنو عمك ، فقال رسول الله : ماذا يريدون ؟ قالوا : نريد أن تَدَعنا وآلهتنا ، وندَعك وإلهك ، فقال أبو طالب : قد أنصفك قومُك ، فاقبلْ منهم ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : أرأيتم لو أعطيتكم هذا — هل أنتم مُعْطِىَّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ، ودانت لكم العجم ، وأدّت لكم الخراج ، فقال أبو جهل : وأبيك لنعطينّكها ، وعشرةَ أمثالها ، فما هى ؟ قال : قولوا :

لا إله إلا الله ، فأبوا واشمأزُّوا ، فقال أبو طالب : قل غيرَها يا ابن أخى ، فإن قومك قد فزعوا منها ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عمّ : ما أنا بالذى يقول غيرها ، ولو أتوا بالشمس فوضعوها فى يدى ما قلت غيرها ، فغضبوا ، وقالوا : لَتكفنّ عن شتم آلهتنا ، أو لَنشتمنَّك ، ولَنشتمنّ من يأمرك . فأنزل الله : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله . . . »

مجمل المعنى

١ — ولا تشتموا أيها المؤمنون آلهة الكفار التى يعبدونها من دون الله ، فيحملهم الغيظ على أن يسبُّوا الله ، اعتداء وظلماً ، بغير علمٍ منهم أنهم يسبُّونه ، لأنهم كانوا يقرون بالله ، ويعترفون بعظمته ، وما كانوا يقصدون من عبادة الأصنام إلا أن يكونوا شفعاء عند الله ، وفى هذا دليل على أن الطاعة إن أدت إلى معصية راجحة ، وجب تركها ، لأن ما يؤدى إلى الشرّ شرّ ، ومثل ذلك التزيين الذى يحمل المشركين على سبّ الله — حميّة وتعصباً للأصنام — زيّنّا لكل أمة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم فى الآخرة ، فيخبرهم بما كانوا يعملون ، ويجازيهم عليه .

٢ — وتحدثت جماعة من قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد ، تخبرنا أن موسى كان معه عصا ضرَب بها الحجر ، فانبجس منه الماء ، وأن عيسى كان يُحيى الموتى ، وأن صالحاً أتى لثمودَ بناقة ، فأتنا من الآيات بمثل ما أتى به هؤلاء ، حتى نصدّقك ، فقال رسول الله : فأى شىء تحبون ؟ قالوا : تجعل لنا الصَّفا ذهباً ، قال : فإن فعلت تصدقوا ؟ قالوا : نعم ، وأقسموا بالله قسما مؤكداً ، ليتبعُنّه أجمعين ، فقام صلى الله عليه وسلم يدعو ربّه ، فجاءه جبريل ، فخيّره بين أن

يصبح الصفا ذهباً ، على أن يعذبهم الله عذاب استئصال على حسب سنّته ، عقابا لهم إن لم يؤمنوا ، وبينَ أن يتركهم حتى يتوب تائبهم . فاختار الثانى ، فنزل قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم . . . » ، والمعنى : وأقسم كفار مكة ، مؤكّدين قسمهم بما وسعهم الجهد ، لئن جاءتهم معجزة من مقترحاتهم ، ليصدّقُنّ بك يا محمد بسببها . فقل لهم : ما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ومشيئته ، والآيات كلها فى حكمه وقضائه . يتصرف فيها على حسب مشيئته . وهو وحده القادر عليها ؛ وما يدريكم أيها المؤمنون أن الآية المقترحة ، إن جاءت يؤمنون بها ؛ ولا هنا : زائدة ، كما زيدت فى قوله تعالى : « مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك » ، وقوله : « لئلا يعلم أهل الكتاب » .

٣ — ونحول قلوبهم عن الحق فلا يدركونه ، وأبصارهم عن اجتلاء نوره فلا يبصرونه ، إذ علمنا علماً أزلياً سوء استعدادهم ، وتماديهم فى غيِّهم وضلالهم ، فهم لا يؤمنون ، كما لم يؤمنوا بما أنزل من الآيات من قبل ، ونتركهم فى ضلالهم يتحيرون ، حتى يَروُا العذاب الأليم ، فعندها ينتبهون من غفلتهم ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

وفى أول تفسير الجزء الثامن تفصيل للرد عليهم .

فهرس الجزء السابع

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات
١	المائدة	من ٨٢ — ٨٦	من ٣ — ٦
٢	»	» ٨٧ — ٨٨	» ٧ — ٨
٣	»	» ٨٩ —	» ٩ — ١١
٤	»	» ٩٠ — ٩٣	» ١٢ — ١٥
٥	»	» ٩٤ — ٩٧	» ١٦ — ٢١
٦	»	» ٩٨ — ١٠٠	» ٢٢ — ٢٣
٧	»	» ١٠١ — ١٠٢	» ٢٤ — ٢٦
٨	»	» ١٠٣ — ١٠٤	» ٢٧ — ٢٨
٩	»	» ١٠٥ —	» ٢٩ — ٣٠
١٠	»	» ١٠٦ — ١٠٨	» ٣١ — ٣٥
١١	»	» ١٠٩ — ١١٥	» ٣٦ — ٤٠
١٢	»	» ١١٦ — ١٢٥	» ٤١ — ٤٣
١	الأنعام	» ١ — ٦	» ٤٤ — ٤٨
٢	»	» ٧ — ١١	» ٤٩ — ٥١
٣	»	» ١٢ — ٢٠	» ٥٢ — ٥٧
٤	»	» ٢١ — ٢٦	» ٥٨ — ٦١
٥	»	» ٢٧ — ٣٢	» ٦٢ — ٦٥

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات
٦	الأنعام	من ٣٣ — ٣٧	من ٦٦ — ٦٩
٧	»	» ٣٨ — ٤١	» ٧٠ — ٧٢
٨	»	» ٤٢ — ٤٧	» ٧٣ — ٧٦
٩	»	» ٤٨ — ٥١	» ٧٧ — ٧٩
١٠	»	» ٥٢ — ٥٥	» ٨٠ — ٨٣
١١	»	» ٥٦ — ٥٨	» ٨٤ — ٨٥
١٢	»	» ٥٩ — ٦٠	» ٨٦ — ٨٧
١٣	»	» ٦١ — ٦٤	» ٨٨ — ٩٠
١٤	»	» ٦٥ — ٦٧	» ٩١ — ٩٤
١٥	»	» ٦٨ — ٧٠	» ٩٥ — ٩٨
١٦	»	» ٧١ — ٧٣	» ٩٩ — ١٠١
١٧	»	» ٧٤ — ٨٣	» ١٠٢ — ١٠٧
١٨	»	» ٨٤ — ٩٠	» ١٠٨ — ١١١
١٩	»	» ٩١ — ٩٢	» ١٢ — ١١٤
٢٠	»	» ٩٣ — ٩٤	» ١١٥ — ١١٨
٢١	»	» ٩٥ — ٩٩	» ١١٩ — ١٢٣
٢٢	»	» ١٠٠ — ١٠٧	» ١٢٤ — ١٢٧
٢٣	»	» ١٠٨ — ١١٠	» ١٢٨ — ١٣١

١٩٥٤/٤٠٨٤

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثامن

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

من سورة الأنعام

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

مِنَ الآية ١١١ إلى الآية ١١٥

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ، مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ –١– . وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ –٢– . وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَلِيَرْضَوْهُ ، وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ –٣– . أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ؟ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ –٤– . وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ –٥– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
حَشَرْنا عليهم	جمعنا عليهم
قُبُلاً	جمع قبيل ، وهو الكفيل الضامن ، الشاهد بصحة ما يقوله النبيّ .
عدُوّاً	أعداء ، وهو لفظ يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث .
زُخرُفَ القول غروراً	ما زيّنوه من الكلام ، وموّهوه من الأباطيل ، لإغرائهم على المعاصى .
شياطينَ الإنس والجن	المتمردين من الإنس والجن .
فذَرْهم وما يفترون	فاتركهم وأكاذيبَهم
ولتصغى إليه	ولتميل إلى هذه الأباطيل المموّهة ، والأكاذيب المفتراة .
وليقترفوا	وليكتسبوا من الذنوب .
حَكَماً	قاضياً يفصل بينى وبينكم .
الكتابَ	الكتُبَ المنزلة ، كالتوراة والإنجيل .
الممْترين	الشاكّين .
وتمّتْ كلمةُ ربك	بلغت أخبار القرآن ومواعيده وأحكامه ، الغاية من الصدق والعدل والحكمة .

مجمل المعنى

١ ــ كان الكفار قد اقترحوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآيات خاصة ذكروها ، ودلائل معينة بينوها ، حتى يؤمنوا به ، ويصدقوا برسالته ، وكان مما اقترحوه عليه :

(ا) أن ينزل عليهم الملائكة .

(ب) أو يُريهم الله .

(حـ) أو يبعث الموتى من قبورهم ، ويعيدهم إلى الحياة فيكلموهم .

وقد ذُكرت هذه الآيات التى اقترحوها فى بعض سور القرآن على ألسنتهم ، كقولهم : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ؛ وقولهم : فأتوا بآبائنا إن كنتم من الصادقين ؛ وقولهم : أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ؛ وكان النبيّ ومن معه من المؤمنين يودّون أن يُنْزل الله للكفار هذه الآيات ، طمعاً فى أن يؤمنوا ، فرد الله عليهم : ــ بأنه لو أجاب الكفار إلى ما طلبوا ، وحقق لهم ما اقترحوا ، فأنزل إليهم الملائكة حتى يَرَوهم بأعينهم ، وأحيا لهم الموتى حتى تكلّمهم ، وجمع إليهم كل المخلوقات : ميْتها وحيّها ، غائبها وحاضرها ، ليكونوا كفلاءَ بصحة نبوة محمد ، شاهدين على صدْقه ، فإنهم لا يؤمنون إلا إذا أراد الله لهم الإيمان ، ولا يمكن أن يؤمنوا إذا حقق الله لهم ما اقترحوه من الآيات ، ما دام الله لم يُرِدْ أن يهديهم ؛ وقد سبق فى علمْ الله أنهم سيُصِرُّون على الكفر ، مهما كان من وضوح الآيات ، وبيان الحجج ! ولكن أكثر المؤمنين الذين وَدّوا أن يجيب الله الكفار إلى اقتراحهم ، يجهلون حقيقة أمرهم ، ولا يدرون أن هذه الآيات إذا جاءتهم لا يؤمنون .

٢ — وقد أراد الله تسليةَ رسوله عليه الصلاة والسلام ، وتعزيته عما يعانيه من عداوة قريش ، بأن هذا العناد دأبُ الكفار مع كل رسول ، فذكر أنه كما جعل لكل نبي ممن سبقوك أعداء ، جعل لك أعداءً ابتلاك بهم ، كما ابتلى مَنْ قبلك من الأنبياء بأمثالهم ، هؤلاء الأعداء هم المتمردون من الإنس والجن ! فمن الإنس شياطينُ للإنس ، ومن الجن شياطين للجن ، وهم مَرَدتهمُ المفسدون ، هؤلاء وأولئك هم الذين لا ينقادون إلى الحق كِبْراً وعناداً ، يوسوس بعضهم إلى بعض الأباطيل المموَّهة ، والأكاذيب المزَوقة ، بأساليبهم الخادعة الماكرة ، ليغرُوهم بفعل الشر ، وارتكاب الآثام ، ومنهم فى زمننا كثير ، كأن يغرى شيطان من الأنس آخر بشرب الخمر ليحتسيها ، أو يغْريه بانتهاز الفرص لاقتراف الآثام فى شبابه قبل هرمه ، أو اعتماداً على مغفرة الله ورحمته التى وسعت كل شيء ، ولو شاء ربك أيها الرسول ألا يفعل الضالّون المعاندون المتمردون ، ما يوسوسون به من القول المزخرف ما فعلوه ، ولكنه لم يشأ أن يغيِّرَ ما جرت به سنته فى نظام هذا الكون ، فوهب عباده العقول التى تبيِّنُ لهم الرُّشدَ والغيّ ، وتميز الخير من الشر ، وتركَ لهم أن يستعملوا عقولهم فى اختيار أحد الطريقين ، فاترك الكفار وما يستمرئون من مَرْعى غيّهم ، ودعهم وما يختلقون من أكاذيب يَصْرِفون بها الناس عن الحق .

٣ — وامض فى طريقك ، فإنما عليك البلاغ ، ولا تبالهم ، فهم إنما يموّهون مفترياتهم ويزخرفونها ، لاستمالة قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ليكون كلامهم مقبولا لديهم ، وليرضَوه فينأَوْا عن قبول دعوة النبيّ ، وليرتكبوا من الذنوب ما هم مرتكبون — اتركهم ولا تحفل بهم ، فإن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم .

٤ – وقال مشركو قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود ، أو من أساقفة النصارى ، ليخبرنا بما فى كتابهم من أمرِك ، فأمَرَه الله أن يقول لهم : أأطلب حكماً غير الله يحكم بينى وبينكم ، ويميز الحق من الباطل ؟ وهو الذى أنزل إليكم القرآن مبيِّناً فيه الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وغير ذلك من الأحكام ، وهى فيه واضحة لا لَبْس فيها ولا إبهام ؛ والذين آتيناهم التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى ، يعلمون أن القرآن حق لا ريب فيه ، وأنه منزل من عند الله سبحانه وتعالى مالك الملك ، فلا تكونن من الشاكِّين المتردِّدين فى أنهم يعلمون ذلك ، فيما قرءوه فى كتبهم .

٥ – وقد بلغت آيات القرآن الغايةَ القُصْوَى من جهة الصدق فى أخباره ، والعدل فى أحكامه ومواعيده ، لا مبدِّلَ لكلماته بنقص أو زيادة أو تبديل ، كما حدث فى التوراة والإنجيل ، ولا أحد يستطيع أن يأتى بما هو أصدق وأعدل مما جاء به ، ولا أن يأتى بمثله ، والله هو السميع لما يقوله الكفار مقترحو الآيات ، العليم بما يضمرونه .

(٢)

من الآية ١١٦ إلى الآية ١٢١ من سورة الأنعام

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ،
إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ -١- .
فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ، إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ
مُؤْمِنِينَ -٢- . وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ
عَلَيْهِ ، وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ
إِلَيْهِ ؟ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ -٣- وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ -٤- .
وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ، وَإِنَّ
ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ -٥- .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
الكفار .	أكثَرَ مَنْ في الأرض
عن دينه .	عن سبيل الله
ما يتبعون فى مجادلتهم إياك إلا مجرَّدَ الظن .	إن يتبعون إلا الظن
يكذبون على الله .	يخرُصُون
أى غرض لكم فى أن تمتنعوا عن أكل ما ذكر اسم الله عليه ؟ .	وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه
بيَّن لكم .	فصَّلَ لكم
ليُحِلون ويحرمون على حسب أهوائهم وشهواتهم ، دون علم أو دليل .	ليُضلُّون بأهوائهم بغير علم
اتركوا المعاصى كلها فى السر والعلانية .	وذَرُوا ظاهر الإثم وباطنه
وإن أكله لمعصية .	وإنه لَفِسْق
ليوسوسون إلى أنصارهم من الكفار .	ليوحون إلى أوليائهم

مجمل المعنى

١ — إن تطع أيها الرسول الكفار ، وهم أكثر الناس فى الأرض ، يضلوك عن الطريق الموصل إلى الله ، ويحيدوا بك عن السبيل الذى رسمه لرسالتك ، فإنهم ما يتَّبعون فى اعتقادهم إلا ظنَّهم فى أن آباءهم كانوا على حق فى عبادة الأصنام — وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً — وما هم إلا مفترون على الله

سبحانه وتعالى فيما ينسبونه إليه : كاتخاذ الولد ، وفيما يعبدون من الأصنام التى يزعمون أنها تقربهم إلى الله زُلْفَى ، وفيما يُحِلُّون من أكل الميتة ، وفى تحريم البَحيرة والسائبة ، ونحوهما مما سبق ذكره ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمن يَضِلُّ عن سبيله الحق ، ودينه القويم ، وهو أعلم بالمهتدين ، الذين اهتدوا بفطرتهم السليمة إلى الهدى والإيمان .

٢ — فكلوا مما ذكر اسم الله عليه عند ذبحه ، لا مما ذكر عليه غير اسم الله ، ولا مما مات من غير ذبح ، ولا تسمعوا آراء المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام ، إن كنتم مؤمنين بالله وما نزل إليكم من الشرائع وأحكام الدين ، ولا تلتفتوا إلى ما يقوله لكم الكفار : إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله ، فما قتل الله أحقّ أن تأكلوه مما قتلتم أنتم .

٣ — وأى غرض لكم فى أن تتحرجوا عن أكل ما ذكر اسم الله عليه ، فتمتنعوا عن أكله ، خشية الوقوع فى الإثم ، وقد فصل لكم فى هذه السورة ما حرم عليكم ، وما لم يحرم عليكم ، فى قوله : « لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعَمُه ، إلا أن يكون ميتة . . . » ، وسيأتى تفسير هذه الآية فى هذا الجزء (فى الصفحة ٣٤) ، إلا ما اضطررتم إليه فى أكل ما حرّم عليكم ، كمجاعة ونحوها ، فإنه حلال لكم ، ألجأتكم إليه الضرورة ، وإن كثيراً من مشركى قريش ، ليضِلُّون غيرهم بأهوائهم الزائفة ، وآرائهم الباطلة ، من غير علم بدليل يؤيدون به رأيهم ، أو اقتباس من شريعة يستندون إليه ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين ، الذين يتجاوزون الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام .

٤ — واتركوا أيها المؤمنون ارتكاب المعاصى فى السر والعلانية : كالزنى ، وتعاطى المخدرات ، والسرقة ، وتدبير المكايد ، والحقد ، والسعى بين الناس بالفساد ،

وغير ذلك ، وإن الذين يرتكبون المعاصى ، سيجزون فى الآخرة بما كانوا يرتكبونه .

٥ — ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، إن مات أو ذُبح على اسم غير الله ، وإن الأكل منه يؤدى إلى الخروج عن طاعة الله ، أما ما ذبحه المسلم ولم يسَمِّ اسم الله عليه ناسياً فهو حلال ، وإن إبليس وجنوده ، ليوسوسون إلى أنصارهم من كفار قريش ، ليجادلوكم فى أكل الميتة ، فيقولون : تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم ، وتتركون ما قتله الله ، وهذه سفسطة جوفاء ، وإن أطعتموهم فى استحلال ما حرمه الله ، فإنكم مشركون مثلهم ، لأنكم تركتم طاعة الله إلى طاعة غيره .

(٣)

من الآية ١٢٢ إلى الآية ١٢٧ من سورة الأنعام

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَه نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —١— . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَمَا يَشْعُرُونَ —٢— . وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ، اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ ، وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ —٣— . فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ؛ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ —٤— . وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أو من كان ميتاً فأحييناه	أو من كان ضالا فهديناه ؟
كمن مثله فى الظلمات	كمن هو فى ظلمات الضلال والكفر .
قرية	أهل قرية ، والمراد هنا : الشعوب والأمم .
مُجرميها	جمع مجرم ، وهو مرتكب الإجرام ، المغرق فى الإفساد .
ليمكرُوا فيها	ليتخذوا من التدبير ما يصرفون به الناس عن الحق والخير ، إلى الباطل والشر ، حفظاً لرياستهم ، بمقاومة دعاة الإصلاح ومعاداتهم .
وما يمكرون إلا بأنفسهم	ولا يحيق مكرهم السيئ إلا بهم .
وإذا جاءتهم آية	وإذ نُزِّل على رسول الله إحدى آيات القرآن .
الله أعلم حيث يجعل رسالته	الله عليم بمن يكون موضع ائتمانه ، فيصطفيه لرسالته .
سَيُصيبُ الذين أجرموا صغار	سيصيب المتكبِّرين ذلٌ وهوان .
يشرحْ صدره للاسلام	يقذف نور الإسلام فى قلبه ، فينفسح له .
كأنما يَصّعَّدُ فى السماء	كأنما يشعر بضيق مَنْ يصعَّد فى أعلى طبقات الجو .
يجعل الله الرِّجسَ	يسلط الله العذاب .
صراط ربك مستقيما	طريق ربك واضحاً ، فى انشراح صدر مَن أراد هداه ، وجعله ضيقاً لمن اقتضت مشيئته ضلاله .
دار السلام	الجنة

مجمل المعنى

١ – أو من كان ضالاً سادراً فى كفره ، فهديناه إلى الصراط المستقيم ، وأضأنا له بصيرته بنور الإيمان ، فيسير فى حياته على هدًى من ربه ، كمن يخبط فى ظلمات الكفر لا يفارقها ؟ وكما زُين للمؤمنين إيمانهم ، زُين للكفار ما كانوا يعملون ، والمراد بمن هداه الله بعد الضلال : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وبمن لا يفارق ظلمات الكفر : أبو جهل .

٢ – وكما جعلنا فى مكة صناديد قريش ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، جعلنا فى كل قرية من قرى الأمم الأخرى أكابرَ مفسديها من الأغنياء المترفين ، ليقاوموا دعاة الإصلاح ويعادوهم ، حتى لا يفقدوا سلطانهم ونفوذهم ، ويبثُّوا روح التمرّد والعصيان بين الجماهير ، ولا يحيق مكرهم السيئ إلا بهم ، لأن وَباله عائد عليهم من حيث لا يشعرون ، فليس عجباً أن يقاوم دعوتك زعماء قريش ، فإن هذا شأن المتكبرين أيها الرسول فى كل أمة ؛ وقد نزلت هذه الآية لما قال أبو جهل : زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف ، حتى إذا صرنا فيه كفرَسَىْ رهانٍ ، قالوا : منا نبىٌّ يوحى إليه ، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وَحىٌ كما يأتيه .

٣ – وإذا جاء كفارَ مكة آيةٌ من آيات القرآن ، منزلةٌ إليك ، دالةٌ على صدقك ، تأمرهم بالإيمان بك ، قالوا : لن نؤمن بأنها منزلة من عند الله ، حتى يوحى إلينا مثل ما أوحى إلى رُسل الله ، ونؤتَى من النبوة مثل ما أوتوا ، لأننا أكثرُ مالا ، وأعزّ نفراً من محمد الذى يوحَى إليه ؛ الله يعلم بالموضع الصالح لرسالته ، فيضعها فيه ، وبالرجل الذى يجتبيه للنبوّة من عباده ، فليس منصب الرسالة بالحسب أو النسب أو المال ، وإنما هو بفضائل

نفسية، وشمائلَ مرضية، ونفس قدسية، ومن طلبوها وتمنَّوها فليسوا أهلا لها؛ سيصيب أكابرَهم ورؤساءهم الذين أجرموا، بدل ما تمنوه من منصب النبوة وشرف الرسالة، ذلٌ وهوان عند الله يوم القيامة، وعذاب شديد، بسبب مكرهم وعنادهم، وصدهم الناس عن الإيمان.

٤ - وكما أن الله يختار من عباده من يصلح لرسالته من خلقه، فإنه يعلم من أراد له الهداية والإيمان، فيوفقه إليه، ويشرح صدره إلى الإسلام، من غير عناد ولا لَجاج، ويعلم من أراد له الضلال، فلا يوفقه إلى الإسلام؛ ولا يهديه إلى الإيمان، بل يصرف قلبه عنه، ويبغضه فيه، مهما كانت الآيات واضحة، والحجج قائمة، بل إن نفسه تنصرف عن الإيمان، وقلبه يزداد ضيقاً وحرجاً إذا ذكر الإسلام، كأنما يصّعد به فى طبقات الجو طبقة طبقة، فيشتد ضيقه وحرَجه؛ وهذا التصوير من آيات الله الكبرى، فإن الإنسان كلما صعد فى أعلى طبقات الهواء، خفّ عليه الضغط الجوّى، فيزداد ضيقاً وحرَجاً، حتى ليكاد قلبه يخرج من صدره، ودمُه يطفر من عينيه وأنفه، ويشعر بضيق ليس بعده ضيق، وحرَج يكاد تزهق منه نفسه، ويتمزق قلبه - هذا شأن من صرف الله قلوبهم؛ عن الإيمان، يضيقون به كلما عُرِض عليهم، وبدت حججه واضحة لهم؛ ومثل هذا الضيق الذى يصيب الله به من أضلَّهم عن الإسلام، يجعل الله الرِّجس والشقاء فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة، على أولئك الذين لا يؤمنون ولا يهتدون.

٥ - وهذا الطريق الذى اقتضته حكمة الله فى هداية من أراد هدايته، فيشرح صدره للإسلام، وفى إضلال من أراد إضلاله، فيجعل صدره ضيِّقاً حرَجا بالإسلام، هو الطريق العادل المطَّرِد فى سنة الله فى خلقه؛ والله

تعالى لم يُفصّل آيات القرآن، ويبينها لأولئك الذين صَرَف قلوبهم عن الإسلام ، وإنما فصلها لأولئك الذين تلين قلوبهم لذكر الله ، ويتعظون بآياته ، وتنشرح صدورهم للإسلام ؛ وقد أعد الله لهم الجنة يوم القيامة يلقونه فيها ، وهو الذى يتولاهم فى الدنيا فيوفقهم إلى الإيمان ، وفى الآخرة فيدخلهم دار السلام ، جزاء ما قدّموا فى الدنيا من إيمان صادق ، وعمل صالح .

(٤)

من الآية ١٢٨ إلى الآية ١٣٢ من سورة الأنعام

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ، يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ : رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ، قَالَ : النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا ، إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ —١— .
وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ —٢— .
يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ، وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ؟ قَالُوا : شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ، وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ —٣— . ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ ، وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ . وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
يجمع الجن والإنس يوم القيامة .	يحشرهم جميعاً
يا معشر الشياطين ، قد استكثرتم من إغواء الإنس، وزدتم فى إضلالهم ، والمعشر : الجماعة .	يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس
أنصار الشياطين وأعوانهم ، من الإنس الذين أطاعوهم .	أولياؤهم من الإنس
انتفع الإنس بالجن ، بأن دلوهم على المعاصى وزينوها لهم، وانتفع الجن بالإنس ، بأن ظفروا ببلوغ قصدهم فى إغوائهم .	استمتع بعضنا ببعض
وصلنا إلى الوقت الذى حددته لنا ، وهو يوم القيامة .	بلغنا أجلنا الذى أجلت لنا
منزلكم .	مثواكم
إلا من أراد الله أن يذيقهم ألواناً أخرى من العذاب .	إلا ما شاء الله
نجعل بعضهم أنصاراً وأعواناً لبعض ، لتشابه المآرب .	نولِّى بعض الظالمين بعضاً
شهدنا بما اقترفناه من الذنوب والمعاصى .	شهدنا على أنفسنا
خدعتهم الحياة الدنيا ، فاستحبوا العمى على الهدى.	غرتهم الحياة الدنيا
ذلك لأنه لم يكن من شأن ربك .	ذلك أن لم يكن ربك
مهلك أهل القرى وهم الناس .	مُهلك القرى
وأهلها لم يُرسل إليهم رسول ينبههم من غفلتهم.	وأهلها غافلون
ولكل من العاملين درجات متفاوتة بتفاوت أعمالهم .	ولكلٍ درجات مما عملوا

مجمل المعنى

١ — اذكر أيها الرسول يوم يحشر الله الخلائق جميعاً من إنس وجن ، بعد أن يُبعثوا من قبورهم ، فيقول الله للشياطين الأشرار على سبيل التوبيخ والتقريع : يا معشر الشياطين ، لقد أكثرتم من إغواء الناس وإضلالهم ، وغررتم بهم ، فيقول الناس الذين أضلّتهم الشياطين فاتبعوهم ، وصدوهم عن سبيل الله بوسوستهم : ربنا ، قد استمتع بعضنا ببعض ، بما كان للجن من اللّذة فى ظفرِهم بإغوائنا بالأباطيل ، وتزيين المعاصى لنا ، واغتباطهم بانقيادنا إليهم ، وبما كان لنا من اللذة فى اتباع الهوى ، والانغماس فى اللذات ، إطاعةً لوسوستهم ، وقد وصلنا بعد هذا الاستمتاع إلى الأجل الذى حدّدته لنا ، وهو يوم الحشر والحساب ، فعرَفنا سوء عاقبتنا ، والأمرُ مفوّض إليك ، ونحن آسفون نادمون ؛ ولم يُذْكر هنا كلامُ الجن ، ولكنه ذكر فى سورة العنكبوت فى قوله : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً » ؛ فيقول الله لهم : النارُ مأواكم ومنزلكم ، وستخلّدون فيها ، إلا ماشاء الله من الأوقات التى تخرجون منها لشرب الحميم فى خارج جهنم ، لتقاسوا من العذاب ألواناً أخرى أشدّ من نار جهنم ، بدليل قوله تعالى : « ثم إن لهم عليها لشوْباً من حَميم ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » ، فهم يورَدُون الحميم ، ليشربوا ماء حارًّا يقطع أمعاءهم ، ثم يعودون إلى النار يصلَوْنها ، يدل على هذا قوله فى سورة الرحمن : « هذه جهنمُ التى يكذّب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين حميم آنٍ » ؛ إن ربك أيها الرسول حكيم فى صنعه ، عليم بخلقه .

٢ — مثل ما سبق من إغواء الجن للإنس لإضلالهم ، وجعلِ ذلك الإغواء من

الفريقين استمتاعاً ، وأن هؤلاء يستمتعون لظفرهم بإغوائهم ، وهؤلاء يستمتعون بلذاتهم وشهواتهم — مثل ما سبق من ذلك ، نجعل بعض الظالمين ينصرون بعضاً ، فيما يشتركون فيه من الظلم ، والتعاون على أذى من خالفهم ؛ فهم يتعاونون على ما يقترفون من آثام ، لأن كل فريق يميل إلى مَنْ على شاكلته ، والظلم من أقبح الرذائل ، وإذا فشا فى أمة سلّط الله عليها حاكماً ظالماً ، وابتلاها به ، ووجد ممن حوله من يعينونه عليه ، وفى الحديث الشريف : «كيفما تكونوا يولّ عليكم» ، فاللهم ولّ أمورنا خيارنا ، ولا تولّ أمورنا شرارنا .

٣ — إذا وقف العصاة من الجن والإنس يوم القيامة بين يدى المولى جلّ وعلا ، يقول لهم : يا معشر الجن والإنس ، لم هذا التمرد والعصيان ؟ ألم يأتكم رسل بعثناهم إليكم من الإنس ، مبشرين ومنذرين ، يتلون عليكم آياتى التى أوحيتها إليهم ، ويخوفونكم لقاء يومكم هذا وهو يوم القيامة ؟ فيقول الفريقان : شهدنا على أنفسنا أننا بلّغنا ، ونحن معترفون بأننا أجرمنا وعصينا ؛ فإذا اعترفوا على أنفسهم بالكفر ، بيّن الله لهم أنهم وقعوا فى ذلك الكفر بسبب أنهم غرّتهم الحياة الدنيا ، فأحبّوا الشهوات ، واقتنوا الأموال ، وصارت لهم الرياسة والسلطان ، ورأوا أن الانقياد إلى دعوة الرسل يحرمهم رياستهم ، ويسوّى بينهم وبين ضعفاء المؤمنين ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، وأن سوء تصرُّفهم ، واغترارهم بلذائذ الحياة الدنيا ومتعها ، هو الذى حملهم على الإعراض عن قبول دعوة الرسل ، والإصرار على الكفر .

٤ — ذلك الذى ذكر من إرسال الرسل ، سببه أن العدالة الإلهية تقتضى أن ربك أيها الرسول لم يكن ليهلك الناس بسبب ظلم ارتكبوه ، وهم غافلون عما يترتب عليه من سوء العاقبة ، لأن الله لم يرسل إليهم رسولا ، ينبههم إلى الحق ،

فما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا ؛ ولكلٍ من المكلفين جنًّا وإنساً ، درجاتٌ ومراتب من الثواب والعقاب ، على حسب أعمالهم من خير أو شر ، تتفاوت بتفاوتهم فيها ، وما ربك بغافل عما يعملون ، لا يخفى عليه عمل عامل من ذكر أو أنثى ، ولا يخفى عليه مقدار ما يستحقه من ثواب أو عقاب .

(٦)

من الآية ١٣٦ إلى الآية ١٤٠ من سورة الأنعام

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَامِ نَصِيباً ، فَقَالُوا : هٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ، وَهٰذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ —١—. وَكَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ، وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ، فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ —٢—. وَقَالُوا : هٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ، لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَاءً عَلَيْهِ ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ —٣—. وَقَالُوا : مَا فِي بُطُونِ هٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا ، وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ —٤—. قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ —٥—.

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
خلق .	ذرأ
الزروع والثمار من حبوب وفاكهة .	الحرث
الإبل والبقر والغنم .	الأنعام
باختراعهم ، وظنهم الذى لا سند له من دين أو شريعة .	بزعمهم
لأوثاننا ، وسمّوهم شركاء : لأنهم لما جعلوا لهم نصيباً ، صاروا كالشركاء .	لشركائنا
بئس ما يحكمون .	ساء ما يحكمون
وأد البنات خشية العار ، أو قتل الذكور والإناث خشية الفقر .	قتل أولادهم
شياطينهم ، وسموا شركاء : لإطاعتهم إياهم .	شركاؤهم
ليهلكوهم .	ليردوهم
وليخلطوا ويفسدوا عليهم .	وليَلْبِسوا عليهم
محجورة وممنوعة .	حِجْرٌ
أنعام لاتركب ، ولا يحمل عليها شىء .	وأنعام حُرّمتْ ظهورُها

بعض مساوئ العرب فى الجاهليّة

كان للعرب فى جاهليتهم عادات مذمومة ، وأفعال قبيحة ، ورثوها عن أسلافهم ، وآمنوا بها ، وقلّدوهم فيها ، وهى على أنواع مختلفة :

من ذلك أنهم كانوا يجعلون من نتاج أنعامهم نصيباً لله ، ونصيباً لأوثانهم ، وكانوا إذا زرعوا زرعاً ، وكانت لهم فيه ثمار ، جعلوا لله منها جزءاً ، فما كان من

نصيب الأوثان أحصَوْه وحافظوا عليه ، وإن سقط شيء منه ردّوه إليه ، وإن سقط شيء مما جعلوه لله ، فاختلَط بما جعلوه للأوثان ، أضافوه إلى نصيب الأوثان ، وقالوا : إن الله غنيّ ، وإن غلبهم الماء الذى جعلوه لإرْواء نصيب الأوثان من الزروع والثمار ، فسقى شيئاً مما جعلوه لله ، أضافوا ما سقِيَ من نصيب الله إلى نصيب الأوثان ، وإن غلبهم الماء الذى جعلوه لإرواء نصيب الله من الزروع والثمار ، فسقَى شيئاً مما جعلوه للأوثان ، أضافوه إلى نصيب الأوثان ، وهكذا كانوا يعْدُون على نصيب الله ، وكانوا يبغون من النصيب الذى يجعلونه لله أن يتقربوا إليه باتخاذه لقِرَى الضيفان ، والتصدّق على المساكين ، وكانوا يبغون من النصيب الذى يجعلونه للأوثان أن يتقربوا إليها ، باعطائه لسَدَنَتِها : (خدمها) .

مجمل المعنى

١ — وجعل مشركو العرب لله نصيباً مما خلق من الزروع والثمار ونتاج الأنعام ، وللأوثان التى يعبدونها من دون الله نصيباً — وسمَّوْهم شركاء : لأنهم لما جعلوا لهم نصيباً فى أموالهم ، صاروا كأنهم شركاء لهم فيها ، فقالوا بزعمهم الباطل الذى اخترعوه ، دون أن يكون له سند من دين أو شريعة : — هذا النصيب لله ، نتقرب به إليه ، بإنفاقه فى قِرَى الضيفان ، والتصدق على الفقراء ، وهذا النصيب لشركائنا من الأوثان ، نتقرب به إليها ، بإعطائه سَدَنَتها ، وكانوا يعْدُون على ما اتخذوه نصيباً لله ، فما كان للأوثان من النصيب ، فلا يصل شيء منه إلى نصيب الله ، وما كان لله من النصيب ، فهو يصل إلى شركائهم على النحو الذى سبق شرحه ، ألا بئس ما يحكمون! حيث يؤثرون مخلوقاً عاجزاً عن كل شيء ، على إله خالق قادر على كل شيء .

٢ — ومثل ذلك التزيين الذى حسَّنَتْه لهم شياطينهم فى تقديم القرابين، زَيَّنَ لهم هؤلاء الشياطين، بما يوحون به إليهم من الوسوسة، أن يقتلوا أولادَهم: — ذكورهم وإناثهم، خشيةَ الفقر، لكيلا يروْهم جياعاً فى حجورهم، أو وفاءً لنذر نذروه لآلهتهم، فكان الرجل فى الجاهلية ينذر: لئن وُلِد له كذا ولداً لينحرَنّ أحدهم؛ أو إناثهم فقط بدفنهن أحياءً — وهن الموءودات؛ وكان العرب فى ذلك فريقين: فريقاً يقول: الملائكة بناتُ الله، فهو أحق بهن من آبائهن، وفريقاً يخشى العارَ إن زلَّتِ البنت حين تكبَرُ، أو يخشى أن تُسبَى فى قتال، أو تقترن بمن دونه فى الشرف، فتلحقه؛ خِسَّةً! من أجل ذلك كان العرب إذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارَى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هُون، أم يدسه فى التراب؟ — وسمى الشياطين شركاء لهم، لإطاعتهم إياهم فيما زينوه لهم، من قتل أولادهم، وخضوعهم لوسوستهم، من إفساد فطرتهم، بانتزاع الرحمة من قلوب الآباء — فتكون عاقبة هؤلاء الآباء أن يُهلكوا أبناءهم، وأن يلتبس عليهم دينهم الحق، بما زينه لهم الشياطين من الباطل، ذلك الدين السمح السليم، الذى ورثوه عن أبيهم إسماعيل، فاستبدلوا به عبادة الأصنام؛ ولو شاء الله ألا يفعل الشياطين ما فعلوه من الوسوسة بتزيين قتل الأولاد، وألا يفعل المشركون ما فعلوه من قتل أولادهم، ما حدث شىء من هذا، ولكنه لم يشأ أن يغيِّرَ ما جرت به سنته فى نظام هذا الكون، فوهب عباده العقول التى تبين لهم الهدى والضلال، وتميز الخير من الشر، وترك لهم أن يستعملوا عقولهم فى اختيار أحد الطريقين، فالمؤمن الصادق الإيمان، لا يؤثر فيه إغواء ولا وَسْوسة، فاترك أيها الرسول هؤلاء المفترين الذين يختلِقُون على الله ما لم يشرَعه لهم من العقائد، ولا يحزنك كفرهم.

٣ — واخترع المشركون ثلاثة أضرُب أخرى من الضلال، غيرَ الضَّرْبين السابقين:

ا — فقالوا: هذه أنعام وزروع محجورةٌ ممنوعة، وذلك أنهم يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم، ويمنعون التصرف فيها، إلا لمن يشاءون من خدّام الكعبة، أو للرجال دون النساء.

ب — وقالوا: هذه أنعام حرِّمت ظهورها، فلا تُرْكَبُ ولا يحمل عليها، وهى البحائر والسوائب — تراجع الصفحة ٢٧ من تفسير الجزء السابع.

حـ — والضرب الثالث أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند ذبحها، وإنما يذكرون أصنامهم، مفترين على الله افتراء بأنه أباحه لهم، والله برىء مما افتروه، وسيجزيهم سوء الجزاء، بسبب هذا الافتراء.

٤ — وقالوا فى ضرب سادس من أضرب كفرهم: ما فى بطون البحائر والسوائب من الأجنَّة، خاصةٌ بالذكور منا، لا يشركهم فيه أحد من الإناث، ومحَرَّم على زوجاتنا إن خرج حيًّا، فإن خرج ميتاً، فالذكور والأناث يشتركون فى أكْلِه، سيجزيهم الله، ما وصفت به ألسنتُهم الكذبَ على الله فى التحريم والتحليل — يقال: وصف كلامُ فلان الكذبَ، ومنه قوله تعالى فى سورة النحل: «وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى»: أى يكذبون — إن الله حكيم فى صنعه، عليم بخلقه.

٥ — قدباء بالخيبة والخسران المشركون، الذين قتلوا أولادهم سفاهةً وجهلا وحُمقاً، وحرّموا ما رزقهم الله من البحائر والسوائب وغيرهما، افتراء على الله؛ قد ضلوا عن الطريق السوىّ، وما كانوا مهتدين.

(٧)

من الآية ١٤١ إلى الآية ١٤٤ من سورة الأنعام

وَهُوَ ٱلَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ، وَٱلنَّخْلَ
وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ، وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ،
كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا ،
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ –١– وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ، كُلُوا
مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ –٢– ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ
ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ، قُلْ : آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ ؟ أَمْ مَا ٱشْتَمَلَتْ
عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ ؟ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَمِنَ ٱلْإِبِلِ
ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ، قُلْ : آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنْثَيَيْنِ ؟
أَمْ مَا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنْثَيَيْنِ ؟ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ
وَصَّاكُمُ ٱللهُ بِهَٰذَا –٣– ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللهِ كَذِباً
لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؟ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
جنّات	حدائق وبساتين .
معروشات	مرفوعات عن الأرض ، بالعريش الذى ترسل عليه قضبان الكَرْم .
غير معروشات	ليس لها عريش ، كالأشجار وما نجم من النبات .
مختلفاً أكله	مختلفاً ثمره الذى يؤكل ، طعماً وهيئة .
متشابهاً وغير متشابه	يتشابه بعض ثمره ، طعماً وحجماً وهيئة ، ولا يتشابه بعضه الآخر .
وآتوا حقه يوم حَصَاده	آتوا زكاته يوم الحصاد .
ولا تُسرفوا	ولا تسرفوا فى أداء الصدقات ، فتحرموا أسرتكم .
من الأنعام حمولة وفرشاً	أنشأ الله من الأنعام ما يحمل الأثقال ، وما يتخذ الناس من صوفها ووبرها وشعرها فرشاً .
كلوا مما رزقكم الله	كلوا مما أحلّ الله لكم من الأنعام .
ثمانية أزواج	أنشأ الله لكم ثمانية أجناس ؛ والزوج هنا : أحد القرينين من الذكر والأنثى .
من الضأن اثنين	أنشأ من الضأن قرينين : كبشاً ونعجة .
ومن المعز اثنين	وأنشأ من المعز قرينين : تَيساً وَعنزاً .

مجمل المعنى

١ — أراد الله أن يبين أنه لا خالق غيره ، وأن يقيم الدليل القاطع على قدرته ، فذكر أنه أنشأ من غير شريك بساتين : إما معروشات ككروم العنب

التى ترفع قضبانها على عُرُش ، وإذا كان بعضه لا يرفع على عريش ، فهو من جنس المعروشات ، وإما غير معروشات من سائر الشجر ، سواء أقام على سوقه ، واستغنى باستوائه عليها عن العريش ، كالزيتون والرمّان ، والخوخ والبرقوق — أم لم تكن له ساق ، كالبطيخ والقثاء ، وأنشأ النخل والزرع كالقمح والشعير ؛ وكل ما ذكر يختلف ثمرُه الذى يؤكل رائحةً وطعماً ، وهيئة وحجماً ؛ وأنشأ الزيتون والرمان متشابهاً بعض أفرادهما فى الصفات التى ذكرناها ، أو غير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، فقد أبَحْتُ لكم أكله ، بل سوّغتُ لكم أن تأكلوا مما لم يتم نُضْجه ، إن لم يقع من أكله ضرر عليكم ، كالحِصرِم إن اتخذتم منه شراباً ، والقمح إن اتخذتم منه فَرِيكاً ، وأعطُوا حقه الذى أوجبه الله عليكم من الزكاة المفروضة لمستحقيها وقتَ حصاده ، وهى بمقدار ١٥٪ منه ؛ والحصاد وإن كان خاصًّا بالحبوب ، يدخل فيه ما جنىَ من العنب ، وما قُطفَ من الثمار ، ولا تتجاوزوا الحدّ فتبسطوا أيديكم فى الصّدَقات بسطاً تحرمون به أسْرَتكم ، إن الله لا يحب المسرفين ؛ وقد نزلت هذه الآية فى ثابت بن قيس ، قطع ثمرَ نخل ، وقال : والله لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى ، وليس لعياله شىء ؛ وثابت بن قيس من الأنصار ، وهذه الآية إحدى الآيات التسع التى نزلت بالمدينة ، بعد فرض الزكاة فى السنة الثانية من الهجرة .

٢ — وقد أنشأ الله لكم من الأنعام ما يحمل الأثقال ، وما تتخذون من صوفه ووبره وشعره فرشاً ، كلوا مما أحل لكم منه ، ولا تتبعوا فى أمر التحليل والتحريم طرائقَ الشيطان ، فى أن تحللوا وتحرّموا على حسب أهوائكم ، كما كان يفعل أسلافكم ، إن الشيطان عدوٌّ لكم بيِّن العداوة ، فقد أخرج

أباكم آدم من الجنة ، وعند ما عاقبه الله بطرْده منها لعدم سجوده لآدم ، قال : لأحتنكنّ ذريته إلاّ قليلا : أى لأستولينّ عليهم، إلا المعصومين منهم .

٣ — وأنشأ الله لكم ثمانية أفراد من الأنعام ، تمثل أربعة أجناس منها ، كل جنس يمثله قرينان :

ا ، ب — فأنشأ من الضأن قرينَيْن ، هما : الكبش والنعجة ، ومن المعز قرينَيْن ، هما : التيس والعنز ، فقل لهم أيها الرسول توبيخاً لهم على تحريم بعض الأنعام دون بعض ، واستنكاراً لتصرفاتهم ، لأن الله لم يحرم شيئاً مما زعموه — قل لهم : أحرم الله الذكرَين : ذكرَ الضأن وذكر المعز ، أم حرّم أنثييهما ؟ أم حرم الأجنّةَ التى اشتملت عليها أرحام النعجة والعنز ؟ خبرونى بعلم منقول عن أحد رسل الله ، أو علم مقبول عقلا أن الله حرم بعض هذه الأنعام عليكم ، وبينوا مصدر هذا التحريم ، إن كنتم صادقين .

ح ، د — وأنشأ الله لكم من الإبل قرينَيْن، هما: الجمل والناقة ، ومن البقر قرينَيْنِ ، هما : الثور والبقرة ، فقل لهم أيها الرسول إظهاراً لكذبهم فى أن الله حرم بعض هذه الأنعام دون بعض : أحرّم الله الذكرين : ذكرَ الإبل وذكر البقر ، أم حرم أنثييهما ؟ أم حرم الأجنة التى اشتملت عليها أرحام الناقة والبقرة ؟ أم شاهدتم ربكم فأوصاكم بهذا التحريم ؟

والمراد بما سبق ذكره ، استنكار ما يزعمه مشركو قريش ، من أن الله حرّم شيئاً من هذه الأجناس الأربعة : ذكورها وإناثها

أو حرم ما تحمله إناثها من الأجنة ، وبطلان ما يدعون من تحريم ذكور الأنعام تارة ، وإناثها طوراً ، وأولادها تارة أخرى

٤ ـ لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب ، فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم ، وهو عمرو بن لَحْيِ بن قَمِعَة ، ومن شايعه، ليضل الناس ويحملهم على اتباعه ، وينسب ما يزعمه إلى المولى جل وعلا ، بغير علم منقول عن الله على لسان رسله ، أو مستند إلى دليل يؤيده ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين إلى نور الحق والهدى ، لاستحقاقهم العذاب على ما اختلقوه عليه، وإفسادهم عقول الناس بالخرافات .

هُبَل

رُوِيَ أن عمرو بن لحى بن قمعة الخزاعى ، هو أول من نشر بين العرب هذه العادات الممقوتة، وأنه هو الذى عدل بهم عن دين أبيهم إسماعيل ، إلى عبادة الأصنام ، لأنه خرج إلى الشام فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، فاستوهبهم واحداً منها ، وجاء به إلى الكعبة ونصبه بها ، وهو المسمى : هبل .

(٨)

من الآية ١٤٥ إلى الآية ١٤٧ من سورة الأنعام

قُلْ : لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ : مَيْتَةً ، أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ، أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ ، فَإِنَّهُ رِجْسٌ ، أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ — غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ — فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ -١- وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ، أَوِ الْحَوَايَا ، أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ -٢- ، ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ -٣- فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مسفوحاً	سائلا مصبوباً .
رجسٌ	قَذِرٌ .

الألفاظ	شرحها
أو فسقاً أهِلّ لغير الله به	إلا أن يكون فسقاً نودى بغير الله عند ذبحه ، والفسق : الخروج عن طاعة الله .
غير باغ ولا عاد	غير طالب التلذذ بأكله ، ولا متجاوز ما يمسك الرمق .
وعلى الذين هادوا	وعلى اليهود .
كل ذى ظُفُرٍ	ما له إصبع من دابة أو طائر ، ويدخل فيه : الإبل والنعام .
شحومَهما	الشحوم : طبقة رقيقة من الدّهن ، تغطى الكَرِش والأمعاء .
إلا ما حملتْ ظهورهما	إلا ما علق بظهور البقر والغنم من الشحم .
أو الحوايا	الأمعاء .
أو ما اختلط بعظم	الشحوم التى اتصلت بعظم .
ذلك	ذلك التحريم .
جزيناهم ببغيهم	عاقبناهم به بسبب ظلمهم .

مجمل المعنى

١ — قل أيها الرسول لهؤلاء المفترين على الله : لا أجد فيما أوحى إلىّ من المولى جل شأنه طعاماً محرماً على آكل يأكله من ذكر أو أنثى — وفيه رد على مشركى العرب الذين يقولون : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا — إلا أن يكون الطعام :

ا - ميتة ، وهى التى لم تُذبح ذَبْحاً شرعياً ، لاحتباس الدم وهو مسرح الجراثيم فيها ، وقد يكون موتها ناشئاً عن وباء تنتقل عدواه إلى من يأكل منها .

ب - أو دماً سائلا يصَبُّ فى الأمعاء ويشوى ، فخرج بهذا الدم الجامد كالكبد والطحال ، وكان العرب يفصِدُون الحيوان ، ويأخذون ما يسيل من دَمه ، أو يأخذون ما يُراق من دمه عند الذبح ، ويطهونه على النار ويأكلونه ، أو يشربونه سائلا .

حـ - أو لحم خنزير فإنه قذر ، لتعود الخنزير أكل النجاسة والقذارة وملازمتها ، (تراجع الصفحة ٣٦ من تفسير الجزء السادس) .

د - أو فِسْقاً ، وهو ما نودى عليه بغير اسم الله عند ذبحه ، فإن فيه خروجاً عن طاعة الله واهب النعم ، قال تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسمُ الله عليه ، وإنه لفسق » ، وكان المشركون يرفعون أصواتهم بأسماء أصنامهم عند ذبح الذبائح .

فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شىء من هذه الأصناف الأربعة ، فأكله غير قاصد من أكله التلذّذ ، أو متجاوزٍ قدر الضرورة الذى يمسك الرّمق ، فإن ربك غفور رحيم لا يؤاخذه ، وليس المراد أن ما عدا هذه الأربعة غير محرّم ، فقد بيّنّا فى أول سورة المائدة محرمات أخرى ، (تراجع الصفحة ٣٣ من تفسير الجزء السادس) وما بعدها .

٢ - وقد حرّمنا على اليهود فوق هذه الأربعة كل ذى ظفُر ، وهو ما له إصبع من طير أو حيوان ، ومنه ما ليس منفرج الأصابع : كالإبل والنعام ، وحرّمنا عليهم من البقر والغنم شحومهما لا لحومهما ، والمراد بالشحوم : الطبقة الرقيقة من الدّهن التى تغطى الكرش والأمعاء ، وتسمى ثرْبا ، وتسميها العامة :

تربا (بالتاء) ، وشحوم الكليتين ، ويستثنى مما حرم من الشحوم :

ا — الشحوم التى عَـلِقَتْ بظهور البقر والغنم .

ب — والشحوم التى اشتملت على الأمعاء والتفَّتْ عليها .

ح — والشحوم التى اختلطت بالعظم كشحم الألْيَة ، لاتصالها بالعصعص ، فقد أحل الله هذه الشحوم الثلاثة لليهود ، وحرم عليهم غيرها منها .

٣ — ذلك التحريم جزينا به اليهود بسبب ظلمهم ، لقتلهم الأنبياء بغير حق ، وأخذهم الربا وقد نُهُوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وإنا لصادقون فى الأخبار التى نرويها لهم ، ومن جملتها هذا الخبر الخاص بما حرّمناه على اليهود ، ولكن اليهود ينكرون اختصاصهم بالتحريم ويكذبونك ، ويقولون : إن ما حُرِّمَ علينا محرّم على غيرنا من الأمم الأخرى .

٤ — فإن كذبوك أيها الرسول فيما حَدَّثْتَ به عنا ، فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ، يُمهلكم على التكذيب ، ولا يعاجلكم بالعقوبة ، مِنَّةً منه وفضلا ، يُمهل ولا يهمل ، فلا تغترُّوا أيها المكذّبون بإمهاله ، فإنه لا يَرُدّ عذابه إذا جاء وقته عن القوم المجرمين ، فالأجدر بكم أيها اليهود ألا تنكروا أن ما أصابكم الله به من تحريم بعض الطيبات ، كان عقوبة لكم دون غيركم .

(٩)

من الآية ١٤٨ إلى الآية ١٥٠ من سورة الأنعام

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا : لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ، وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ؛ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ : هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ -١- قُلْ : فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ -٢- . قُلْ : هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَٰذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ -٣- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا حرَّمنا من شيء	ولا حرَّمنا شيئاً من البحائر والسوائب .
بأسنا	عذابنا .
فتُخرِجوه لنا	فتظهروه لنا .

شرحها	الألفاظ
ما تتبعون إلا الظن والتخمين .	إن تتبعون إلا الظن
تكذبون .	تَخرُصُون
أحضِروا شهداءكم .	هلم شهداءكم
فلا تصدِّقْهم .	فلا تشهد معهم
وهم يجعلون لله عديلا مساوياً لله فى العبادة .	وهم بربهم يعدلون

مجمل المعنى

١ — سيقول المشركون من العرب للسفسطة حين تعوزُهم الحجةَّ: لو تعلقتْ مشيئة الله أن نوحِّدَه ولا نشرك بعبادته أحداً ، ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ، ولو شاء ألا نحرِّمَ شيئاً مما حرَّمناه من الزروع والأنعام وغيرهما ، ما حرَّمناه ، فنحن إذن على الحق الذى يرتضيه الله لنا ، ودعوتك إذن يا محمد غير صحيحة ؛ مثل هذا التكذيب الذى يقابلك به كفار قريش يا محمد ، قاله الذين من قبلهم من المشركين ، وأصرّوا على تكذيبهم ، حتى حاق بهم عذابنا ، فقل لهم : هل عندكم علم تعتمدون عليه ، بأن الله راض عن شرككم ومعاصيكم ، يصح الاحتجاج به على ما زعمتم ، فتظهروه لنا ؟ إنكم ما تتبعون فيما زعمتم إلا الظن الباطل الذى لا يغنى من الحق شيئاً ، وما أنتم إلا تكذبون على الله سبحانه وتعالى .

٢ — قل لهم يا محمد : فإن لم تكن لكم حجة على ما تزعمون — ولن تستطيعوا أن تأتوا بأية حجة— فاعلموا أن لله البيِّنة الواضحة عليكم ، التى بلغت غاية القوة والمتانة ، وهى القرآن الذى أفحمكم ، وعجزتم عن أن تجرُوا فى مضماره ،

ولو بأقصر سورة منه ، ولو شاء الله هدايتكم جميعاً لجعلكم مستعدين لها ، ولمنعكم من اتباع الهوى ، ومن الإعراض عن النظر فى آثار قدرة الله عناداً واستكباراً ، ولأضاء قلوبكم بنور الإيمان ، ولكن جرت سنة الله فى خلقه ، أن يبعث إليهم رُسُلاً مبشرين ومنذرين ، يعلمونهم ويرشدونهم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضلُّ عليها .

٣ — قل لهم يا محمد : أحضِرُوا شهداءكم وقادتكم الذين أضلّوكم ، وأعلنوا لكم أن الله حرم هذا الذى حرمتموه على أنفسكم ، من البحائر والسوائب وغيرها إن استطعتم ، فإن أحضروهم — فَرْضا — وشهدوا فلا تصدقهم ، وبيِّنْ لهم فساد ما يقولون ، ولا تتبع أهواء الذين كذّبوا بأدلتنا القاطعة ، وحُجَجِنا الظاهرة ، والذين لا يؤمنون بالآخرة من عَبَدَة الأوثان ، وهم الذين يجعلون لله عديلا فى العبادة .

(١٠)

من الآية ١٥١ إلى الآية ١٥٣ من سورة الأنعام

قُلْ : تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ، عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ —١— . وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ —٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أتلُ	أقرأ .
إملاق	فقر .
الفواحش ما ظهر منها وما بطن	كبائر الذنوب ، كالزنى والسرقة وشرب الخمر ، عَلناً أو سراً .
إلا بالحق	كقتل القاتل عمداً ، وكقتل المرتدّ عن الإسلام .
إلا بالتى هى أحسن	إلا بالوسيلة التى تكون أفيدَ لليتيم ، كتثمير المال لتنميته .
بالقِسْطِ	بالعدل .
لا نكلف نفساً إلا وسعها	لا نكلف من يبيع بالكيل والميزان إلا ما يقدر عليه .
ولو كان ذا قربى	ولو كان المقول له أو عليه من ذوى قرابتكم .
هذا صراطى مستقيما فاتبعوه	هذا منهاجى الذى لا عِوَج فيه فاسلكوه .
ولا تتبعوا السبل	ولا تتبعوا الطرق المخالفة له .
فتفرق بكم عن سبيله	فتتفرق بكم ، وتميل عن المنهاج الذى رسمه الله لكم.

مجمل المعنى

١ — قل أيها الرسول : تعالوا أيها الناس جميعاً ، أقرأ لكم ما حرم ربكم أن ترتكبوه :

ا — عليكم ألا تشركوا به إلهاً غيره ، وألا تعبدوا سواه ، كالأصنام التى

تعبدونها ، مهما كانت هذه الأنداد التى تزعمونها عظيمة فى خلقها : كالشمس والقمر والكواكب ، أو عظيمة فى قدرها : كالملائكة والأنبياء ، ولا تذكروا اسماً غير اسم الله عند ذبح ذبائحكم .

ب — وعليكم أن تُحسنوا إلى الوالدين إحساناً كاملا ، بطاعتهما ، والعطف عليهما إذا كبرا ، والإنفاق عليهما إن احتاجا ، لأنهما سبب وجودكم فى هذه الدنيا ، واحذروا أن تسيئوا إليهما ، أو تتضجروا منهما ، أو تكلموهما بغلظة وشدة .

حـ — وعليكم ألا تقتلوا أولادكم الصغار من أجْل فقر أصابكم ، أو خشية فقر يلحقكم ، فإن الله تعالى كما تكفَّل برزقكم ، قد تكفل برزقهم .

د — وعليكم ألا تقرَبوا كبائر الذنوب : كالزنى والسرقة وشرب الخمر ، والتجسس والنميمة ، سواء منها ما ظهر وما خفى — وقد تقدم مثل هذا فى الفقرة الرابعة من الصفحة العاشرة من تفسير هذا الجزء ، عند تفسير قوله تعالى : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » ، لأن انتشار الرذائل فى الأمة يؤدى إلى انحطاطها وفنائها .

هـ — وعليكم ألا تقتلوا النفس التى حرّم الله عليكم قتلها إلا بالحق ، كقتل القاتل عمدا ، وقتل المرتدّ عن الإسلام — لأن الفتك بالأبرياء يؤدِّى إلى انتشار الذُّعر ، وعدم الاطمئنان .

هذا الذى ذكرناه من التكاليف الخمسة أيها الناس ، وصّاكم الله به ، لعلكم تستعملون عقولكم ، فتمتنعوا عن ارتكاب المحرمات .

و — وعليكم ألا تقربوا مال اليتيم إلا بالوسيلة التى يكون بها صلاح ماله ، وصلاح نفسه ، كتثميره فى تجارة أو زراعة أو نحوهما لتنميته ، وتعليم اليتيم وتربيته ، إلى أن يبلغ سنّ الرُّشد ، فادفعوا إليه ماله ،

وفى النهى عن القرب تحريم لجميع وجوه التصرف ، إلا بالخصلة التى هى أحسن فى حق اليتيم وفى مصلحته .

ز — وعليكم أن توفوا الكيل والميزان بالعدل والحق على قدر طاقتكم ، ولا تنقصوهما ، فإن أخطأتم فى الكيل والميزان ، والله يعلم حسن نيتكم ، فإنه لا يؤاخذكم ، قال تعالى : « وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير » .

ح — وإذا قلتم قولا فى حكم أو شهادة ، فعليكم أن تعدلوا ، ولو كان المقول له من ذوى قرابتكم ، فإن فى الظلم وشهادة الزور تضييعاً للحقوق ، وخيانة للأمانة .

ط — وعليكم أن توفوا بما عهد الله إليكم فيه ، من تأدية أحكام الشرع ، من صلاة وزكاة وصيام وحجّ وغيرها ، ومن فضائل كالصدق والأمانة والرفق ، ولا تنكثوه ، ومن الإيفاء بالعهد طاعة أولى الأمر .

هذا الذى ذكرناه من التكاليف الأربعة أيها الناس ، وصّاكم الله به لعلكم تتذكرونه دائماً ، فتتوفقوا إلى السداد ، وتهتدوا إلى سبيل الرشاد .

٢ — ولأن ما وصيتكم به ، من أمر تفعلونه ، ونهى تجتنبونه ، هو الدّين الحق ، والطريق المستقيم ، والمنهاج الذى تصلون به إلى مرضاة ربكم ، فعليكم أن تتّبعوه إن كنتم تؤثرون الهدَى على الضلال ، ولا تتبعوا الطرق المخالفة له ، فتضلكم عن السبيل القويم الذى لا اعوجاج فيه ، ويذهب كل منكم فى ضلالة عمياء ، تنتهى به إلى سوء المنقلَب .

هذا الاتباع أيها المكلفون وصاكم الله به ، لعلكم تتقون الضلال والميل عن الحق ، وتتحاشون كل ضرر يحيق بكم ؛ وفى لفظ وصاكم : أى جعلكم أوصياء الله تعالى ، من اللطف والرأفة ما لا يخفى .

لعلكم — لعلكم — لعلكم

ولقد ختمت هذه الآيات الثلاث بقوله تعالى : — لعلكم تعقلون — لعلكم تذكرون — لعلكم تتقون ، عل حسب ترتيبها ، للتنبيه على أن الآية الأولى تضمنت خمسة تكاليف ، وهى النهى عن الشرك بالله ، وعن قتل الأولاد خشية الفقر أو العار ، وعن ارتكاب الفواحش فى السر والعلن ، وعن قتل النفس التى حرّم الله قتلها ، والأمر بالإحسان للوالدين ، وهى من الأمور الظاهرة الجليّة ، التى يمكن تعقلها وتفهمها ، وتبيُّن مايترتب عليها من منافع الدنيا والآخرة ، وعلى أن العقل هو مناط التكليف ، فلذلك ختمت بقوله : « لعلكم تعقلون » ؛ ولما كانت الآية الثانية تضمنت أربعة أشياء : وهى النهى عن التصرف فى مال اليتيم إلا بالطريق الأحسن لمصلحته ، وإيفاء الكيل والميزان ، ومراعاة العدل والتسوية فيهما ، والتزام العدل فى الشهادة ، ولو كان القول المطلوب فيها لقريب ، سواء أكان القول له أم عليه ، والإيفاء بما عاهد الناس بعضهم بعضاً عليه ، أو عاهدوا ربهم عليه — وهى أمور دقيقة خفية غامضة ، تتطلب الاجتهاد والذكر الكثير ، حتى يهتدى الإنسان إلى مواضع الاعتدال فيها ، فلذلك ختمت بقوله : « لعلكم تذكّرون » ؛ ولما كان الصراط المستقيم هو طريق الخير والحق ، الجامع لجميع التكاليف التسعة وغيرها ، فلذلك ختمت الآية الثالثة بقوله : « لعلكم تتقون » ، لبيان أن من اتبع هذا الصراط فقد وقاه الله عذاب النار ، وكتب له النجاة الأبدية ، والسعادة السرمدية .

(١١)

من الآية ١٥٤ إلى الآية ١٥٨ من سورة الأنعام

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ، وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى وَرَحْمَةً، لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ —١—. وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. أَنْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا. وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا: لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ —٢—. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا؟ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ —٣—. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ؟ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا، قُلِ: انْتَظِرُوا، إِنَّا مُنْتَظِرُونَ —٤—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الكتاب	التوراة .
تماماً على الذى أحسن	إتماماً للكرامة والنعمة على الذى أحسن باتباعه، واهتدى به .
لعلهم	لعل بنى إسرائيل .
أن تقولوا	كراهة أن تقولوا أيها المشركون .
طائفتين من قبلنا	هما : اليهود والنصارى .
وإن كنا عن دراستهم لغافلين	وإننا كنا غافلين عن تلاوة كتبهم ، لأنها ليست بلغتنا .
صدف عنها	أعرض عنها .
أو يأتى ربك	أو يأتى أمر ربك بعذابهم .

كان كفار مكة يعلمون أن اليهود أهل كتاب يسمى التوراة ، وكان بعضهم يتمنَّوْن أن يرسل إليهم رسول ، كما أرسل إلى مَنْ قبلهم من الأمم ، وأن ينزَّل عليهم كتاب ، كما نُزِّل على اليهود والنصارى ، وأقسموا بالله جهد إيمانهم : لئن جاءهم نذير ليكونُن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ، استكباراً فى الأرض ومكر السيئ ، وقد أراد الله تعالى أن يبلغ رسوله المشركين هذه الآيات على النحو الذى جرى عليه أسلوب القرآن فى كثير من المواضع ،

وتقدير الكلام : قل لهم يا محمد : تعالوا أتل ما حرم ربكم . . . ثم قل لهم وأعلمهم أننا آتينا موسى الكتاب تماماً . . ، وقد تميزت هذه السورة بكثرة بدء الآيات بخطاب الرسول .

مجمل المعنى

١ — ثم أنزلنا التوراة على موسى ، إتماماً للكرامة والنعمة على الذى أحسن باتباعه واهتدى به ، وبياناً مفصلا لكل ما يحتاج إليه الناس فى أمور الدين ، وهُدًى إلى الحق ، ورحمة بالمكلّفين ، لعل بنى إسرائيل يصدّقون بلقاء ربهم يوم البعث والجزاء ، فلا يرتكبوا شيئاً من المعاصى .

٢ — وهذا القرآن الذى يتلى عليكم أيها المشركون ، كتاب كثير النفع ، عظيم الشأن ، أنزلناه إليك أيها الرسول كما أنزلنا التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، فاتبعوه أيها المعاندون المتكبرون ، وهو كما تعلمون منزّل بلغتكم ، لكى تدركوا فصاحته وبلاغته ، وتعلموا أنه لا يستطيع أن يأتى به بشرٌ ، واتقوا ما نهاكم عنه ، واحذروا مخالفته ، رجاء أن تشملكم رحمةُ الله باتباعه ، والعمل بما فيه — أنزلناه منعاً لكم أن تقولوا : إنما أنزل الكتاب من توراة وإنجيل على اليهود والنصارى من قبلنا ، وإننا كنا غافلين عن تلاوة كتبهم : لغلبة الأمّيّة علينا ، ولأن كتبهم لم تكن بلغتنا ، أو منعاً لكم أن تحتجوا وتقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب ، كما أنزل على اليهود والنصارى ، لكنا أهدَى منهم إلى الحق ، واتباع الأحكام والشرائع ، لجودة أذهاننا ، وحدّة أفهامنا ، وبراعتنا فى الخطابة والشعر ، مع أننا أميّون ، فما عُذركم ، وقد جاءكم ما تمنيتم ، وأنزل عليكم القرآن مشتملا على بيان من ربكم ، يميز الحق من الباطل ، وهدى ورحمة لمن اتبعه ، وحجة واضحة تدركونها ، لأنه بلسانكم .

٣ - وإذا كانت آيات القرآن قد اشتملت على كل هذا وعلى غيره ، فلا أحد أظلم ممن كذّب بآيات الله وأعرض عنها عناداً واستكبارا ، بعد أن وَضَح له الحق ، ولم يكتف بإعراضه ، بل صرف الناس عنها ، سنجزى بالعذاب الشديد مَنْ يُعرضون عن آياتنا ، بسبب إعراضهم ، ومحاولتهم منع وصول الدّعوة إلى غيرهم .

٤ - ماذا ينتظر كفار مكة ؟ هل ينتظرون إلا أن تأتيهم ملائكةُ الموت لاستئصالهم ؟ أو يأتى أمر ربك بعذابهم ، كما فعل مع غيرهم من الأمم السابقة ؟ أو يأتى بعض علامات ربك الدالة على قيام الساعة ؟ يوم يأتى بعض آيات ربك الدّالة على قرب انقضاء العالم ، لا ينفع أىَّ نفس إيمانها ؛ إذا لم تكن قد آمنت من قبل ظهور هذه العلامات ، ولا ينفعها الإيمان غير المكتسب فيه الخير ، لأن الإيمان يجب أن يكون متبوعاً بالأعمال الصالحة ، وهذا يدل على أن الإيمان المجرد من الخير لا جدْوَى فيه ؛ فقل لهم أيها الرسول تهديداً لهم : انتظروا ظهور إحدى هذه العلامات الثلاث ، فإنا منتظرون ، وحينئذ يكون لنا الفوز والنجاح ، ولكم الويل والخذلان .

(١٢)

من الآية ١٥٩ إلى الآية ١٦٠ من سورة الأنعام

إنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ، إنَّمَا أَمْرُهُمْ إلَى اللهِ ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ -١- . مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إلَّا مِثْلَهَا ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ -٢- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
فرَّقوا دينهم	فرقوا دينهم بالبدع ، أو فارقوا دينهم .
شيعاً	أحزاباً ذوى مذاهب مختلفة .
لست منهم فى شىء	لست من مذاهبهم التى انتحلوها فى شىء .
عشر أمثالها	عشر حسنات أمثالها .

مجمل المعنى

١ — إن الذين فرقوا دينهم بالآراء والبدع والضلالات ، التى يبثونها فى أتباعهم من العامَّة وغيرهم ، فيجعلونهم طوائف ، تتعصب كل طائفة لرأيها ، وتسفه آراء غيرها ومذاهبهم من الطوائف الأخرى ، وبذا تصير الأمة فِرَقاً

متعادية ، هؤلاء أيها الرسول ضالون مضلون ، ولست من مذاهبهم التى انتحلوها لأنفسهم فى شىء ، لأنهم هم الذين ابتدعوها لأنفسهم ، ونشروها بين أتباعهم ، وأنت برىء منهم ، فلا تتعرض لهم ، وكِلْ أمرهم إلى الله وحده ، فهو يتولى جزاءهم فى الدنيا ، بأن يذيق بعضهم بأس بعض ، ثم ينبئهم عند الحساب يوم القيامة بما كانوا يفعلون فى الدنيا ، ويعاقبهم عليه ، وقراءة بعضهم : فارقوا دينهم : تدل على أن هؤلاء تركوا دينهم ، واتبعوا أهواءهم ، ومزقوا وحدة المسلمين ، سعياً وراء مغانم يتطلعون إليها ؛ روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها : « يا عائشة ، إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً ، هم أصحابُ البدع ، وأصحاب الأهواء ، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ، ليس لهم توبة ؛ يا عائشة ، إن لكل صاحب ذنب توبة ، غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ، فإنهم ليس لهم توبة ، وأنا منهم برىء ، وهم منى براء » ، وليس معنى هذا أنهم إذا ظهر لهم خطؤهم ، فرجعوا وتابوا إلى الله ، لا تقبل منهم توبتهم ، بل معناه أنهم لا يتوبون ، لأنهم يزعمون أنهم مصيبون .

٢ — من جاء بالحسنة — وهى الأعمال الصالحة — وهو مؤمن ، فله جزاء عشر حسنات أمثالها ، فضلا من الله ومنّة ، وهذا أقل جزاء يجزِى الله به المحسن ، وقد يصل الجزاء إلى سبعين أو إلى سبعمائة ، أو إلى ما فوق ذلك ، ومن جاء بالسيئة — وهى الأعمال الفاسدة — فلا يجزَى إلا مثلها ، ولا يظلم أحد من الناس أبداً بنقص الثواب ، أو زيادة العقاب ، قال تعالى : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيما » ؛ وتختلف الحسنة باختلاف معطيها ، فالدرهم من الفقير المحتاج ، أفضل عند

الله من دينار الغنيّ ذى الثراء ، ومن يبذل الدرهم ، فى أرْيحيَّة وسماحة ، ليس كمن يبذله فى أسف وسخط .

رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات ، فمن همّ بحسنة فلم يعملها ، كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها ، كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها ، كتبها عنده حسنة كاملة ، فإن هو همّ بها فعملها ، كتبها الله سيئة واحدة » .

(١٣)

من الآية ١٦١ إلى الآية ١٦٤ آخر سورة الأنعام

قُلْ : إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ –١– . قُلْ : إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ، وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ، لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ –٢– . قُلْ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ –٣– . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ، وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
صراط مستقيم	دين حق لا عوَج فيه .
قِيَماً	مستقيما .
حنيفاً	بعيداً عن الشرك ، وعن جميع الأديان الباطلة .
نُسُكى	عبادتى .
محياى ومماتى	حياتى وموتى .
ولا تزر وازرة وزر أخرى	لا تحمل نفسٌ فوق حِمْلها من الإثم حِمْلَ نفس أخرى .
خلائف الأرض	يخلف بعضكم بعضاً فى الأرض إلى قيام الساعة .
ليبلوكم فيما آتاكم	ليختبركم فيما أعطاكم .

مجمل المعنى

١ — قل للناس كافة أيها الرسول : إن الله أرشدنى بالوحى إلى الدين الصحيح الذى لاعوَجَ فيه ، ولا يَضلُّ سالكه ، وهو الدين القويم الثابت ، الذى لا ينسخه دين آخر ، دين جَدّى إبراهيم ، البعيدعن الشرك والباطل ، الذى يهدى إلى الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

٢ — قل لهم أيها الرسول : إن المستحق لصلاتى وعبادتى كلها ، والذى بيده حياتى وموتى ، هو الله وحده ، الذى لا شريك لهُ ، وقد أمرَنى أن أبلّغ الناس دينه ، وأنا أوّلُ مصدق به ، منقاد له ، مخلص فى اتباعه .

٣ — قل للكفار : أغير الله خالق الخلق ورازقهم ، أطلب ربًا أشركه معه فى عبادته ، وهو مالك كل شىء فى هذا الكون ؟ فكيف تطلبون منى أن أعبد غيره أيها الجاهلون ؟ وكيف تستسيغون أن يكون بعض خلقه شريكاً له ، وكيف يصح قولكم : اتبعوا سبيلنا ونحن نحمل خطاياكم ، مع أنه لا تكسبُ أى نفس مكلفة إثماً إلا كان جزاؤه عليها دون غيرها ، ولا يؤاخذُ بما أتت من المعصية سواها ، ولا تحمل نفس فوق حملها من الآثام حمل نفس أخرى ، وإنما تحمل إثمها وحدها ، فكل نفس مأخوذة بجرمها ، ومعاقبةٌ بإثمها ، ثم إلى الله المصير يوم القيامة ، فينبئُ الخلائق بما كانوا يختلفون فيه ، ويميز الحق من الباطل .

٤ — وقد اقتضت سنة الله فى خلقه لبقاء هذا الكون ونظامه ، أن يخلفَ بعضهم بعضاً إلى حين قيام الساعة ، وأن يرفع بعضهم فوق بعض درجات فى القوة والمال والعلم وغيرها ، وقسَّمَ بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ليسخر بعضهم بعضاً فى العمل له ، فالناس بخير ما تباينوا ، فإذا تساووا هلكوا ، وليعاملهم معاملة المختبر فيما أعطاهم من القوة والمال ، والجاه والعلم وغيرها ، ليظهر المطيع من العاصى ، ويتميز من يشكر نعمة الله عليه ؛ ممن طغى وبغى ، وعصى الله ، وآثر الحياة الفانية ، على الأخرى الباقية ، إن الله سريع العقاب لمن عصاه ، فإن كل ما هو آت قريب ، وإنه لغفور لمن أطاعه ، رحيم بالمحسنين والمؤمنين ، وسعت رحمته كلَّ شىء .

سورة الأعراف

نزلت بمكة ، إلا من الآية ١٦٣ – ١٧٠ فانها نزلت بالمدينة وآياتها ٢٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(١)

من أول السورة إلى الآية ٩

المص . كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
لِتُنْذِرَ بِهِ ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ –١– اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ
رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ –٢–
وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ، فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ
قَائِلُونَ –٣– فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا :
إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ –٤– فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَنَسْأَلَنَّ
الْمُرْسَلِينَ –٥– فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ، وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ –٦–
وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ –٧– وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ ، بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ –٨– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الـمص	تراجع الصفحة الثالثة عشرة ، عند تفسير : آلم ، من الجزء الأول .
كتاب أنزل إليك	المراد : القرآن
حرج منه	ضيق من تبليغه ، والإنذار به .
ما أنزل إليكم من ربكم	ما جاء فى الكتاب والسنة الصحيحة .
ولا تتبعوا من دونه أولياء	ولا تعبدوا غير الله أحداً .
قليلا ما تذكرون	قليلا ما تتذكرون وتتعظون .
وكم من قرية أهلكناها	كثيراً من القرى أردنا إهلاكها .
بأسنا	عذابنا .
بياتاً	وهم بائتون ، أى ليلا وهم نائمون ، كقوم لوط .
قائلون	وهم هاجعون نهاراً فى وقت القيلولة ، كقوم شعيب
دعواهم	دعاؤهم .
إذ جاءهم بأسنا	حين بدأ وقوع عذابنا عليهم .
الذين أرسل إليهم	الأمم التى بعث الله إليها رسولا .
المرسلين	الأنبياء الذين أرسلهم الله .
فلنقصن عليهم بعلم	فلنذكرن لهم ما حدث عن علم مؤكد لخفايا الأمور وظواهرها .
والوزن	ووزن الأعمال ، والتمييز بينها .
الحق	العدل والقسطاس .

الألفاظ	شرحها
ثَقُلت موازينه	رجحت أعماله الطيبة ، وثقلت فى الموازين حسناته .
المفلحون	الفائزون .
خفّت موازينه	قلت حسناته ، وكثرت سيئاته .
بآياتنا يظلمون	لحججنا وأدلتنا ينكرون ، ولا يقتنعون .

مجمل المعنى

١ — أنزل الله عليك يا محمد القرآن ، لتنذر به الكافرين المعاندين ، وتذكر المؤمنين المطيعين ، فلا يضيق صدرك ، ولا تشك فى نجاحك ، لأن جماعة ممن ذهبت إليهم ، ودعوتهم إلى الإيمان بك ، لم يطيعوك ، وظلوا على كفرهم .

٢ — ويجب على الناس جميعاً ، فى كل مكان وزمان ، أن يتبعوا ما جاء فى كتاب الله ، وفى سنة رسول الله ، وألا يتبعوا غيره من شياطين الجن والإنس ، ويتخذوهم أولياء لهم من دون الله ، فيحملوهم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ؛ يأمرنا الله بهذا ، وهو يعلم أن تذكر الإنسان واتعاظه قليل ، فإنه قلما يتأثر بالمواعظ .

٣ — وهؤلاء الذين يعبدون غير الله ، ويتخذون لهم وليًّا من دونه ، أعلمهم أن عذاب الله شديد ، وحذّرهم سخطه وغضبه ، وكثيراً ما أهلك أهل القرى الذين سبقوهم ، حينما كذّبوا رسله ، ولم يتعظوا ، فحل بهم عقابه ليلا قبل أن يصبحوا ، كما فعل بقوم لوط ، أو نهاراً وقت القيلولة ، كما فعل بقوم شعيب .

٤ — وهؤلاء الناس حينما رأوا أن عذاب الله واقعٌ بهم لا محالة ، تنبهوا ، وأدركوا

أنهم كانوا على ضلال فى تكذيبهم أنبياءهم ، وأخذوا يدعون الله فيقولون : يا ربنا ، إنا كنا ظالمين ، ولكنهم لم ينفعهم ندمهم فى هذه اللحظة ، فقد حق عليهم العذاب ، ولا ينفعهم الدعاء .

٥ — والله سبحانه سيسأل يوم القيامة الأمم الذين أرسل إليهم رسله : ما موقفهم من رسله ؟ وبماذا أجابوهم ؟ أعصَوهم أم أطاعوهم ؟ وكذلك يسأل الرسل : ماذا فعلوا برسالات ربهم ؟ أبلّغوها وأدّوْها على ما أمر الله ،أم قصروا فى أدائها وتبليغها ؟ ونظير هذا قوله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » .

٦ — والله سبحانه وتعالى سيخبر الرسل ، والذين أرسلوا إليهم ، بحقيقة ما وقع ، ليعلموا أنه يعلم كل شىء ، ما ظهر وما بطن ، وأنه — جل شأنه — ما كان غائباً عنهم وعن أفعالهم ، والله حين يسأل الأمم ، وحين يجاب ، لايفعل ذلك ليعلم شيئاً كان غائباً عنه جل جلاله ، ولكنه يفعله توبيخاً للكفّار المعاندين ، واستهزاءً بهم ، واستحقاراً لشأنهم ، وكذلك حين يسأل الرسل ، وحين ينبئونه بما فعلت أممهم ، إنما يفعل ذلك مبالغة فى إقامة الشهادة على الأمم الكافرة المُشْرِكَة .

٧ — والله يقضى بين الناس جميعاً قضاء عادلا يوم القيامة ، فيحاسب كل إنسان على ما قدمت يداه ، فمن رجحت حسناتهم فهم الناجون الذين يفوزون برضا الله ، ويظفرون بدخول جنته .

٨ — ومن خفّتْ حسناتهم وقلّت ، وثقُلت سيئاتهم وكثرت ، فأولئك هم الذين جنَوْا على أنفسهم ، وأضاعوها ، وحرَموها بسوء فعلهم ثوابَ الله ، وباقتراف ما عرّضها لعقابه ، بسبب جحود آيات الله ، وعدم طاعتها ، والانقياد إليها ، وكانوا لأنفسهم ظالمين .

(٢)

من الآية ١٠ إلى الآية ١٨ من سورة الأعراف

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ -١- وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا ، إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ -٢- قَالَ : مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ -٣- قَالَ : فَاهْبِطْ مِنْهَا ، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ، فَاخْرُجْ ، إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ -٤- . قَالَ : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ -٥- . قَالَ : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ -٦- . قَالَ : فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ، لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ -٧- . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ -٨- . قَالَ : اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ، لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ -٩- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
مكنّاكم فى الأرض	أقدرناكم على التصرُّف فيها .
وجعلنا لكم فيها معايش	وأخرجنا لكم منها ما تعيشون به من كل مأكول ومشروب ، ومركب ومسكن ، وغير ذلك .
خلقناكم ثم صورناكم	خلقنا أصلكم ثم صوّرناه .
اسجدوا لآدم	اخضعوا له خضوعَ تكريم ، لاخضوعَ عبادة .
ما منعك ألا تسجد ؟	أى شىء منعك من السجود والخضوع لآدمَ كما أمرناك ؟ ولا هنا : زائدة ، بدليل قوله : «ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ» .
فاهبطْ منها	فاخرج من الجنة .
فما يكون لك أن تتكبر	فما يجوز لك ولا يصح أن تعصى أمْرِى .
من الصاغرين	من أهل الصَّغار والذِّلة والهوَان .
أنظرنى إلى يوم يبعثون	أمهلنى إلى يوم القيامة وإفناء العالم .
فبما أغويتنى	أقسم بسبب ما قدّرت علىّ من الضلال والإضلال .
لأقعدن لهم صراطك المستقيم	لأعترضنّ لهم طريق الدين والهداية والخير ، ولأحملنهم على الانصراف عنه .
لآتينهم	لأشككنهم فى كل ما يجلب لهم خيراً فى الدنيا والآخرة ، وفى كل ما حولهم فى الدنيا ، وما يقال لهم عن الآخرة .
شاكرين	مؤمنين مصدقين .

الألفاظ	شرحها
منها	من الجنة التى كان فيها آدم .
مذموماً	مَعيباً مذموماً .
مدحوراً	مطروداً من رحمة الله .

قصة سجود إبليس لآدم

أخبر الله ملائكته أنه سيخلق بشراً من طين ، وأمرهم أنه حينما يسويه وينفخ فيه من روحه ، أن يسجدوا له سجود تكريم ، لا سجود عبادة ، لأن الله لا يأمر أحداً أن يتوجه إلى غيره بالعبادة ، وكان هذا الذى أمر الله به هو احتفال الملائكة بخلق آدم بشراً سوياً .

وقد خلق الله آدم وصوّره ، ونفخ فيه من روحه ، فصار إنساناً ، وصار الطين لحماً وعظماً ، ودماً وعروقاً وأعصاباً ، وغير ذلك ، وصار يتحرك بإرادته ، ويفهم ، ويريد ، ويدرك ، فاحتفل الملائكة به ، وسجدوا له طاعةً لأمر ربهم ، وامتنع من تنفيذ أمر الله إبليس الذى كان معهم ، واستكبر ، ونسب المحاباة إلى الله تعالى فى أنه أمرَه بالسجود لهذا الذى خلَقه من الطين ، فى حين أنه أشرف منه أصلا ، لأنه مخلوق من النار ، والنار فى رأيه أفضل من الطين ؛ كان جزاء ذلك المتكبر المغرور العاصى ، أن الله أعلمه أنه من أهل النار ، لاستكباره ، وأنه مطرود من الجنة ، لمخالفته ، ونسبة المحاباة إلى الله .

طلب إبليس من الله تعالى أن يمهله حياً إلى يوم القيامة ، وهدّد آدم لأنه طُرِدَ من الجنة بسببه ، بأنه سيقعد بالمرصاد له ولذريّته ، ما دامت الدنيا ، وما دام أبناء آدم على الأرض ، يغويهم ، ويضلهم ، ويغريهم بالمعاصى ، ويزين

لهم السوء ، ويجعل أكثرهم غير شاكرين لله نعمه وفضله ، ولن يفلت من يده إلا المخلصون الذين حصنهم الله من غَوايته وضلاله ، فأنذره الله هو وكل من يتبعه من بنى آدم ، أن يدخلهم النار جميعاً .

مجمل المعنى

١ – أقدر الله بنى آدم على التصرف فى الأرض ، فهم يستطيعون أن يستخرجوا منها بالوسائل المختلفة ، كل ما يستطيعون أن يعيشوا منه ، وينتفعوا به فى حياتهم ، وكلما تقدم الزمن بهم ، تكشفت لهم أشياء ينتفعون بها ، خلقها الله لهم ، وجعلها فى متناول قدرتهم ، وهو يعلم أن شكرهم لا يكافىء النعم التى أسْدِيَتْ إليهم .

٢ – والله خلق الإنسان الأول طيناً غير مصوّر ، ثم صَوّر أجزاءه ، وميز بعضها من بعض ، وبعث فيه الحياة ، ثم أمر ملائكته أن يسجدوا لآدم أبى البشر ، سجود تكريم لا سجود عبادة ، فسجدوا له ، إلا إبليس فإنه استكبر ولم يسجد لآدم .

٣ – سأل الله إبليس عن السبب الذى جعله يمتنع عن السجود لآدم ، ولا يطيع أمره ، فكانت إجابته : أنه خير من آدم من أصل الخلقة ، فهو مخلوق من نار ، وآدم مخلوق من طين ، والنار فى رأيه أفضل من الطين ، والواقع أنه لم يكن هناك سؤال ولا جواب ، بل هو تصوير يفهم منه جوابه لو أجاب .

٤ – أمر الله إبليس أن يخرج من زُمرَة الملائكة الذين سجدوا لآدم ، لأنهم قوم مطيعون متواضعون ، وهو عاص متكبر ، لا يستحق أن يكون بينهم ، لأنه من الأذلاء ، الذين لا ينبغى لهم أن يكونوا مع الأعزاء فى الجنة والمنزلة .

٥ – سأل إبليس ربه أن يمهله ويبقيه حياً إلى يوم البعث والحساب .

٦ – أمهله الله سبحانه وتعالى ، وقال له : إنك من المنظرين المؤخرين على قيد الحياة ، ما دامت الدنيا .

٧ - قال إبليس وأقسم : بسبب ما قدّرت علىّ من الضلال والعناد والاستكبار ، لأوقعنّ البشر الذين أبوهم آدم ، فى مثل ما وقعت فيه من الضلال ، انتقاماً لنفسى منهم ، ولأسُدّنّ عليهم طريق الحق والهداية والخير ، ولأحملنهم على الانصراف عنه ، ولأزيّننّ لهم الباطل المؤدى إلى جهنم ، ولأعمينهم عن طريق الحق المؤدى إلى الجنة .

٨ - ولأصُدّنّهم عن الحق ، ولأزيّننّ لهم الدنيا ، ولأصرفنّهم عن الآخرة ، ولأشككَنّهم فى كل ما تأمرهم به أو تنهاهم عنه ، ولآخذنّ عليهم كل طريق فيه صالح لهم ، ولن يشكر منهم إلا القليل الذى يُفلت منى .

٩ - لما قال إبليس هذا ، طرده الله من الجنة شرّ طردة ، مذموماً ذليلا كسيراً ، محروماً رحمته وجنته ، وأنذره هو ومن يتبعُه أنه سيدخله ويدخلهم جميعاً جهنم ، يملئونها ، ويعذبون بنارها .

(٣)

من الآية ١٩ إلى الآية ٢٥ من سورة الأعراف

وَيَا آدمُ ، اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ، فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ -١- . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَاوُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ، وَقَالَ : مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ -٢- وَقَاسَمَهُمَا : إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ -٣- . فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا : أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ، وَأَقُلْ لَكُمَا : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ؟ -٤- قَالَا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ -٥- . قَالَ : اهْبِطُوا ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ -٦- . قَالَ : فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ، وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ -٧- .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
فألقى إليهما كلاماً خفياً ، يزين لهما به الباطل .	فوسوس لهما الشيطان
لتكون عاقبته كشف ما سُتر وغطى من عوراتهما .	ليبدى لهما ما ووُرى عنهما من سوءاتهما
إلا كراهة أن تكونا ملكين ، لكما صفات الملائكة ونورانيتهم .	إلا أن تكونا ملكين
من الذين يبقون فى الجنة بقاء أبدياً ، لا يعتريه زوال .	من الخالدين
وأقسم لهما .	وقاسمهما
فأطمعهما ، وجعلهما يأكلان من الشجرة ، بما خدعهما به من القسم ، وبما مناهما من الخلود ، ومن صفات الملائكة .	فدلاهما بغرور
أكلا من ثمرها ، وأحسا طعمه .	ذاقا الشجرة
ظهرت لهما عوراتهما ، لسقوط ما كان يسترهما عن جسدهما .	بدت لهما سوءاتهما
وأخذا ينزعان من ورق الشجر ، ويستتران به ، ويضع كل منهما على عورته ورقة فوق ورقة ، وأصل الخصف : الترقيع .	وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة
اخرجوا من الجنة ، وانزلوا إلى الأرض .	اهبطوا
يعادى بعضكم بعضاً .	بعضكم لبعض عدو
محل إقامة واستقرار ، وتمتع بالعيش ، إلى أن تنتهى آجالكم .	مستقرٌّ ومتاعٌ

إخراج آدم من الجنة

١ — أسكن الله آدم وزوجته حوّاء الجنة ، وأباح لهما أن يتمتعا بكل شيء فيها ، كيفما يشاءا ، ومتى يشاءا ، ولم ينههما إلا عن شجرة عيّنها ، امتحاناً لهما ، وأمرهما ألا يقرَباها ، وألا يذوقا ثمرها ؛ سُرّ لذلك إبليس ، ووجد منفذاً ينفذ منه إلى آدم وزوجته حواء ، فعمل جهد طاقته حتى دخل الجنة ، فوسوس لهما ، وما زال يغريهما ، ويخدعهما ، ليأكلا من ثمرِ تلك الشجرة ، ولكنهما كانا يرفضان ، فيلحُ عليهما ، ويبالغ فى إلحاحه ، ويفهمهما أن الله أراد بمنعهما ألا يجعلهما ملكين ، وألا يخلّدا فى الجنة ، وأقسم لهما ، فخدعهما بالقسم ، ونسى آدم أنه عدوُّه ، وأنه الذى امتنع عن السجود له مع الملائكة ، وأنه الذى افتخر عليه بأصله النارىّ ، وأنه أُخرج من الجنة بسببه ، نسى آدم كل هذا ، فوقع فى حبائل الفتنة ، وأكل من الشجرة هو وزوجتُه حواء ، فلم يكادا يذوقان طعم الثمر ، حتى زال عنهما السِّتر الذى كان يستر عورتيهما ، وانكشف لكل منهما عورته ، كما انكشفت عورةُ كلّ منهما لقرينه ، وكانا قبل ذلك لا يرى الواحد منهما عورتَه ، ولا يرى عورةَ الآخر .

٢ — أسرع كلٌّ من آدم وحواء إلى الشجر القريب منهما ، وأخذا ينزعان من ورقه ، ويتخذان منه ما يستران به عورتيهما ؛

٣ — عاتب الله سبحانه وتعالى آدم على مخالفته أمرَه ، وإطاعته عدوّه إبليس ، الذى حذّرَه إياه ، وعلى أكله من الشجرة التى نهاه عن الأكل منها ، فندم آدم ، وأخذ يعتذر لله ، ولكن الله أمرَ بطرده هو وزوجته حواء ، وعدوّهما إبليس من الجنة ، وأنذرهم أنّهم سيكون بعضهم عدوّاً لبعض ، وبأنهم سيقيمون فى الأرض ويعمرُونها ، ويكدون فى الحصول على ما تخرجه من

زرع ونبات ، وعلى ما بها من حيوان ، وكلٍّ ما يجوز التمتع به ، ولكن هذه الألوان من المتعة موقوتةٌ بالآجال ، فتنتهى بانتهائها .

مجمل المعنى

١ — أسكن الله آدم وزوجته حوّاء الجنة ، وأمرهما أن يتمتعا بكل شىء فيها ، إلا شجرة عيّنها ، فقد منعهما أن يأكلا من ثمرها امتحاناً لهما ، فإن فعلا وأكلا من ثمرها ، فإنهما يكونان ظالمين لأنفسهما ، ولذريتهما من بعدهما ، وللوعد الذى اتخذه الله عليهما .

٢ — وجد إبليس الفرصة سانحة ، ليُزَيّن لهما الأكل من هذه الشجرة ، فاحتال حتى دخل الجنة ، وأخذ يحاول إقناعهما : أن الله ما أراد بمنعهما من الأكل من الشجرة ، إلا أن يجعلهما غيرَ خالدين ، وأنه أراد لهما ألا يكونا ملكين ، فإذا أكلا منهما فسيخلّدان ، وسيصيران ملكين ، وهو فى الحقيقة لم يرِدْ إلا أن يغضَبَ الله عليهما ، بارتكاب ما نهى عنه ، وعصيان ما أمر به ، وأن يصل إلى غرضه بسقوط حرمتهما ، وزوال مكانتهما .

٣ — لم ينخدعا أول الأمر بكلام إبليس ، حتى حلف لهما أنه صادق فيما يقول ، ناصح فيما يشير به .

٤ — فانخدعا بعد ذلك بكلامه ، واغترا بيمينه ، لأنهما كانا يعتقدان أنه لا يحلف أحد بالله كاذباً ، ووقعا فى الخطيئة بالمخالفة ، والأكل من الشجرة ؛ فلما أكلا منها ، تساقط عنهما الستر الذى كان يستر عورة كل منهما ، فانكشفت عورتاهما ، فأسرعا إلى ورق الشجر القريب منهما ، وأخذا يقطعانه ، ويلصقانه على موضع العورة ليستترا به ، فناداهما الله ، ووبخهما على سوء فعلهما ، إذ أنهما خالفا أمره ، وأكلا من الشجرة ، وأطاعا

عدوّهما ، مع أنه نبههما على ذلك ، وأخبرهما أن الشيطان لهما عدو بيّن العداوة .

٥ — ندم آدم على ما فعل ، وندمت حواء على ما فعلت ، ورجعا إلى الله ، واعترفا بذنبهما ، وسألا الله أن يغفر لهما ، ويستر عليهما خطيئتهما ، لأنه إن لم يفعل فلن يكون لهما نصيب إلا الخسران والهلاك ؛ وهنا ينبغى أن يذكرَ كلُّ من همّ بمعصية ، أن الشيطان يخدعه ويكيد له ، فلا يقع فى خديعته وكيده . (تراجع الصفحات ٣٧ — ٤٠ من تفسير الجزء الأول) .

٦ — أمرَ الله تعالى آدم وحواء وإبليس أن يخرجوا من الجنة ، وأن ينزلوا إلى الأرض ، وأخبرهم أنه يكون بينهم جميعاً عداوات ومشاحنات ، لا تنقضى ولا تنتهى ، وأنهم يستقرون فيها فى حياتهم الدنيا ، ويتمتعون فيها بألوان المتع ، وصنوف النعم ، حتى تنتهى آجالهم ، وأن إلى الله إيابهم ، ثم إن عليه حسابهم .

٧ — والأرض التى خرجتم إليها ، تكونون فيها أيام حياتكم ، وتكون موتكم فيها بعد انتهاء آجالكم ، ثم يخرجكم ربكم منها يوم حشركم .

(٤)

من الآية ٢٦ إلى الآية ٣٠ من سورة الأعراف

يَا بَنِي آدَمَ ، قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ —١— . يَا بَنِي آدَمَ ، لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ —٢— . وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ، وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ : إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ —٣— . قُلْ : أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ —٤— . فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
أنزلنا عليكم مطراً فأحيينا به الأرض ، فأنبتت من كل شيء ، وجعلنا لكم منه لباساً ، يستر عوراتكم .	أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم
ولباساً آخر تتزينون به ، كما يزدان الطائر بريشه .	وريشاً
هو لباس الوَرَع والخوف من الله ، الذى يقى من العذاب ، وكل ما يتقرب به إلى الله من معنويات : كالحياء ، والعمل الصالح ، أو ماديات : كعدَم المبالغة فى الثياب ، وكلباس الجهاد : مثّل الدرع والمِغْفَر .	ولباس التقوى
من العلامات الدّالة على فضل الله ورحمته بعباده .	من آيات الله
لعلهم يتعظون ، فيعرفوا مقدار ما أسبغ عليهم من نعم .	لعلهم يذكرون
لا يخدعنكم الشيطان .	لا يفتننكم الشيطان
وجنوده وأعوانه .	وقبيلُه
نُصراء وأعواناً .	أولياء
شيئاً قبيحاً جداً من الذنوب ، كالشرْك بالله .	فاحشة
وجدنا آباءنا يفعلونها .	وجدنا عليها آباءنا
لا يأمر بفعل منكر .	لا يأمر بالفحشاء
بالعدل وبالحسَن .	بالقسط

الألفاظ	شرحها
وأقيموا وجوهكم	واقصدوا عبادة الله مخلصين له ، متجهين إليه .
عند كُلِّ مسجد	عند كل سجود ، وفى كل مكان تسجدون فيه .
مُخلصين له الدين	مخلصين له الطاعة .
كما بَدأكم تعودون	كما أنشأكم ابتداءً وخلقكم فى الدنيا ، يعيدكم إلى الحياة فى الآخرة ، فيجازيكم على أعمالكم .
فريقاً هدى	هم المسلمون .
وفريقاً حق عليهم الضلالة	وفريقاً استحقوا الضلالة لفساد فطرتهم ، وهم الكافرون .
إنهم اتخذوا الشياطين أولياء	إن الفريق الضالّ جعل الشيطان وليه وناصرَه .

قصة العرايا

كانت العرب قبل الإسلام تطوف بالبيت عرايا ، إلا قريشاً وما ولدت ، ما لم تتفضل عليهم بثياب من عندهم ، فكان الرجال يُعْطُون الرجال ، والنساء يُعطين النساء ، وكانت قريش لا تخرج من المزدلفة ، وكان الناس كلهم يقفون بعرَفات ، فتقول قريش : نحن أهل الحَرم ، فلا ينبغى لأحد من العرب أن يطوف إلا فى ثيابنا ، ولا يأكل — إذا دخل أرضنا — إلا من طعامنا ، فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يعيره ثوباً ، ومن لم يكن له يسارٌ يستأجر به ثوباً ، كان بين أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت عرْياناً ، وإما أن يطوف فى ثيابه ، فإذا فرَغ من طوافه ، ألقى ثوبه عنه ، فلم يمسّه أحد ، فلما بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أنزل عليه : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ، وأذّن مؤذن رسول الله : ألا يطوف بالبيت عرُيان .

مجمل المعنى

١ — يا بنى آدم ، قد رزقناكم ما تستطيعون أن تستروا به عوراتكم عن أعينكم وأعين غيركم ، ورزقناكم ما تمتعون به أنفسكم ، من مال وخِصب ورَفَه ، فلا تكشفوا عوراتكم ، ولا تحرموا أنفسكم ما يسرّ الله لكم من المتَع الحلال ، وخير المتع أن تستشعروا نفوسكم تقوى الله ، فتنتهوا عما نهى عنه ، وتأتمروا بما أمر به ، وأن تكونوا به مؤمنين ، وبما أمرّ به عاملين ، وإياه خائفين ، وله مراقبين ، وهذه الأشياء التى رزقكم الله إياها ، من العلامات الدالّة على قدرته ووحدانيته ، ذكرها لكم لتعتبروا وتتعظوا .

٢ — يا بنى آدم ، لا يخدعنكم الشيطان ، فتطيعوه بإبداء سوءاتكم للناس ، وطوافكم حول الكعبة عراةً ، كما خدع أبويكم آدمَ وحواءَ من قبل ، فأغراهما بالمعصية ، وزينها لهما ، حتى أكلا من الشجرة ، وخالفا ربهما وانكشفت عورتاهما ، فأُخرجا من الجنة بعد أن نزع الله عنهما لباسهما ، لخروجهما عن حدود الطاعة التى رسمها الله لهما ؛ وإن إبليس الخادع الماكر ، يراكم ويطلع عليكم هو وأعوانه من جنسه ، وأنتم لا ترونه ولا ترون أعوانه ، فاحذروا وسوسته ، وإبليس وأعوانه أنصار للكفار ، الذين لا يوحّدون الله ، ويعصونه ، ولا يعترفون بألوهيته ، ويكذبون أنبياءه .

٣ — وهؤلاء الذين يطوفون بالبيت عراة ، حينما تنهاهم عن ذلك ، يقولون : كذلك كان آباؤنا يفعلون ، ونحن مقتدون بهم ، وهؤلاء الذين يفعلون المنكر يدّعون أن الله أمرهم بهذا ، فهم لذلك لا يخالفون أمر الله ، فأخبر الله نبيه أنه لا يأمر عباده بفعل القبائح ، وينكر عليهم أشد الإنكار أنهم ينسبون إلى الله ما لم يأمر به ، أيختلقون على الله ما لا يعلمون أنه أمر به ؟

٤ — ويأمر الله نبيه أن يقول لهم : إن ربى أمر بالعدل ، وأمرَ أن يوجه الناس وجوههم عند صلاتهم إلى الكعبة ، وأن يجعلوا قيامهم وسجودهم وركوعهم خالصاً لله دون غيره ، وأن تكون الطاعة لله ، لا لصنم ولا لوثن ، وإن الناس جميعاً سيبعثون يوم القيامة ، وعلى الوضع الذى كانوا فيه فى الدنيا ، يكونون فى الآخرة .

٥ — فسعيد الدنيا بالإيمان والطاعة ، والعبادة والإخلاص لله ، سعيد فى الآخرة ، والشقىُّ فى الدنيا بالكفر والشرك بالله ، وارتكاب المعاصى ، شقىٌّ فى الآخرة ؛ وهكذا تبعث كلُّ نفس على ما كانت عليه ، وكذلك الذى قدَر على خلقكم ابتداء من العدم ، وجعل منكم أشقياء وسعداء ، يقدر على إعادتكم حين البعث ، ويجعل منكم أشقياء وسعداء ، والأشقياء الذين ضلوا ، هم الذين ركنوا إلى الشياطين ، واتخذوهم أنصاراً لهم ، ولم يستمعوا لنصيحة الناصحين ، ظانين أنهم على هدى ، وأن غيرهم على ضلال .

(٥)

من الآية ٣١ إلى الآية ٣٤ من سورة الأعراف

يَا بَنِي آدَمَ ، خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ –١– . قُلْ : مَنْ
حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟
قُلْ : هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ –٢– . قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ
رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ
تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ –٣– . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ –٤– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
خذوا زينتكم	البسوا ملابسكم التى تستركم ، والتى تتزينون بها .
عند كل مسجد	كلما صليتم .
ولا تُسرِفوا	ولا تتجاوزوا حد الاعتدال .
زينة الله	كل ما يتجمل به الإنسان حلالا ، من ثياب وطيب وغير ذلك .
أخرج لعباده	هيأ لهم أصولها ، وأباحها لهم .
والطيبات من الرزق	والمستلذات من المأكل والمشرب ، التى جعلها الله حلالا .
هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا	هى للمؤمنين ، يتمتعون بها مع غير المؤمنين فى الحياة الدنيا .
خالصة يوم القيامة	وهى يوم القيامة تكون خالصة للمؤمنين فى الجنة ، لا يشاركهم فيها غير المؤمنين .
نفصّل الآيات	نميز الحلال من الحرام .
يعلمون	يؤمنون بعلمهم أن الله واحد لا شريك له .
الفواحش	الأمور التى يزيد قبحها ، فيحرّمها الله .
ما ظهر منها وما بطن	العلن منها والسر ، والجهر والخفىّ .
والإثم	وكل عمل يذنب صاحبه .
والبغى بغير الحق	والظلم والكبر ، والاعتداء على الناس بغير وجه حق .
سلطاناً	حجة وبرهاناً .
وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون	وأن تفتروا على الله ما لم يأمر به من تحريم وتحليل .
أجل	وقت معين .

مجمل المعنى

١ — لما كان بعض القبائل يطوفون بالبيت عراة كما قدمنا ، نهاهم الله عن ذلك ، وأمرهم أن يلبسوا ما يستر عوراتهم ، عند الذهاب إلى المسجد ، وعند الطواف ، وألا يبالغوا فى التقشف عند الأكل والشرب ، بل لهم أن يأكلوا ما أحل الله ، وأن يشربوا ما أحل الله ، بحيث لا يكون فى أكلهم وشربهم إسراف ولا مَخيلة ولا زَهوٌ ، فلا يحاولون الافتخار والزهو على غيرهم من فقراء المسلمين ، والذين يُسْرِفون فى لباسهم وطعامهم وشرابهم ، لا يحبهم الله ؛ وفى النهى عن الإسراف فى الطعام والشراب ، دعوة إلى مراعاةِ قواعد الصحة العامة ، التى يدعو إليها الطب الحديث ، وحث على أن يتعاون الأغنياء مع الفقراء ، فيمدوهم بما زادعلى حاجتهم ، ويكفى من الأكل ما يسد الجوع ، ومن الشراب ما يطفىء الظمأ ، وتختلف الكميات باختلاف الجو والسن والوقت ونوع الطعام ؛ وإذا حمّلت جسمك من الأكل فوق طاقته ، أتخمت المعدة ، وعسُر الهضم ، وأصابك المرض ، واحتجت إلى العلاج ، وكان أول العلاج أن تحرم نفسك الطعام الذى أساء إليها ؛ وإن من الإسراف أن تأكل ما تشتهى ، وأن تأكل بعد أن تشبع ، وفى جوارك جياعٌ لا يجدون ما يمسك الرمق ، وأن تأكل حرَاماً ؛ وإن من الإسراف أيضاً أن تبالغ فى حرمان نفسك ما يقيم أوَدَك ، وما تستطيع أن تأكله فى حدود طاقتك المادّية ، وجسمك محتاج إليه ، وأن تحرّم على نفسك ما لم يحرمه الله عليها .

٢ — هؤلاء الذين يحرّمون على أنفسهم طيبات ما أحل الله لهم ، هم الذين حرّموها ، ولكن الله لم يحرّمها ، فإن من المباحات التزيُّن بالملبس الجميل ، متى

كان ذلك فى حدود طاقة اللابس؛ والمسلم يتجمل عند الذهاب إلى المسجد، ويتجمل عند التزاور، ويلبس فى الشتاء لباسه الملائم له، وفى الصيف لباسه اللائق به، مراعياً فى ذلك قُدْرته، ومفرّقاً بين التجمل والتبرج، ففى التجمل وقار وكمال، وفى التبرج ميوعة وتخنث، وقد لبس بعض أئمتنا أكسية الخزّ المصرّية المصبوغة، والثياب العدَنية الجياد، كما لبسوا الثوب بدينار، وبخمسين ديناراً؛ وأما الطيبات من الرزق، التى لم يحرّمها الله، فهى التى تطيب كسْباً، وتطيب طعماً، وتطيب ديناً، فيأتى بها صاحبها بعرَقِ جبينه، ومن طريقٍ حلال، وتكون مستلذة، فالطعام الذى يجمع هذه الصفات، هو الذى وصفه الله تعالى بأنه «الطيبات من الرزق»، وهذا النوع من الطعام لم يحرّمه الله على الناس، فكيف يحرّمه الناس على أنفسهم؟ ولنا أسْوَة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه ما امتنع عن طعام من أجل طيبه قط، فقد أكل الحَلْوَى والعسل، والبطيخ والرُّطب، ولكنه كان يكره المبالغة والتكلّف والمداومة، وشُغْلَ النفس بما يشبع البطن؛ وإن هذه الأشياء مباحة فى الدنيا للمؤمنين، ويشاركهم فيها غيرهم من الكافرين، أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين دون سواهم، وبمثل هذا التفصيل الذى فصّله الله فى الحلال والحرام، يفصّل الله آياته، ودلائله وحججه، للذين يعلمونها، ويفهمون مدلولها.

٣ — قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من ثيابهم عند الطواف، والذين يعيّرون المسلمين أنهم يطوفون بزينتهم: إن الله هو الذى يضع الحدود، ويبين الحلال والحرام، فهو الذى أحل لنا الطيبات من الرزق، وهو الذى أحل لنا أن نتمتع بما نلبس، وهو كذلك الذى يحرّم علينا ما يكون حراماً، ومما حرّمه: —

ا — قبائح الأشياء وفواحشها، المرتكب منها علنّاً ، والمرتكب منها سرّاً، والمعصية .

ب — والاستطالة على الناس، والاعتداء عليهم ، وأخذ ما لهم من غير حق.

ح — والإشراك بالله، أى عبادة إله غيره معه أو من دونه، ممن لم يجعل الله لكم حجة ولا برهاناً على جواز إشراكها مع الله فى العبادة .

د — وأن تفتروا على الله أموراً: فتحلّلوا وتحرّموا ، وتبيحوا وتمنعوا ، على حسب ما تريدون، وتقولوا : إن الله هو الذى حلّل ، أو هو الذى حرّم ، أو هو الذى أباح ، من غير أن تعلموا شيئاً مما نسبتم أمر تحليله وتحريمه إلى الله .

٤ — كل جماعة من الناس لهم أجل محدود ينتهون عنده ، سواء أكانوا على كفر، أم كانوا على إيمان ، ومتى جاء الأجل تنتهى حياتهم على ظهر الأرض ، فلا تأخير ولا تقديم ، وبعد ذلك يحاسب كل إنسان على عمله فى الآخرة ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر .

(٦)

من الآية ٣٥ إلى الآية ٣٩ من سورة الأعراف

يَا بَنِي آدَمَ ، إمّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ، فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ ، فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ —١— وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ، أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ —٢— . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ أُولئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ، حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ، قَالُوا : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ —٣— . قَالَ : ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ، قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ : رَبَّنَا هٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ، فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ؛ قَالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ ، وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ —٤— . وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ : فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إما يأتينكم رسل	إن يُرْسَل إليكم أنبياء ، أدغمت إن الشرطية في ما : الزائدة .
يقصُّون عليكم آياتى	يقرءون عليكم الكتب التى أنزلها إليكم .
فمن اتقى	فمن آمن برسلى ، وخاف عذابى ، ووحدنى ولم يشرك بى .
وأصلح	وعمل عملا صالحاً .
فلا خوف عليهم	فلا يصيبهم ما يسبب لهم خوفاً فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .
واستكبروا عنها	وعظم عليهم أن يؤمنوا بها .
فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً	ليس أحد أخطأ فعلا ، وأكذب قولا ، من الذين ينسبون إلى الله ما لم يأمر به ، أو لم ينه عنه .
أو كذَّب بآياته	أولم يصدق ما قاله ، أو أوّله تأويلا لم يُرده .
ينالهم نصيبهم من الكتاب	ينالهم ما كُتب لهم فى الدنيا من رزق ضيق أو واسع ، وعمر طويل أو قصير ، وما قُدِّرَ لهم فى الآخرة من عذاب أو ثواب .
جاءتهم رسلنا	جاءهم ملك الموت وأعوانه .
يتوفَّوْنهم	يقبضون أرواحهم .
أين ما كنتم تدْعون	أين الذين كنتم تزعمون أنهم آلهة تعبدونها ؟
ضلُّوا عنا	غابوا عنا ، فليسوا أمامنا الآن .

الألفاظ	شرحها
وشهدوا على أنفسهم	واعترفوا على أنفسهم .
ادخلوا فى أمم قد خلَتْ من قبلكم	ادخلوا جهنم مع أمم قد مضت قبلكم .
من الجن والإنس	من كفار الجن والإنس .
لعنت أختها	لعنت سابقتها التى كانت على مثل دينها ، لأنها أغْوَتْها .
ادّاركوا فيها	تتابعوا ولحق بعضهم بعضاً ، واجتمعوا فيها .
قالت أخراهم لأولاهم	قال عامتهم لسادتهم وأشرافهم ، وأواخرهم لأوائلهم .
ضِعفاً	مضاعفاً .
لكل ضعف	العذاب مضاعف للدهماء : لكفرهم وتقليدهم ، وللأشراف : لضلالهم وإضلالهم ، وللأوائل والأواخر على السواء .
لا تعلمون	لا يعلم كل فريق ما يقع على الآخر .
ما كان لكم علينا من فضل	ليس للعامّة فضل على الخاصّة عند الله ، فيخفف العذاب عنهم .
بما كنتم تكسبون	بسبب كسبكم الكفر .

مجمل المعنى

١ — يطلع الله عباده الطائعين والعاصين على ما يكون لهم أو عليهم فى الآخرة ، فيقول : يا بنى آدم ، إن يأت لكم رسُلٌ أرسلهم إليكم ، وهؤلاء الرسل من جنسكم ، فهم آدميون مثلكم ، وهم من قبيلتكم وعشيرتكم ، يتكلمون

بلسانكم ، ويعرفون أخلاقكم ، وعاداتكم وطباعكم ، هؤلاء الرسل حينما يأتون إليكم أطيعوهم ، وائتمروا بما يأمركم الله على لسانهم ، وانتهوا عما ينهاكم الله عنه على لسانهم ، ومن يفعل ذلك ، ويتق الله ، ويصلح عمله الذى أفسده ، ويعمل بما يأتيه به رسولى ، فلا خوف عليهم من عذاب الله يوم القيامة ، ولن يحزنوا على ما فاتهم فى الدنيا ، لأنهم سيجدون فى الجنة خيراً منه .

٢ — وأما الذين يكذبون رسلى ، ولا يستمعون لهم ، ويظلون على عنادهم واستكبارهم ، وكفرهم والإشراك بربهم ، فهم الذين سيخلَّدون فى نار جهنم ، ولا يخرجون منها أبداً ، لخروجهم عن طاعتى .

٣ — ذلك لأنه ليس أحد أظلم من الذين ينسبون إلى الله — كذباً عليه — ما لم يأمر به ، أو ينْهَ عنه ، فهؤلاء أخطأ الناس أفعالا ، وأكذبهم أقوالا ، وأبعدهم عن الحق ، وأتاهم عن الصواب ، وهؤلاء الناس ينالهم نصيبهم المكتوب لهم ، والمقدَّر لهم فى الدنيا من الشقاء ، ومن الرزق الواسع أو الضيِّق ، ومن العمر الطويل أو القصير المكتوب لهم ! وفى الآخرة ينالهم العذاب ، بسبب ما افتروا على الله من الكذب ! ويظل هؤلاء الناس على ضلالهم فى الدنيا ، إلى أن يأتى مَلَك الموت وجنوده لقبض أرواحهم ، بعد استيفاء مُدَد حياتهم ، فيقول لهم ملك الموت وجنوده مُبَكتاً لهم ، زارياً عليهم : أين آلهتكم التى كنتم تعبدونها من دون الله ؟ لِمَ لَمْ تأت معكم لتنفعكم ، وتدفع عنكم ، فيقولون : حادوا عنا ، واتخذوا طريقاً غير طريقنا ، وتركونا فى وقت ضيقنا ، ولم ينصرونا كما كنا نظن ، وقولهم هذا شهادة منهم على أنفسهم ، بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا ، منكرين لوحدانية الله ، مكذبين لرسل الله .

٤ — يقول الله لهؤلاء الكافرين الذين افتروا عليه الكذب يوم القيامة : —

أدخلوا أيها الكافرون جهنم ، وأنتم واجدون فيها أحزاباً غيركم من الجن والإنس سبقوكم إليها ، لأنهم افتروا على الله مثل افترائكم ، وكذّبوا مثل كذبكم ، وحينما تدخل الأمة المتأخرة ، وترى الأمة المتقدمة من أهل دينها وملّتها ، تلعنها وتسبها، وتتبرأ منها ، فيلعن المشركون المشركين ، واليهود اليهود ، والنصارى النصارى ، والصابئون الصابئين ، والمجوس المجوس ، والعُصاة العصاة ، حتى إذا اجتمع أصحاب هذه الأديان جميعاً فى النار : أوائلهم وأواخرهم ، وأشرافهم ودهماؤهم ، قال الأواخر وهم العامّة الذين يعتقدون أن أوائلهم أضلوّهم ، لأنهم كانوا أئمتهم فى الكفر والضلال : — يا ربّنا ، إن رؤساءنا وأشرافنا وسادتنا ، هم الذين أغوَوْنا وأضلونا ، وغمسونا فى حمأة الكفر والضلال ، يا ربنا ، هؤلاء الذين سبقونا إلى الكفر والضلال ، هم السبب فى غوايتنا وضلالنا ، فعذّبهم ضعفَ ما تعذبنا ، فيقول الله لهم : لكلّ من الأوائل والأواخر ، والتابعين والمتبوعين ، عذاب مضاعف ، ولكنكم يأهل النار لا تعلمون مقدار ما أعد الله لكم من عذاب .

٥ — وتقول الفئة المتقدمة للفئة المتأخرة ، ويقول أشراف الأمة لعامتها : — قد رأيتم ما حل بنا ، وقد سبقناكم ، وقد جاءت الأنبياء لنا ولكم ، فلم تتعظوا بهم ، ولم تؤمنوا برسالتهم ، ولم نمنعكم من الإيمان ، ولم ننهكم عن طاعة الله ، ولم تُقْلعوا عن غيّكم ، وما أرغمناكم على الاقتداء بنا ، أو تقليدنا ، فلا فضلَ لكم علينا بالاعتبار والإيمان والتصديق ، فيقول الله لهم : ذوقوا جميعاً أيها الكفرة عذابَ جهنم ، لا فرق بين متقدم ومتأخر ، ولا بين سيِّد ومسود .

(٧)

من الآية ٤٠ إلى الآية ٤٣ من سورة الأعراف

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ، لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ —١— . لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ —٢— . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ —٣— . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا : أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ ، أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ —٤— .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
لا يقبل الله دعاءَهم، بطلب المغفرة، فيدخلوا الجنة .	لا تفتَّح لهم أبواب السماء
حتى يدخل البعير فى ثقب الإبرة ، وهو أمر مستحيل حصوله، والمعنى : لا يدخلون الجنة أبداً .	حتى يلج الجمل فى سم الخياط
الكافرين الذين كذبوا واستكبروا .	المجرمين
فراش .	مهاد
أغطية ، والمفرد : غاشية .	غواشٍ
الذين ظلموا أنفسهم بالعناد والاستكبار والكفر .	الظالمين
طاقتها ، وقوة احتمالها على المشقة .	وُسْعها
وأزلنا ما فى قلوبهم من حقد .	ونزعنا ما فى صدورهم من غل
وفقّنا للإيمان الذى دخلنا بسببه الجنة .	هدانا لهذا
أعطيتموها ومنحتموها .	أورِثْتُموها
بسبب ما قدمتم من عمل صالح فى الدنيا .	بما كنتم تعلمون

مجمل المعنى

١ — إن الذين كذبوا بحجج الله وآياته ، ولم يقتنعوا بالأدلة القاطعة بصدق رسله ، وصواب ما حملوه إلى أممهم ، وتكبّروا عن التصديق بها ، هؤلاء لا تفتح أبواب الرحمة لهم بعد موتهم ، ولا ترفع إلى الله أعمالهم ، لأنها كلها أعمال خبيثة ، ولا يرفع إلى الله إلا العمل الصالح ، والكَلِمُ الطيِّب ، ولا ترفع إلى الله أدعيتهم ، لأنها ليست من قلوب مؤمنة صافية ، وهؤلاء الكاذبون

المكذبون المستكبرون لا يدخلون الجنة أبداً ، كما لا يدخل الجمل فى ثقب الإبرة أبداً .

٢ — وهؤلاء المكذبون ، لهم من نار جهنم فُرُش من تحتهم ، وأغطيةٌ من فوقهم ، فتحيط بهم النار كيفما يكونوا ، وبمثل هذا العذاب يجازى الله كل من يظلم نفسه ، ويعصى ربه ورسله .

٣ — والذين آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ، وعملوا بما جاء على أيديهم من شرائع ، مكلِّفين أنفسهم ما تستطيع من عمل ، هم أهل الجنة الذين يدخلونها ، ويمكثون فيها مكثاً دائماً ، فلا يخرجون منها ، ولا يحرمون نعيمها .

٤ — وهؤلاء المؤمنون ليسوا كالكافرين ، تعتدى كل طائفة على طائفة أخرى ، ويحقد أهل الطائفة الواحدة بعضهم على بعض ، ولكنهم يحب بعضهم بعضاً ، قد نزع الله من قلوبهم غريزة الحقد والعداوة والبغضاء ، فى الدنيا والآخرة ، فهم فى الدنيا ينصر بعضهم بعضاً ، وفى الآخرة يجلسون على سرر متقابلين ، فلا حسَد ولا حقد ، وإنما هو النعيم فى أرقى صُوَرِه ، وأشهى ألوانه ، أدّاهم إليه هداية الله ، الذى لا يملك أحد غيره هدايتهم ، ولذلك نراهم يحمدونه على ماحباهم من الهداية والرشاد ، وعلى ما وفّقهم إلى العمل الصالح ؛ وحينما يرون ذلك النعيم الذى هم فيه ، والبؤس والشقاء الذى فيه أهل جهنم ، يقسمون أن رسل الله ما جاءتهم إلا بالحقّ ، حينما دعتهم إلى الإيمان بالله وتوحيده ، وحينما أبلغوهم أن الله وعد المؤمنين الجنة ، وأوعد الكافرين النار ، إذ ذاك يسمع المؤمنون الذين دخلوا الجنة منادياً ينادى : يا هؤلاء ، تلك هى الجنة التى وعدكم بها رسلى فى الدنيا ، وبشّروكم بها ، جعلها الله ميراثاً حقّاً لكم دون غيركم ، بسبب إيمانكم وتوحيدكم ، وتقديمكم الأعمال الصالحة فى الدنيا .

(٨)

من الآية ٤٤ إلى الآية ٥٣ من سورة الأعراف

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ : أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ : أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ -١- . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ -٢- . وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ : أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ -٣- . وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ، قَالُوا : رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ -٤- . وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، قَالُوا : مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ ، وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ -٥- . أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ : لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ -٦- .

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ : أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قَالُوا : إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى

الْكَافِرِينَ —٧— . الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا ، وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ —٨— . وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ —٩— . هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ، أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أصحاب الجنة	أهل الجنة .
أصحاب النار	أهل النار .
ما وعدنا ربنا	ما وعدنا من الثواب .
ما وعد ربكم	ما وعدكم ربكم من العقاب .
فأذّن مؤذّن	فنادى مناد .
يصُدون عن سبيل الله	يمنعون نشر دينه فى أنفسهم وفى غيرهم .

الألفاظ	شرحها
ويبغونها عوجاً	ويطلبون لسبيل الله وهى دينه النقص والاعوجاج ، حتى ينفر الناس منها .
بالآخرة	بالدار الآخرة .
وبينهما حجاب	وبين أهل الجنة وأهل النار سُورٌ يحجب بعضهم عن بعض .
الأعراف	أعالى السور الذى بين الجنة والنار .
رجال	طائفة من الذين لا يستحقون العذاب فى النار .
يعرفون كلا بسيماهم	يميزون بين أهل الجنة وأهل النار ، بعلاماتهم التى يعرفونها .
وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار	وإذا وجهت أنظارهم جهة أهل جهنم .
رجالا يعرفونهم بسيماهم	رجالا من الكفار ، يعرفونهم بعلامات خاصة يميزون بها .
ما أغنى عنكم جمعكم	ما أفادكم جمعكم المال والرجال .
وما كنتم تستكبرون	واستكباركم على دين الله ورسل الله .
لا ينالهم الله برحمة	لا يمنحهم الله رحمته .
أفيضوا علينا من الماء	تفضلوا علينا بماء نشربه .
أو مما رزقكم الله	أو من أى شراب آخر ، أو مما تطعمون من فاكهة وغيرها .
اتخذوا دينهم لهواً ولعباً	أحلوا ما يشاءون ، وحرّموا ما يشاءون ، على حسب هواهم ولهوهم ولعبهم .

الألفاظ	شرحها
وغرتهم الحياة الدنيا	وخدعتهم الحياة الدنيا بطول الأجل ، والتوسعة فى الرزق ، والبسطة فى السلطان .
ننساهم	نتركهم فى العذاب .
يجحدون	ينكرون .
فصلناه على علم	ميزنا فى القرآن حلاله من حرامه ، وبيّنا فيه أصول التشريع على علم منا .
هل ينظرون إلا تأويله	لا ينتظرون إلا ما يؤول إليه الأمر ، وتؤدى إليه النتيجة .
نسوه	تركوه وأعرضوا عنه .
فهل لنا من شفعاء	نتمنى أن يكون لنا من يشفع عند الله ليعفو عنا ، أو ليردنا إلى الدنيا فنؤمن .
ما كانوا يفترون	ما كانوا يعبدون من دون الله ، كالأصنام وغيرها .

مجمل المعنى

١ — ينادى أهل الجنة أهل النار يوم القيامة ، فيقولون : يأهل النار ، إنا وجدنا ما وعدَنا الله فى الدنيا على لسان رسوله حقّاً وصدقاً ، فقد أثابنا على إيماننا وتوحيدنا ، وعبادتنا وطاعتنا ، ثم يبكتونهم ويقولون : فهل وجدتم أنتم أيضاً ما وعدكم ربكم على لسان رسوله حقّاً وصدقاً ، بأن جازاكم على كفركم وإشراككم ، واستكباركم وعصيانكم ؟ فيجيب أهل النار : نعم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً ، هنالك ينادى مناد : لعنةُ الله وسخطه وعذابه على الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به .

٢ – وهذه اللعنة يصبُها على الذين كفروا بالله ، وحاولوا أن يمنعوا الناس من الدخول فى دين الله ، وحاولوا أن يغيروا ويبدلوا فيه ، ليجعلوا من استقامته عوَجاً ، ومن جَماله قُبحاً ، ومن حلاوته مرارة ، ليكون سبيل غَواية ، لا سبيل هداية ، وليكون طريق الشيطان ، لا طريق الرحمن . وهؤلاء هم منكرو البعث والثواب ، والحساب والعقاب .

٣ – والله سبحانه وتعالى جعل بين الجنة والنار حجاباً حاجزاً ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبَله العذاب ، ويقف فى أعلى ذلك السور جماعة من الناس ، يُشرفون على أهل النار من جهة ، ويشرفون على أهل الجنة من جهة أخرى ، وهؤلاء الجماعة هم ناس لم ترجحْ سيئاتهم حسناتهم ، ولم ترجح حسناتهم سيئاتهم ، فتجاوزتْ بهم حسنا تُهم النار ، وقصرَت بهم سيئا تُهم عن الجنة ، فلم يُبت فى أمرهم ابتداء ، ليكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار ، وبعد حين من الوقت يغفر الله لهم ، ويدخلهم الجنة ، بعد أن يَرَوُا العذاب بأعينهم ؛ هؤلاء الناس الواقفون على الأعراف ، يعرفون أهل الجنة بعلاماتهم ، ويعرفون أهل النار بعلاماتهم ، فإذا رأوْا أهل الجنة نادوهم يحيُّونهم : سلام عليكم ، نزلتم ساحة الله ، وأمنتم عقابه ، وتمتعتم بثوابه ، وهم إذ يقولون هذا لأهل الجنة ، يتمنون لو عجل الله بنعمته عليهم ، وأدخلهم معهم .

٤ – فإذا اتجهت أبصارهم نحو أهل النار ، أفزعهمْ ماهم فيه من هَوْل ، وما يقاسونه من عذاب ، فسألوا الله ألا يجعلهم مع هؤلاء الناس الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ، فاستحقوا سخط الله وعذابه .

٥ – وأصحاب الأعراف هؤلاء ، ينادون أيضاً رجالا فى جهنم ، يعرفونهم بعلامات تميزهم ، فيقولون لهم مبكتّين شامتين : ماذا أفادكم جمع المال والحرص

عليه ؟ ماذا أفادكم تكثير عددكم وافتخاركم ؟ ماذا أفادكم استكباركم وزهوكم ؟ إن ذلك لم يفدكم شيئاً ، ولكنه أضرّبكم ، فساء مصيركم .

٦ — يقولون هذا ، ويزيدون عليه : أهؤلاء الذين حلفتم فى الدنيا أنهم لن تنالهم رحمة الله ، لقد حنثتم فى يمينكم ، وبرّ الله بوعده لهم ، بقوله لهم : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ، ولا حزنٌ يصيبكم ، فأنتم فى أمان دائم ، وسرور مقيم .

٧ — ويخبرنا الله تعالى أن أهل النار يستغيثون بأهل الجنة ، بعد أن يجف ريقهم ، وتنشق حلوقهم ، وتئط أمعاؤهم ، وتصيح عصافير بطونهم ، يطلبون منهم أن يسقوهم شربة ماء ، أو أن يُطعموهم شيئاً مماعندهم ، فيجيبهم أهل أهل الجنة : — إن الله حرم الماء والطعام عليكم ، جزاء ما فعلتم فى الدنيا ، وجزاء ما حرمتم المحتاجين فضلَ ما لكم ؛ وهذا تصوير لما يكون عليه الكفار من الشدة والحرمان فى جهنم .

٨ — ويستمر أهل الجنة فى إجابتهم لأهل النار : إن الله حرم على الكافرين الماء والطعام ، لأنهم اتخذوا دينهم الذى أمرهم الله به لهواً ولعباً ، وسخرية وهزُواً ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وخدعهم ماهم فيه من نعيم زائل ، ففى يوم القيامة يتركهم الله فى العذاب مقيمين مخلدين ، عطاشاً جياعاً ، كما تركوا العمل فى الدنيا لهذا اليوم ، ورفضوا أن يستعدوا له بالعمل الصالح ، ورياضة الجسم والنفس ، وظلوا على كفرهم ، إلى أن خرجوا من الدنيا .

٩ — وهؤلاء جاءهم الله بالقرآن ، وأنزله مفصّلا مبيّناً متفرقاً على حسب الحوادث ، لتكون العبرة به أوقع ، وأحكمه إحكاماً ، وبيّنه تبييناً يدركه من يتدبره ، ويتفهم معانيه وأغراضه ، وجعله هادياً ، ومرشداً ، وذا رحمة واسعة ، لمن يعملون بما جاء فيه ، لأنه ينقذهم من الضلال ، وهم المؤمنون .

١٠ — هل ينتظر الكفار إلا تحقيق ما وعدوا به فى القرآن من بعثهم ومحاسبتهم ، ثم مجازاتهم وعقابهم على عنادهم وكفرهم ، وحينما يجىء اليوم الذى يتحقق فيه ما وعدوا به على ألسنة الرسل ، يقول هؤلاء الذين تركوا العمل بما جاء فيه ، بعد أن يتنبهوا من غفلتهم : إن ما جاءت به رسل الله من البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، حق ، ويتمنون أن يكون لهم شفعاء يشفعون لهم عند الله ، ليعفو عنهم ، أو ليردهم إلى الحياة الدنيا ليؤمنوا ، ويحسن إيمانهم ، ليكون مصيرهم إلى الجنة ، ولكنهم لن يجابوا إلى ما يتمنون ، فقد فات الأوان ، وخسروا أنفسهم بما فعلوا ، وخسروا نعيم الجنة بكفرهم وعنادهم ، وثبت عندهم أن ما كانوا يزعمون من أن مع الله إلهاً آخر باطل ، ومحض افتراء وضلال .

(٩)

من الآية ٥٤ إلى الآية ٥٨ من سورة الأعراف

إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ استوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ –١– . أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ –٢– وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ –٣– . وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ، سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ، فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى ، لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ –٤– . وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ –٥– .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
استولى .	استوى
يجعل الله الليل بظلامه كالغشاء للنهار، فيذهب نوره .	يُغْشِي الليل والنهار
يَعقبه مسرعاً من غير فتور ، لا يفصل بينهما شيء .	يطلبه حثيثاً
مذلّلات ومهيآت.	مسخّراتٍ
هو الذى خلق الأشياء كلها ، وله أمر تكوينها وإبداعها .	له الخلق والأمر
كثر خيره ، وزاد بره ، وعمت بركته ، وثبتت نعمته .	تبارك الله
ضارعين متذللين فى خفاء، بعيدين عن كل رياء .	تضرعاً وخفية
إنه لا يحب الذين يجاوزون حدودهم فى كل ما أمر به .	إنه لا يحب المعتدين
لا تعودوا إلى الإفساد بعد الإصلاح ، كالشرك بعد التوحيد ، والمعصية بعد الطاعة ، والظلم بعد العدل .	ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها
خائفين عذابه ، طامعين فى القبول ، وفى الهداية التى تؤدى إلى الجنة .	خوفاً وطمعاً
مبشرات قبل حدوث نعمته ، وهى المطر .	بُشراً بين يدى رحمته

الألفاظ	شرحها
أقلّتْ	حملت .
سحاباً ثقالا	سحاباً اشتد تكاثفه .
سُقناه لبلد ميت	دفعناه إلى بلد ليس فيه ماء ولا حياة .
كذلك نُخْرِج الموتى	مثل إخراج النبات من الأرض ، نخرج الموتى من قبورهم يوم البعث .
لعلكم تذكرون	لعلكم تتعظون فتؤمنوا بالبعث بعد الموت .
والبلدُ الطيّبُ	والأرض الخصبة ، وهو مثل للمؤمن .
بإذن ربه	بتيسير الله وقدرته .
والذى خبث	والبلد الخبيث ذو الأرض القاحلة ، وهو مثل للكافر .
لا يخرج إلا نكداً	لا يُخرج إلا نباتاً عسراً بمشقة ، أو لا خير فيه ، ولا غَناء به .
كذلك نصرّف الآيات	كما بيّنا الحجج والدلالات فى إبطال الشرك؛ نبيّن الآيات الدالة على قدرتنا ، ونرددها ، ونكررها .
لقوم يشكرون	لناس ينظرون ويتأملون ، فيتعظون فيؤمنون ويشكرون

مجمل المعنى

١ — الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يقدر على الإنشاء والإبداع ، وهو وحده الذى يقدر على الإعادة والبعث ، فلا قادر غيره ، ولا يجوز أن يكون هناك معبود سواه ، ومن دلائل قدرته : أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وليس المراد أياماً بذاتها ، ولكنه يريد أنه لم يخلقها دفعة

واحدة ، أو فى لحظة واحدة ، مع قدرته على ذلك ، ولكنه خلقها فى ستة أوقات ، وأخبرنا سبحانه وتعالى هذا ، لنتعلم الرفق والهوادة ، ونتجنب العجلة ، ونتعود التثبت فى الأمور ، والدِّقة والإتقان فيما نعمل ، وبعد خلق الله السموات والأرض فى فترة من الزمن ، استمكن من التصرف فيهما استمكاناً لا يقدر عليه أحد غيره ، ولا يشاركه فيه مشارك ، فهو الواحد القادر ، ومن دلائل قدرته تعالى : أنه يجعل ظلام الليل يخفى ضوء النهار وقْتاً ما ، ثم يزول الغشاء ، ويظهر الضوء ، ويجىء النهار ، عقب زوال الليل ، وهكذا دواليْك : ليل ونهار ، وظلام وضياء ، على نظام ثابت مستمر ، لتستقيم أمور الحياة ، فالليل للسكون والراحة ، والنهار للحركة والعمل ، وإن وجد غير ذلك ، فتحرَّك ناس فى الليل ، وسكنوا فى النهار ، لأن طبيعة عملهم تتطلب هذا ، فإنه يكون قليلا ، وغير جار على النظام الطبيعى ، وهو النظام الذى يسير عليه معظم الناس فى ركبِ الحياة ؛ وليست قدرة الله تعالى مقصورة على خلق السموات والأرض ، واستمكانه من التصرف فيهما ، وتعاقب الليل والنهار تعاقباً مطَّرِداً ، بل إن الشمس والقمر ، وإن ما هو فوق الشمس والقمر من جميع العوالم ، التى أثبت علم الفلك الحديث وجودها ، وأثبت أن كثيراً منها أكبر من عالمنا الذى نحن فيه ، بحيوانه ونباته وجماده ، وإنسه وجنه وملائكته ، إن هذه العوالم كلها التى لا يحصيها عدّ ، دليل على قدرة الله ووحدانيته ، سبحانه وتعالى ، وإذ كان الله هو الذى خلق تلك العوالم ، فهو الذى يدبّرها وينظمها على مشيئته ، وبإرادته ونفوذ أمره ، تنزه سبحانه ، وشملت بركته المؤمنين من خلقه ، فهو رب العوالم كلها ، ما نعرفه منها وما لا نعرفه .

٢ — يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتضرع إليه ، ونخضع له ، ونذل لقدرته ، ندعوه فى السر والجهر ، ونتجه بقلوبنا ونفوسنا إليه ، ونذكره فى خفاء ، بعيدين عن كل رياء ، فهو سميع قريب ، لا يحب الذين يتجاوزون حدودهم فى الدعاء بالجهر العالى ، والصياح المزعج ، وطلب غير المعقول أو المُحال ، أو الاستعانة بالله على عمل معصية ، أو التأنق فى أسلوب الدعاء ، بما يجعله كأساليب الكهَّان .

٣ — ونهى الله عن أى إفساد بعد إصلاح ، ويدخل فى هذا : طَمْرُ عين الماء ، وتبديد ماء النهر ، وقَطْع الصدقة ، واستئصال الشجر المثمر لغير سبب ، والإخلال بالأمن ، وإغراء الحكام بالفساد ، والإهمال فى الواجب ، وإغواء الراشد ، وتخذيل الجيوش ، وإضلال الحاكم ، وإفساد الطوائف ، وشراء الذمم والضمائر ، وقبل هذا كله الإشراك بعد التوحيد ؛ وإن الإنسان ينبغى أن يكون فى حالة خوف من عذاب الله ، وطمع فى رحمة الله ، وأن يطلب منه الرحمة والمغفرة خوفاً من عذابه ، وطمعاً فى رحمته ، فإن الخوف والرجاء يدفعان إلى الاستقامة ، ويحملان على مراقبة الله ، وإن الخوف وحده يقتل ، وإن الطمع وحده يُفسد ، وعفو الله ورحمته وإحسانه فى متناول المحسن ، لا يخطئه ولا يبعد عنه .

٤ — تتكون الرياح بعوامل طبيعية معروفة مقررة ، خاضعة لعوامل الضغط الجوى ، ولمناطق الكرة الأرضية ، والبحار والصحارى ؛ ولاتجاهات الرياح بأنواعها ، وسرعتها وبطئها ، تأثير كبير على حياة الإنسان والحيوان والنبات ، لذا ذكرت مقرونة بالبحار والسحاب والمطر ، لأنها هى التى تحمل البخار ، وتصعد به إلى طبقات الجو العالية الباردة ، فينعقد ماء ، ويزداد تكاثفه ، فيعجز الهواء عن حمله ، فيسقط مطراً على نظام بديع ،

فهو يكثر هنا ، ويقل هناك ، وينزل هنا وينعدم هناك ، ويسقط هنا صيفاً، وهناك شتاء ، ويكون هنا سيلا، وهناك رذاذاً ، وهكذا ؛ ولذلك كانت الرياح مبشّرة بنزول المطر وكميته ؛ والسحاب الذى يشتد تكاثف مائه ، تدفعه الريح إلى بلد لا حياة فيه ، فيحيا بنزول المطر عليه ، فينبت النبات ، ويهاجر إليه الناس ، ويقيمون فيه ، ويتعهدون نباته ، فيجود ويزكو ، ويزهر ويثمر ؛ ومثل هذا الإحياء الذى أحياه الله للأرض الميتة ، يحيي الله الموتى يوم القيامة ؛ وقدرته على هذا تشبه قدرته على ذلك ، فتذكروا واعتبروا ، وآمنوا به يا أولى الأبصار .

٥ – كل شيء منه الطيب ، ومنه الخبيث ، فالتربة طيبة وخبيثة ، الطيّبة تنبت الطيّب ، ويجود نباتها ، وزهرها وثمرها ، والخبيثة تنبت الخبيث ، ويخبث نباتها وزهرها وثمرها ، والإنسان طيب وخبيث ، فالطيب طاهر القلب ، سريع الاستجابة إلى الحقّ ، صادق الإيمان ، والخبيث لئيم الطبع ، سيئ النية ، مريض القلب ، فاسد العقيدة ، شديد العناد والإصرار على الضلال والكفر ، وبمثل هذا يبين الله دلائله وحججه على صدق ما يبعث به رسله ، فيتعظ الشاكرون ؛ وكما أن التربة الطيبة والتربة الخبيثة تُسقى بماء واحد ، فيجود نبت هذه ويخبث نبت تلك ، كذلك النفس الطيبة والنفس الخبيثة ، يبعث الله لهما نبيًّا واحداً ، وينزل عليه كتاباً مفصلا فيه الحلال والحرام ، والخير والشر ، فتهتدى النفس الطيبة ، وتضل النفس الخبيثة .

(١٠)

من الآية ٥٩ إلى الآية ٦٤ من سورة الأعراف

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللَّهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ -١- . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قَالَ : يَا قَوْمِ ، لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ، وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَأَنْصَحُ لَكُمْ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ -٢- . أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ، وَلِتَتَّقُوا ، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ؟ -٣- . فَكَذَّبُوهُ ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يوم عظيم	يوم القيامة .
الملأ	السادة والأشراف والرؤساء .

الألفاظ	شرحها
فى ضلال مبين	فى بعد ظاهر عن طريق الصواب .
رسالات ربى	ما يوحى به إلىّ ربى .
أنصح لكم	أرشدكم إلى الطريق الذى يعود عليكم بالخير .
أوَ عجبتم	أسبقتم إلى التكذيب واستعجبتم ؟
ذكر	موعظة وعبرة .
على رجل منكم	على لسان رجل منكم .
لينذركم	ليخوفكم ، ويحذركم عاقبة كفركم .
ولتتقوا	ولتتأثروا بالتحذير فتخافوا الله .
ولعلكم ترحمون	ولترحموا إذا خفتم .
فى الفلك	فى السفينة .
عَمين	جاهلين عن الحق ، مطموساً على قلوبهم وبصائرهم

قصة نوح عليه السلام

١ — عكف قوم نوح على عبادة الأصنام ، واتخاذها آلهة من دون الله ، فاختار الله نوحاً من قومه ، وأرسله إليهم ليحذرهم وينذرهم ، إن بقُوا على ضلالهم ، فعزّ على أشراف قومه وأغنيائهم أن يطيعوه ، وأجمعوا على احتقاره ، هو ومن آمن به ، لأنهم من عامّة الناس ودهمائهم ، ولما حاول أن يقنعهم بصحة رسالته ، طلبوا إليه أن ينحّى عنه هؤلاء العامّة ، فرفض أن يجيبهم إلى ذلك ، لأن الدين يستوى فيه الغنىّ والفقير ، والشريف والوضيع ، وقد أرسله الله إليهم ليبلغهم رسالته ، غير طالب أجراً منهم ، ولا ساع وراء جاه أو مال ، وإنما أجره عند الله تعالى .

٢ — أصرّ قوم نوح على عنادهم ، ولم يتركوا عبادة الأصنام ، مع أنه تعب فى مناقشتهم ، وحاول إقناعهم بمختلف وسائل الترغيب والترهيب ،

والوعد والوعيد ، وإقامة الأدلة ، ولكن ذلك كله لم يزدهم إلا عناداً واستكباراً ، وإمعاناً فى العصيان ، وإيذاء له ، وتبرماً به ، وأنفة منه ، وتعجباً من أن يكون الرسول بشراً ، ثم يكون من سوقة الناس ، لا من سادتهم وأشرافهم ، ومن فقراء الناس ، لا من أغنيائهم ؛ ضاق نوح عليه السلام بقومه ذرعاً ، ويئس من إيمانهم به .

٣ — بعد أن طالت المدة التى دعاهم فيها إلى الإيمان بالله ، أمره الله تعالى بصنع سفينة ، فصنعها ، وكان الله أعلمه أمارة ، إذا وقعت وقع العذاب بقومه ، ونجا هو ومن آمن به ، بحملهم فى السفينة معه ، على أن يأخذ معه من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين ، وأن يترك زوجه وأحد أبنائه وهو كنعان، لأنهما لم يؤمنا به ، ففعل ، فوقعت العلامة، وهى هطول الأمطار من السماء ، وتفجر العيون من الأرض، فكان الطوفان ، فغرق القوم ، وطفت السفينة على سطح الماء ، ونجا نوح ومن معه .

٤ — استوت السفينة على الجودى، وهو جبل فى ديار بكر ، غربى نهر دجلة ، شمالى الموصل ، وخرج منها نوح ومن معه ، ونزلوا على الأرض ، وتناسلوا وكثروا ، وعمروها كما عمرها من قبلهم ، ومات نوح بعد أن مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

مجمل المعنى

١ — يؤكد الله سبحانه وتعالى أنه أرسل نوحاً عليه السلام ، فدعا قومه إلى عبادة الله وحده ، وعدم إشراك غيره معه فى العبادة ، وترك عبادة الأصنام ، وأقام لهم الأدلة والبراهين ، على أن الله واحد ، لا إله غيره ، وأنذرهم عذاباً شديداً يوم القيامة ، إن لم يصدقوه ، ويؤمنوا بما جاء به .

٢ — أما أشراف قومه ورؤساؤهم ، فإنهم أغلظوا له ، وأصرُّوا على كفرهم ، ورَموْه بالغواية والضلال ، ومجانبة الصواب ، فلامهم نوح ، ولاطفهم ، وَبيَّن لهم أنه ليس ضالاً ولا غاوياً ، وإنما هو رجل منهم ، أرسله الله رب العالمين جميعاً إليهم ، فهو ينفّذ أمر الله له بدعوتهم إلى الإيمان والتوحيد ، وليس إلا رسولا مبلّغاً ، وناصحاً أميناً ، يقدّم نصحه خالصاً من شوائب الغايات والخداع ، فليس يقصد إلا الخير ، وهو يعلم من الله ما لايعلمونه ، من أن عقابه شديد على الكافرين .

٣ — وكان من الأمور التى ضايقوه بها ، وكذبوه من أجلها — أنه بشر وليس مَلَكاً ، وأنه رجل من عامّة الناس ، وليس من أشرافهم ، وأنه من فقرائهم ، وليس من أغنيائهم ، فتعجب من ذلك كله ، وتعجب من عجبهم أن تأتيهم الهداية ، والموعظة الحسنة على يد رجل منهم ، يشعر بما يشعرون ، ويحسّ ما يحسون ، فجاء يخوفهم عاقبة كفرهم ، لعلهم يتأثرون فيخافوا ويعتبروا ويؤمنوا ، فيرحمهم الله بسبب ذلك الإيمان .

٤ — أصر هؤلاء الناس على كفرهم ، وتكذيبهم نبيهم ، فأنجاه الله هو والمؤمنين القليلين الذين آمنوا به ، بركوب السفينة التى صنعها بأمر الله ، وأغرق بالطوفان هؤلاء المكذبين المعاندين الجهلة ، الذين غطّى جهلهم على قلوبهم ، فلم يتأثروا بدعوة نبيهم .

(١١)

من الآية ٦٥ إلى الآية ٧٢ من سورة الأعراف

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ : يَا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللَّهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ -١- . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ -٢- . قَالَ : يَا قَوْمِ ، لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ -٣- . أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ -٤- . أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ، وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ، وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ -٥- . قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ؟ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ -٦- . قَالَ : قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ، مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ؟ فَانْتَظِرُوا ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

الْمُنْتَظِرِينَ —٧— . فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ —٨— .

شرح الألفاظ

الالفاظ	شرحها
وإلى عاد	وأرسلنا إلى قبيلة عاد .
أخاهم	واحداً منهم .
الملأ الذين كفروا	الكافرون من أشراف قومه .
فى سفاهة	فى خفة عقل ، وسُقْم تفكير ، وحمق وطيش .
من الكاذبين	غير صادق فيما تدعيه من النبوّة .
خلفاء من بعد قوم نوح	خلفتم قوم نوح فى الأرض ، بعد أن أهلكهم الله بالطوفان .
بصطة	طولا وضخامة فى الجسم .
آلاء الله	نعم الله .
ونذر	ونترك .
فأتنا بما تعدنا	فعجل بعذاب ربك الذى تهددُنا به .
إن كنت من الصادقين	إن كنت صادقاً فى أن العذاب نازل بنا .
قد وقع	قد وجب ونزل .
رجس وغضب	عذاب وسخط .
أتجادلوننى فى أسماء سمّيتموها	أتناقشوننى فى أسماء الأصنام التى تعبدونها وتؤلهونها ، وتسموّنها بأسماء مختلفة .

الألفاظ	شرحها
ما نزّل الله بها من سلطان	لم يمنحها الله أى قوة للضر أو النفع .
فانتظروا	فانتظروا نزول العذاب بكم .
من المنتظرين	من المترقّبين ما يحل بكم من العذاب .
والذين معه	والذين آمنوا به .
وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا	واستأصلنا جميع الذين لم يؤمنوا ، ولم نُبْقِ منهم أحداً .

قصة هود وعاد

١ ــ عاد : هو اسم الرجل الذى تنسب إليه قبيلة عاد ، وكانت هذه القبيلة تسكن أرض الأحقاف من بلاد العرب ، بين حضرموت والرُّبْعِ الخالى وعُمان ، قبل مبعث إبراهيم ، وهذه الأرض الآن كثبان من الرمل ، ليس فيها حيوان ولا ماء ولا نبات ، مع أنها كانت فى عهد عاد من جنات الدنيا ، على ما وصف القرآن ، وقد بدأ الباحثون فى السنين الأخيرة ينقّبون فى بلاد العرب ، فيجدون بعض الآثار ، ويستخرجون الزيت من الآبار ، ولعلهم قريباً يكشفون عن آثار مدينة عاد .

٢ ــ وكان هؤلاء الناس يعبدون الأوثان كما فعل قوم نوح من قبل ، فأرسل الله إليهم رسولا من بينهم ، له ما لهم من بسطة الجسم ، وملاحة الوجه ، وكان من أوسطهم نسباً ، وأكملهم عقلا ، فدعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده ، فلم يستجيبوا له ، وكذبوه ، وانتفخت أوداجهم ، وقالوا : مَن أشد منا قوة ؟ بدأ يخوفهم ويحذرهم ، ويهددهم ويتوعدهم ، ويضرب لهم المثل بقوم نوح ، وبما جرى لهم من إغراقهم بالطوفان ، بسبب تكذيبهم نبيَّهم ، وذكّرهم فى الوقت نفسه بنعم الله تعالى عليهم ،

فقد أسكنهم أرضاً خصبة ، ذات أنهار وزروع ، وجنات وثمار ، ودعاهم أيضاً إلى التفكير والتبصر فى هذه الأصنام التى يعبدونها من دون الله ، وفى أنها من خلقهم هم ، وفى أنها لا تنفع ولا تشفع ، ولا تضر ولا تنفع ، ووجههم إلى أن الذى يستحق العبادة هو الله وحده ، الذى هيأ لهم ما هم فيه من نعيم ، وهو الذى يَقْدر على الإحياء والإماتة ، والنفع والضر . وبيَّن لهم أنهم إذا تابوا ، واستغفروا ، ووحدوا الله ، ينزل الله عليهم من السماء مطراً كثيراً متتابعاً ، يصلح أرضهم ، ويُروى زرعهم ، ويُكثر غلّتهم ، فيزيد مالهم ، ويحسُن حالهم ، وترتقى معيشتهم ، فيعزّون ويقوَون ، فوق عزهم وقوتهم ، وبيّن وأكّد لهم هود ، أنه لا يبغى من وراء دعوتهم إلى الله أجراً منهم ، ولا يريد أن يكون له رياسةٌ عليهم ، ولكنه يفعل ذلك بأمر الله ، وأجره على الله .

٣ – انقسم قوم عاد إلى فريقين :

ا – فريق قليل العدد ، وهم الذين آمنوا بهود .

ب – وفريق كثير العدد كذّب هوداً ، ولم يؤمن به ، ولم ينظر فيما جاء به من آيات بينات ، على أن ما يعبدون من الأصنام لا تليق عبادته ، وإنما الذى تجب عبادته هو الله وحده ، وهذا الفريق أغلظ لهود ، ورماه بالسفاهة والحمق ، لأنه يريد أن يصرفهم عما كان يعبد آباؤهم من الأصنام إلى عبادة إله آخر .

٤ – لم يُغْلظ لهم هود كما أغلظوا له ، ولكن لاينهم ولاطفهم ، وتأدّب معهم ، لعلهم يرجعون إلى عقولهم ، فاكتفى بأنه نفى عن نفسه ما نسبوه إليه من السفاهة والحمق ، وأكد لهم أنه ليس إلا رسولا أرسله الله إليهم ، فبلّغهم رسالة ربه ، لا يبغى من وراء ذلك دنيا يصيبها من مال أو جاه ، أو غير ذلك ، ولكن القوم بالغوا فى معاندته ومخاشنته ، ورموه بالجنون

وفساد العقل ، لكى يصرفوا عنه من اتّبعه ، فلم يُطق هودٌ على ذلك صبراً ، وانتقل من الملاينة والملاطفة ، إلى المخاشنة والتهديد ، وأنذرهم أنهم إن أصروا على كفرهم وعنادهم ، فعذاب الله واقع بهم ، فلم يكبح ذلك من جماحهم ، وبقيت قلوبهم مُغلقة ، لم تنفتح لدعوة نبيهم ، وبالغوا فى التحدّى ، وطلبوا منه أن يسأل ربّه أن ينزل عليهم العذاب الذى يتهددهم به ، ويتوعدهم بنزوله .

٥ ـ أخبرهم هود حين رأى إصرارهم على الكفر ، أن عذاب الله واقع بهم لا محالة ؛ لأنهم أخذوا يجادلونه فى أسماء الأحجار التى اخترعوها وسمّوْها آلهة ، ولم يقتنعوا ، واستكبروا ، وأنكروا عليه أن يكون رسولا إليهم .

٦ ـ أنذرهم الله بأن أمسك عنهم المطر ، فأصابهم من ذلك جهد شديد ، فعاد إليهم هود يذكّرهم بما دعاهم إليه من عبادة الله ، وترْك عبادة الأصنام ، لعلهم إن أطاعوه يكشف عنهم الكرب ، ويزيل الجهد ، ويحييهم بالمطر ، فازدادوا عُتواً ونفوراً واستكباراً ، ولم يُفدهم الإنذار ، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ، التى استمرت سبع ليال ، وثمانية أيام متتابعة ، فأهلكتهم وأبادتهم ، وصارت أجسامُهم كأنها أعجاز نخل خاوية ، وماتوا ملعونين غير مأسوف عليهم ، وتبعتهم اللعنة فى الآخرة ، ونجا هود ومن آمن به ، وانتقلوا إلى حَضْرَموت ، وعمروها ، وعاشوا فيها ، وفى حضرموتَ مات هود ، وبها دفن ، وليس مدفوناً فى فلسطين ، كما يدّعى اليهود .

٧ ـ وعادٌ هذه التى هلكت ، هى التى يسميها المؤرخون عادا الأولى ، وهى غير عاد الثانية ، التى كانت تسكن اليمن .

مجمل المعنى

١ - أرسل الله إلى قبيلة عاد واحداً منهم ، بشراً مثلهم ، فيه صفاتهم الجسمية ، يتكلم بلسانهم ، ويعرفهم ويعرفونه ، أوحى الله إليه أن يبلغهم رسالته ، ويدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام ، ويرشدهم إلى عبادة الله وحده - فقال لهم : يا قوم ، اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا معه غيره ، فهو الإله الذى يستحق العبادة ، أفلا تحذرونه ، وتخافون عقابه ؟

٢ - ولكن الذين كفروا به من أشراف قومه كذبوه ، ورَموه بالسفاهة والحمق ، والجنون والجهل ، وكذبوه فيما قال ، منْ أنه رسول الله ، وفيما ادعاه من النبوة .

٣ - تأدّب هود فى الرد عليهم بأدب النبوة ، فلم يَرْمهم بمثل ما رَموه به من الحمق والضلال والجنون ، ولم يزد على أن نفى عن نفسه ما وصموه به من الصفات ، فقال : لست سفيها ولا ضالاّ ولكنى رسول أرسلنى إليكم الله رب العالمين جميعاً ، المتصرف فى شئون العالم كله ، وليس عجيباً أن يرسل الله إليكم رسولا منكم ، يبلغكم رسالته .

٤ - فقد كلفنى أن أبلغكم ما أمرنى بتبليغه إليكم ، مخلصاً فيما أدعوكم إليه من خير ، فأمحضكم النصح ، وأبلغكم الرسالة التى اؤتمنت عليها .

٥ - وكيف تعجبون من أن يرسل الله إليكم نبيّاً منكم ، هو أحد رجالكم ، وقبيله قبيلكم ، ولسانه لسانكم ، يأنس إليكم ، وتأنسون إليه ، فهذه نعمة كبيرة من الله عليكم ، هذا إلى أنه جعلكم تعمرون الأرض بعد أن باد قوم نوح من قبلكم ، لأنهم كذبوا نبيهم ، ومنحكم أجساماً ، طوالا ضخاماً ،

فهذه نعمُ الله خصكم بها فاذكروها ، وقدِّروها ، واعترفوا بفضله ، فإن في ذلك فلاحاً لكم في الدنيا وفي الآخرة .

٦ — لم يقتنع هؤلاء المستكبرون بذلك الرد المقنع المؤدَّب من هود ، وظلوا يعترضون عليه ، ويتهكمون ويسخرون منه ، وينكرون عليه أنه جاء يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده ، ويدعوهم إلى ترك عبادة آلهتهم ، التي عبدها آباؤهم من قبل ، ثم يبالغون في استهانتهم بدعوة هود ورسالته ، ويطلبون إليه أن يأتيهم بما يهدّدهم به من العذاب ، إن كان صادقاً فيما يقول ، من أنهم إن لم يؤمنوا فسينزل بهم عذاب الله ، كما نزل على قوم نوح من قبل .

٧ — ولما لم يجد هود فائدة من النصح لهم ، ولم يقتنعوا بما قدم لهم من أدلة وبراهين على صدق رسالته ، أخبرهم أن عذاب الله واقع بهم لا محالة ، وأنهم لن يُفلِتوا من سخطه وغضبه ، وأنكر عليهم أنهم يجادلونه في أسماء هذه الأصنام التي يعبدونها ، ويناقشونه في أصنام لا تضر ولا تنفع ، وما جعل الله لهم في عبادتهم إياها حجة يحتجون بها ، ولا معذرة يركنون إليها ، لأن العبادة لا تكون للمخلوق العاجز ، وإنما للخالق الذي يضر وينفع ، ويعطي ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويحيي ويميت ، ويبدئ ويعيد ، ثم قال لهم : وما دمتم مصرّين على كفركم ، فانتظروا حكم الله فينا وفيكم ، وتحديد مصيرنا ومصيركم ، وأنا منتظر مثل انتظاركم ، ليرى كل منا ما يصير إليه أمر الآخر .

٨ — وقع عليهم ما أراده الله لهم من عذاب ، فانقطع عنهم المطر حتى قَحِطوا وجهدوا ، فاستسقَوْا فلم يُسقَوْا ، واستغاثوا فلم يُغاثوا ، ثم أرسل عليهم ريحاً شديدة الهبوب والبرد ، استمرت سبع ليال وثمانية أيام ، فعصفتْ بهم ، ونجّى الله هودا والذين آمنوا به برحمة منه ، واستأصل القوم الكافرين ، فلم يُبقِ منهم أحداً ، لأنهم كذّبوا رسول الله ، ولم يؤمنوا بما جاء به .

(١٢)

من الآية ٧٣ إلى الآية ٧٩ من سورة الأعراف

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ : يَا قَوْمِ ، اعْبُدُوا اللهَ ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، هٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ -١- . وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ، وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ، وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ -٢- . قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ -٣- . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ -٤- . فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ، وَقَالُوا : يَا صَالِحُ ، ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ -٥- . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ -٦- . فَتَوَلَّى

عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَا قَوْمِ ، لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ -٧- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإلى ثمود	وأرسلنا إلى قبيلة ثمود .
بيّنة	علامة ظاهرة واضحة ، دالة على صدق رسالتي .
ما لكم من إله غيره	لا تجوز عبادة غيره .
هذه ناقة الله لكم آية	هذه ناقة الله ، خلقها على غير سنته فى خلق الإبل وصفاتها ، وأضافها إليه تعظيما لشأنها .
فذروها تأكل فى أرض الله	فاتركوا ناقة الله فى أرض الله ، تأكل من نبات الله ، ولا تكلفوا أنفسكم مئونتها ورزقها .
ولا تمسوها بسوء	ولا تضربوها ولا تطردوها ، ولا تركبوها ، ولا تحملوا عليها ، ولا تذبحوها .
فيأخذكم عذاب أليم	فيصيبكم بسبب ذلك عذاب شديد ، لا تستطيعون دفعه عن أنفسكم .
وبوأكم فى الأرض	وأنزلكم فى الأرض ، وجعل لكم فيها منازل وأزواجاً وأولاداً .
قصوراً	منازل عالية فخمة .
وتنحتون الجبال بيوتاً	وتتخذون فى الجبال بيوتاً تنحتونها .
فاذكروا آلاء الله	فاذكروا نعم الله التى أنعمها عليكم .

الألفاظ	شرحها
ولا تعثوْا فى الأرض مفسدين	ولا تمشُوا فى الأرض تفسدونها .
الملأ الذين استكبروا	الأغنياء والأشراف الذين لم يؤمنوا استكباراً .
للذين استضعفوا	للذين آمنوا بصالح من العامّة والضعفاء .
فعقروا الناقة	فذبحوا الناقة .
وعتَوْا عن أمر ربهم	أعرضوا مستكبرين عن تنفيذ أوامر الله بالنسبة للناقة ، وعن الإيمان بصالح رسول الله إليهم .
ائتنا بما تعدُنا	هات لنا العذاب الذى تُهدِّدنا به .
الرّجفة	الصيحة التى تزلزل الأرض ، ويضطرب لها الناس اضطرابا شديداً .
فى دارهم جاثمين	فى مساكنهم ميتين قعوداً .
فتولى عنهم	فأعرض عنهم .
الناصحين	الذين يدلونكم على سبيل الخير .

قصة صالح وثمود

١ – ثمود : قبيلة صالح عليه السلام ، وكانت هذه القبيلة تسكن الحِجْر ، بين الحجاز والشام ، وآثارهم باقية فى بلادهم إلى اليوم ، وهى موضع بحث علماء الآثار من المستشرقين وغيرهم ؛ وقد بلغوا درجة عظيمة فى الحضارة والتقدم فى الصناعة ، وكانت قبيلة ثمود أصحابَ خِصب ، ورفاهية عيش ، توافرتْ لهم المياه العذبة التى أرْوَوْا بها أرضهم ، وأخرجت الأرض زرعَها وشجرها ، واستمتعوا بغلاّت زرعهم ، وبثمر شجرهم ، واقتنَوُا الماشية ، وتمتعوا بأصوافها

وألبانها ولحومها ، وبنَوْا لهم بيوتاً تدل على ما هم عليه من عزّ ونعيم ، وما زالت آثارهم تدل على أنهم كانوا على جانب من المجد والسؤدُد .

٢ — وكان أهل ثمود يعبدون الأصنام ، ويتخذونها آلهة من دون الله ، فأرسل الله إليهم صالحاً يعظهم ، وينصح لهم ، ويدلهم على طريق الإيمان الصحيح ، ويثبت لهم أن الأصنام لاتجوز عبادتها ، وأن الذى يُعبدُ هو الله وحده ، لا شريك له ، وأقام لهم الأدلّةَ على صدق ما يقول ، وخوّفهم غضب الله وعذابه ، وأكّد لهم صالح أنه لايبغى من وراء ذلك مالا ولاجاهاً ، وأنه لا يسألهم عليه أجراً ، وإنما أجره على الله .

٣ — لم يَتبع صالحاً من قومه إلا المستضعَفون — وكانوا قلّة — أما المستكبرون فإنهم عاندوه ، وبالغوا فى معاندته ، وأخذوا يبكّتونه ، ويتندرون عليه ، ويسخرون منه ، وينكرون أن ينزل عليه الوحى من دونهم ، وأخذوا يستهزئون بمن اتبعه ، ويحتقرونهم ، ويحاولون أن يجعلوهم يرتابون فى رسالة صالح ، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً به .

٤ — بلغ من مكابرتهم أن يطلبوا من صالح أن يأتيهم بآية تدل على أنه رسول من عند الله ، فأتاهم بالناقة التى أخرجها الله له على غير المألوف ، وأمرهم ألا يَمسوها بسوء ، فلا تعذَّب ، ولا تُطرد ، ولا تُركب ، ولا يُحمل عليها ، ولا يُساءُ إليها فى أكلها وشربها ومائها ، ولا تُذبح ، وجعل الله لها شِرباً فى يوم معلوم ، وجعل لهم شِرْباً فى يوم غيره ، وكانت تعرف يوم شربها ، فلا تَردُ الماء إلا فيه ؛ ويقول المفسّرون : إن قوم صالح طلبوا منه أن يخرج لهم ناقة من صخرة بعينها ، فدعا اللهَ صالحٌ ، فاستجاب له ، وأخرج الناقة على ما طلبوا ، إذ تمخّضت الصخرة كما تتمخض الحامل ، ثم انفرجت ، فخرجت من وسطها الناقة ، سوداء الحدَق ، حمراء الوبر ، خَلفها فصيلها ،

ويقولون : إنها كانت إذا شربت فى يومها أتت على الماء ، ثم تتفحّجُ لهم : (تباعد ما بين رجليها) ، ويأخذون من لبنها ما يشاءون .

٥ — ظل الناس على ذلك عدة سنين ، ثم سئموا صالحاً وناقته ، ومحاولته أن يصرفهم عن أصنامهم ، واستمراره على تهديدهم بالعذاب إن أساءوا إلى الناقة ، وعزّ على كبرائهم أن يُطيعوا صالحاً فيما يدْعو إليه ، فكانوا يبذلون جهداً كبيراً فى صرف الناس عنه ، وتنفيرهم منه ، وثقُل على الناس وجودُ الناقة بينهم ،لأنهم قد أصابهم بسببها ضرّ — كما يقولون — ففكَّر بعضهم فى التخلص منها ، وقتلوها ، فأنذرهم صالح بأن عذاب الله واقع بهم بعد ثلاث ، فسخروا منه ، وهزءوا به ، واستنجزوه وعده ، وسألوه أن يسأل ربه أن يعجل لهم العذاب ، وأقسم نفر منهم ليقتلُنّ صالحاً وأهله ، قبل مضىّ الثلاث التى توعّدهم بالهلاك بعدها ، فلما ذهبوا إليه لقتله ، أهلكهم الله كما أهلك بقية القوم بالصيحة .

٦ — وحقيقة الصيحة : صاعقة ذات صوت عظيم ، وقد يصحبها زلزال يلقى الرعب فى القلوب ، فتذهَلُ النفوس ، ويصيبها غشية قاضية ، وسبب تلك الصاعقة : استفراغ كهربىّ يحدث بين كهربيّين مختلفين إيجاباً وسلباً ، فإذا تقارب جسمان ، شحنة أحدهما كهربا موجبة ، وشحنة الآخر كهربا سالبة — اتحد الكهربيّان ، وحصل من ذلك الاتحاد برق ورعد ، ينشآن من الفراغ الجوّى ، ثم تدافُع الهواء وتلاقيه ، وإذا قَرُبت سحابة شحنتها موجبة من الأرض التى شحنتها سالبة ، اتحدت الشحنتان ، فيحدث الفراغ على سطح الأرض ، فيندفع الهواء ، ويحترق الشجر والإنسان والحيوان ، ويتفتت الصخر ، وينهدم البناء ، وكلما كان الفراغ عظيما ، كان الأثر عظيما ، وكانت الكارثة أعظم ، والهول فادحاً ، وهذه هى الرجفة والصيحة التى أهلكت قوم صالح ، ونجى الله

صالحاً والذين آمنوا معه ، وكانوا قلة قليلة ، فخرجوا من ديارهم قبل وقوع الصيحة فيها ، يلتمسون السلامة لأنفسهم فى كنف نبيّهم ، وفى رعاية ربهم ، فنجوا .

مجمل المعنى

١ — وأرسل الله إلى قبيلة ثمودَ صالحاً أخاهم ، فدعاهم إلى عبادة الله الذى لا إله غيره ، ودلل على صدق كلامه بهذه العلامة ، التى جعلها الله دليلا على أن ما يدعو إليه حقّ ، وهى تلك الناقة التى خلقها الله على غير سنته فى خلق أمثالها ، وأمرهم أن يتركوها تأكل ما تشاء من أرض الله ، ونهاهم أن يمسوها بضرر ، فإن فعلوا فسيصيبهم عذاب شديد من عند الله .

٢ — ووجههم صالح إلى فضل الله عليهم ، بأن جعلهم يخلفون فى الأرض عادا الذين أهلكهم ، لأنهم كذبوا هوداً ، وأنزلهم فى ذلك المكان الخصيب يسكنون فيه ، وأقدرهم على أن يبنوا فى أرضه المطمئنة بيوتاً فخمة ، وأن ينحتوا فى جباله بيوتاً حصينة ، فيجب أن يذكروا نعمه عليهم ، وألا يَسيروا فى الأرض يفسدونها ، بسوء ما يرتكبون من شرور وآثام .

٣ — أما أشراف القوم الذين لم يؤمنوا بما جاء به صالح ، واستكبروا ، فإنهم قالوا للضعفاء الذين آمنوا وصدّقوا متهكمين عليهم : أتعلمون أن صالحاً نبى أرسله الله حقيقة ؟ ولكن هؤلاء الضعفاء أجابوهم إجابة محكمة ، ليست نصاً فى الرد على سؤالهم ، ولكنها مرتبة على الإجابة عن سؤالهم ، قالوا لهم : نحن مؤمنون بما جاء به ، ومعنى إيمانهم به ، أنه مرسل من ربه .

٤ — فقال هؤلاء المستكبرون : نحن كافرون بما أنتم به مؤمنون ، وهذا رد المغيظ المحنق ، الذى لم يفكر ، ولم يتأن .

٥ – استكبر هؤلاء الناس على صالح ، ولم يؤمنوا ، وخالفوا ما أمرهم به فى شأن الناقة ، وذبحوها ، وطلبوا إليه أن يعجّل لهم العذاب الذى يهددهم به ، ليثبت بذلك أنه رسول أرسل إليهم .

٦ – أوقع الله بهم العذاب ، وأخذتهم الصيحة العظيمة التى زُلزلَتْ لها الأرض زلزالا شديداً ، فأصابهم من هولها ما أصابهم ، ومات كل منهم على الحالة التى كان عليها ، فلم يُمهَل حتى يختار لنفسه نومة أو ضجعة ، أو يُعدّ لجثمانه قبراً ، ولكنها كانت أَخْذَةً شديدة مفاجئة .

٧ – أما صالح ، فإنه بعد أن عُقرَت الناقة أعرض عنهم ، مترقباً وقوع العذاب بهم ، فقد عمل ما كان عليه أن يعمل : بلّغ الرسالة ، وأخلص فى النصح ، وحاول جهده أن يقنعهم فلم يقتنعوا ، فوقع بهم ما وقع .

(١٣)

من الآية ٨٠ إلى الآية ٨٤ من سورة الأعراف

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ؟ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ —١— . إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ —٢— . وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ —٣— . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ، إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ —٤— . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولوطاً	واذكروا لوطا .
أتأتون الفاحشة	أتفعلون الفعل القبيح الممقوت .
ما سبقكم بها من أحد	ما عملها أحد قبلكم .
إنكم لتأتون الرجال شهوة	إنكم لتباشرون الرجال مباشرتكم للنساء ، لا لسبب غير الشذوذ الجنسى ، وإشباع الغريزة الحيوانية .

الألفاظ	شرحها
مسرفون	متجاوزون للحدود .
يتطهرون	يتنزهون عن الإتيان بهذا المأثم ، فليس لهم أن يعيشوا بينكم .
فأنجيناه وأهله	فنجيناه هو ومن آمن به .
من الغابرين	من الباقين للعذاب .
المجرمين	الكافرين .

قصة لوط وقومه

١ — لوط : ابن أخى إبراهيم عليهما السلام ، وقد آمن لوط بإبراهيم ، وهاجر معه ، وحضر إلى مصر ، وأغدق عليهما حاكمها ، ثم افترقا عن تراض ، وذهب لوط إلى سَدُوم فى بلاد الأردن .

٢ — وكان أهل سَدوم ساءت أخلاقهم ، وفسدت طباعهم ، وغلبت عليهم حيوانيّتهم ، فلا يستحيون من مُنكر ، ولا يستخفُون من الناس ، بل كانوا يرتكبون الفواحش مجاهرين بها ، ويأتون المنكر فى ناديهم ، ويقطعون الطريق على السابلة ، ولم يتركوا موبقة من غير أن يرتكبوها ، وليس ذلك فحسب ، بل إنهم ابتدعوا من المنكر ألواناً لم تعرفها الناس قبلهم ، فكانوا يأتون الذُكرانَ من العالمين شهوة من دون النساء ، يفعلون ذلك بأنفسهم ، ولا ينجُو منه ضيوفهم — نهاهم لوط عن ذلك ، وحذّرهم وأنذرهم ، فلم يستجيبوا له ، فلم ييئس منهم ، وألح فى وعظهم ، فلم يُعجبهم ذلك منه ، وهددوه بالرّجم ، والإخراج من بلدهم ، فأرسل الله إليه ملائكة ينتقمون له منهم ، ويوقعون عذاب الله بهم .

٣ — دخل الملائكة سَدُوم على هيئة غلمان مُرْدٍ ، مِلاح الوجوه ، فما كاد يراهم أهل سدوم، حتى أعجبوا بهم ، وفتَنَتْهم جمالهم ، فذهبوا إلى بيت لوط ، وطلبوا منه أن يُسلِّمهم ضيوفه ، ليفعلوا معهم الفاحشة ؛ كاد لوط يُصْعَق حينما سمع ذلك، وحار في أمره ، وصمم على ردِّهم، ولكنه لا قِبَلَ له بهم ، فهو ضعيف وهم أقوياء ، وهو قليل وهم كثير ، فأخذ يصانعهم ، ويتلطف معهم ، حتى عَرَض عليهم أن يضحى بكل ما يرضيهم ، ولو كان ذلك بناته ، يزوجهن منهم ، فأبَوْا ؛ فالتفت إلى ضيوفه في حَسْرة وألم ، وقال لهم : لو أن لى بكم قوة لجاهدتُهم بكم ، وتغلَّبت عليهم ، وأنزلت بهم ما يستحقون من العذاب ؛ حينئذ كشف له الملائكة عن حقيقة أمرهم ، وصارحوه بأنهم مرسلون للإيقاع بأولئك القوم المجرمين وتعذيبهم، وعند ذلك تخلَّى لوط عنهم ، وهمَّ السَّفلة أن يقتحموا البيت على الغلمان ، فطمس الله أعينهم ، فأظلمت الدنيا أمامهم ، ولم يهتدوا إلى طريقهم ، ثم أخرج الملائكةُ لوطاً وبناته وزوجتَه من القرية ، وأمروهم أن يمضوا لسبيلهم ، وألا يلتفتوا وراءهم ، فكلهم سمع وأطاع ، إلا امرأة لوط ، فإنها تلفتت وراءها، مخالفة بذلك أمر الملائكة، فأصابها ما أصاب أهل القرية ، لأن هواها كان فيهم ، ولأنها كانت كافرة مثلهم .

٤ — وبعد أن خرج لوط وقومه من القرية ، أمطر الله على أهلها حجارة من سجِّيل ، وجعل عاليَها سافلها ؛ ويُظن أن البحر الميت في شرق الأردنِّ ، كان نتيجة لهذا الزِّلزال الهائل ، الذى قضى على الكافرين من قوم لوط ، وقد كشف علماء الآثار حديثاً عن بعض قُرَى قوم لوط ، على حافَةِ البحر الميت .

مجمل المعنى

١ — واذكروا لوطاً حينما أنكر على قومه ما كانوا يفعلون من الفواحش ، وأقبح القبائح ، التى لم يرتكبها أحد قبلهم من العالمين .

٢ — أنكر عليهم ، وأخبرهم أنهم يباشرون الرجال إشباعاً لغريزة حيوانية جامحة ، وذلك بارتكاب الفاحشة معهم ، وهم فى فعلهم هذا متجاوزون كل حد .

٣ — لم يتعظوا بكلامه ، وأمروا بإخراجه من بلادهم ، لأنه لا يحب أن يكون مثلهم ، بل يأنف أن يكون منهم ، ولأنه يدعو إلى ترك التمتع الذى اعتادوه.

٤ — نجَّاه الله وأهله الذين آمنوا به ، ما عدا زوجتَه فإنها لم تؤمن به ، وكان هواها فى أهل قريتها ، فأصابها ما أصابهم ، وبقيت فى العذاب معهم .

٥ — ومما عُذِّبوا به ، أن الله تعالى أرسل عليهم مطراً عجيباً ، فقد زُلزلت الأرض ، وانفجر البركان ، وخرجت المعادن المصهورة ، وقذفها جوف الأرض فى الجو ، فتساقطت عليهم مطراً ، فأحرقتهم ، وهذه عاقبة أمثالهم من المجرمين الذين لا يؤمنون بخُلق ولا دين .

(١٤)

من الآية ٨٥ إلى الآية ٨٧ من سورة الأعراف

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ، قَالَ : يَاقَوْمِ ، اعْبُدُوا اللهَ
مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ،
فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ -١- . وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ
وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ،
وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ -٢- . وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي
أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ
بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ -٣- .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
وأرسلنا إلى قبيلة مَدْين .	وإلى مَدْين
مُعْجزة .	بَيِّنة
فأتموا الكيل والميزان .	فأوفوا الكيل والميزان
ولا تنقصوا الناس حقوقهم .	ولا تبخسوا الناس أشياءهم
بعد أن أصلح فيها المصلحون ، فعمرت بإصلاحهم .	بعد إصلاحها
إن كنتم مصدقين لى فيما أقوله لكم .	إن كنتم مؤمنين
بكل طريق .	بكل صراط
تهدِّدُون .	توعدون
وتدفعون الناس عن دين الله وعبادته .	وتصدّون عن سبيل الله
وتطلبون لها العوَج ، وعدم الاستقامة ، وتصفونها للناس على غير حقيقتها .	وتبغونها عوجاً

قصة شعيب مع قومه

١ — مدين : قبيلة ، منسوبة إلى مَدْين بن إبراهيم عليه السلام ، وهذه القبيلة ، هى قوم شعيب ، وكانت تسكن شمالىّ الحجاز ، وكان أهل مدين فى ظل ونعيم ، ميسرة لهم أسباب العيش ، وكانوا يشتغلون بالتجارة ، إلا أنهم كانوا يطفِّفون الكيل ، ويخسرون الميزان ، ويبخسون الأثمان ، وكانوا يعبدون غير الله ، ويجترحون السيئات ، ويرتكبون الشرور والآثام .

٢ — نهاهم شعيب عن ذلك . وحذرهم غضب الله وعذابه ، فلم يستمعوا له ،

وأنكروا عليه ما يدعوهم إليه ، فلم ييئس ، ودأب على النصح لهم ، وترغيبهم وترهيبهم ، ووعْدِهم ووَعيدِهم ، وإقامة الدليل عليهم ، وإلزامهم الحجة ، وجرت على يده أدلّة من ربه ، على أنه لا يقول إلا صدقاً ، ولا يدعو إلا إلى الحق .

٣ — ومع ذلك ، فإن قومه كانوا يعاندونه ، وكانوا يقعدون على الطريق ، يرصدون الناس الذين يذهبون إلى شعيب لينضموا إليه ، ويؤمنوا به ، فيحولون بينهم وبين الوصول إلى شعيب ، وينتقصون شعيباً ، وينالون منه ، ويعيبون دينه ، ويصفونه بالعوَج ، وعدم الاستقامة ، ويهددون من يؤمن به ، وكانوا يقولون له : يا شعيب ما نَفْقَه كثيراً مما تقول ، مع أنه كان مشهوراً باللَّسَن ، وقوة الحجة ، ونصاعة الدليل ، إلى حد أن بعض الباحثين رأى أن هذا هو البيّنة التى آتاه الله إياها ، وكانوا يقولون له : لولا أن رَهْطاً لك ، وأن لرهطك مكانة بيننا ، ولولا قوَّتهم التى نعلمها ، لرجمناك ، وأما شخصك أنت ، فليس له عندنا المقام الذى يجعلنا نُبْقِى عليه .

٤ — ضاق الملأ من مَدْيَنَ بشعيب ، وبَرموا به ، فهددوه هو والذين آمنوا معه بإخراجهم من القرية ، إذا لم يعودوا إلى دينهم ، فرد عليهم شعيب : أترغموننا على هذا ، حتى ولو كنا نكره دينكم ، ونُبغض آلهتكم ؟ إننا إن عُدْنا إلى دينكم : دين الضلال والخسران ، بعد أن نجانا الله منه بالهداية إلى الدين الصحيح ، نكون من المفترين الظالمين ، ومع ذلك فإن الرجوع إلى دينكم ليس فى يدنا ، ولكنه بيد الله ، والله لا يُضلنا بعد إذ هدانا .

٥ — ولما لم يستطيعوا إضلال من آمن بشعيب ، اتجهوا إلى قومهم الذين لم يؤمنوا ، وحالوا بينهم وبين الاستماع إلى شعيب ، وزيّنوا لهم البقاء على دينهم ، وأعلموهم بأن دين شعيب ينهاهم عن التطفيف فى الكيل والميزان ،

وذلك يسبب لهم خسارة فادحة كبيرة ، وأن شعيباً يطلب إليهم أن يعبدوا غير آلهتهم ، التى كان يعبدها آباؤهم .

٦ — ولما أصر هؤلاء على كفرهم ، وصابرهم نبيهم طويلا ، أخذتهم الرجفة ، فزُلزلت الأرض زلزالا شديداً هلكوا بسببه ، فبادوا كأن لم يَغنَوْا بالأمس .

٧ — ونجا شعيب والذين آمنوا معه ، وخرج إلى الأيكة ، وهى مكان قريب من مدين ، كان يسكنه بعض الناس ، وكان فيه شجر ونبات ، إلا أن هؤلاء الناس كانوا على ما كان عليه أهل مدين ، فدعاهم شعيب إلى ما دعا إليه أهلَ مدين ، فرموه بالكذب والسّحر ، وطلبوا إليه أن يسأل ربه أن يرسل عليهم عذاباً يهلكهم ، فسلط الله عليهم الحرّ سبعة أيام ، حتى غلت مياههم ، ثم ساق إليهم غمامة فرحوا بها ، وأسرعوا ليستظلوا بظلها ، وليبتردوا بمائها ، فأمطرتهم ناراً ، فاحترقوا بها ، وكان ذلك عذاب يوم عظيم .

مجمل المعنى

١ — وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاً منهم ، لغته لغتهم ، وعاداته عاداتهم ، وطلب إليهم أن يُقلعوا عن عبادة ما يعبدون من دون الله ، وأن يعبدوا الله وحده ، فهو الذى يجب أن ينفرد بالعبادة ، وأقام لهم الدليل القاطع على صدق ما يقول ، وأمرهم أن يُوفُوا الكيل ، ولا يُخسروا الميزان ، وألا ينقصوا الناس حقوقهم ، وألا يفسدوا فى الأرض بما يعملون من شر ، بعد أن كان من سبقوهم يصلحون فيها ، ودلهم على طريق الصلاح والإصلاح وبيّن أن كل ذلك خير لهم ، فيه صلاحهم ، وصلاح دنياهم وآخرتهم ، إن صدقوه واتبعوه .

٢ — ونهاهم أن يجلسوا على الطرق يترصدون رجاله الذين يذهبون إليه ليستمعوا له ، ويؤمنوا به ، ونهاهم أن يتهددوهم ويتوعدوهم ، ويدفعوهم عن دين الله ، والإيمان به ، ويحاولوا أن يجعلوهم يرتدّون إذا كانوا قد آمنوا ، ويصوروا لهم دين الله فى صور معوجّة غير صحيحة ، ونبههم على ما أنعم الله به عليهم ، إذ كانوا قليلا فكثرهم ، والكثرة تكسب العزة بعد الذلة ، والغنى بعد الفقر ، والقوة بعد الضعف ، وطلب إليهم أن ينظروا فى عاقبة من سبقوهم من قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وكيف كانت عاقبة المكذّبين منهم ، فإنه لم يُفلت من عذاب الله واحد ممن أصروا على تكذيب الأنبياء .

٣ — ثم عرض عليهم عرضاً معقولا ومقبولا ، فقال لهم : إن طائفة آمنت بى ، وإن طائفة لم تؤمن بى ، فاصبروا ولا تتعجلوا المصير ، حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير حاكم عادل ؛ وفى الأمر بالصبر معنى التهديد والوعيد ، والوثوق بأنه مطمئن إلى مصير المكذبين السيء ، الذى سيصيرون إليه ، وإلى مصيره الطيب ، الذى سيصير إليه هو ومن آمن به .

وسيأتى إن شاء الله فى أول تفسير الجزء التاسع ، بقية قصة شعيب ، وما آل إليه أمر قومه .

فهرس الجزء الثامن

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات
١	الأنعام	من ١١١ – ١١٥	من ٣ – ٧
٢	»	» ١١٦ – ١٢١	» ٨ – ١١
٣	»	» ١٢٢ – ١٢٧	» ١٢ – ١٦
٤	»	» ١٢٨ – ١٣٢	» ١٧ – ٢١
٥	»	» ١٣٣ – ١٣٥	» ٢٢ – ٢٣
٦	»	» ١٣٦ – ١٤٠	» ٢٤ – ٢٨
٧	»	» ١٤١ – ١٤٤	» ٢٩ – ٣٣
٨	»	» ١٤٥ – ١٤٧	» ٣٤ – ٣٧
٩	»	» ١٤٨ – ١٥٠	» ٣٨ – ٤٠
١٠	»	» ١٥١ – ١٥٣	» ٤١ – ٤٥
١١	»	» ١٥٤ – ١٥٨	» ٤٦ – ٤٩
١٢	»	» ١٥٩ – ١٦٠	» ٥٠ – ٥٢
١٣	»	» ١٦١ – ١٦٤	» ٥٣ – ٥٥
١	الأعراف	» ١ – ٩	» ٥٦ – ٥٩
٢	»	» ١٠ – ١٨	» ٦٠ – ٦٤
٣	»	» ١٩ – ٢٥	» ٦٥ – ٦٩
٤	»	» ٢٦ – ٣٠	» ٧٠ – ٧٤
٥	»	» ٣١ – ٣٤	» ٧٥ – ٧٩
٦	»	» ٣٥ – ٣٩	» ٨٠ – ٨٤
٧	»	» ٤٠ – ٤٣	» ٨٥ – ٨٧
٨	»	» ٤٤ – ٥٣	» ٨٨ – ٩٤
٩	»	» ٥٤ – ٥٨	» ٩٥ – ١٠٠
١٠	»	» ٥٩ – ٦٤	» ١٠١ – ١٠٤
١١	»	» ٦٥ – ٧٢	» ١٠٥ – ١١١
١٢	»	» ٧٣ – ٧٩	» ١١٢ – ١١٨
١٣	»	» ٨٠ – ٨٤	» ١١٩ – ١٢٢
١٤	»	» ٨٥ – ٨٧	» ١٢٣ – ١٢٧

تفسير القرآن الكريم

الجزء التاسع

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

(١)

من الآية ٨٨ إلى الآية ٩٣ من سورة الأعراف

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، قَالَ : أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ؟ -١- . قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ -٢- . وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذَنْ لَخَاسِرُونَ -٣- . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ -٤- . الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ -٥- . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ : يَا قَوْمِ ، لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ؟ -٦- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لتعودن فى ملتنا	لترجعن إلى ديننا .
أوَ لو كنا كارهين	أتعيدوننا إلى كفركم ، وتجبروننا عليه ، مع كرهنا إياه ؟
نَجانا الله منها	خلصّنا الله من الكفر .
وما يكونُ لنا	ولا يجوز لنا ، ولا يليق بنا .
إلا أن يشاءَ اللهُ	إلا إذا كان قد سبق فى مشيئة الله أن نعودَ إليها .
وَسع ربنا كل شىء علماً	هو عالم بكل شىء ، ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون .
افتح بيننا وبين قومنا بالحق	احكم بيننا وبين قومنا بالعدل .
خير الفاتحين	خير الحاكمين .
لخاسرون	لمغبونون .
الرجفة	الزلزلة .
جاثمين	جُثثا ملقاة فى الأرض .
كأن لم يَغنوا فيها	كأنهم لم يُقيموا فيها .
فتولى عنهم	فأعرَض عنهم ، ونَفض يده منهم
آسى	أحزن .

مجمل المعنى

تقدمت قصة شعيب مفصلة فى آخر تفسير الجزء الثامن ، وهذه الآيات بقية ما ورد من القصة .

١ ـ الرجال المستكبرون الذين لم يؤمنوا بشعيب حين دعاهم إلى الإيمان بالله ، واستكبروا عن الدخول فى طاعته ، حتى بعد أن حذرهم بأس الله ـ قالوا لشعيب : لنخرجنك أنت ومن آمن بك واتبعك من قريتنا ، أو لترجعن أنت وهم إلى ديننا ، فهم خيَّروا شعيباً ومن آمن به بين الخروج من البلاد ، أو العودة إلى الكفر ؛ فرد عليهم شعيب : أتخرجوننا من قريتنا أو نعود إلى دينكم ، ولو كرهنا الأمرين جميعاً ؟ .

٢ ـ قال شعيب ردا على الكافرين من قومه ، حين دَعوه إلى الدخول فى ملتهم ، والعودة إلى الكفر : إن عُدْنا إلى كفركم نكنْ قد اختلقنا على الله كذباً ، وافترينا عليه ما لمْ يأمرْ به ، بعد أن خلصنا من شر الكفر ، وأنقذنا من وَصْمة الشرك ، ولا ينبغى لنا أن نعود إليها ، ونترك الحق الذى نحن عليه ، إلا إذا كان الله سبحانه وتعالى قدّر علينا فى سابق علمه ، أن نتردى فى وَهدة الكفر ، بعد أن نجاّنا منها ، فهو وحده الذى يعلم ذلك ، لأنه سبق فى علمه كل ما كان ، وكل ما هو كائن ، وكل ما سيكون ، فلو كان مقدراً علينا أن نعود إلى ملتكم فسيقع ما سبق به علمه ، ونحن معتمدون عليه فى جميع أمورنا ، وما قدره لنا سيجرى علينا ، ونحن ندعوه سبحانه ، أن يقضى بيننا وبينكم قضاء عادلا ، فإنه خير قاض ، لا يجور فى حكمه ، ولا يتحيف أحداً من عَدْله .

٣ — هؤلاء الكفرة من قوم شعيب ، يقولون لغيرهم من قومهم : إن اتّباعكم شعيباً ، وإيمانكم به ، يعود عليكم بالغبن والخسران ، وذلك أنكم تربحون كثيراً من أنكم تُخسرون الكيل والميزان ، ودينُ شعيب ينهاكم عن هذا ، فإذا اتبعتموه ضاعت عليكم أموال كثيرة ، وخسرتم ما تربحونه اليوم ، وأنتم على دين آبائكم .

٤ — لما لم يُطع الناس شعيباً ، أهلكهم الله بالرجفة ، فأصبحوا موتَى فى دورهم جاثمين على رُكبهم ، كما أهلك قوم صالح ، (تراجع " صفحة ١٢٤ من تفسير الجزء الثامن) .

٥ — أهلك اللهُ الذين كذّبوا شعيباً وأبادهم ، فكأنهم لم تكن لهم بها أنس حياة ، ولا دور ، ولا قصور ؛ والخسران لم يقع على الذين اتبعوا شعيباً كما زعموا ، ولكنه وقع على الذين كذبوه ، ولم يؤمنوا به .

٦ — حينما بدأ عذاب الله يحل بهم ، خرج من بينهم شعيب ومن آمن به ، وقال يخاطبهم حزيناً عليهم : يا قوم ، قد عملت ما يجب علىّ أن أعمله ، وهو أنى بلغتكم رسالة الله ، ودعوتكم إلى الإيمان به ، وحذرتكم غضبه وعذابه ، إن بقيتم على استكباركم وكفركم ، وسوء معاملتكم لغيركم ، ولكنكم ركبتم رءوسكم ، وظللتم فى ضلالكم ، فليس لى أن أحزن عليكم ، وأغتمّ من أجلكم .

(٢)

من الآية ٩٤ إلى الآية ١٠٢ من سورة الأعراف

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ —١—. ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا : قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ، فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ —٢— . وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنْ كَذَّبُوا ، فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ —٣— . أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ —٤— . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ —٥— . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ —٦— . أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ —٧— . تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ

يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ —٨— . وَما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
بالبأساء	بشظف العيش وضيقه .
والضراء	وسوء الحال .
لعلهم يضرعون	لعلهم يخضعون ويتوبون .
بدّلنا مكان السيئة الحسنة	جعلنا مكان البأساء والضراء ، النعمة والرخاء ، وسَعة العيش والولد .
حتى عَفوا	حتى كثروا وكثرت أموالهم .
فأخذناهم بغتةً	فأهلكناهم فجأة .
وهم لا يشعرون	وهم لا يدرون .
مَكرَ الله	استدراج الله إياهم ، وإمهاله لهم .
الخاسرون	الهالكون .
أو لم يَهد	أو لم يُبين .
يرثون الأرض من بعد أهلها	يَخلفون مَنْ سبقوهم .
أصبناهم بذنوبهم	أخذناهم بذنوبهم ، معجلين عقابهم .
ونطبع على قلوبهم	ونختمُ على قلوبهم ، فلا يتأثرون بوعظ واعظ ، ولا يستجيبون لنبيّ .

الألفاظ	شرحها
نقصّ عليك من أنبائها	نخبرك خبرها وخبر أهلها .
بالبيّنات	بالمعجزات والحجج .
من عهد	من وفاء بما وصيناهم به .
وإن وجدنا	وإننا وجدنا .
لفاسقين	لخارجين عن طاعة الله .

مجمل المعنى

١ ــ يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بسنته فى السابقين من خلقه ، عسى أن تجد قريش فى هذه السنة ما يكون واعظاً لها ، وتلك السنةُ هى أن الله لم يرسل نبياً إلى أهل قرية من القرى ، أو قوم من الأقوام ، فيكذبوا ويعاندوا ، إلاّ أخذهم الله بالتضييق عليهم فى معايشهم ، وبسوء الحال فى كل ما يحيط بهم من أسباب دنياهم – يفعل الله بهم كل هذا ، لعلهم يثوبون إلى رُشدهم ، ويتفكرون فى أمرهم ، فيرجعوا إلى ربهم خاشعين تائبين .

٢ ــ فأهل القرية الذين أخذُوا بالتضييق عليهم فى معايشهم ، وبسوء الحال فى كل ما يحيط بهم من أسباب دنياهم – بدّلهم الله بالتضييق وسوء الحال سَعة ورخاء ، حتى كثروا عدداً ، وازدادوا مالا ، ونظروا إلى ما كان عليه آباؤهم فلم يتعظوا ، وظنوا أن الحياة من شأنها أن يتعاقب على الناس خيرُها وشرها ، ونعيمها وبؤسها ، ولم يذكروا أن الله هو الذى بدلهم بالسيئة حسنة ، وبالشر خيراً ، وبالضيق سَعة ، فأنكروا فضله عليهم ،

ففاجأهم الهلاك والدمار من غير أن يشعروا ، وباغتهم على غير تقدير منهم له .

٣ — عجيب أن هؤلاء الناس َ يطمئنون إلى أن الله لا يستدْرجهم ، ولا يملى لهم ، مع أن نظرةً إلى جميع الذين سبقوهم من الأمم الذين كذبوا الرسل ، تؤكد لهم أن الله يستدرج العصاة ، ولا يترك مؤاخذتهم على عصيانهم ، وأن الذين أمنوا إمهال الله لهم ، هم الذين َهلكوا من السابقين ، وانتهى أمرهم بخسارة دينهم ودنياهم ، لأنهم ماتوا مصرين على عنادهم وكفرهم ؛ ولو أنهم آمنوا بأنبيائهم ، واتبعوا رسالتهم ، لما أصابهم الضر ، ولأغدقنا عليهم من خيرات السماء والأرض ، ولكنهم أصروا على الكفر . فأهلكناهم بما كسبوا من السيئات ، وبما ارتكبوا من الكفر .

٤ — أفأمن َ أهل القرى الذين نرسل إليهم رسلنا فيكذبونهم ، نزول العذاب بهم ليلا ، فى الوقت الذى يكونون فيه نائمين ، هاجعين فى مضاجعهم ؟

٥ — أوَ أَمن هؤلاء الكفار من أهل القرى — إن أمنوا هذا فرضاً — أن يأتيهم عذابنا فى ضحوة النهار ، وهم عاكفون على لهوهم ولعبهم ، مشتغلون بما لا ينفعهم ؟

٦ — أفأمنوا استدراج الله إياهم ، وأخذهم بالعذاب من حيث لا يشعرون ، فى أى وقت من أوقات الليل والنهار ، لكفرهم وضلالهم ؟ إنه لا يأمن تدبير الله الخفىّ لتعذيب العصاة ، إلا القوم الخاسرون ، وهم الذين لغفلتهم وجهلهم ، وتمرّدهم وعنادهم ، أضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، ومن كانت هذه سبيله ، فقد باء بصفقة المغبون ، لأنه عرّض نفسه فى الدنيا للهلاك ، وفى الآخرة للعذاب الأليم .

٧ — أوَلمْ يبين الله للذين يخلُفون هؤلاء الكفار من قريش ومن لفّ لفّهم ،

ويرثون أرضهم وديارهم ، أننا لو نشاء لعاقبناهم على كفرهم بذنوبهم ، كما عاقبنا من قبلهم ، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين ؟ وإنا لنختم على قلوب من يستمرئون كفرهم وضلالهم منهم ، فهم لا يسمعون أخبار من عصوا قبلهم من الأمم الماضية ، ولا يتعظون ولا ينزجرون لفساد فطرتهم ، وشدة عنادهم « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حقّ القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

٨ — قصّ الله على محمد بعض أخبار أهل القرى ، التى كان يقيم فيها قوم نوح وعاد وثمود ، وقومُ لوط وشعيب ، على النحو الذى مرّ فى هذه السورة ، وبيّن له أن أنبياءهم جاءوهم بالأدلة القاطعة على صدقهم ، فلم يؤمنوا بهم وأصروا على كفرهم ، وهؤلاء الذين أصروا على كفرهم ، ما كانوا ليؤمنوا عند مجىء رسلهم إليهم ، لأن الله سبق فى علمه أنهم سيظلون مصرين على شركهم وكفرهم ، فقلوبهم مغلقة ، لا تنفتح لكلام نبىّ مهما جاء به من الحجج ، وأكثر من ذلك : أنهم لو بُعثوا من جديد بعد وقوع العذاب عليهم ، وطُلب إليهم أن يؤمنوا بأنبيائهم ، لما استجابوا ولما آمنوا « ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه » ، وكذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ، الذين لا تؤثر فيهم نصيحة ولا موعظة ، سواء أكانوا من الكفار السابقين ، أم من كفار قومك يا محمد ، فهم لا يؤمنون أبداً .

٩ — وأكثر أهل هذه القرى التى قصصنا عليك أخبارها ، ليس لهم عهد ولا ذمة ، فلا يوفون بما يعاهدون عليه ، كأن يطلبوا من أنبيائهم أموراً ، ويعدوهم أن يؤمنوا بهم ، إن استجاب الله لهم ، فيستجيب الله لهم ، ولكنهم ينقضون عهودهم ، ويظلون على كفرهم ، فهؤلاء أكثرهم فسقة ، يخرجون عن طاعة ربهم ، ولا يوفون بعهدهم .

قصة موسى عليه السلام

سيأتى فى سورة القصص فى الجزء العشرين قصة ولادة موسى وإرضاعه، وتربيته فى بيت فرعون ، وخروجه إلى أرض مَدْين، ثم عودته إلى مصر ، وسبق فى تفسير الجزء الأول قصة البقرة فى الصفحة ٥٩ ، كما سبق ذكر كثير فى تفسير ذلك الجزء ، مما عاناه موسى من بنى إسرائيل .

١ — أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه، فعاد إلى مصر ولقى أخاه هرون ، وأخبره أن الله اصطفاهما معاً لرسالته ، وأن هرون سيكون لأخيه فى أداء الرسالة ناصراً ومعيناً ، وكانت أمهما تخاف عليهما بطش فرعون وجنوده ، وحاولت أن تمنعهما من التعرض لفرعون ، ولكنهما أصرا على أداء رسالة ربهما .

٢ — استأذن موسى وهرون على فرعون ، فأذن لهما ، بعد أن أخبره أحد حاشيته أن بالباب رجلا مجنوناً ، يزعم أن له إلها غير فرعون .

٣ — قابلا فرعون ، وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل ، وأخبره موسى أنه جاء با لحق من عند الله ، وأن معه آية تدل على أنه صادق فيما يقول ؛ استعجب فرعون من طلب موسى ،وأخذ يذكره بأنه هو الذى رباه صغيراً، وبأنه سلخ من عمره سنين فى بيته ، فكيف لا يحفظ الودّ ، ولا يرعى حق التربية ، ويريد أن يأخذ بنى إسرائيل ليعبدوا إلهاً غيره ؟ وبيَّن له أن فى ذلك إغراءً لغير بنى إسرائيل من المصريين ، أن يفكروا فى عبادة إله غير فرعون ، وأنكر عليه أنه ارتكب جريمة قتل هرب بسببها من مصر ، ثم هو يعود الآن ليرتكب جريمة أشنعَ وأبشع ، وهى أن يصرف الناس عن

عبادته ، وأن يأخذ بنى إسرائيل ، ويخرج بهم إلى البرّية .

٥ — اعتذر موسى عن قتل القبطىّ الذى قتله ، بأنه فعل ذلك ولم يقصد قتله ، وأنه فرّ خوف العقاب ، ثم عاد إلى مصر رسولا إلى فرعون وقومه ؛ ثم جرت محاورة بين موسى وفرعون ، على ملأ من قومه ، فقال له فرعون : ما الرب الذى تدعو إلى عبادته ، وتزعم أنه رب العالمين ؟ قال موسى : هو رب السموات والأرض وما بينهما ، خالق ذلك الكون ومبتدعه ، ربكم وربّ آبائكم الأولين ، فقال فرعون لمن معه : إنه لمجنون فقال موسى : إنه رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ، وظل موسى يقيم الأدلة العقلية والحسية لفرعون ، ويوجه نظره إلى نفسه وخلقه ، وخَلق السموات والأرض وما بينهما ، وما زال به يُحرجه بالأدلة والبراهين ، حتى تخلص منه بأن يأمر هامان وزيره أن يبنى له قصراً عالياً ، يصعد فيه إلى السماء ، ليطلع إلى إله موسى هناك ، وهذا تخريف من فرعون طبعاً ، نطق به لإحراج موسى إياه ، أمام أشراف قومه .

٦ — ضاق فرعون ذَرعاً بموسى وأخيه ، فطلب منهما أن يأتيا بمعجزة تدل على أن ما يزعمانه حق ، فألقى موسى عصاه من يده ، فانقلبت حية تتحرك وتمشى ، ووضع يده فى جيب قميصه ، ثم أخرجها ، فإذا هى بيضاء يتألق منها نور ساطع ، لم يقنع ذلك فرعون وقومه ، فكذبوه ورموه بالسحر ، وأشاروا على فرعون أن يجمع له سحرة قومه ، وأن يعرضوا عليه مثل الذى يعرض عليهم ، فلا يكون فيما أتاه معجزة .

٧ — جمع فرعون سَحَرة مصر فى يوم عيد لهم ، وجمعهم بموسى فى ميدان عظيم ، ثم سألوا موسى : أيبدأ هو يُلقى سحره ، أم يبدءون هم بإلقاء سحرهم ؟ فطلب موسى أن يبدءوا هم ، فألقوا عصيهم وحبالهم التى كانت معهم ، فانقلبت

جميعها حيات وثعابين ، يخيل إلى من يراها أنها تتحرك وتمشى ، وقد خيل إلى موسى نفسه هذا ، وأفزعه ما رأى ، فأمره الله أن يلقى عصاه كما ألقوا عصيهم ، فإلقاها ، فأذا هى حية تسعى ، وإذا هى تبتلع حيات السحرة وثعابينهم ، فهال فرعون وقومه والسحرة ما رأوا ، أما السحرة فإنهم تأكد لهم أن ما حدث من موسى لم يكن سحر ساحر ، وإنما هو سر إلهى عظيم ، فسجدوا لله ، وآمنوا برسالة موسى ، واستغنوا عما وعدهم به فرعون من الأجر والثواب ، وأما فرعون فإنه لم يعجبه موقف السحرة ، واتهمهم بأن موسى هو الذى علمهم السحر ، وأنكر عليهم أنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ، وهددهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأن يصلبهم على جذوع النخل ، فلم يثنهم تهديده إياهم عن البقاء على إيمانهم بموسى ، وحاول فرعون أن يهدد موسى ، وأن يثنيه عن الاستمرار فى دعوته فلم يفلح ، فقسا على بنى إسرائيل ، وكان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ، وبيت قتل موسى ؛ وكان بنو إسرائيل كلما اشتد ظلم فرعون لهم ، وإيذاؤه إياهم ، شكوا لموسى ، فيصبرهم موسى ، ويعدهم بالفرج القريب ، وأما موسى نفسه فإنه استعاذ بالله أن يقتله فرعون ، فحماه الله ، وذلك أن فرعون عقد مؤتمرا ليتشاوروا فى أمر موسى ؛ فدافع عنه رجل من أتباع فرعون ، كان يؤمن بموسى سرا ، ونهاهم عن قتله ، لأنه لم يعمل ما يسبب القتل ، فإنه جاءهم بكلام ، فإن يكن كاذباً فإثمه عليه وحده ، وإن يكن صادقاً يجب أن نتدبر فى الأمر ، لئلا يصيبنا ما توعدنا به ؛ وما زال هذا الرجل المؤمن يناقشهم ويناقشونه ، حتى أفحمهم كما أفحمهم موسى من قبل ، فهموا بقتله كما هموا بقتل موسى ، ولكن الله حفظهما من شر القوم .

٨ — ولما لم يجد فرعون حيلة أمام أدلة موسى العقلية ، وأمام معجزاته المادية ،

وأمام خروج السحرَة عليه ، وأمام مناقشة الرجل المؤمن له — بدأ يحاول إقناع قومه بما يشبه الهذيان ، كأن يقول لهم :

ا — إن لى مُلكَ مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى .

ب — أينا خير ؟ أ أنا أم هذا الحقير الذى لا يكاد يُبين ؟

حـ — فلولا ألقى عليه أسورَةٌ من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مقترنين !

د — أنا ربكم الأعلى .

وغير ذلك من الكلام الذى لا يصدر عن عقل سليم ، وتفكير صحيح .

٩ — ولما تمادَى فرعون فى ضلاله ، وبالغ فى إرهاق بنى إسرائيل وظُلمهم ، أعلنه الله على لسان موسى ، أن العذاب واقع به وبقومه لا محالة ، ثم بدأ العذاب يقع بهم ، فكانوا كلما أصابهم نوع منه ، لجئوا إلى موسى ، وسألوه أن يدعو ربه ، ليكشفه ، ووعدوه أنه إذا كشف عنهم العذاب آمنوا به ، وأطلقوا له بنى إسرائيل ، فيكشفه الله عنهم ، ولكنهم يظلون على عنادهم ، وإصرارهم ، فينزل الله بهم عذاباً آخر ، وهكذا حتى كان العذاب الذى لا مَفرّ منه ، وهو إغراق فرعون وقومه .

١٠ — وأنواع العذاب التى وقعت بهم هى :

ا — الجدب والقحط ، بسبب نقص شديد فى ماء النيل .

ب — ونقص الثمرات ، بنزول الآفات الزّراعية .

حـ — والطوفان ، بزيادة فيضان النيل على عادته ، فأغرق الزرع والضرع ، وهدم المنازل .

د — والجراد ، وقد أغارت على البلاد أرجاله ، فلم تبق زرعاً ولا ثمراً .

هـ — والقمّل ، وهو كبار القراد أو نحوه ، فأضر بزرعهم وثمارهم ، وأقلق راحتهم ، ونشر الأمراض بينهم .

و — والضفادع ، فكدرت صفوهم بنقيقها ، وسقوطها فيما يأكلون ويشربون ، ووثوبها على ما يفترشون .

ز — والدم ، فكان يسيل من أنوفهم وأفواههم .

ح — والطمس ، بمحو الأموال والثمرات وإهلاكها .

ط — ونقص الأنفس ، بتفشى الأوبئة بينهم .

١١— خرج موسى بقومه بنى إسرائيل ، فتبعهم فرعون بجند عظيم ليردهم ، وكانوا قد وصلوا إلى ساحل البحر الأحمر ، فخاف بنو إسرائيل ، ولكن موسى طمأنهم ، وضرب البحر بعصاه ، فانفلق الماء ، وظهر فى وسط البحر طريق لاحبٌ واضح ، سار موسى فيه وقومه ، يقطعون البحر من الغرب إلى الشرق ، ووصل فرعون إلى أول الطريق المضروب فى البحر ، فوجد الطريق سهلة ميسرة ، ووجد بنى إسرائيل تسير فيه على مرأى العين ، فسار وراءهم ، حتى إذا خرج بنو إسرائيل من البحر جميعاً ، قبل أن يلحقهم فرعون وجنوده ، انطبق الماء ، وغرق فرعون وجنوده جميعاً ، فلما رأى فرعون أنه غارق لا محالة ، قال : آمنتُ بما آمنت به بنو إسرائيل ، ولكن هيهات ، لقد قال كلمة الإيمان بعد فوات الفرصة ، فكان من الضالين .

١٢— أما بنو إسرائيل ، فإنهم فرحوا فرحاً شديداً بنجاتهم من فرعون وجنوده ، وخرجوا إلى شبه جزيرة سَيناء .

بنو إسرائيل فى سَيْناء

١٣— خرج بنو إسرائيل إلى سيناء ، وقد خلصهم الله من فرعون وجنده ، وكان المؤمنون بموسى إيماناً صحيحاً جماعة منهم ، وآخرون منهم كانوا مؤمنين

بألسنتهم ، ولا يؤمنون بقلوبهم ، على الرغم مما رأوا من آيات بينات على يد موسى وهو فى مصر ، وآخرها آية البحر وانفلاقه ؛ فلما مرّوا على قوم يعبدون الأصنام ، طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها كما أن لهؤلاء إلهاً ، فنعى عليهم موسى ذلك ، وذكرهم بفضل الله عليهم ، وبما كان منه لهم ، ولآل فرعون ؛ وكانوا يضايقون موسى بما يطلبون ، ويشتطون فيما يسألون ، ولكن الله كان ينصر نبيه ، ويجيبه إلى ما يطلب لقومه ، وكان من ذلك مثلا :

ا — اشتدت عليهم حرارة الشمس فى سَيناء ، ولم يجدوا شجراً يتفيئون فى ظلاله ، فسألوا موسى أن يكشف عنهم ذلك ، فدَعا ربه ، فساق إليهم الغمام فأظلهم .

ب — وأوشك زادهم الذى حملوه معهم من مصر أن ينفد ، فخشوا سوء العاقبة ، فدعا موسى ربه ، فأرسل عليهم المنّ والسلوى ، (تراجع الصفحة ٣٩ من تفسير الجزء الأول) .

حـ — وَنفدَ ماؤهم ، ولم يجدوا ماء ، فاستسقوْا موسى ، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه ، فضربه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وخصت كل قبيلة من قبائل بنى إسرائيل بعين يشربون منها ، وما زال هذا المكان يسمى عيون موسى، وما زال بعض العيون موجوداً ، وبعضها الآخر طُمس ، ومع كل هذا فإن بعضهم كان غيرَ مخلص فى إيمانه بموسى .

١٤ — وَعدَ موسى قوَمه أن يأتيهم من عند الله بألواح فيها وصاياه ، بعد أن يخلصهم جميعاً من فرعون وجنده ، فلما خلصهم ، سأل ربه أن يُنزل عليهم الكتاب الذى فيه أصولُ شريعته ، فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً ، فلما أتم الثلاثين ، كره أن يلقى الله ورائحة فمه متغيرة من أثر الصيام ،

فاستاك ، أو أكل بعض النبات ، ليغير رائحة فمه ، فأمره الله أن يصوم عشرة أيام أخرى قبل أن يأتيه ، ولا يغير طعم فمه ولا يُنكره ، فإن خَلوفَ فَم الصائم أطيبُ عند الله من رائحة المسك ، ففعل ، وبعد تمام الأربعين كلم موسى ربه ، وسأله أن يمكنه من رؤيته ، فأجابه الله : لن تراني ، وأمره أن ينظر إلى الجبل ، فنظر إليه ، فرآه يتفتت ، ويغوص في الأرض حين ظهرت له عظمةُ ربه ، فخرّ مَغشياً عليه ، لما أصابه من الهول والفزع ، حينما رأى الجبل يتفتت ويندك ، فكأن الله استكثر أن يطلب موسى رؤيته ، فأثبت له أنه لا يقوى على تلك الرؤية ، ولما أفاق من غشيته ، قال : يارب ، إني آمنت بعظمتك وجلالك ، فخاطبه الله بأنه قد اصطفاه على الناس بأنه يكلمه من غير واسطة ، وبأنه ينزل عليه التوراة ، وفيها كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من أنواع التشريع ، ففيها الحلال والحرام ، والمواعظ والأحكام ، وقد فصّل فيها كل ما يحتاجون إلى تفصيله ، وأمره الله أن يدعوَ قومه إلى الأخذ بما فيها ، فإذا كانوا مخيَّرين بين أمرين ، أخذوا بأكثرهما تقرباً إلى الله ، وأعظمهما ثوابا ، ووعدهم فيها بأنه سيريهم دار الفاسقين ، وهي دار الجبارين والعمالقة في الشام .

عجل بني إسرائيل

١٥ — خرج موسى لملاقاة ربه ، وترك أمر قومه لأخيه هارون ، وأعلمه أن غيابه عنه سيكون ثلاثين ليلةً ، فلما زيدت الليالي عشراً كما سبق ، استبطأه القوم ، وجاء رجل منهم اسمه السامريُّ ، وجمع من نسائهم ما أخذنه من مصر من الحلي والذهب ، وقدم لهم عجلا ليعبدوه وله خوار ، وكان بنو إسرائيل حديثي عهد بعبادة العجل « أبيس » ، فلم يستغربوا أن يطلب

إليهم السامرى ذلك ، فغضب هرون ، وحاول أن يُقنعهم ألا يتعجلوا بعبادة العجل ، ولكنهم لم يستمعوا له ، وأطلع الله موسى على ما صنعه قومه فى غيبته ، فرجع إليهم حزيناً مكتئباً ، وعتب على أخيه لأنه لم يهتم ولم يقاوم من فعل ذلك منهم ، وألقى الألواح غاضباً ، ولامهم لوماً شديداً ، وسأل السامرىَّ عما دفعه إلى أن يفعل ما فعل ، فأخذ يبرِّر ذلك وقال : فطنت إلى ما لم يفطن إليه أحد ، فصنعت عجلا أجوف من الحلى ، يخور كما يخور الثور ، (وسنفصل ذلك ، فى سورة : طه ، فى الجزء السادس عشر ، إن شاء الله) ، فأبلغه موسى أن الله عاقبه فى حياته بأن يعيش منبوذاً مطروداً ، يتحامى الناس ويتحامونه ، ويتألم من مَس أى إنسان له ، فإذا رأى أحدا يقترب منه ، يقول له : لا مساس ، وفى الآخرة يلقى ما يقدره الله له من عقاب ، ثم جاء موسى بهذا العجل وأحرقه ، ونسفه فى ماء البحر ، وأما الذين عبدوا العجل متابعة للسامرىّ ، فلم يقبل الله توبتهم ، إلا أن يقتل بعضُهم بعضاً ، بأن يقتل كلٌّ منهم من يقابله من قريب أو أخ أو نحو ذلك ، ثم تاب الله عليهم ، وعفا عنهم ، بعد أن قُتلَ منهم عدد كبير . . .

دخول فلسطين

١٦ — طبع الإسرائيليون على الذلة والمسكنة التى كان يعاملهم بها المصريون ، فهم عبيد لهم ، يخدمونهم ، ويصبرون على ما يلقون منهم من تعذيب وإهانات ، حتى صارت الذلة والمسكنة عادة لهم ، وطبعاً فيهم ، فكانوا ينفرون من الحرب ويخشونها ، ولا يحبّون أن يتورطوا فيها ، ولو كان ذلك بأمر الله ، فإنهم بعد أن دخلوا شبه جزيرة سَيناء ، وأشرفوا على أرض

الموعد : أرض فلسطين ، التى وعد الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تكون هذه الأرض ملكاً لأولادهم ، أمر الله موسى أن يذهب بمن معه من بنى إسرائيل للاستيلاء عليها ، إلا أن بنى إسرائيل خافوا وفزعوا ، ولم يرضَوْا أن يتقدموا لمحاربة الساكنين فيها ، وقالوا : إن فيها قوماً جبارين ، لا طاقة لنا بهم (تراجع الصفحتان ٥١ ، ٦١ من تفسير الجزء السادس)، وقد ورد الكثير من هذه القصة فى الآيات الآتية :

(٣)

من الآية ١٠٣ إلى الآية ١٢٦ من سورة الأعراف

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا الى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَظَلَمُوا بِهَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ -١- . وَقَالَ مُوسَى : يَا فِرْعَوْنُ ، إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، حَقِيقٌ عَلَى أَلَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ -٢- . قَالَ : إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ -٣- . فَأَلْقَى عَصَاهُ ، فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ ، فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ -٤- . قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ؟ قَالُوا : أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ، وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ -٥- . وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ، قَالُوا : إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ؟ . قَالَ : نَعَمْ ، وَإِنَّكُمْ

لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ —٦— . قَالُوا : يَا مُوسَى ، إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ . قَالَ : أَلْقُوا ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ، وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ —٧— . وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى : أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الْحَقُّ ، وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَغُلِبُوا هُنَالِكَ ، وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ —٨— . وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ —٩— . قَالَ فِرْعَوْنُ : آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ —١٠— . لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ، ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ —١١— . قَالُوا : إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ، وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ، وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ —١٢— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من بعدهم	من بعد من سبق ذكرهم من الأنبياء ، وهم نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب .
بآياتنا	بالمعجزات الدالة على صدقه .
فظلموا بها	فكفروا بها .
عاقبة المفسدين	آخر أمرهم .
فرعون	الفراعنة : ملوك مصر ، وعاصر موسى اثنين من الفراعنة ، يقول المؤرخون : إن أحدهما رمسيس الثانى الذى اضطهد بنى إسرائيل ، وولد فى زمنه موسىٰ ، والثانى منفتاح بن رمسيس الثانى ، الذى أرسل إليه موسى وهرون ، وكان ذلك فى نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة .
حقيقٌ عَلى ألا أقول على الله إلاّ الحق	أنا حريص على أن أقول الصدق فلا أكذب .
ببينة من ربكم	بمعجزة تؤيد ما جئت به ، هى من عند الله ، ولكنها تجرى على يدى .
فأرسل معى بنى إسرائيل	فاترك بنى إسرائيل يخرجوا معى إلى الأرض المقدسة ، التى هى وطنهم .
فإذا هى ثعبان مُبين	بمجرد إلقائها صارت حية كبيرة ، متميزة عن باقى الحيات

شرحها	الألفاظ
وأخرج يده من جيبه .	وَنَزَعَ يَدَهُ
بمجرد نزعها من جيبه ، ظهرت بيضاء ، يتألق منها نور ساطع .	فإذا هى بيضاء للناظرين
عالم بالسحر ، بارع فيه .	ساحر عليم
من أرض مصر .	من أرضكم
فبأى شىء تشيرون علىّ فى أمره ؟	فماذا تأمرون
أرجئه ، وتأن ولا تعجلْ فى الحكم عليه بشىء ، كالحبس أو القتل ، فإن مسألته تحتاج إلى إقناع وتفكير .	أرْجِه
جامعين .	حاشرين
وستصيرون منْ خاصتى .	وإنكم لمن المقربين
أرَوْهُمُ الأشياء على غير حقيقتها ، فخيلوا لهم ، وموّهوا عليهم .	سَحَروا أعين الناس
وأخافوهم إخافة شديدة ، وأوقعوا فى قلوبهم الرعبَ.	واسترهبوهم
بشىء ظهر عظيما فى عين من رآه .	بسحر عظيم
تبتلع .	تلقفْ
ما يزورونه ويسحرون به أعين الناس ، ويقلبونه عن الحق إلى الباطل .	ما يأفكون
فثبت الحق .	فوقع الحق
وصاروا أذلاء مبهوتين ، وتطامن كبرياؤهم ، بعد أن قهروا وغلبوا .	وانقلبوا صاغرين

الألفاظ	شرحها
وألقى السحرةُ ساجدين	خرّوا وسقطوا سُجداً لله ، كأنما ألقاهم مُلق .
لَمكرٌ مكرتموه فى المدينة	لحيلةٌ احتلتمُ بها ، باتفاقكم مع موسى .
لتخرجوا منها أهلها	لتخرجوا منها الأقباط ، وتُسكنوا بدلهم بنى إسرائيل
فسوف تعلمون	فسوف تعرفون ما يقع بكم من عذابى .
من خلاف	من كل ناحية طَرفاً : كاليد اليمنى والرجل اليسرى ، فيخالف بين العضوين .
إنا إلى ربنا مُنقلبون	مصيرنا جميعاً إلى الله ليحكم بيننا .
وما تنقمُ منا	وما تعيب علينا .
أفرغ علينا صبراً	أنزل علينا صبراً كثيراً ، واصببه علينا صباً .
مسلمين	ثابتين على الإسلام .

مجمل المعنى

١ ــ بعد أن أرسلنا من تقدم ذكرهم من الأنبياء، وهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، فآمن بهم ناس قليلون ضعفاء، وكذّب بهم كثيرون أقوياء ، فأنزل الله بهم ما أنزل ــ بعد هذا كله ، أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه ، وفى يده الحجج القويّة التى يؤيد بها رسالته ، ولكن فرعون وقومه لم يؤمنوا بموسى ، وكفروا بما جاء به ، ثم أمر الله نبيه محمداً عليه السلام أن ينظر ما حصل لفرعون وقومه الضالّين المفسدين ، بسبب تكذيبهم، موسى ، ليثبت قلبه ، ويبين له أن النصر مكفول له .

٢ ــ ولما أرسل الله موسى إلى فرعون ذهب إليه ، وأخبره أنه رسول من عند الله

أرسله إليه يدعوه إلى الإيمان به ؛ وإذ كان مرسلا من عند الله ، فإنه يجب عليه ألا يقول إلا الحق ، وأن يظهر الأدلة والبراهين التى أرسله الله بها ليصدقه فرعون وقومه ، ثم طلب إليه أن يرسل معه بنى إسرائيل ، ليخرج بهم من مصر التى يُستذلون فيها ويستعبدون ، إلى فلسطين موطنهم.

٣ — لم يصدق فرعون موسى ، وطلب إليه أنه إن كان معه براهين على صدقه، فعليه أن يقدمها ، ليدل على أنه صادق .

٤ — لما سمع موسى من فرعونَ أنه لن يصدقه إلا إذا رأى الآيات الدالة على صدقه ، ألقى عصاه من يده ، وبمجرد إلقائها صارت حية عظيمة جداً ، فهى فى جسمها وضخامتها وسعة فمها ، أضخم وأبشع من الحيات التى ألف الناس أن يرَوْها ، وأخرج يده من جَيبه، فإذا هى — وقد كانت سمراء — تصير بيضاء بياضاً شديداً ؛ لها نور يتألق فى عين من ينظر إليها ؛ فلما رأى فرعون وقومُه أن عصا موسى صارت حية تتحرك ، وأن يده التى كانت سمْراء صارت بيضاء من غير علة ولا مرض ، فزعوا وارتاعوا ، ورجوا موسى أن يُبعدَ عنهم تلك الحية، فلم يزد على أن مدّ يده إلى الحية وأخذها، فصارت عصا ، ثم وضع يده البيضاء فى جيبه وأخرجها ، فعادت إلى حالتها الأولى .

٥ — عجب رجال فرعون من الرؤساء والأشراف الذين كانوا حوله، حينما رأوا من معجزات موسى ما رأوا ، فأنكروها ، ووصفوه بأنه رجل بارع فى السحر ، يستطيع أن يخدع أعين الناس ، فيروا الشىء على خلاف حقيقته ، وهذا الساحر العظيم يريد أن يخرج أهل مصر من بلادهم ، ويبسط عليها سلطان قومه بنى إسرائيل ؛ فلما سمع فرعون من رجاله هذا ، قال لهم : أشيروا علىّ بما ترون فى أمر هذا الساحر ، فأشار قومُ فرعون عليه أن يُمهله هو وأخاه بعض الوقت ، فلا يحبسه ولا يقتله ، ولكنه

يؤجل ذلك حتى يستبين الحق ، فيرسل رسله إلى الأقاليم يبحثون عن مَهرة السحرة ويجمعونهم . . .

٦ — خرج الرسل إلى الأقاليم ، وبحثوا عن مهرة السحرة ، وأحضروهم إلى فرعون ، فلما عَرضَ عليهم أمر موسى ، سألوا فرعون عما إذا كان يعطيهم أجوراً على ما يبذلونه من جهد فى التغلب عليه ، إن أبطلوا سحْره ؛ ويَظهرُ أن فرعون كان معتادا ألا يُعطى أجوراً ، فإنه كان يسخّر الناس فيما يريد ، فوعدهم فرعون أن يمنحهم أجراً سخياً ، وأن يُكرمهم ويفضلهم ، ويقربهم على أهل مَملكته ، ويجعلهم خاصته ، ومن ذوى المنزلة الرفيعة لديه .

٧ — اتجه السحرة إلى موسى ، وخيَّروه بين أن يبدأ هو بإلقاء عصاه ، أو يبدءوا هم بإلقاء عصيهم وحبالهم ، فقال موسى للسحرة : ألقوا أنتم ما تريدون أن تُلقوا ، فألقى السحرة عصيهم وحبالهم ، فرآها الناس على غير حقيقتها ، وخدعتهم عيونهم ، وخيل إليهم أنها صارت حيات تسعى على الأرض ، فخاف الناس ، وخاف موسى أيضاً ، لما رأوا من هول السحر وخداعه ، فقد خُيل إلى الناس أنهم يرون حيات تملأ الوادى ، ويسعى بعضها فوق بعض .

٨ — فأوحى الله إلى موسى أن يُلقىَ عصاه ، فألقاها ، فسعت إلى جميع حبالهم وعصيهم التى خيل للناس أنها حيات ، وأخذت تبتلعها حية حية ، حتى أتت عليها جميعاً ؛ حين ذلك ظهر الحق ، واستبان أن موسى رسولٌ من عند الله ، وبطل ما كان السحرة يأتون به من خداع السحر وتخييله ، وبابتلاع عصا موسى ما كان مع السحرة من عصىّ وحبال ، ذهبت أباطيل السحر الذى كانوا يعملونه ، وتم الغلب لموسى ، ووقعت الهزيمة على فرعون وقومه ، وأصبحوا أذلاء مقهورين .

٩ — أما السحرَة فإنهم لم يكابروا كما كابر فرعون ، لأنهم يقدرون حقيقة

سحرهم ، وحقيقة معجزة موسى ، ويعرفون أن ما جرى على يد موسى لا يمكن أن يفعله بَشرٌ ، ولذلك لم يترددوا فى أنهم خروا إلى الأرض ساجدين ، وأعلنوا على ملأ من فرعون وقومه ، أنهم آمنوا برب العالمين ، الذى يدعو إلى الإيمان به موسى ، وأخوه هرون ، فهو رب الإنس والجن والملائكة ، وجميع العوالم التى نعرفها ، والتى لا نعرفها ، وفى هذا الكلام تحقير لشأن فرعون ، واستخفاف به .

١٠ — لما سمع فرعون من السحرة هذا الكلام جُنّ جنونه ، وقال لهم : آمنتم به قبل أن آذن لكم ؛ وهذا هذيانُ رجل مأخوذ بهوْل الموقف ، لأنه لن يأذن لهم أن يؤمنوا بالله ، ومع ذلك يعتب عليهم ويوبخهم ، لسبقهم بالإيمان قبل صدور الإذن منه ؛ ومن دليل الهذيان أنه ينكر عليهم ما فعلوا ، ويتهمهم بالاشتراك والمؤامرة مع موسى وأخيه ، وإعمال الحيلة على إخراج أهل مصر الأصليين منها ، وتمكين بنى إسرائيل من المقام فيها ، ثم يهددهم بما سيوقع عليهم من عقاب ، فإذا كان يقدّر أن إيمانهم بموسى مَكرٌ منهم ، ويهددهم بتعذيبهم ، فكيف كان ينتظر منه أن يأمرهم بالإيمان بموسى ؟ ولكنه هذيان المأخوذ من هول ما رأى ، مما كان لا يدور فى خياله أن يقع شىء منه .

١١ — وأما أنواع العذاب التى توعّدهم وهدّدهم بها ، فهى أولا : أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وذلك بأن يقطع من الواحد منهم يده اليمنى ورجله اليسرى ، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى ، فيخالف بين الطرفين ، وثانيا أن يصلبهم على جذوع النخل ، أو الشجر ، أو غير ذلك .

١٢ — لما رأى السحرة ثورته وتهديده ووعيده ، لم يأبهوا له ، ولم يرُعهم غضَبُه ، فلم يزيدوا على أن قالوا له : إن مصيرنا جميعاً إلى الله الذى آمنا به ؛ وأى شىء تنكره علينا ، وتعيبه منا ؟ أتنكر علينا أننا آمنا بالله ربنا ، بعد أن

رأينا الأدلة القاطعة على صدق ما جاء به نبيه موسى ؟ ولا تقدر أنت — مع ادعائك الألوهية — على هذا أو شيء منه ؛ وإزاء هذا التهديد الجنونى من فرعون ، فزع هؤلاء السحرة إلى الله سبحانه وتعالى ، وسألوه أن يلهمهم الصبر ، وأن يصبه فى قلوبهم صبّا ، إذا نفذ فيهم فرعون ماهددهم به من عذاب ، حتى لا يتأثروا به ، ولا يرتدوا عن طاعته ، والإيمان به ، وأن يموتوا مسلمين مؤمنين على دين موسى ووحدانية الله .

وقيل : إن فرعون نفذ فيهم وعيده ، فقطع أطرافهم ، وقتلهم وصلبهم ، فكانوا كما قيل : فى أول النهار سَحرة ، وفى آخره شهداء بَرَرة .

(٤)

من الآية ١٢٧ إلى الآية ١٣١ من سورة الأعراف

وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ : سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ —١— . قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ ، يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ —٢— . قَالُوا : أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ : عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ —٣— . وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ —٤— . فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا : لَنَا هَٰذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
أتذَر	أتترك ؟
ويَذَرَك وآلهتك	ويجعل قومه يتركون عبادتك وعبادة آلهتك ، كآمون والعجل أبيس وغيرهما ؟
ونستحيي نساءهم	ونستبقى نساءهم ، ونتخذهن جوارى رقيقات .
وإنا فوقهم قاهرون	وإنا مستعلون عليهم ، بقوة السلطان والغلبة والقهر .
والعاقبة للمتقين	والخاتمة الطيبة للذين يتقون الله .
ويستخلفكم فى الأرض	ويجعلكم خلفاء فرعون فى أرض مصر .
فينظر كيف تعملون	فيرى ما تعملونه من خير فيثيبكم عليه ، ومن شر فيعاقبكم عليه .
بالسنين	بالقحط والجدب .
لعلهم يذكرون	لعلهم يتعظون .
الحسنة	الصحة والخصب وحسن الحال .
لنا هذه	هذه حقنا ، ونحن نستأهلها .
سيئة	مرض وجدب وسوء حال .
يطيروا	يتشاءموا .
إنما طائرهم عند الله	إنما سبب خيرهم وشرهم مقدر عند الله ، وسابق فى علمه ، فلا تفاؤل ولا تشاؤم .

مجمل المعنى

١ – بعد أن حدث ما حدث بين موسى وفرعون والسحرة ، وبعد خروج السحرة على فرعون ، وإيمانهم بموسى ، عزّ على الأشراف من قوم فرعون أن يَروْا أن شوكةَ موسى بدأت تقوى ، وأن الناس أخذوا يشكون فى ألوهية فرعون ، وأن سلطانه أخذ يضعف ، فحرضوا فرعون على موسى وقومه ، وأنكروا عليه أن يَدَعهم يفسدون فى الأرض ، بإفساد مَنْ حَوْله من خدمه وحشمه وعبيده ، لأنه إذا تجرأ هؤلاء على سيدهم ، فسدَ عليهم كل شىء ، وترك شعبه جميعه عبادةَ ما أمرهم بعبادته من الآلهة ، ثم عبادته هو ، فلما رأى من خلصائه إنكار هذا تشجع ، ووعدهم أن يفجع بنى إسرائيل ومَنْ آمن بموسى فى أبنائهم بقتلهم ، وأن يفجعهم فى نسائهم باسترقاقهن ، ومعاملتهن معاملة الإماء ، وأكد أنه سيظل عالياً عليهم ، مستذلا لهم ، مستهينا بهم .

٢ – حينما بلغ موسى ما يريد فرعونُ أن يفعله ببنى إسرائيل ، وبمنْ آمن به من تقتيل الأبناء واستحياء النساء – أراد أن يطمئنهم ، حتى لا يجزعوا أو لا يفزعوا ، فأمرهم أن يستعينوا عليه بالله ، والله نعم المعين ، وأن يتذرعوا بالصبر على ما يلحقهم من الأذى والمكروه ، فإن الصبر قوة تُعين على احتمال المكاره ، وليست قوة فرعون شيئاً يذكر إلى جانب قوة الله ، فإن الأرض لله سبحانه وتعالى ، لا لفرعون ولا لغير فرعون ، والله مالكُ الأرض ، والمتصرف فيها وفيما عليها ، يمكن منها من يريد تمكينه من عباده ، والعاقبة الطيبة تكون للذين يتقون الله ويراقبونه ، ويخافونه ، فيتجنبون معاصيه ، ويطيعون أوامره .

٣ – ردّ بنو إسرائيل على موسى بأنهم أصابهم الأذى من فرعون ، قبل أن

يأتيهم برسالته ، ثم من بعد أن أتاهم رسولا ، وكان الإيذاء قبل مجىء موسى لهم بإذلالهم وقهرهم ، والمغالاة فى فرض الجزية عليهم ، وتكليفهم أداء الأعمال الشاقة ، وتسخيرهم فيها بدون أجر ؛ وبعد مجيئه بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وقتل أبنائهم ، واسترقاق نسائهم ، فأخذ موسى يقوّى رجاءهم ، ويُذهب خوفهم ، ويربط على قلوبهم ؛ فقال لهم مطمئناً مواسياً كعادته معهم إذا حزَبهم أمر ، أو اشتد بهم مكروه ، أو توقعوا من فرعون أذى شديداً : لعل الله ربكم أن يهلك عدوكم ، ويجعلكم ترثون أرضه ، وتخلفونه فى مُلكه ، ثم يرى بعد هذا ما تعملونه من الاستمرار على الإيمان والطاعة ، أو النكوص والعصيان ، وهو فى هذه الحالة يجازيكم بالخير خيراً ، وبالشر شراً .

٤ — اختبر الله فرعون وقومه ، وطاولهم وأرخى العنان لهم ، وكرر امتحانه لعلهم يتعظون ، وكان امتحان الله لهم على مراحل مختلفة متعددة ، فإنهم بعد أن ظلوا فى ضلالهم ، واستمروا على عنادهم وكفرهم ، أخذهم الله بعذاب من عنده ، وبدأ بالقحط والجدب ، بسبب ما أصاب ماء النيل من نقصان ، فلم يستطيعوا أن يُرْووا أرضهم ، فنقصت َغلاتهم ، وقلت ثمارهم ، وأصابهم فقر شديد ، واستمر ذلك عاماً بعد عام ، حتى ضاقت نفوسهم ، وأوشكوا أن َيتلفوا ؛ َفعل الله بهم ذلك لعلهم يتعظون ، ويرجعون إليه تائبين .

٥ — وكانوا إذا أصابهم خير : بأن أخصبت أرضهم ، وجاد َزرعهم ، وحسنتْ غلاتهم َمثلا ، قالوا : هذا شىء نحن نستأهله ونستحقه ، وإذا أصابهم شرٌ من قحط أو َجدْب ، أو نقص فى الأموال والأولاد ، مثلا — قالوا : إن هذا من شؤم موسى علينا ، ومن سوء طالعه هو وَمنْ معه من بنى إسرائيل ،

ولكنهم لو كانوا ذوى فهم وعقل ، لعرفوا أن ما يصيبهم من خير وشر مقدرٌ لهم عند الله ، فلا تشاؤم ولا تفاؤل ، ولكن جهلهم وغباءهم ، هو الذى جعلهم ينسبون الخير الذى ينالهم لأنفسهم ، وينسبون الشر الذى يصيبهم لموسى ومن معه .

(٥)

من الآية ١٣٢ إلى الآية ١٣٧ من سورة الأعراف

وَقالُوا: مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا، فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ -١- . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ، آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ، فَاسْتَكْبَرُوا ، وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ -٢- . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ، قَالُوا : يَا مُوسَى ، ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ، وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ -٣- . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ ، إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ -٤- . وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ، وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ -٥- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لتسحرَنا بها	لتخدعنا بها ، وتصرفنا عما نحن عليه .
الطوفان	المهلك القاتل من سَيل وغيره .
والقُمَّل	حشرات صغار من النمل وسُوس القمح والقراد وغيرها ، مما يؤذى الإنسان والحيوان والزرع .
والدمَ	وحولنا الماء دماء .
الرِّجْزُ	العذاب بأنواعه التى تقدمت .
بما عَهِدَ عندك	متوسلا إليه بما خصك به من العلم والنبوة .
كشفتَ عنا الرِّجْزَ	أزلت عنا هذه الأنواع المتتابعة من العذاب .
لنؤمنن لك	لنصدقن بما جئت به .
ولنرسلن معك بنى إسرائيل	ولنسمحن لك أن تُخرج بنى إسرائيل معك من مصر إلى فلسطين .
إلى أجل هم بالغوه	إلى وقت محدود ينتهون إليه ، لا ينفعهم بعده إمهالهم .
إذا هم ينكثون	بمجرد كشف العذاب عنهم نقضوا العهد ، فلم يؤمنوا
فانتقمنا منهم	فأخذناهم بذنبهم .
فى اليمّ	فى البحر .
بأنهم كذبوا	بسبب تكذيبهم .

الألفاظ	شرحها
القوم الذين كانوا يستضعفون	هم بنو إسرائيل الذين كانوا يُستذلون ويُستضعفون.
مشارق الأرض ومغاربها	يراد بها أرض الشام .
باركنا فيها	جعلناها خصبة تجرى فيها الأنهار ، وتنبت الزروع ، وتخرج الثمار
كلمة ربك	إهلاك العدو ، والاستخلاف فى الأرض ، ونصر المستضعفين .
بما صبروا	بسبب صبرهم .
ودمرْنا ما كان يصنع فرعون وقومه .	وأهلكنا ما كان يتمتع به فرعون وقومه ، مما منحهم الله من زرع وثمار ، وما صنعوه من بناء ، وما نسقوه من حدائق غناء .
يعرشون	يبنون من قصور وغيرها .

مجمل المعنى

١ — لم تُجد الآيات البينات التى جاء بها موسى فى إقناع فرعون والملأ من قومه ، ولم يزحزحهم عن الكفر ما أصابهم الله به من الجدب ونقص فى الأموال والأولاد ، بل أصروا على الكفر إصراراً ، وقالوا لموسى : مهما جئت لنا من بينة على أنك رسول من عند الله لتخدعنا بها ، فنؤمن بك ، فإننا لن نخدع ، ولن نؤمن بك ، وسنظل على ما نحن فيه من عبادة فرعون وآلهته .

٢ — إزاء هذا الإصرار على الكفر ، والإمعان فى الضلال ، كان لا بد من تأديبهم ، فبدأ الله ذلك على مراحل :

ا — أرسل عليهم الطوفان ، فهطل المطر ، وفاض النيل ، وغرقت بيوتهم وزروعهم ودوابهم ، فهرِعوا إلى موسى ، وسألوه أن يدعو ربه ليكشف عنهم ما أصابهم من ضر ليؤمنوا به ، فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم ما أصابهم ، ولكنها لم يؤمنوا .

ب — وأنبتت الأرض بعد ذلك نباتاً حسناً ، فقالوا : كان ذلك الماء الكثير نعمة علينا ، فلولاه لما ظهر هذا النبات ، فأرسل الله عليه أرْجالاً من الجراد ، فمحق زرعهم ، فهرُعوا إلى موسى ، كى يدعو ربه أن يكشف عنهم الجراد ليؤمنوا ، فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم ما أصابهم ، ولكنهم لم يؤمنوا .

حـ — وبقى بعد الجراد شىء من الزرع ، فقالوا : هذا يكفينا ، فبعث الله عليهم حشرات صغارا من النمل والقراد وسُوس القمح ، وغير ذلك مما يؤذى الإنسان والزرع والحيوان ، وينقل الأمراض ، فهرِعوا إلى موسى ، وسألوه أن يدعو ربه ، ليكشف عنهم ذلك الضر ليؤمنوا ، فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم الضر ، ولكنهم لم يؤمنوا .

د — وأرسل الله عليهم الضفادع التى ملأت طرقهم وبيوتهم وحقولهم ، وفرشهم وطعامهم وشرابهم ، فلا ينامون إلا على ضفدع ، ولا يستيقظون إلا على نقيق ضفدع ، ولا تقع أعينهم إلا على ضفدع ، وهكذا ساءت حالهم فهرِعوا إلى موسى ليسأل ربه أن يصرف عنهم الضفادع فيؤمنوا ، ففعل موسى ، فصرف الله عنهم الضفادع ، ولكنهم لم يؤمنوا .

هـ — وأرسل الله عليهم الدم ، فسال من أنوفهم ، وأفواههم ، وجرت به

مياههم ، فاعتلتْ أجسامهم ، وضاقوا ذرعاً بحياتهم ، فهُرِعوا إلى موسى ، وسألوه أن يدعوَ ربه ، ليكشف عنهم ما أصابهم ليؤمنوا ، فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم ما أصابهم ، ولكنهم لم يؤمنوا ؛ وهكذا فعل الله مع هؤلاء القوم ، وطاولهم ، وصابرهم ، لعلهم يعتبرون بهذه الآيات الكثيرة المبينة المفصّلة ، الواضحة الظاهرة ، ولكن اللؤم كان طبعاً فى نفوسهم ، والإجرام كان مالكاً عليهم عقولهم وقلوبهم ، ومشاعرهم وأحاسيسهم ، فاستكبروا على الإيمان بالله ، ولم يكن لهم فى كل هذه الدلائل وازع يزعهم ، وظلوا على إجرامهم وكفرهم .

٣ — سلط الله عليهم هذه الأنواع من العذاب ، ويجوز أن يكون قد سلط عليهم غيرها ، وكانوا فى كل مرة يُهرَعون إلى موسى ، ليسأل ربه أن يكشف العذاب عنهم ، فيسأل موسى ربه ، فيستجيب له ، لأنهم وعدوه أن يؤمنوا به ، وأن يتركوا له بنى إسرائيل يذهبون معه إلى حيث يشاء ويشاءون .

٤ — فلما رفع الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب الذى أنزله بهم إلى أجل محدود يَبلغونه ، وينتهون عنده سالمين ، ثم لا يمهلهم بعد هذا الزمن ، نقضوا عهدهم ، ولم يؤمنوا بموسى ، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، ولم يكن الله ليطاولهم أكثر منْ هذا ، فغضب عليهم ، وأنزل نقمته بهم ، بسبب تكذيبهم لآياته ، واستمرارهم فى ضلالهم ، وطغيانهم ، وبسبب غفلتهم عن وقوع نقمة الله عليهم ، وكان انتقام الله منهم بإغراقهم فى البحر .

٥ — أما القوم المستضعفون — وهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون وقومه يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، ويسخرونهم ويستعبدونهم — فإن الله سبحانه وتعالى عوضهم خيرا ، لصبرهم على استذلال فرعون لهم ، بأن

ورّثهم أرض الشام ، وهى أرض مباركة كثيرة الخيرات ، وبذلك تمَّ ما وعدهم الله به من النصر ، ومكّنهم فى الأرض، وجعلهم أئمة فيها، وأهلك فرعون وهامان وجنودهما ، ودمر ما كان لهم من زرع زرعوه ، ومعبد شادوه ، وفَرش فرشوه ، وبناء أقاموه ، وعرش عرشوه .

(٦)

من الآية ١٣٨ إلى الآية ١٤١ من سورة الأعراف

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ، فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا : يَا مُوسَى ، اجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ –١– إِنَّ هٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ : أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلٰهاً ؟ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ –٢– . وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ –٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
جاوزْنا	اجتزنا وقطعنا .
يعكفون على أصنام لهم	يقومون على عبادة تماثيل لهم ، ويداومون .
اجعل لنا إلهاً	اصنع لنا معبوداً نعبده .
إنكم قوم تجهلون	إنكم لا عقل لكم ، ولا علم عندكم ، لأنكم لم تتعظوا بمن قبلكم .

الألفاظ	شرحها
إن هؤلاء مُتبر ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون	إن هؤلاء الذين يعبدون غير الله ، مُدمر ما يعبدونه. مقضىٌ على دينهم بالزوال والبطلان .
أغيرَ الله أبغيكم إلهاً	أأطلب إليكم عبادةَ غير الله ، وقد رأيتم ما صنع الله بفرعون وقومه .
على العالمين	على عالمَى زمانكم .
يسومونكم سوءَ العذاب	يذيقونكم أشد العذاب وأقبحه .
ويستحيون نساءكم	ويستبقون نساءكم للخدمة .
بَلاء	اختبار وابتلاء ومحنة .

مجمل المعنى

١ — كان على مرأى ومسمع من بنى إسرائيل ، ما جرى بين نبيهم موسى عليه السلام، وبين فرعون وقومه، وكان يجب أن يكون فى ذلك عبرةٌ لهم ، ولكنهم لم يعتبروا ، فإنهم بعد أن خرج بهم موسى من مصر ، وقطعوا البحر ، ونجوا من فرعون وقومه — وجدوا جماعة من الناس ، صنعوا لأنفسهم أصناماً ، وأقاموا على عبادتها ، فاقترحوا على موسى أن يتخذ لهم تماثيل كأصنام هؤلاء الناس ، يعبدونها كما يعبد هؤلاء أصنامهم ، فكان عجيباً جداً أن ينسوا ما فعل الله بفرعون وقومه بالأمس ، لذلك رماهم موسى عليه السلام بالسفه والجهل والغفلة ، كأنهم لا عقل لهم ، ولا علم عندهم ، لأنهم لم يتعظوا بغيرهم .

٢ — فأكد لهم أن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام عبادتهم باطلة ، وأعمالهم

خاسرة ، وآلهتهم هالكة عاجزة ، وعذاب الله واقع بهم ، وأبدى عجبه منهم فى صورة توبيخ ، إذ طلبوا إليه أن يلتمس لهم إلهاً يعبدونه غير الله ، الذى فضلهم على أهل زمانهم ، بإرسال نبى إليهم لهدايتهم ، وبعد أن رأوا ما رأوا من آيات ربهم .

٣ — أفلا يذكرون أن الله نجاهم من آل فرعون ، الذين كانوا يستعبدونهم ، ويُذيقونهم العذاب ألواناً ، فيقتلون الذكور من أبنائهم ، ويسترقّون نساءهم ، وكان فيما يعملونه معهم محنة واختبار من الله لهم ، ليكون لهم فيه موعظة وذكرى ، فقد جرَتْ سنة الله فى خلقه ، أن يبلو عباده بالحسنات والسيئات ، للاختبار والامتحان .

(٧)

من الآية ١٤٢ إلى الآية ١٤٧ من سورة الأعراف

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ، فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَرُونَ: اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ، وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ —١—. وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ: رَبِّ، أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ: لَنْ تَرَانِي، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ، فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي؛ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا؛ فَلَمَّا أَفَاقَ، قَالَ: سُبْحَانَكَ! تُبْتُ إِلَيْكَ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ —٢—. قَالَ: يَا مُوسَى، إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ، وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ —٣—. وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ، وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا، سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ —٤—. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ

لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ —٥— . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ؟ —٦— .

الألفاظ	شرحها
وواعدنا موسى ثلاثين ليلة	جعلنا ثلاثين يوماً يصومها ، ثم ننزل عليه التوراة .
فتم ميقات ربه أربعين ليلة	فبلغ الوقت الذى واعد الله موسى عليه أربعين ليلة .
اخلفنى فى قومى	كن خليفتى فى قومى ، وقائماً على أمرهم ، حتى أعود إليك .
وأصلحْ	وانظر فى شئونهم بما يصلحها .
ولا تتبع سبيل المفسدين	إذا أفسد أحد منهم ، فصنْ نفسك ومَنْ معك من إفساده .
لميقاتنا	لوقتنا الذى حددناه له .
وكلمه ربه	أسمعه كلاماً من غير وساطة ملَك أو نحوه .
أرنى أنظر إليك	مكّنّى من رؤيتك ، فإنى مشتاق إليها ، فأستمتع بذاتك العليّة ، كما استمتعت بكلامك .

الألفاظ	شرحها
لن ترانى	لن تستطيع بعينك الباصرة الفانية أن ترى ذاتى الباقية ، التى لا يحدها حدود .
استقر مكانه	ثبت فى مكانه، وبقى على حاله .
تجلى	ظهر ظهوراً بلا كيف ولا حدود .
دكّا	كثيباً أو مستوياً بالأرض ، أو غائصاً فيها .
وخر موسى صَعِقاً	وسقط موسى مغشياً عليه .
أفاق	صحا من غشيته .
تُبتُ إليك	رجعت إليك ، وهذا تعبير يقال عند إظهار الخشوع والخضوع ، فليس المراد التوبة عن معصية .
أولُ المؤمنين	أول من يؤمنون بعظمتك ، وبأنك لا تمنح الرؤية فى الدنيا لمخلوق فان .
اصطفيتك على الناس	اخترتك من أهل زمانك ، وفضلتك عليهم .
برسالاتى	بأسفار التوراة التى أنزلها عليك .
وبكلامى	وبتكليمى إياك .
فخذ ما آتيتك	فاكتف بما منحتك من شرف النبوة ، وإنزال الآيات ، والتكليم .
وكن من الشاكرين	وكن من المعترفين بفضلى عليهم ، المظهرين لإحسانى إليهم .
الألواح	الألواح التى كتبت عليها التوراة .
من كل شىء	من كل ما يحتاجون إليه فى دينهم ، من الأحكام والمواعظ ، مفصّلة .

الألفاظ	شرحها
فخذها بقوة	فخذها بقوة ونشاط وعزيمة .
يأخذوا بأحسنها	يعملوا بالأوامر ، ويجتنبوا النواهى ، ويأخذوا بما هو أدخلُ فى الحسن ، وأكثر للثواب .
دار الفاسقين	ديارَ الذين كذبوا رسلهم ، فنزل عذاب الله بهم .
سأصرف عن آياتى	سأصرف عن فَهم آياتى ، والإيمان بها ، والانتفاع بما جاء فيها .
يتكبرون	يستكبرون على غيرهم ، ويظنون أنهم خير منهم ، ويتطاولون عليهم .
بغير الحق	غير مُحقين فى التكبر ، لأن الإنسان الضعيف لا يليق به أن يتكبر ، والكبرياء لله وحده .
آية	معجزة وحجة على استحقاقنا للعبادة دون غيرنا .
سبيل الرشد	طريق الهدى .
سبيلَ الغى	طريق الضلال .
بأنهم كذبوا	بسبب تكذيبهم .
وكانوا عنها غافلين	وكانوا بسبب تركهم النظر فى الآيات للعناد والتكبر ، كالغافلين .
ولقاء الآخرة	والبعث يوم القيامة .
حبطت أعمالهم	بطل ثواب أعمالهم .

مجمل المعنى

١ — بعد أن خلص الله موسى وقومه من فرعون ، ونجاهم من الغرق ، وخرجوا إلى الشاطئ الشرق — واعدَ الله موسى ، وأمرَه أن يلقاه ، فلما ذهب موسى لمناجاة ربه ، استخلف هرون على قومه ، وخرج على أن يعود إليهم بعد ثلاثين ليلة ، وأمر موسى أخاه هرون أن يُصلح فى بنى إسرائيل مدة غيابه ، وينظر فى شئونهم ، وأن يتنكب طريق من يحاول الفسادَ منهم ، ويباعدَ بينه وبين نفسه ، كما يباعد بينه وبين قومه ، حتى لا ينشر فيهم فسادَه ، وأتمَّ الله مواعدَته موسى أربعين ليلة ، وكان قومُه لا يعرفون إلا الثلاثين ليلة .

٢ — ولما ذهب موسى لمناجاة ربه فى الميعاد المحدد ، وبدأ الله يناجيه — قال موسى : رب ، أرنى أنظر إليك ، ومكّنّى من رؤيتك ، وتجلَّ لى بعظمتك ، ولكنه سمع من الله ، أنه لن يراه ، لأنه لا طاقة له برؤيته إذا تجلّى له ، ويكفى أن يناجيه ، ويرى آثار عظمته وقدرته ، فيه وفى خلقه ، لأن العين الباصرة الفانية ، لا تستطيع أن ترى ذات الإله العلية الباقية ، وبيّن له أن رؤية الله لا تتحملها الجبال الرواسخ ، فهذا الجبل الذى تقف عليه ، والذى لا يتخلخل ولا يتحرك من مكانه ، إذا تجليت له صار كثيباً مهيلا ، أو مدكوكاً فى الأرض ، مستوياً أعلاه بسطحها ، فإن استقر الجبل ، مكانه حينما أتجلى له ، فإنك تستطيع أن ترانى ، ثم تجلى الله للجبل ، فدُكّ الجبل ، فهال موسى ما رأى وأفزعه ، وخر مغشياً عليه من شدة الهول ، ولما أفاق من غشيته ، وثاب إليه رشده ، عرف أنه ما كان له أن يطلب رؤية الله عياناً ، بعد أن تفضل عليه بتكليمه مناجاةً ، وقال :

أنزهك يا رب أن يراك أحد من خلقك، لقد تبت إليك مما اجترأت عليه، وأنا أول مؤمن بأنك لا تُرى عياناً، لأحد من خلق الدنيا .

٣ — قال الله له : يا موسى ، إنى اخترتك من بين قومك ، واختصصتك بألواح التوراة التى أنزلتها عليك ، وبمناجاتى ، فخذ منى ما أعطيتك من الألواح ، وما فيها من أصول الشريعة التى تبلغها قومك ، واشكر لى ما حبوتك به من الرسالة ، وما خصصتك به من المناجاة .

٤ — والألواح التى أنزلها الله عليه : كتبَ له فيها كل ما يحتاج أن يبلغه إلى قومه ، من أصول التوحيد والعبادات والمعاملات ، وبيَّن له فيها تفصيل كل ما يحتاج إلى تفصيل، من الأوامر والنواهى وغيرهما، وأمره الله أن يأخذ ما تتضمنه بجد ، وقوة عزم، مطيعاً لله فيما أمرَ به فيها ، وما ينهى عنه، وأن يأمر قومَه أن يطلعوا عليها ، ويفهموا ما فيها ، ويتبعوا ما أمرهم به ، ويجتنبوا ما نهاهم عنه ، وليعلم قومُك إذا تمردوا عليك ، وحاولوا مخالفتك وعصيانك ، أنى سأعمل معهم ما عملته مع غيرهم من الفاسقين العصاة ، الذين عصَوا أنبياءهم، ولأجل أن يعرفوا ذلك، فسيرَوْنَ ديارهم فى مسيرهم، ويرون أننا دمرناها وأهلكنا اهلها ، ويروْنَ آثار ما وقع بهم من عذاب ، وسيرون أيضاً دارهم فى الآخرة ، وهى جهنم التى أعدها لهم إن خالفوك ، ولم يستجيبوا لك ، ولم يتعظوا بما حدث لغيرهم من الذين سبقوهم .

٥ — أخبر الله أنه سيصرف عن فهم آياته ، والانتفاع بأدلته التى تدل على صدق رسله ، فيما يأمرون به وينهوْن عنه ، الذين يستكبرون على غيرهم ، ويظنون أنهم خير منهم ، وهؤلاء طبع الله على قلوبهم ، وصرفهم عن الإيمان بالله ورسله ، وفهم ما له من آيات تدل على وحدانيته وألوهيته ، وبيَّن أن تجبرهم وتكبرهم، جعلهم لا يؤمنون بأى آية من الآيات، التى تُعرض

عليهم ، أو تقع تحت حسهم ، أو فى دائرة إدراكهم وفهمهم ، وهؤلاء إن يَرَوْا طريق الهدى والرشاد ، الذى يصل بهم إلى الفوز والنجاة إن سلكوه ، تنكبوه وحادوا عنه ، ضلالا منهم وجهلا ، وإن يروا طريق الغىّ والضلال ، الذى ينتهى بهم إلى الهلاك والعذاب إن سلكوه ، جعلوه لأنفسهم طريقاً ، واندفعوا فيه اندفاعاً ، سفاهةً منهم وحمقاً ، ذلك كله يفعله الله بهم ، عقاباً لهم على تكذيبهم رسله ، واستكبارهم عليهم ، وإيذائهم إياهم ، وغفلتهم عن التفكير فى نصائحهم ، والنظر فى آيات ربهم .

٦ — وهؤلاء المستكبرون المتعنتون ، الذين يكذبون حجج الله ، وآياته التى تأتيهم على يد رسله ، وينكرون أن هناك يوماً آخر ، يَلقى الناس فيه ربهم لمحاسبتهم — هؤلاء ذهبت أعمالهم سدى ، وبطل ما فيها من خير يظنونه ، وبقى ما فيها من شر يغفلون عنه وينسَوْنه ، لأنهم لم يعملوا لله ، ولم يطلبوا رضاه ، وهم إنما يُجزَوْن على سوء نياتهم حين أداء أعمالهم ؛ وكل مالا يطلب به وجه الله ضائع ، وشره لا ينجو منه صاحبه ، فهو مخلد به فى نار جهنم .

(٨)

من الآية ١٤٨ إلى الآية ١٥٤ من سورة الأعراف

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ؛ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ؟ ، اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ —١— . وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ، قَالُوا : لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ —٢— . وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ، قَالَ : بِئْسَ مَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ؛ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ؛ قَالَ : ابْنَ أُمَّ ، إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ، وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ —٣— . قَالَ : رَبِّ ، اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ، وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ —٤— . إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ —٥— . وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا

لَغَفُورٌ رَحِيمٌ —٦— . وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ، وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ —٧— .

الألفاظ	شرحها
من بعده	من بعد ذهابه إلى الطور .
عجلاً	دو تمثال عجل .
جسداً	مجسداً مصبوباً كجثة العجل وبدنه .
خُوار	صوت ، والخوار : صوت البقر خاصة .
ولا يهديهم سبيلا	ولا يقدر أن يهديهم إلى أى طريق .
اتخذوه	جعلوه إلهاً .
ولما سُقط فى أيديهم	ولما ندموا على ما حصل منهم ندماً شديداً، فعضوا على أيديهم بأفواههم التى سقطت عليها .
ورأوا أنهم قد ضلوا	وتحقق لهم ضلالهم تحقق المرئى بالعين .
الخاسرين	الضالين فى الدنيا والآخرة .
أسفاً	حزيناً حزناً شديداً .
بئس ما خلفتمونى من بعدى	بئس العمل الذى عملموه من بعد غيبتى ، فعبدتم العجل بدل عبادة الله .
أعجلتم أمر ربكم	أعجلتم ميعاد ربكم فلم تصبروا .

الألفاظ	شرحها
وألقى الألواح	وطرح الألواح من يديه من شدة غضبه .
وأخذ برأس أخيه	وجذب أخاه من شعر رأسه ولحيته .
فلا تُشمتْ بى الأعداء	فلا تُهنِّى إهانة تشمت بى الأعداء .
اغفر لى	استر علىّ قسوتى على أخى .
ولأخى	واستر على أخى ما يكون قصر فيه .
وذلة	وَهوانٌ يشعرون به عند لقاء الناس .
سكت عن موسى الغضب	سكن غضب موسى ، وهدأت ثورة نفسه .
وفى نسختها	وفيما هو مكتوب فيها .
لربهم يرهبون	يخشون عقابه ويخافون فعل ما يغضبه .

مجمل المعنى

١ — ذهب موسى لمناجاة ربه فى الطور ، فجاء السامرىّ ، واحتال على جمع الحلى التى حملتها النساء من بنى إسرائيل من مصر ، وصنع منها تمثالا لعجل ، يشبه عجل أبيس ، الذى ألف المصريون عبادته ، على مرأى من بنى إسرائيل ، وصُنِعَ هذا العجل صُنعاً يجعل الريح تصفر إذا دخلت فى جوفه وخرجت من فمه ، وهذا الصفير يشبه خوار البقر ، فإذا سمعه الجاهلون ظنوا أن فيه حياة ، فخدع بهذا بنو إسرائيل أو أكثرهم ، وعاودهم الحنين إلى عبادته ، كما كانوا يفعلون فى مصر ، ولو أنهم تبصروا قليلا ، لعرفوا أن هذا العجل لا تجوز عبادته مطلقاً ، لأنه عاجز وقاصر ، فهو أبكم لا يستطيع أن يتكلم كما يتكلمون ، فكيف يكون الإله عاجزاً عما

يقدر عليه من يعبدونه ، وهو لا يستطيع أن يَهدى غيره سبيل الرشاد ، وهو لا يستطيع أن يضر أو ينفع ؛ فهم إذا اتخذوه إلهاً ظلموا أنفسهم فى الدنيا والآخرة .

٢ — فلما رجعوا إلى أنفسهم ، وفكروا فيما فعلوا ، وتحققوا أنهم ضلّوا ، وحادوا عن طريق الصواب ، ندموا ندماً شديداً على ما فرّط منهم ، وحلفوا أن هذا الذنب العظيم الذى ارتكبوه لا يسعه إلا رحمة الله وغفرانه ، وتجاوزه عما ارتكبوا ، فإن لم يغفر الله لهم ويرحمهم ، فسيخسرون سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

٣ — ولما رجع موسى من الطور بعد مناجاة ربه ، ومعه الألواح التى دُونتْ فيها الشرائع ، ورأى ما وقع فيه قومه من الانحراف الشنيع بعبادة العجل ، غضب غضباً شديداً ، وتملكه همّ وحزن عظيمان ، ونسب إلى أخيه هرون تقصيراً شديداً ، جعل بنى إسرائيل يخرجون عليه ، ويضلون هذا الضلال ، فقال : بئس العمل هذا الذى عملتموه بعدى ، وبئست الخلافة التى خلفتمونيها بعد تركى إياكم ، وذهابى لمناجاة ربى ، ووبخهم على أنهم استعجلوا عودته ، فلما لم يصل بعد الثلاثين ليلة ، تركوا ما كانوا عليه من جلال التوحيد ، إلى قبح الإشراك بعبادة العجل ، وطرح الألواح من يده ، وأمسك بشعر رأس أخيه ولحيته ، وجذبه إليه ، لأنه ظن به تقصيراً عن زجرهم ، ونهيهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه ، فقال له هرون فى استعطاف واسترحام وخشوع : يا ابن أمى : لا تستعجل مؤاخذتى وتعنيفى وإهانتى ، فإنى لم أقصر فى إرشاد القوم ، ونهيهم عن فعل ما فعلوا ، والنصح لهم بالبقاء على ما ندعو إليه من دين ، ولكنهم استضعفونى ، وثاروا علىّ ، وهموا بقتلى ، وإن الذى تفعل بى الآن ، يجعل أعداءنا يشمتون بى ، ويظنون أنى من الذين ظلموا أنفسهم ، بعبادة العجل مع الذين عبدوه .

٤ – تأثر موسى بكلام أخيه، ورقّ له ، وسأل الله أن يغفر له قسوته على أخيه، ومغالظته له ، وأن يغفر لأخيه ما عسى أن يكون وقع فيه من تقصير فى نصحهم ، بسبب ما توهم من أنهم يهمون بقتله إن ظل على مناصحتهم ، وسأله أن يغمره هو وأخاه برحمته ورضوانه ، لأنه واسع الرحمة يمنحها عبده إذا رضى عنه ؛ وفى هذا الدعاء من موسى استرضاء لأخيه ، واعتبار له ، وكيد لأعدائه .

٥ – وهؤلاء الذين عبدوا العجل يغضب الله عليهم غضباً شديداً ، ويستذلهم بما يحسونه من هوانهم على الناس واحتقارهم ، وبمثل هذا الجزاء الذى جازاهم الله به فى الدنيا ، يجازَى المعتدون فى كل مكان وفى كل زمان ، ومن كل ملة ، وعلى أى دين .

٦ – والذين كفروا وارتكبوا ما ارتكبوا من السيئات والمعاصى ، ثم ندموا وتابوا ، ورجعوا إلى الله ، وإلى أوامر نبيه ونواهيه ، وتمكّن الإيمان من قلوبهم ، وظهرت آثاره فى أقوالهم وأفعالهم – هؤلاء يغفر الله لهم ذنوبهم ، ويستر عليهم سيئاتهم ، ويدخلهم فى رحمته ، ويتفضل عليهم يوم القيامة بدخولهم فى جنته .

٧ – هدأت نفس موسى ، وسكنت ثائرته ، بعد أن بيَّن له أخوه وجه العذر ، فاستغفر الله له ولأخيه ، وعاد إلى الألواح التى كان ألقاها ، وأخذها ، وكان فيما كتب فيها هدى وإرشاد للذين يخافون ربهم ويخشون عذابه ، ويرهبون عقابه إن خالفوا ، وحادوا عن طريق الصواب .

(٩)

من الآية ١٥٥ إلى الآية ١٥٧ من سورة الأعراف

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، قَالَ : رَبِّ ، لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ، تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا ، فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ –١– . وَاكْتُبْ لَنَا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ، إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ : عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ –٢– الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ –٣– . فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ –٤– .

الألفاظ	شرحها
قومه	من قومه .
لميقاتنا	للوقت الذى وقته الله تعالى له ، ليعتذروا عما فرط منهم من عبادة العجل .
أخذتهم الرجفة	أصابتهم رجفة الجبل بالصعق ، والزلزلة الشديدة .
من قبلُ	بسبب عبادتهم العجل .
وإياى	وأهلكتنى بسبب قتلى القبطى .
فتنتك	امتحانك وابتلاؤك .
أنت ولينا	أنت المتولى لأمورنا .
واكتبْ لنا	وأوجب لنا ، وحقق لنا ،
حسنة	حياة طيبة ، وتوفيقاً فى طاعتك .
وفى الآخرة	وأوجب لنا فى الآخرة ثواباً حسناً .
إنا هُدْنا إليك	إنا تبنا ورجعنا إليك .
عذابى أصيب به من أشاء	عذابى خاصّ ، أعذب به من أشاءُ .
ورحمتى وسعتْ كل شىء	ورحمتى وسعت كل شىء فى العالمين ، فهى عامّة مبذولة .
فسأكتبها	فسأوجبها بمشيئتى .
الرسول	النبىّ : الذى يأمره الله بتبليغ شرع ودين ، ويحكم بين الناس ، ويجوز أن يكون الرسول تابعاً لشرع غيره ودينه ، كرسل بنى إسرائيل ، اتبعوا شريعة موسى ، أو ناسخاً لبعضه ، كما نسخ عيسى بعض أحكام شريعة موسى ؛ والمقصود به هنا : نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

الألفاظ	شرحها
النبىّ	الرجل الذى يوحى الله إليه بعلم لم يحصله بالكسب ، ويعلم أنه من عند الله ، فكل رسول نبى ، ولا عكس .
الأمىّ	الذى لا يقرأ ولا يكتب .
يجدونه مكتوباً	يجدون صفته ونعته مكتوبا .
الطيبات	ما تستسيغه الأذواق والأجسام من الطعام ، مما كان محرماً على بنى إسرائيل ، وما يكسبُ عن طريق حلال من الأموال .
الخبائث	ما تنفر منه الأذواق ، وتُضربه الأجسام من الطعام ، كالميتة ولحم الخنزير ، وما يكسب عن طريق حرام من الأموال .
إصرَهم	ثقلهم الذى يمنعهم من الحركة ، والمراد : ما صعب من التكاليف ، كقتل النفس ، لقبول التوبة .
والأغلال	والقيودَ الثقيلة ، وهى مُثُل لما كان فى شرائع بنى إسرائيل من الأشياء الشاقة ، كقطع الأعضاء الخاطئة ، وقَرْض موضع النجاسة من الجلد والثوب .
وعزّروه	ومنعوه ونصروه وأعانوه ، حتى لا يقوى عليه عدوّ ، مع تعظيمهم وإجلالهم له ، وحبهم إياه .
ونصروه	وساعدوه باللسان والسيف .
النور	القرآن .
المفلحون	الفائزون بالجنات العلا .

مجمل المعنى

١ — واختار موسى سبعين رجلا من خيار قومه وأحسنهم ، وأشدهم إيماناً بالله ، وأمرَه الله أن يأتى بهم ، وأن يذهبوا إليه فى الميعاد الذى حدده الله لهم على الطور ، وكان ذلك على ما نختار — بعد المناجاة الأولى — وبعد عبادة عجل السامرىّ ، لأن حادثة عبادة عجل السامرىّ بيَّنت الخبيث من الطيِّب من بنى إسرائيل ، ولذلك اختار موسى خيارهم ، وكانوا من الذين لم يُطيعوا السامرىَّ ، ولم يعبدوا عجله ، ليعتذروا عما فعل قومُهم ، وهؤلاء السبعون أصابتهم رَجفة على الطور ، ولحقتهم غَشية لمَّا زلزل الجبل بهم ، لأنهمْ وإن كانوا من خيار بنى إسرائيل ، ولم يعبدوا العجل كما عبده غيرهم ، لم يهجروا قومهم إنكاراً عليهم حين عبدوه ، بل ظلوا معهم ؛ فارتبك موسى ، وخشى أن يكونوا قد ماتوا ، وتمنى على الله أن لو كانت إرادته سبقت بهلاكهم وهلاكه معهم ، قبل خروجهم إلى الطور ، حتى لا يكون مُحْرجاً مع قومه، حين يرجع إليهم من غير هؤلاء الرجال ، ثم خاطب ربه : أمَّا وأنت يا ربىّ لم تُهلكنى ولم تُهلكهم ، قبل مجيئنا إلى الجبل، فامنن عليهم برحمتك وعفوك، واكشف عنهم ما بهم ، وأعدْ إليهم حياتهم ، ولا تُهلكنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا ، وليست المحنة التى وقع فيها السفهاء إلا محنتك ، ابتليت بها بنى إسرائيل ، أضللت بها قوماً لفساد فطرتهم فافتتنوا بها ، وعصمت قوماً عنها ، فثبتوا على الحق ؛ قال موسى كل هذا ، ثم عقب عليه بأن قال لمولاه : أنت المتولى لأمورنا ، فاغفر لنا كل عمل نتيجته مؤاخذة منك لنا ، ونزول

العقاب بنا ، وارحمنا برحمتك الواسعة ، فأنت خير الغافرين ، وأنت خير الراحمين .

٢ – استمر موسى فى دعاء ربه ، فقال : وحقق لنا يا ربنا حياة حسنة فى الدنيا ، بحيث نعيش فى كثرة من الأموال والأولاد ، ونتمتع بالصحة والعافية والتوفيق ، وحقق لنا يا ربنا مثوبة حسنة فى الآخرة بدخول الجنة ، والتمتع بها ؛ وناجى موسى ربه بأنهم تابوا ورجعوا إليه ، وأسفوا على ما وقع من سفهائهم ، وعلى ما حدث من تقصير خيارهم فى نهيهم ، والإنكار عليهم ، وتابوا ورجعوا ، وندموا على كل ما كان منهم من الأمور التى لا تُرضيه ؛ قال الله : عذابى خاصّ ، ورحمتى عامّة ، فعذابى إنما يصيب طائفة خاصّة من الناس ، وهم الذين يكفرون بى ، ويعصون أمرى ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فالرحمة من صفاتى ، والعذاب من عدلى ، وسأثبت هذه الرحمة ثبوتاً قاطعاً :

ا – للذين يخافوننى فلا يكفرون بى ، ولا يعصوننى .

ب – وللذين يؤدون الزكاة المفروضة عليهم بشروطها ، لمستحقيها ، وفى أوقاتها ، وإنما خصت الزكاة ، لأن فى أدائها مقاومة للنفس التى يفتنها المال ، ولا سيما إذا كان صاحب المال يهودياً .

حـ – وللذين يصدقون بجميع آيات الله الدالة على ربوبيته ، ووحدانيته ، وصدق رسله .

٣ – ثم وصف الله الرسول – عليه الصلاة والسلام – الذى أوجب اتباعه على جميع الخلق ، وعلى كل من يُدركه من بنى إسرائيل وغيرهم ، بصفات ونعوت ، منها :

ا – أنه نبى أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب .

ب – وأن صفاته ونعوته مكتوبة فى التوراة التى أنزلها على موسى ،

ومكتوبة فى الإنجيل الذى أنزله على بنى إسرائيل فى عهد عيسى .

حـ — وأنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر .

د — وأنه يُحل الطيبات التى تستسيغها الأذواق والأجسام من الطعام واللباس ، وما يُكسبُ عن طريق حلال من الأموال .

هـ — وأنه يحرم الخبائث التى تنفر منها الأذواق ، وتضر الأجسام ، من الطعام والشراب واللباس ، وما يُكسب من طريق حرام من الأموال.

و — وأنه يعفيهم مما صعب عليهم من التكاليف ، وأرهقهم من التشريعات ، كقتل النفس الخاطئة لقبول التوبة منها .

ز — وأنه يفُك عنهم القيود الشرعية الثقيلة التى كانوا ينوءون تحت أعبائها ، بقطع الأعضاء الخاطئة عند بنى إسرائيل ، وقَرض موضع النجاسة من الجلد والثوب .

٣ — فالذين يؤمنون بهذا النبىّ الذى هذه صفاته ، وتلك نعوته عند مبعثه ، من قوم موسى ، ومن غيرهم من كل مَنْ يدرك زمن رسالته ، ويعينونه وينصرونه ، حتى لا يقوَى عليه عدو ، مع حبهم إياه ، وتقديرهم له ، ويكون نصرهم إياه بالقول والفعل ، على حسب المقام الذى يدعو إلى الدفاع والمناصرة — هؤلاء هم الفائزون برحمة الله ورضوانه ، والتمتع بألوان المتع ، وأنواع النعيم فى جناته .

(١٠)

من الآية ١٥٨ إلى الآية ١٦٣ من سورة الأعراف

قُلْ: يٰأَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ -١- . وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ -٢- . وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً، وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ: أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، وَمَا ظَلَمُونَا، وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ -٣- . وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ: اسْكُنُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ، وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ، وَقُولُوا: حِطَّةٌ، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ، سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ -٤- . فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ

لَهُمْ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ —٥— .
وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ، إِذْ يَعْدُونَ فِي
السَّبْتِ ، إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وكلماته	وكتبه المنزلة على أنبيائه الذين سبقوه .
يَهدُون بالحق	يدعون الناس إلى الهداية بالحق .
وبه يعدلون	وبالحق يحكمون حكماً عادلا .
وقطعناهم	وفرقناهم .
أسباطاً	أمماً وجماعات ، وأصل السبط : ولد الولد ، وأسباط بنى إسرائيل : سلائل أولاد يعقوب العشرة ، وسلائل ولدى ابنه يوسف .
استسقاه قومه	طلبوا منه الماء للسقيا .
فانْبجستْ	فانفجرت .
قدعلم كل أناس مشربهم	قد عرف أناس كل سبط المكان الذى يشربون منه .
وظللنا عليهم الغمام	وسخرنا لهم الغمام يُلقى عليهم ظله ، حتى لا تؤذيهم الشمس ، وتلفح وجوههم .

الألفاظ	شرحها
المنّ	مادة بيضاء مائعة لزجة ، تنزل من الجو كما ينزل الطل ، طعمها حُلو كالعسل ، تنزل على الحجر وورق الشجر ، ثم تجمد وتجف ، فيجمعها الناس.
السلوى	طير يشبه السُّمانَى ، أو هو السمانى .
هذه القرية	بيت المقدس .
وقولوا : حطة	وادعو الله أن يحط عنكم خطايا تقصيركم ، وكفركم بنعمه .
وادخلوا الباب سجداً	وادخلوا خاشعين لله ، خاضعين لأمره ، مقرين بعظمته وجلاله .
خطيئاتكم	ذنوبكم .
رجْزاً	عذاباً .
بما كانوا يظلمون	بسبب ظلمهم المستمر .
حاضرة البحر	قريبة من البحر ، واقعة على شاطئه وهى : « أيلة » التى على ساحل البحر الأحمر .
يَعدون فى السبت	يتجاوزون حدودهم يوم السبت الذى حُظرَ عليهم العمل فيه ، ليتفرغوا للأعمال الدينية والتعبدية .
حيتانهم	سمكهم .
يوم سبتهم	يوم تعظيمهم أمر السبت ، بترك العمل والتفرغ إلى الراحة والعبادة .
ويوم لا يسبتون لاتأتيهم	ولا تأتيهم ولا تظهر لهم فى غير يوم راحتهم .
كذلك نَبلوهم بما كانوا يفسقون	بمثل هذا الامتحان يمتحنهم ربهم ، بسبب عصيانهم المستمر .

مجمل المعنى

١ — فى سياق قصة موسى عليه السلام ، ذُكرت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فى إحدى الآيات ، وهذه الآية تدل على عموم رسالته ، وعدم اقتصارها على قوم دون قوم ، أو زمان دون زمان ، فأمرَ الله محمداً أن يقول للناس جميعاً : إنى رسول الله إليكم كافة ، لا إلى العرب خاصة ، كما يزعم بعض اليهود ويزعم المسيحيون، بل إنى أرسلت إلى الإنس ، والجنّ بشيراً ونذيراً ، والله الذى أرسلنى إليكم هو الله الذى يملك السموات والأرض وما بينهما ، ويقوم بالتصرف فيهما ، ويتولى تدبيرهما ، فهو واحد لاشريك له ولا ولد ، قادر على الإحياء والإماتة ، والبدء والإعادة ، ثم يأمرهم أن يؤمنوا بالله الواحد القهار ، وأن يؤمنوا برسوله الأمىّ ، المبعوث فى الأميين للناس جميعاً ، الذى يؤمن بالله الذى يدعو إليه ، ويؤمن بكتبه التى نزلت على أنبيائه ، وبما فيها من شرائع ، كما يأمرهم أن يُذعنوا له ، ويتبعوا كل ما جاء به ، رَجاءَ اهتدائهم لما فيه خيرهم ، وصلاحهم ، فى الدنيا والآخرة .

٢ — ويخبر الله أن من بنى إسرائيل جماعةً مهديين ، يرشدون الناس إلى ما جاء فى كتابهم من الحق فى صفة محمد ، ويحكمون به حكماً عادلا بين الناس ، فلا يميلون مع الهوى ، ولا يطغى عليهم التعصب المقيت ، ولا يخرجون عن حدود التعليمات التى جاءت إليهم على يد رسولهم ، ومن هؤلاء المهديين الهادين ، من كانوا فى زمن موسى وبعد زمانه ، ومنهم أنبياء بنى إسرائيل والربانيون .

٣ — تحدث الله عن قوم موسى بأنه فرّقهم اثنتى عشرة فرقة أسباطاً أمماً ،

تسمى كل فرقة سبطاً ، وكانوا من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهم الذين انحدروا من أولاده العشرة — ما عَدا لاوى — والذين انحدروا من وَلَدىْ يوسف عليه السلام ، وأما سُلالة ابنه لاوى ، فإنهم كانوا دُعاةً لله فى جميع الأسباط ، ولم يكن لهم سبطٌ بعينه ، والأسباط فى بنى يعقوب ، بمثابة القبائل فى بنى إسماعيل ، وقد عدد الله النعم التى أسبغها على بنى إسرائيل كما يأتى :

ا — ظمئ بنو إسرائيل وأجدبوا ، فعتبوا على موسى أن أخرجهم من مصر ، بلاد الخصب والخير والبركات ، فطلب موسى من ربه السقيا لهم وهم فى التيه ، فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه التى ضرب بها البحر حجراً ، فضرب الحجر ، فانفجر الماء منه ، وخرج من اثنتى عشرة عيناً ، بعدد الأسباط الاثنى عشر ، وخُص كل سبط بعين ، وعُينتْ له ، حتى لا يعتدى بعضهم على بعض ، وحتى لا يغدر قوى بضعيف ، فيتمكن الجميع من السقيا .

ب — ومن نعم الله عليهم ، أن سخر لهم الغمام يُظلهم فى التيه ، فلا تؤذيهم الشمس ، ولا يلفح وجوهَهم الحرّ ، ويتمتعون بجو معتدل لطيف ، كمن يعيشون بين المروج والأشجار ، ومع أن بنى إسرائيل كان عندهم ما يكفيهم من طعام ، قالوا لموسى : لن نصبر على طعام واحد ، فأنزل الله عليهم المنّ الذى كثر نزوله عليهم ، وكانوا يجمعونه من فوق الأحجار ، وورق الأشجار ، بعد أن يغلظ ويصير له قوام ، ويأكلونه ، وكذلك هاجر فى هذا الوقت طير السُّمانَى ، إلى شمال أفريقية (السَّمّان) ، وكان إذا وصل إلى سَيناء أدركه التعب ، فينزل إلى الأرض فيمسكونه ، ويتغذون بلحمه ، وقد كثر هذا الطير فى موسمه هذا كثرة كاد يغطى بها سطح الأرض ،

أو حتى كأنّ الأرضَ كانت تُمطر السمانى ، وبعد أن تفضل الله عليهم بتوفير المنّ والسلوى لهم ، أمرهم أن يأكلوا منها ، فقد رزقهم إياها رزقاً حلالا طيباً ، وهؤلاء الناس الذين كانوا يتدللون على نبيهم ، ويتعسفون فيما يطلبون منه ، فيستجيب الله له فيما يدعو لهم به ، مطاولة لهم — لم يظلموا نبيهم ، ولم يظلموا ربهم بعنادهم ، ولكنهم كانوا يظلمون أنفسهم ، إذ سيؤاخذهم الله بسوء ما كانوا يفعلون ، وسيمنع عنهم نعمه ، وينزل بهم نقمه .

٤ — لقد أمرهم الله أن يدخلوا « بيت المقدس » ، حيث السعةُ والخصب ، وأن يأكلوا كما يشاءون ، مما فيه من فواكه وثمار ، وأن يدخلوه خاشعين خاضعين ، وأن يسألوا الله أن يحط عنهم ذنوبهم ، وخطاياهم ، ويتجاوز لهم عن سيئاتهم وأوزارهم : من كفران للنعم ، وتماد فى الضلال ، ووعدهم الله أنهم إن فعلوا هذا يستر عليهم خطاياهم ، ويغفر لهم ذنوبهم ، كما وعد المحسنين منهم فى عملهم أن يزيدهم ثواباً وأجراً .

٥ — لكنّ الظالمين منهم ، المصرين على جحودهم ، آثروا المخالفة ، وسمعوا القول ولكنهم لم يعملوا به ، بل كذبوا ، فقالوا غيرَ ما سمعوا ، لذلك كان لا بد من مؤاخذتهم ، وإيقاع العذاب بهم ، لأنهم لم تنفع معهم مطاولة ولا ملاينة ، ولم يتأثروا بنصح ولا إرشاد ، ولم يُرهبهم الوعيد والتهديد ، فأنزل عليهم العذاب الذى يستأهلونه ، بسبب استمرارهم على الظلم ، بالمخالفة والعصيان والتمرد .

٦ — أباح الله لبنى إسرائيل أن يعملوا فى الأسبوع ستة أيام لمعاشهم ، وكسباً لرزقهم ، وفى اليوم السابع يستريحون من العمل ، ويتفرغون لعبادة الله ، ويُحيون شعائر دينهم ، ولكن تجاوزت طائفة منهم حدود الله تعالى ، فأمر الله نبيه أن يسأل بنى إسرائيل عن أهل مدينة « أيلة » ، التى كانت

على ساحل البحر ، وتُشرف عليه من شاطئه ، حينما تجاوزوا حكم الله بصيد السمك فى يوم السبت ، وهو اليوم الذى حُرم عليهم أن يزاولوا فيه عملا ، اليوم الذى أمروا بتعظيمه ، والابتعاد فيه عن كل شأن من شئون الدنيا ، وكان هذا السمك يظهر لهم على وجه الماء فى يوم السبت ، إذ ألف بغريزته أن أهل هذه القرية لا يصطادونه يوم السبت — يوم راحتهم — فكان يبدو بكثرة ، ويقل فى الأيام الأخرى ، فاحتال أهل هذه القرية على مخالفة أمر الله الذى فَرَض عليهم عدم العمل فى يوم السبت ، بأن حفروا حوضاً يدخل السمك إليه ، ويتعسر عليه الخروج منه ، ليصطادوه فى الأيام الأخرى ، وكان ظهور السمك يوم السبت المحرّم فيه الصيد ، واختفاؤه باقى أيام الأسبوع ، امتحاناً لهم ، بسبب تماديهم فى الفسق والخروج عن طاعة الله ، وتجاوزهم حدود ما شرع الله لهم (تراجع الصفحة ٥٦ من تفسير الجزء الأول ، الفقرة الرابعة) .

(١١)

من الآية ١٦٤ إلى الآية ١٧١ من سورة الأعراف

وَإذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ : لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ ، أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ؟ قَالُوا : مَعْذِرَةً إلَى رَبِّكُمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ –١– . فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ، وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ –٢– . فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ ، قُلْنَا لَهُمْ : كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ –٣– . وَإذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ : لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ –٤– . وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ، مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ –٥– . فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ، يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَى ، وَيَقُولُونَ : سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إلَّا الْحَقَّ ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، وَالدَّارُ الْآخِرَةُ

خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ —٦— . وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ —٧— . وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ، وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
قالوا معذرةً إلى ربكم	قال الواعظون : نعتذر به إلى الله معذرة عن السكوت على ما ترتكبون من مُنكر .
ولعلهم يتقون	ونرجو أنهم ينتفعون بالموعظة .
نسوا ما ذكروا به	تركوا ما ذكرهم به الصالحون .
ينهوْن عن السوء	ينهون عن العمل الذى تسوء عاقبته .
بعذاب بئيس	بعذاب شديد .
بما كانوا يفسقون	بسبب عصيانهم المستمر .
فلما عتوْا عما نُهوا عنه	فلما تجاوزوا أمر ربهم ، ولم يسمعوا نصيحة الناهين لهم .
خاسئين	أذلاء صاغرين مطرودين .
وإذ تأذن ربك	واذكر إذْ أعلم ربك هؤلاء الناس المرّة بعد المرة .
ليبعثن عليهم	ليسلطن عليهم .
يسومهم سوء العذاب	يذيقهم مُرّ العذاب وشدته .

الألفاظ	شرحها
وقطعناهم فى الأرض أمماً	وصيرناهم أمماً متفرقة ، بعد أن كانوا أمة واحدة ، وشتتنا أمرهم ، فلم نجمعْ لهم كلمة .
ومنهم دون ذلك	ومنهم الذين لا يوصفون بالصلاح ، وهم الكافرون الفاسقون .
وبلوناهم بالحسنات والسيئات	واختبرنا نفوسهم بالنعم والنقم .
فخلف من بعدهم خَلف	فجاء جيل بعد جيل ، وقَرن بعد قَرن .
وَرِثوا الكتاب	ورثوا التوراة فقرءوها ، وعلموا ما فيها .
يأخذون عرض هذا الأدنى	يأخذون الحطام الحقير من متاع الدنيا ، لشدة حرصهم ونهمهم رشوة ، لتحريف الكلم ، وتزييف الأحكام .
وإن يأتهم عَرضٌ مثله يأخذوه	لا يتورعون عن أخذ أى عرض، مهما كان تافها حقيراً .
ميثاق الكتاب	عهدُ الله وميثاقه الذى فى كتابه .
ودَرَسوا ما فيه	وَعرَفوا ما فيه من تحليل وتحريم .
يمسّكون بالكتاب	يستمسكون بما جاء فى الكتاب ، ويُلزمون أنفسهم العمل به .
نتقنا الجبل	رفعنا الجبل من مكانه ، وهو الطور .
كأنه ظُلةٌ	كأنه سحابة تظل .
خذوا ما آتيناكم بقوة	خذوا أحكام الشريعة التى أنزلناها عليكم بقوة وعزيمة ، وجد ، وصبر على احتمال مشقة التعبد .
واذكروا ما فيه	واعملوا بما فيه من الأحكام .

مجمل المعنى

١ — بعض الصالحين من بنى إسرائيل لم يَرُقْ لهم أن يستمر الواعظون فى وعظ الخاسرين منهم ، لأنهم لم يتأثروا بموعظة ، فقالوا للواعظين : لم تنصحون لهؤلاء الذين حكم الله عليهم باستئصالهم ، والقضاء عليهم فى الدنيا ، وحكمَ عليهم بالعذاب الشديد فى الآخرة ، فرد المؤمنون الواعظون على هؤلاء بأننا نعظهم ، لنؤدى ما يجب علينا نحو ربنا ، من عدم السكوت على المنكر ، ليكون عُذْرُنا إلى الله قائماً ، فلا ينسب إلينا تفريط ، ورجاء أن يثمر النصح فيهم ، فلا يرتكبوا ما يرتكبون من الذنوب ، بل ينيبوا إلى الله ويتقوه

٢ — فلما استمر هؤلاء العاصون فى غُلَوائهم ، ولم يسمعوا لوعظ المتقين من إخوانهم ، وتركوا ما ذكروهم به ، وأعرضوا عنه إعراض الذى لم يسمع شيئاً ، وإن كان قد سَمع فإنه نسى كل شىء ، أخذهم الله بعذاب شديد، بسبب فسقهم وعصيانهم ؛ وتمردهم على الله ، وخروجهم عن طاعته ، وعدم استجابتهم لنصيحة ناصحيهم ؛ أما الواعظون الناصحون فقد نجاهم الله من العذاب الذى عذب به الفاسقين العاصين .

٣ — وكان عقابُ الله لهؤلاء الفاسقين الذين استمروا فى العصيان ، بعد أن ابتلاهم بالبؤس والحرمان ، والتعس والشقاء ، فلم يزدجروا — أن مَسخهم قردةً مسخَ خُلُق ونفس وقلب ، فكان فيهم عقولُ القردة ونَزقها وطيشها ، وسوء تقليدها ، وعدم توفيقها إلى الفهم الصحيح ، وتمييز الحسن من القبيح ، وباءوا باحتقار الناس لهم ، وطردهم من مجالسهم ، واستذلالهم ، لأنهم ليسوا أهلا للاحترام .

٤ — يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : اذكر إذ أعلم ربك هؤلاء الناس من بنى إسرائيل ، أنه كتب على نفسه : ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم أشد العذاب ، وينكل بهم تنكيلا ، عقاباً وإذلالا لهم ، والله سبحانه وتعالى يسارع بمعاقبة الأمم التى تعصيه ، وتخالف رسله ، بعد إقامة الحجة عليهم ، وهو أيضاً يصفح عن ذنب التائب ، ويغفر له ، ويظله برحمته .

٥ — وبنو إسرائيل هؤلاء بعد أن كانوا أمة واحدة ، قضى الله عليهم أن يتفرقوا أسباطاً أى قبائل ، وصيرهم أمما كثيرة منتشرة فى مشارق الأرض ومغاربها ، فلا تربطهم رابطة اجتماعية ولا أدبية ، وبعض هذه الأمم صالح ، كالأمة التى نصحت المعتدين فى السبت ، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله من بعد موسى إلى زمن عيسى عليهما السلام ، والذين آمنوا بمحمد الذى وجدوا صفته عندهم فى التوراة والإنجيل ، وبعض هذه الأمم أيضاً كفار فسقة ، ومنهم الذين قتلوا النبيين بغير الحق ، ومنهم السماعون للكذب ، الأكالون للحرام ، وبعضهم كان بين هؤلاء وهؤلاء : بين العصاة الفاسقين ، وبين الواعظين الصالحين ، وقد اختبر الله سبحانه وتعالى هؤلاء الناس جميعاً بنعمه ونقمه ، وامتحن نفوسهم بالإعطاء والحرمان ، رجاء أن يرجعوا عن غيهم ، فيرضى عنهم ، ويغفر لهم ، ويرحمهم .

٦ — هؤلاء الناس فى أول أمرهم ، كان فيهم المطيع والعاصى ، والصالح والطالح ، والبر والفاجر . فلما انقرضت أجيالهم الأولى ، استشرى فى نفوس أعقابهم الفساد ، وتمكنت منهم غريزة التمرد والعصيان ، فأرسل الله إليهم عيسى عليه السلام ، وأنزل الله عليه الإنجيل ، وألزمهم الحجة ، استنقاذاً لهم من أكل ما خبث من المكاسب ، واستباحة الرشوة ، والحكم بالهوى ، والانصراف عن الدين ، فقاوموا دعوته ، وبعد هذا كله يقولون : إن الله

سيغفر لنا ، لأننا شعبه المختار ، ولأننا منحدرون من أصلاب أنبيائه ، ولأننا أبناؤه وأحباؤه ، فلا يؤاخذنا الله بما نفعل ، يطمعون فى هذه المغفرة من عند الله ، فى حين أنهم مصرون على مسلكهم من ارتكاب المعاصى . ولا يتورعون إن أتاهم عرض مهما كان تافهاً حقيراً أن يأخذوه ، بل نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، فبأى عقول يفكر هؤلاء الذين أخذ عليهم عهد الله وميثاقه فى التوراة التى قرءوها ودرسوها ، بأنهم لا يفترون على الله ، ولا يقولون عليه غير الحق الذى رَسم له حدوده على لسان رسله وأنبيائه ، وفيما أنزل عليهم فى كتابه ، من وجوه الحلال ، ووجوه الحرام ، وغير ذلك ؟ والآخرةُ وما أعد الله فيها للمتقين الصالحين ، خير من ذلك العرض الحسيس ؛ أفلا يعقل هؤلاء العصاة ، فيعلموا ذلك ، فلا يستبدلوا بالنعيم الخالد ، العرض الحقير من أعراض الدنيا ؟ .

٧ — والذين يستمسكون بما جاء فى الكتاب ، وما يشتمل عليه من العبادات ، فلم يحرفوه ولم يكتموه ، ويتبعونه فى حلالهم وحرامهم ، وتشريعاتهم وتعبدهم ، وفى كل ما رسم لهم من حدود للدنيا والآخرة ، وبخاصة الصلاة التى هى عماد الدين ، من أقامها فقد أقامه ، ومن هدمها فقد هدمه — هؤلاء هم المصلحون الطيبون ، الذين لا يضيع الله أجرهم ، ولا ينقص شيئاً من ثوابهم .

٨ — واذكر يا محمد أنت وقومك ، أنه بعد أن أخذ العهد على بنى إسرائيل ، أراد الله أن يظهر لهم آية من آياته التى لم يَرَوْها من قبل ، فوقعت زَلزلة شديدة ، ارتج لها الطور ارتجاجاً شديداً ، فذعر القوم وفزعوا ، وخُيل إليهم أن الجبل قد اقتلع من الأرض اقتلاعاً ، فصار كالظلة من فوقهم ، وأنه يهوى عليهم ، فارتاعوا ارتياعاً شديداً ، وهرِعُوا إلى موسى وإلى الله ، فطمأنهم ربهم ، وأمرهم أن يأخذوا ما أعطاهم من أحكام الشريعة الموسوية

الصحيحة بعزم وقوة ، وصبر على احتمال مشقات تكاليفها ، وأن يذكروا كل ما فيها من أحكام وتشريعات ، وأوامر ونواه ، ويعملوا بها ، رجاءَ القبول من الله ، فإن الخوف منه يعصم المرء من ارتكاب السيئات ، ويحثه على مداومة الطاعات ، فتطبع النفس على تقوى الله .

(١٢)

من الآية ١٧٢ إلى الآية ١٧٤ من سورة الأعراف

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ —١— . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ، وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ؟ —٢— . وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ، وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ —٣— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ظُهورهم	جمع ظهر ، ويراد به العمود الفقرى ، الذى فيه النخاع الشوكى .
ذريتهم	سُلالتهم من ذكور وإناث .
أشهدهم على أنفسهم	أشهد كل واحد منهم على نفسه ، بما خلق فيه من استعداد عقلى وفكرى .

الألفاظ	شرحها
ألست بربكم	قائلا لهم: ألست بربكم، ومالك أمْركم ؟
بلى شهدنا	لقد شهدنا على أنفسنا بأنك ربنا .
أن تقولوا	لئلا تقولوا .
عن هذا	عن وحدانية الله وربوبيته .
من قبل	من قبل أن نوجد فى الدنيا، فورثنا الشرك عنهم ، ولا ذنب لنا فيه .
نفصّل الآيات	نوضح الدلائل .
لعلهم يرجعون	رجاء رجوعهم عن جهلهم وتقليدهم آباءهم .

مجمل المعنى

١ ــ بعد أن انتهت قصة بنى إسرائيل ، بدأ الحديث عن البشر عامة ، وعن موقفهم من الهداية ، والإقرار بالربوبية ، وأخذ الميثاق ، وعن كون ذلك خلقةً وأصلا مركوزاً فى طبيعتهم ، وإنما يرسل الله الرسل للتذكير ، والإنذار والتبشير ، فقال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : اذكر يا محمد المواثيق والعهود التى أخذها الله على عباده جميعاً ، بمقتضى ما فطرَهم عليه من الإيمان والتوحيد ، وبمقتضى ما خلق لهم من عقول سليمة، قادرة على التفكير فى كل ما خلق الله ، فالآدميون جيلا بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، ينشئون على الإسلام دين الفطرة ، فإذا حادوا عن هذا كان بسقم تفكير ، أو قبح تقليد ، أو غير ذلك ، وأشهد الله هؤلاء الآدميين جميعاً على أنفسهم ، بأن الله واحد ، لا معبود سواه ، شهادة تعقل بعد روية

وتفكير ، ولم تكن نتيجة وحى يُوحى ، أو كلام يقال ، فلما سألهم الله : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا على أنفسنا أنك ربنا الذى لا إله إلاهو ، وأخذ الله عليهم هذه الشهادة حتى لا يعتذروا ، أو يحتجوا حين المؤاخذة يوم القيامة — إذا حادوا عن الطريق المستقيم — بأنهم غفلوا عما شهدوا بصوابه ، ونسوه ، وإذ ذاك لا يقبل اعتذارهم .

٢ — وكذلك إذا اعتذروا وقت المؤاخذة ، بأنهم نشئوا بين آبائهم ، فوجدوهم مشركين ، أو خارجين على الإيمان الصحيح ، وأن آباءهم ضلوا قبل أن يولدوا ، فاتبعوا دين آبائهم ، جاهلين أنهم ضالون ، ويقولون لله : كيف تعذبنا باتباعنا على جهل منا هؤلاء المشركين ، ولاعذر لهم ، لأن الجهل يمكن التغلب عليه بالعقل .

٣ — وبمثل هذا التوضيح والتفصيل ، نفصل لبنى آدم الأشياء ونوضحها ، ونضرب لهم الأمثال ، ونقيم لهم الأدلة ، رجاء أن يرجعوا عما هم عليه من جهل ، وعما ألفوه من تقليد .

(١٣)

من الآية ١٧٥ إلى الآية ١٨٠ من سورة الأعراف

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ، فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ —١—. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ، ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ، لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ —٢—. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ —٣—. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي، وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ —٤—. وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ —٥—. وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ —٦—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
واتلُ عليهم	واقرأ على من تبلغهم دعوتك ، مكرراً ما تقرأ للعظة والاعتبار .
نبأ الذى آتيناه آياتنا	خبر الذى له شأن ، وله أهمية خاصة .
فانسلخ منها	فتجرد منها وتركها ، ولم ينظر فيها نظر من يرغب فى الاهتداء والاعتبار .
فأتبعه الشيطان	فلحقه الشيطان وأدركه .
من الغاوين	من الضالين المضلين .
لرفعناه بها	لرفعناه إلى المنازل العالية اللائقة بالأبرار ، العاملين بتلك الآيات .
أخلد إلى الأرض	ركن إلى الأرض ، وسكن إلى لذاتها ، واشتغل بمتاعها .
واتبع هواه	واتبع ما زينه له الشيطان .
يلهث	يتنفس تنفساً شديداً ، ويندلع لسانه من التعب والعطش
ساء مثلا القوم	بئس مثلا مثلُ القوم .
ذرأنا	خلقنا .
الجن	عالَم حىٌّ عاقل ، مكلف خفىٌّ ، لا يدرك بحواس البشر .

الألفاظ	شرحها
لهم قلوب لا يفقهون بها	لهم عقول وضمائر ووجدانات حسية ومعنوية ، ولكن لا توصلهم إلى العلم والفطنة ودقة الفهم .
كالأنعام	كالإبل والبقر والغنم .
الأسماء الحسنى	جمع اسم ، وهو اللفظ الذى يدل على الذات ، وقد يدل على صفة من صفاتها ، وأسماء الله تدل على أكمل الصفات ، وأحسن المعانى ، وأحسن الألفاظ ، فهى جميلة فى السمع والقلب
فادْعُوه بها	فَسموه بها ، ونادُوه بها .
وذروا الذين يلحدون فى أسمائه	وَدعوا الذين يُميلون أسماءَه بألفاظها ومعانيها ، عما يجب أن تكون عليه لفظاً أو معنى .
سَيجزَون ما كانوا يعملون	سيلقونَ جزاءَ عملهم .

مجمل المعنى

١ — يقول الله : اقرأ يا محمد على قومك الذين تبلغهم دعوتك ، وكرر عليهم ما تقرأ لهم ، لتصلَ إلى ما تريد من العظة والاعتبار ، اقرأ عليهم خبراً مهماً له شأن ، فيجب عليهم أن يستمعوا لك ، ويتدبروه ، ذلك هو خبر الرجل الذى آتيناه آياتنا الدالة على الألوهية والوحدانية ، وهذا الرجل وإن لم يكن معروفاً له اسم ولا جنس ولا وطن، تجرد من آياتنا ، ولم ينظر فيها ، ولم يعتبر بها، فلم ينفتح لها قلبه ، ولم يهتد ؛ فكان لعدم

تدبره ، ونظره فى آياتنا ، وانصرافه عنها ، أن لزمه الشيطان ، وظل يوسوس له ، ويغريه ، حتى تمكن من الضلال ، وأغلقت نفسه ، وأغلق قلبه ، فضلّ وأضل .

٢ — ولو قدرنا له الهداية ، وأردناها له ، لرفعناه بها إلى الدرجات العلا فى الدنيا والآخرة ، ولكنه اختار لنفسه الركود إلى الأرض ، والسكون إلى لذاتها ، والتمتع بزينتها الزائفة الزائلة ، واتبع ما زيّن له شيطانه ، ووسوست له به نفسه ، فكان مثله فى ذلك كمثل الكلب الذى من طبيعته أن يلهث دائماً ، مريضاً كان أو صحيحاً ، ريّان أو عطشان ، تعباً أو مرتاحاً ، مطروداً أو متروكاً ، كذلك هذا الرجل ضالّ مضل ، إن وُعظ أو تُرِك ، وهذا المثل الذى ضربناه لك هو مَثلُ المكذبين بآياتنا ، المنكرين لشرائعنا ، فاقصص على قومك قصص هؤلاء ، رجاء أن يتفكروا ويتدبروا فى موقفهم ، فيهديهم تفكيرهم وتدبرهم إلى تنكب طريق الضلال ، واستضاءة قلوبهم بنور الهداية والإيمان .

٣ — قَبح هؤلاء القوم الذين كذبوا بآياتنا مثلا ، فهم أسوأ ما نعرضه على الناس ، لشناعة موقفهم مما أردناه لهم من خير ، وهم إذ يفعلون ذلك ، إنما يظلمون أنفسهم بما اختاروا لها من طريق الضلال ، وبما يترتب على هذا من سوء المآل ، فمأواهم جهنم وبئس المصير .

٤ — الذين يقدر الله لهم الهداية ، ويهيىء عقولهم للتفكير السليم ، فيما يعرض لهم من مسائل الدين والدنيا ، هم المهتدون ؛ والذين يقدر الله عليهم الضلال ، ويطمس على قلوبهم ، فلا يفكرون غير التفكير السقيم ، فيما يعرض لهم من مسائل الدين والدنيا ، هم الكفرة الضالون ، الذين خسروا الدنيا والآخرة .

٥ — كثير ممن خلقنا من الجنّ والإنس يدخلون جهنم ، لأن عقولهم وضمائرهم

ووجداناتهم الحسية والمعنوية ، ليست مستعدة لتفهم مسائل الدين على حقيقتها ، وليست مهيأة للوقوف على الحقيقة التى إذا عملوا بها يسعدون فى الدنيا والآخرة ، ولأن أبصارهم لا تنظر إلى الأشياء نظر المتأمل الفاحص ، ولأن آذانهم لا تسمع سماع المعتبر ؛ والذين هذا حالهم ، مثلهم كمثل الإبل والبقر والغنم والمعز ، فى أنهم لم يستفيدوا مما خلق الله لهم من عقل وعين وسمع ، فكأنهم جرّدوا من عقولهم ، وكأنهم لم يستعملوا أعينهم وآذانهم ، إلا فيما تستعمل الأنعام أعينها وآذانها ، بل هم فى درجة أقل من درجة الأنعام ، لأن المفروض فيهم التكليف . والأنعام لم يفرض عليها تكليف ، فهم الذين غفلوا عما فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة .

٦ — وإذا أراد هؤلاء الغافلون أن يتبرءوا من مرض الغفلة الذى أفسد عليهم دينهم — فعليهم أن يدعوا الله متوسلين إليه بأسمائه الحسنى ، وهى أسماء تدل على أكمل الصفات ، وأجمل المعانى ، وأعذب الألفاظ ، جميلة فى القلب ، خفيفة على السمع ، حبيبة إلى النفس ، وعليهم ألا يقلدوا الذين يميلون عن القصد فى أسماء الله ، ويتركوهم ، ويتجنبوا ما يفعلون : من الميل بالألفاظ عن معانيها ، أو محاولة تغيير المعانى ، وإلباس الألفاظ مالا تحتمل منها ، مما يخرجها إلى سوء القصد ، ويدل على فساد النية ، من إرادة التحريف أو التأويل أو التشبيه ، أو غير ذلك ؛ والذين يفعلون هذا ، جزاؤهم عند الله قريب .

(١٤)

من الآية ١٨١ إلى الآية ١٨٦ من سورة الأعراف

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ، وَبِهِ يَعْدِلُونَ —١— . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ —٢— . وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ —٣— . أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ؟ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ —٤— . أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ؟ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ —٥— . مَنْ يُضْلِلِ اللّٰهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وبه يَعدِلون	وبالحق يحكمون .
سنستدرجهم	سنأخذهم تدريجاً إلى ما يهلكهم .
وأُملي لهم	وأمهلهم ، ولا أتعجل فى معاقبتهم .

الألفاظ	شرحها
إن كيدى متين	إن تدبيرى وأخذى فى استدراجهم قوى شديد .
أوَ لم يتفكروا	أكذّبوا الرسول ولم يتفكروا ؟
ما بصاحبهم	المقصود : محمد صلى الله عليه وسلم .
من جنة	من جنون .
إن هو إلا نذير مبين	ليس محمد إلا منذراً ناصحاً نصحاً فيه إخافة ، مبلغاً تبليغاً واضحاً .
ملكوت السموات والأرض	ملك السموات والأرض العظيم ، الذى يشمل جميع الكون .
وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم	وفى آجالهم التى لعلها تكون قد اقتربت .
فبأى حديث بعده	فبأى كلام بعد القرآن ؟
ويَذَرهم فى طغيانهم يعمهون	ونتركهم فى ضلالهم، يترددون تردد حيرة وعدم استقرار .

مجمل المعنى

١ — من بين مَنْ خلق الله من الناس ، جماعاتٌ فيهم طبعٌ طيب ، وميلٌ إلى الخير ، وحُبٌّ للايمان ، وهؤلاء يدعون الناس إلى ما فيه صلاحهم دنيا وديناً ، وإذا حكموا بين الناس حكموا حكماً عادلا ، لا يتحيفون أحداً ، ولا يُغلبون قوياً على ضعيف ، ولا ذا جاه على من لا جاه له ، وإنما هو الحق والعدل ، والقسطاس المستقيم .

٢ — والمكذبون بآيات الله ، الذين لم يصدقوا رسله ، يظلون مسترسلين فيما هم فيه من غى وضلال ، وزور وبهتان ، من غير أن يفكروا فى مصيرهم الذى سيصيرون إليه ، ويبقون كذلك حتى يتردّوْا فى مهاوى الهلاك والضلال والفساد ، ويلقوا ما يستأهلون من عذاب .

٣ — ومثل هؤلاء المكذبين يمهلهم الله سبحانه وتعالى ، ويُرخى العنان لهم ، ويطاولهم ، وفى النهاية يستيقظون من غفلتهم ، ويعرفون أن تدبير الله لهم كان قوياً متيناً ، وأن استدراجه لهم أعماهم عن النظر والتفكر ، وشغلهم عن التأمل والتدبر .

٤ — خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصفا ليلة ، ودعا قريشاً ، فجعل ينادى فخذاً فخذاً ، وأسرة أسرة ، ويقول : يا بنى فلان ، يابنى فلان ، ويحذرهم بأس الله ، ويخوفهم عذابه ، فقال بعضهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يصوت حتى الصباح ، فأنزل الله : « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة . . . » الآية ؛ فالله ينكر عليهم عدمَ تفكيرهم فيما يفعله محمد ، فإنه ليس إلا مُنذراً لهم ، فخوّفهم عاقبة إلحادهم وكفرهم ، مبيناً تبييناً واضحاً ما يصيبهم إن بقوا فى ضلالهم ، فهو رجل عاقل ، ليس به جنون كما يزعمون ، لا ينطق عن هوى ، ولا يقول إلا عن وحى من عند الله .

٥ — يعجب الله لهؤلاء المكذبين ، ولو أن عندهم مُسكة من عقل ، لنظروا فى ملك الله العظيم ، الذى يشمل السموات والأرض وما بينهما ؛ وفيما له من سلطان يدبر به هذا الكون الهائل ، وفيما خلق فيهما من إنسان وحيوان ، ونبات ، ونجوم وسماء ، وماء وهواء ، وغير ذلك مما لا يحيط به حصر ، ولو أنهم نظروا وتفكروا ، لاتعظوا واعتبروا ، واهتدوْا وآمنوا ، لأنهم إذ ذاك يقتنعون بأن هذا العالم لا بد أن يخلقه واحد قادر ،

ليس له شبيه أو مثيل ، ويؤمنون بما جاء به رسوله ويصدقونه ، ويخافون أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا قبل أن يتوبوا ، ويقبل الله توبتهم ؛ وإن لم يؤمنوا بما جاءهم به محمد ، فبأى شيء يؤمنون بعده ؟ وأىّ حديث أحق من القرآن بالقبول إذا لم يؤمنوا به ! وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق لهم ؟

٦ — إن إعراض المعرضين عن محمد ، ونفورهم منه ، وعدم طاعتهم له ، والإيمان به وانصرافهم عن النظر فى آيات الله ، ليس ذلك إلا لأن الله أضلهم لفساد فطرتهم ، وسوء استعدادهم للإيمان ، وقدر عليهم أن تعمى عيونهم عن النظر ، وأن تُغلق قلوبهم عن التذكر . فلن يستطيع أحد أن يغير ما أراده الله وقدّره ، والله سبحانه وتعالى يتركهم يتمادون فى ضلالهم وكفرهم ، وشركهم وتمردهم ، تمادى الحائر المضطرب الولهان ، حتى يستوجبوا بذلك الغاية التى قدرها الله لهم ، وهى بقاؤهم على الكفر ، وموتهم على الشرك ، وتعذيبهم فى نار جهنم يوم القيامة .

(١٥)

من الآية ١٨٧ إلى الآية ١٨٨ من سورة الأعراف

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ : أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ ، قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ، قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ —١— . قُلْ : لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ —٢—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
الساعة	القيامة .
أيانَ مُرساها	متى قيامها ؟
لا يُجليها	لا يُظهرها ويبينها ، ويأتى بها .
ثقلت فى السموات والأرض	شقت على أهل السموات والأرض .

شرحها	الألفاظ
إن الساعة تفاجئهم ، فتأتيهم من غير علم منهم بوقت قيامها .	لا تأتيكم إلا بغتة
يسألونك عنها كأن بينك وبينهم مودةً وصداقة . فلا سر لك تخفيه عنهم .	يسألونك كأنك حفيٌّ عنها
لكن أكثر الناس لا يعلمون أن الساعة مما استأثر الله بعلمه ، فلم يُطلع عليه أحداً ، حتى لنبيه محمد .	ولكن أكثر الناس لا يعلمون
ولو كنت أعلم ما سيحصل قبل أن يحصل ، لأعددت الكثير من العمل الصالح ، ومن كل ما هو خير لنفسى ولأمتى .	ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير
واجتنبت العمل الذى يؤدى إلى شر أو ضرر . ولم أصَبْ بجنون كما تزعمون .	وما مسنى السوءُ
لست إلا رسولا أخوفُ عقاب الله مَنْ عصاه ، وأبشر بثوابه من أطاعه فهداه .	إن أنا إلا نذير وبشير

مجمل المعنى

١ — كثر سؤال الناس محمداً عن الساعة ، فاليهود يسألونه : متى تقوم الساعة ؟ وقريش تقول له : يا محمد ، بيننا وبينك مودة وقرابة ، فاذكر لنا : متى تقوم الساعة ؟ وهكذا ، فى كل مناسبة تعرض ، يُسأل رسول الله عن موعد قيام الساعة ، وهذا سؤال طبيعى يكثر السؤال عنه فى المناسبات ، وهذه المناسبات تكثر فى زمن الدّعوة ، لذلك أمر الله نبيه أن يجيب

حين يسأل : لا يعلم الوقت الذى تقوم فيه الساعة إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد أخفى الله ميقاتها على عباده ، ليكونوا دائماً على حذر ، والإخفاء أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، لهذا كان الإخفاء من مصالح البشر ، فلا يظهرها فى وقتها المحدد لها إلا قدرته سبحانه ، ووصف الله الساعة بالثقل ، فهى ثقيلة على السموات ، لأنها إذ تجىء تنشق السماء ، وتنتثر الكواكب ، وتتكور الشمس ، ويخسف القمر ؛ وهى ثقيلة على الأرض ، لأنها إذ تجىء تسيَّر الجبال ، وتسجَّر البحار ، وتبدل الأرض غير الأرض ، وهى ثقيلة على القلوب ، لأنها إذ تجىء يعلم الخلق أنهم صائرون إلى البعث والحساب ، والثواب والعقاب ، والله يفجأ الناس بها ، وتأتيهم على حين غفلة منهم ؛ تأتى والحياة العادية قائمة ، هذا يُصلحُ موضعه ، وذاك يَسقى ماشيته ، وهذا يقوم بسلعته فى سُوقه ، وذلك يخفض ميزانه ويرفعه ، وهكذا كلٌّ منصرف إلى عمله ، ثم تبغتهم الساعة من حيث لا يعلمون ، حتى ليكونُ الرجل يرفع اللقمة إلى فمه ، فتفجؤه الساعة ، فتقع لقمته من يده ، قبل أن تصل إلى فمه ؛ وإن الناس إذ يسألونك عن موعد قيام الساعة ، يسألونك كأن بينك وبينهم مودة وصداقة ، ولا كلفةَ بينك وبينهم ، ولا سر لك تخفيه عنهم ، وكأنك عالم بها ، ويجب أن يعلموا منك ما تعلمه من نفسك. فلا يجوز أن تُخفىَ عليهم أمراً ، وإن كان هذا الأمر قيامَ الساعة ؛ يفعل الناس هذا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون السرّ فى أن الله تعالى أخفى عن خلقه جميعاً موعد قيام الساعة .

٢ — اجتمع نفر من أهل مكة حول محمد ، وقالوا له : يا محمد ، ألا يخبرك ربك بوقت السعر الرخيص قبل أن يَغلو ، حتى نشترى الرخيص فنربح عليه عند الغلاء ، وبالأرض التى تُجدب ، لنرتحل إلى الأرض الخصبة ؟

وهكذا كان الناس يطالبونه كثيراً أن يخبرهم عن مسائل غيبية ، ويسألونه أحياناً مالا كثيراً ، أو دولة عظيمة ، أو غير ذلك من الأشياء ، فأمره الله تعالى أن يقول لهم : إن جهدى قاصر ، وقدرتى محدودة ، وعلمى لا يتعلق بالغيب ، إلا أن يشاء الله شيئاً ، ولو كنت أعرف الغيبيات لأصبت خيراً كثيراً للدنيا والآخرة ، أما الدنيا فإنى أجلب منافعها ، وأحصل خيراتها ، وأدفع آفاتها ومضراتها ، وأما الأخرى فإنى أعرف بما لى من اطلاع على الغيب ، أن فلاناً سيؤمن ويصدق دعوتى ، وأن فلاناً سيكفر بى ويكذب دعوتى ، فأتجه فى دعوتى على أساس تصديق هذا وتكذيب ذاك ، ولو كنت أعرف الغيب لما مسنى ضر فى حياتى ، وما تعرضت لشر ، أما والواقع غير هـــذا ، فإنى لا أعلم الغيب ، وكل ما أنا مكلف أن أؤديه ، هو أنى أنذرُ من يفعلون المعاصى ، وأبشر من يؤدون الطاعات ، فينتفع المؤمن ببشارتى ، ولا ينتفع الكافر بإنذاره ، لاستغلاق قلبه ، فلا وعيد يخيفه ، ولا وعد يُغريه .

(١٦)

من الآية ١٨٩ إلى الآية ١٩٨ من سورة الأعراف

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ، دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا : لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ —١— . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ —٢— . أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ؟ —٣— . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ، وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ؟ —٤— . وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ، أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ؟ —٥— . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ . إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ —٦— . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ قُلِ : ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ ، فَلَا تُنْظِرُونِ —٧— . إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ . وَهُوَ

يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ —٨— . وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَكُمْ ، وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ —٩— وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى
لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من نَفس واحدة	من جنس واحد ، أو حقيقة واحدة صورها إنساناً تام الخلقة .
وجعل منها زوجَها	وجعل زوجها من جنسها ، كما جعل لكل حى أنثى من جنسه .
ليسكن إليها	ليطمئن إليها ، ويأنس بها .
تغشاها	باشرها .
حملتْ	حملت النطفة فى رَحمها .
فمرتْ به	فمضت به تحمله ، من غير أن يعوقها عن أداء عملها .
فلما أثقلت	فلما أثقلها حَمل الجنين بعد نموه .
لئن آتيتنا صالحاً	لئن أعطيتنا ولداً صالحاً ، من حيث خَلقه وتكوينه .
فلما آتاهما صالحاً	فلما أعطاهما ولداً صالحاً سَويّاً .
فتعالى الله عما يشركون	فتنزه الله عن الذين يشركونهم معه فى تصرّفه .

الألفاظ	شرحها
ولا أنفسهم يَنصرون	ولا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم على من يعتدون عليها .
تَدْعون	تنادون لدفع ضر ، أو جلب خير ، وتعبدونه .
كيدون	اعملوا على إضرارى .
فلا تنظرون	فلا تؤخرونى لأنى لا أبالى بكم .
إن وليىَّ الله	إن ناصرى ومتولى أمرى هو الله .
وهو يتولى الصالحين	وهو يقوم على شأن الذين سلمت عقائدهم من الزيغ ، وأعمالهم من الفساد .

مجمل المعنى

١ — رجع الله فى هذه الآية إلى تقرير أمر التوحيد ، وإبطال الشرك ، بما له من أثر فى إنشاء هذا الخلق ، وبما له من عمل يعجزُ عن مثله ما يعبدُه المشركون من الآلهة ، فيقررُ للناس أنه سبحانه وتعالى — الذى خلقكم أيها الناس من جنس واحد ، على نظام سوىٍّ جميل ، وجعل لهذه النفس التى خلقكم منها زوجة من جنسها ، تسكن إليها سكوناً روحياً ، فيه اطمئنان وأنس ، وخلقكم أول الأمر من زوجين : ذكر وأنثى ، شأنكم فى ذلك شأن جميع الأحياء من إنسان وحيوان ونبات ؛ أما النفس الأولى وازدواجها بعد وحدتها ، وإحداث الذكورة والأنوثة لحفظ الجنس ، وللاستكثار من النوع ، فالله يعلم كيف تم هذا ، وأما الاستكثار بعد

وجود الزوجين ، فطريقهُ التناسل على الوجه المعروف ، حيث يباشر الذكر الأنثى ، فتحمل حملا يكون فى أول أمره هيناً خفيفاً ، لا تكاد المرأة تشعر به ، إلا بما يعتريها من بعض الأعراض التى تدل على وجوده ، وهو لذلك لا يعوقها عما تؤديه من عمل بدنى فى المنزل أو فى خارجه ، ولا يعوقها عما تؤديه أيضاً من عمل فكرى ، ثم تمضى به إلى تمام أشهر الوضع ، حتى إذا تمت ودنا وقت الوضع ، يدعو الأب والأم ربهما أن يرزقهما ولداً صالحاً ، تام الخلق ، سليم الحواس ، وهذا دعاء كل زوج وزوجة ينتظران مولوداً ، لأن عيش الزوجية التى فرض الله فيها السكون والاطمئنان ، لا ينغصها ويجعل الحياة فيها مريرة قاسية ، أكثر من أن يرزق الله الزوجين ولداً مشوه الخلقة : أعمى أو أصم أو أبكم ، أو له ذراع واحدة ، أو رجل واحدة ، أو مسلوب العقل مثلا ، ولذلك نجدهما يحلفان : لئن أعطاهما الله ولداً على ما يشتهيان ، ليكونانّ من القائمين له بحق الشكر عليهما ، قولا وعملا وإيماناً .

٢ — وطبع الإنسان الخبيث أنه يعرف الله وقت الشدة ، فإذا مضت نسى فضله عليه ، وعاودته النفس الشريرة الخبيثة ؛ ولذلك نجد هذين الزوجين بعد أن استجاب الله دعاءهما ، ورزقهما غلاماً صالحاً ، كفرا بنعمته ، وأنكرا عليه وحدانيته ، ونسبا ما رُزقا من الولد ، إلى من أشركا معه من آلهة ؛ والله سبحانه وتعالى منزه عن كل ما يشركون معه من آلهة أخرى .

٣ — عجباً لغباوة هؤلاء الناس ، وجهلهم بالله الذى خلقهم ، وخلق أولادهم ، وخلق لهم كل ما يحتاجون إليه فى معايشهم ، كيف يشركون به مالا يستطيع أن يفعل من هذا شيئاً ، مهما كان تافهاً حقيراً ، بل هو مخلوق مثلهم ، بل هو من صنع أيديهم ؟

٤ — ومع كون هؤلاء الشركاء مخلوقين غير خالقين ، لا يستطيعون أن ينصروا

عابديهم ، أو يأخذوا بيدهم إذا احتاجوا إليهم ، بل هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم بجلب نفع ، أو دفع ضر ، فكيف ينفعون غيرهم ؟ وأكثر من هذا أن هؤلاء الشركاء أنفسهم ، فى حاجة إلى معونة مَنْ يعبدونهم ، ليدفعوا عنهم إذا اعتدى عليهم معتد .

٥ — وهؤلاء الآلهة إنْ تدعوهم أيها العابدون لهم إلى أن يَهدوكم إلى طريق الخير والرشاد ، أو إلى جلب نفع لكم ، أو دفع ضرر عنكم ، لا تجدوا منهم سميعاً ولا مجيباً ، فلا فرق عندهم بين التوسل إليهم ، وبين أن تستمروا صامتين ساكنين .

٦ — إن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله من الأصنام ، ليجلبوا لكم خيراً من رزق أو غيره ، أو يدفعوا عنكم شرًّا من غزو أو مرض أو عُقم ، أو غير ذلك ، ليسوا إلا عبيداً مثلكم ، خُلقوا كما خُلقتم ، لا فضلَ لهم عليكم ، فكيف تجعلونهم آلهة وأرباباً لكم ؟ فإذا كانوا مثلكم ، فإنه لا يجوز الاستعانة بهم فى أمر دين أو دنيا ، وإنما الذى يجب أن يستعان به هو الله وحده ، وإذا كنتم صادقين فيما تنسبونه إليهم ، فادعوهم كما تشاءون أن تدعوا ، وتوسّلوا إليهم بجميع الوسائل التى تستطيعون أن تتوسلوا بها ، ثم انتظروا ما شئتم أن تنتظروا ، فلن تجدوا لدعائكم ولا لتوسلاتكم أى أثر .

٧ — ولأجل أن يعلم هؤلاء الناس أن ما يدعون من دون الله من الأصنام ليسوا مثلهم ، ولا فى درجتهم ، وإنما هم أقل منهم شأناً ، فلا تجوز عبادتهم — لأن المعروف أن المعبود أعظم شأناً من العابد — ذُكر لهم على سبيل التقريع المؤلم الموجع ، الذى يدل على سخافة عقولهم ، أن هذه الأوثان ليس لها أرجل تمشى عليها ، وأنتم لكم أرجل ، وليس لها أيد تبطش بها ، وأنتم لكم أيد ، وليس لها أعين تبصر وأنتم لكم أ بها ،عين ، وليس لها آذان

تسمع بها ، وأنتم لكم آذان ، فأى إنسان له مُسكة من عقل ، يرضى بعد هذا أن يتخذ من هذه الأصنام العاجزة المصنوعة إلهاً يُعبد ؟ ومبالغة فى توبيخهم وتبكيتهم ، والإنكار عليهم ، والزراية بهم — يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يبلغهم أن يجمعوا هؤلاء الذين اتخذوهم أولياء ، وزعموا أنهم سيكونون لهم شفعاء ، ليتعاونوا جميعاً على مكايدته ، والمكر به ، ويطلب إليهم أن يفعلوا ذلك على عجل من غير تمهل ، لكى يَشفوا أنفسهم إن كانوا مستطيعين ؛ وفى هذا أبلغ رد على الكفار الذين كانوا يهددون رسول الله ببطش آلهتهم به .

٨ — وإذْ تعجز الأوثان مجتمعةً عن مكايدة رسوله ، فهو يأمره أن يقول : إن الله هو وليى وناصرى ، والآخذ بيدى ، القادر على كل أحد ، ولا يقدر عليه أحد ، وهو الذى يأخذ بيد الصالحين من عباده ، ويقوم على شأن من سلمتْ عقائدهم من الزيغ ، وأعمالهم من الفساد .

٩ — أما هؤلاء الذين تعبدونهم من دونه ، فإنهم لا يقدرون على نصركم ، والأخذ بيدكم ، كما يقدر الله على نصرى ، والأخذ بيدى ، بل هم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ودفع الضر عنها .

١٠ — وهؤلاء الذين يعبدون الأوثان ، طبع الله على قلوبهم ، فإن دعوتهم يا محمد إلى الإيمان بالله وتوحيده ، وطلبت إليهم أن يؤمنوا بك ، ويهتدوا بهديك ، لا يسمعوا منك ، ولا يستجيبوا لك ، وتراهم ينظرون إليك ، ولكنهم لشدة إعراضهم عن الحق ، وإمعانهم فى معارضتك ، صاروا كأنهم عُمىٌ عن إبصار دلائل نبوتك .

(١٧)

من الآية ١٩٩ إلى الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف

خُذِ الْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ –١– .
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ –٢– . إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا ، فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ –٣– . وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي
الْغَيِّ ، ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ –٤– وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا :
لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ : إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ، هَٰذَا
بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ –٥– . وَإِذَا
قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ –٦– .
وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ، وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ –٧– . إِنَّ الَّذِينَ
عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، وَيُسَبِّحُونَهُ ، وَلَهُ
يَسْجُدُونَ –٨– .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
العفو : ضد الجهد والمشقة، والمراد : خذ الأمور بأيسر وجوهها .	خذ العفو
وأمر بما يتعارف الناس عليه ، من طيب الأخلاق، والعادات ، والمعاملات ، وما يقره الشرع منها .	وأمر بالعرف
واترك مخالطة السفهاء ، واحلم عليهم إذا سفهوا عليك .	وأعرض عن الجاهلين
وإن يُغوك الشيطان بالوسوسة ، فيحملك على غير ما أمرت به ، أدغمت إن الشرطية فى ما : الزائدة .	وإما ينزغنك من الشيطان نزغ
فالجأ إلى الله ، وتوجه إليه ، واعتصم به ، ليعيذك من شره .	فاستعذْ بالله
إن الله يسمع ما يَخفى من نزغ الشيطان، ويعلم ما يجرى من وسوسته .	إنه سميع عليم
أصابتهم وسوسة .	مسهم طائف
بمجرد مسّ الوسوسة إياهم ، يتنبهون لها ، ويدفعونها .	فإذا هم مُبصرون
وأصدقاؤهم من شياطين الإنس .	وإخوانهم
يساعدونهم فى الضلال ، ويعضُدونهم عليه ، ويغرونهم به .	يمُدونهم فى الغى

الألفاظ	شرحها
ثم لا يقصرون	ثم لا يرجعون عن إغوائهم .
بآية	ببعض ما يقترحون عليك من آيات .
لولا اجتبيتها	هلا اخترعتها ، واختلقتها من نفسك .
هذا بصائر من ربكم	هذا القرآن دلائل من ربكم ، تبصركم وجوه الحق .
وهدى	ورشد وبيان .
ورحمة	ونعمة .
فاستمعوا له وأنصتوا	فاسكتوا وأصغوا ، واستمعوا متفكرين متفهمين ، حتى تعلموا بما فيه ، ولا تجاوزوه
فى نفسك	بينك وبين نفسك .
تضرعاً	فى حالة خشوع وانكسار .
وخيفةً	وخوفاً .
ودون الجهر	بصوت لا تجهر به ، فلا يُسمع غيرك .
بالغدو والآصال	فى الإصباحات والأمسيات ، أى الغدايا والعشايا ، والمراد : جميع الأوقات .
من الغافلين	من الذين يغفلون عن ذكر الله ، ويلهون عنه .
إن الذين عند ربك	إن الذين ترتفع مكانتهم ومنزلتهم عند الله .
ويسبحونه	وينزهونه عما لا يليق به .
وله يسجدون	ويخصونه بالعبادة ، ولا يشركون به أحداً .

مجمل المعنى

١ ـ هذه الآية تشتمل على مكارم الأخلاق ، وليس فى القرآن آية أجمع منها مع إيجازها ، ووضوحها ، فى رسم المنهج القويم فى معاملة الناس ، وسياستهم ، وقد تضمنت مبادئ ثلاثة :

المبدأ الأول : أخذ العفو ، والمراد : أخذ الأمور من أقرب طرقها الصحيحة ، فى تيسير لا يشوبه تعسير ، وفى مساهلة لا يشوبها تشدد ، وفى مسامحة لا يشوبها تخشن ، ويدخل فى ذلك أنك تصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتُعطى من حرَمك ، وغير ذلك من الأعمال المبنية على التسامح والتساهل والتيسير .

المبدأ الثانى : الأمر بالمعروف ، فإذا أبطر التساهل بعض الناس ، ودفعهم لؤم طباعهم إلى التمرد ، استلانةً منهم لمن يأخذ بالعفو ، فإنه يجب أن يؤمروا بالمعروف ، وأن يُنهوا عن المنكر .

المبدأ الثالث : الإعراض عن الجاهلين ، فلعل بعض السفهاء يؤذون من يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ومثل هؤلاء يجب ألا نجاريهم فى سفاهتهم ، وأن نحلم عليهم ، ونعرض عنهم ، ونصبر على سوء أخلاقهم ، صيانة لأنفسنا ، وحفظاً لكرامتنا ، وأملا فى أن الإعراض عن السفهاء يجعلهم يفكرون فى سفاهتهم ، فيقلعون عنها .

وهذه المبادئ الثلاثة لو استمسك الناس بها ، ما كان بينهم غل ولا حقد ولا ضغينة ، ورضى بعضهم عن بعض ، وساد السلام ، وعم الوئام ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يُفصح عن هذا ، فيقول ـ ناصحاً جابر بن سليم أبا جُرَىّ ، وقد استنصحه : «اتق الله ، ولا تحقرَن من المعروف شيئاً ،

ولو أن تلقى أخاك بوجه منبسط ، وأن تُفرغَ من دلوك فى إناء المستسقى ، وإن امرؤٌ سبَّك بما لا تعلم منك ، فلا تسبّه بما تعلم فيه ، فإن الله جاعل لك أجراً ، وعليه وزراً ، ولا تسبن شيئاً مما خوّلك الله تعالى » .

٢ — بعد أن أمر الله بالإعراض عن الجاهلين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف يارب ، والغضب متحقق » ؟ فنزل قوله تعالى : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ . . . . . » الآية ، والمراد : أنه إذا وسوس إليك الشيطان ، وحاول أن يتمكن من قلبك ، ويصرفك عن شىء من أوامر الله ، أو يغريك بشىء من نواهى الله ، فالجأ إلى الله ، واعتصم به من الشيطان ، وتذكر عظيم نعمه عليك ، وثوابه لك إن أطعت ، وشديد عذابه إن خالفت ، فإن هذا يصرف عنك الشيطان ، ويعصمك من وسوسته ؛ ولا تؤثر الاستعاذة بالله من الشيطان أثرها ، إلا إذا كانت صادرةً من القلب ؛ وإنك حينما تستعيذ بلسانك ، فالله سميع ، وحينما تستعيذ بقلبك ، فالله عليم ، ولا يستجيب لك إلا إذا صدرت من قلبك .

٣ — إن الذين يتقون الله ، ويخافون عذابه ، ويرجون ثوابه ، ويبتعدون عن الشرك ، وارتكاب المعاصى ، إذا وسوس إليهم الشيطان ، وألقى فى رُوعهم ما يشاء أن يُلقى من أنواع المفاتن ، وصنوف المغريات بارتكاب المعاصى ، لايكاد الشيطان يتمكن منهم — حتى يذكروا الله ، وينتبهوا لأنفسهم ، فيعودوا إلى صوابهم ، ويَرْشُدوا ، ويباعدوا بينهم وبين الشيطان .

٤ — حينما توسوس النفس إلى صاحبها ، وتزين له الشرّ ، وتجمّله فى عينيه ، وتدعوه إليه ، تجد من الناس شياطين يضعون على النار هشيما ، فيساعدون على ارتكاب الإثم ، والخروج عن الطاعات ، ويزينون لهم ما يزينه الشيطان ، ويدفعونهم إليه ، ويحضونهم عليه ، ويبالغون فى ذلك الإغواء ، فلا يدركهم تراخ ، ولا يلحقهم فتور .

٥ — ومن وسوسة الشياطين إلى الكفار وإغوائهم ، أنهم كانوا يطلبون من النبيّ أن يأتيهم بآيات يُعيّنونها على سبيل التعنت ، كقولهم : لن نؤمن لك حتى تفجرّ لنا من الأرض يَنبوعاً ، فإذا لم يحقق لهم ما يطلبون ، قالوا له : هلا اقترحتها على ربك ، إن كنت صادقاً فى أنك رسول من عنده ، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم ، بأنه ليس له أن يقترح على الله ، أو أن يرسم له ما يفعل ، وإنما هو رسول يوحَى إليه ، ويأمره الله بما يريد فيتبعه ، وهذا القرآن الذى جئت به من عند الله دليل قوى ، ومعجزة بالغة ، جعلها الله لتبصيركم بوجوه الحق ، ودلائل التوحيد، والنبوّة والمعاد، وهو بلاغ للناس ، يَهْديهم إلى الطريق ، ويُرْشدهم إلى الخير ، ويبين لهم الرشد من الغى ، وهدى ورحمة للذين يؤمنون .

٦ — إذا كان القرآن يقرأ على مسمع من المسلم ، غير المشغول بعمل من الأعمال الخاصّة بشئون الدولة ، أو كسب العيش ، أو تحصيل العلم ، أو نحو ذلك من الأمور الجدّية ، التى لا بد من أدائها ، والقيام عليها — وجب على السامع أن يُنصت ، ويستمع ، متدبراً ، متفهماً ، معتبراً ، فإن فى ذلك إرضاء لله ، وتقرباً منه ، وترقباً لرحمته .

٧ — وعلى مُستمع القرآن أن يتدبر فى نفسه ما يسمعه ، ويتأمله ، وهو على حال من الضراعة والخشوع ، والذلة والخضوع ، والخوف الباعث على المبالغة فى الإنصات ، والاستماع والتفكر ، ومع هذا التدبر القلبى الخاشع ، أجْرِ أيها المستمع على لسانك ذكره إجراءً ليس فيه خُفوت ولا جهرٌ ، ولكن ابتغ بين ذلك سبيلا ، لتجمع بين فضيلتَى الذكر القلبى واللسانى ، ولا تدعْ فرصة تستطيع فيها أن تذكر الله بقلبك ولسانك ، من غير أن تنتهزها ، فى أى وقت من أوقات النهار أو الليل ، ما دام ذلك فى إمكانك ، من غير جهد ولا مشقة ، فلا تغفل عن ذكر

الله ، ولا تلهُ عنه ، ولا تبالغ فيه مبالغة تشغلك عن حقوق الدّولة والناس قبَلك، وعن حقوق نفسك وأهلك عليك ، فإن ما تؤديه من هذه الأعمال عبادةٌ ، ولها عند الله ثواب .

٨ — إن الملائكة المقربين إلى الله ، الذين عنده فى أعلى الدرجات ، البالغين نهاية الشرف ، وغاية الطهارة والعصمة ، لا يستكبرون عن عبادة الله ، كما يستكبر هؤلاء الكافرون ، وينزهونه عن كل ما لا يليق أن يُنسب إليه ، مما لا يتفق مع عظمته ، ويخصونه بسجودهم وخضوعهم ، فلا يُشركون معه أحداً ، وإذا كان خواصّ ملائكة الله على هذا مع الله ، فأولى بالإنسان أن يكون لله أطوع ، ولاستجابة أوامره أسرع ، فهو إليه أحوج .

سورة الأنفال

وهي خمس وسبعون آية ، مَدَنيّة بَدْرِيّة
إلا من الآية ٣٠ الى الآية ٣٦ فمكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١)

من أول السورة إلى الآية الرابعة

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ، قُلِ : الأَنْفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ -١- .
فَاتَّقُوا اللهَ ، وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ،
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ -٢- . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ، وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ -٣- .
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَمَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ -٤- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
يسألونك عن الأنفال	يسألونك عن حكم الأنفال ، والأنفال : الغنائم ، ومفردها نَفَل ، أى غنيمة : لأنها من نَفل الله وفضله .
لله والرسول	هى رزق وملك لله ، يأمر بتقسيمها على حسب ما تقضيه حكمته ، ويمتثل الرسول أمر الله فى قسمتها .
وأصلحوا ذات بينكم	وأصلحوا الأحوال بينكم ، وأزيلوا الخلاف والمباعدة ، بالمواساة والمودة .
وَجلتْ قلوبهم	خافت وفزعت لذكره ، استعظاماً له ، وتهيباً من جلاله .
زادتهم إيماناً	زادتهم يقيناً وُطمأنينة نفس ، وقوىَ تصديقهم بتعدد الأدلة .
وعلى ربهم يتوكلون	وعلى مالكهم ومدبر أمرهم يتوكلون ، ويفوضون أمرهم إليه .
أولئك هم المؤمنون حقًّا	أولئك هم المؤمنون إيماناً حقًّا كاملا ، بما اتصفوا به من أفاضل الصفات.
لهم درجاتٌ عند ربهم	لهم كرامات ومنازل عالية عند الله فى الجنة .
ومَغفرة ورزق كريم	وصَفح عمَّا فَرَط من ذنوبهم ، ونعيم فى الجنة لا ينقضى أمَدُه ، ولا ينتهى عددُه .

سورة الأنفال بدرية

يقولون : إن سورة الأنفال : بدرية : لأنها نزلت فى أهل بدر ، تحذرهم أن تُضلهم المطامع عن تقوى الله وطاعته ، فيميلون عنهما إلى الغنائم وعُروض الدنيا ، وتبين الفضائل التى يتحلى بها المؤمنون ، وتحكى تأييد الله ونصره لهم يوم بدر وهم قلة ، على الكافرين وهم كثرة ، وتحثهم على القتال ، وتحذرهم الفرار . وفى أسباب نزول سورة الأنفال رُوى ما يأتى :

بين الشيوخ والشباب من أهل بدر

لما انتصر المسلمون يوم بدر على المشركين ، اختلفوا على الأنصبة فى غنائم بدر ، كما اختلفوا على من يتولى قسمتها ، فإن الشيوخ من أهل بدر قد ثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتال ، وعادوا بالغنائم ، وأرادوا أن تكون لهم دون غيرهم ، فقال لهم الشيوخ : أشركونا معكم ، فإنا كنا عند الرايات ، وكنا ردءاً لكم ، نحمى ظهوركم ، وكنا فئةً تنحازون إليها إذا مال العدو عليكم ؛ فقال لهم الشباب : نحن الذين أبلينا بلاء حسناً فى القتال ، قتلنا سبعين ، وأسرنا سبعين ، وأحرزنا لكم النصر على المشركين ، فهذه الغنائم لنا ، ونحن أحق بها ، فذهبوا إلى رسول الله يسألونه ، وانبرى سعد بن مُعاذ وهو من الشيوخ ، وقال : والله يا رسول الله ، ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء الشبانُ من القتل والأسر والغنائم ، زهادة فى الأجر ، ولا جُبنٌ عن العدو ، ولكنا كرهنا أن نُخلىَ المكان فى الصفوف ، فتعرَى وتنكشف للعدو ، فيعطف عليك من

ثغراتها خيل من المشركين ، فآثرنا أن نبقى قوة من خلف المقاتلين، تحمى ظهورهم ، وينحازون إلينا إذا مال العدو عليهم ، فنزلت هذه الآيات ، فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم بينهم على السواء .

لمن سيف سعيد بن العاص ؟

وروى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : قتل أخى عُمير يوم بدر ، فقتلت به سعيدَ بنَ العاص ، وأخذتُ سيفه فأعجبنى ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إن الله تعالى قد شفى صدرى من المشركين ، فهبْ لى هذا السيف ، فقال لى عليه الصلاة والسلام : ليس هذا من حقى ولا من حقك، اذهب واطرحه فى القبض : أى فيما جُمِعَ من الغنائم ، فذهبت وطرحته، وبى ما لا يعلمه إلا الله ، من قتل أخى وأخذ سلبى ، وقلت : عسى أن يُعطَى هذا من لم يُبل بلائى . فما جاوزت إلا قليلا، حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا سعدُ ، إنك تسألنى السيف وليس لى ، وقد صار لى ، فاذهب فخذه .

مجمل المعنى

١ — يختلف المسلمون فى قسمة الغنائم التى يأخذونها فى الجهاد من الأعداء ، ويختلفون فيمن يتولى قسمتها عليهم : أتكون من حق الجنود الذين غنموها ؟ أم تكون من حق المقاتلين جميعاً ؟ وهل يتولى الأنصارُ قسمتها ؟ أو يتولاها المهاجرون ؟ ويسألونك يا محمد عن الحكم فى ذلك ، فقل لهم : إن حكمها مختص بالله ، وله الأمر فيها وحده ، ويقسمها رسوله كما

أمر الله ، من غير أن يكون لأحد رأىٌ معه .

٢ — وما كان لكم أن تختلفوا فى أمر هذه الغنائم ، وهى رزق ساقه الله إليكم ، وتفضل به عليكم ، وأحله لكم ، فاتقوا الله ، واتركوا ما كنتم فيه من الاختلاف الموجب لغضب الله عليكم ، وأصلحوا ما بينكم من أحوال الشقاق والمباعدة ، بالمواساة والمساعدة ، والمصافاة والمودة . وأطيعوا الله ورسوله باتباع ما أمركم به ، واجتناب ما نهاكم عنه ؛ وقد جعل الله الأمر بإصلاح ذات البين ، ووجوب إحلال الوفاق محل الشقاق بين المسلمين ، مَحُوطاً بالأمر بتقواه ، والأمر بطاعته ، فى قوله : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله » : للتنبيه على أن الخلاف والفرقة التى تنبع بين الجماعة ، ويجر إليها هوى أو طمع ، وتبعثها إرادة علو أوسلطان ، معصيةٌ لله ومخالفة لأوامره ، تستوجب غضبه وسخطه ، كما أن امتثال هذه الأوامر الثلاثة ، وهى إتقاء المعاصى ، وطاعة الأوامر ، وإصلاح ذات البين ، أى إزالةُ الخلاف والشقاق بالعدل والإحسان ، من أسباب كمال الإيمان .

٣ — وقد وصف الله عباده المؤمنين الذين بلغوا حد الإخلاص والكمال فى الإيمان ، بالأوصاف الجليلة الآتية :

ا — أنهم يمتثلون ما أمر الله به من التقوى والطاعة وإصلاح البين .

ب — وأن قلوبهم يملؤها الوجل والفزع لمجرد ذكر اسمه ، وإن لم يُذكرْ معه ما يوجب الوَجل والفزع ، استعظاماً لشأنه ، وتهيباً لسلطانه ،

حـ — وأنهم إذا سمعوا القرآن وُتليتْ عليهم آياته ، زادوا طمأنينة ويقيناً ، وقَوِى فى نفوسهم التصديق ، وأشرق فى قلوبهم نور اليقين ، وطلعت عليهم الآيات كلما سمعوها بدلائل متجددة متعددة ، تطمئن بها قلوبهم ، ويزداد يقينهم وإيمانهم .

د – وأنهم يعتمدون على الله ، ولا يفوضون أمورهم إلى غيره .
هـ – وأنهم يقيمون الصلاة، فتنهاهم عن الفحشاء والمنكر .
و – وأنهم ينفقون الصدقات من الأموال التى رزقناهم بها ، فتطهرهم وتزكيهم .

٤ – أولئك الذين اتصفوا بهذه الفضائل ، وتحلوا بجميع الخصال الكريمة ، من قلبية وبدنية ومالية ، قد أعد الله لهم على كل منها جزاء حسناً ، وأجراً كريماً ، فأعد لهم جزاء ما اتصفوا به من الفضائل القلبية : كالفزع لمجرد ذكر اسمه تعالى، وزيادتهم يقيناً وإيماناً عند تلاوة آياته، واستماع قرآنه، درجات من الشرف والكرامة ، وعلو المنزلة عنده يوم القيامة ، وجعل لهم لإقامة الصلاة مغفرةً لما فرط من ذنوبهم ، وعفواً عما سبق من خطاياهم، وأعد لمن ينفقون الأموال يوم القيامة نعيما دائماً ، ورزقاً حسناً فى الجنة ؛ وقد جعل الله صفات المؤمنين موزعة بين أعمال القلوب من الوجل والفزع خوفاً منه ، والتوكل والإخلاص إيماناً به ، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة .

(٢)

من الآية ٥ إلى الآية ١٤ من سورة الأنفال

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ -١- . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ ، كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ -٢- . وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ -٣- . إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ، فَاسْتَجَابَ لَكُمْ : أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ -٤- . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ -٥- . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ -٦- . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ : أَنِّي

مَعَكُمْ ، فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ، وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ —٧— .
ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ
فَإِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ —٨— . ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ، وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
من بيتك	من المدينة مُهاجَرك ، وفيها بيتك ومسكنك .
وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون	وإن بعض من خرجوا معك لكارهون للقتال ، إما لنفور طبعهم منه ، أو لعدم استعدادهم له .
يجادلونك فى الحق	يحاورونك ويراجعونك من الفزع والرعب ، فيما أردت من إيثار الجهاد لتنصر الحق ، وهم يؤثرون العيرَ ليأخذوا المال ، ويأمنوا القتال .
بعد ما تَبين	بعد ما ظهر لهم من الحق الذى أعلمك به الله ، بأنه سينصرهم حيثما توجهوا معك .
كأنما يُساقون إلى الموت وهم يَنظرون	يكرهون القتال كراهة من يُساق إلى الموت ، وهو يشاهد أسبابه .

شرحها	الألفاظ
عيرَ قريش التى أقبلت من الشام فى تجارة عظيمة، وفى أربعين راكباً ، أو النَّفير : وهو الجيش الذى خرج به أبو جهل فى ألف من أهل مكة ، لملاقاة العير ، وتخليصه من محمد وأصحابه .	إحدى الطائفتين
هى العير ، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون راكباً ، ومعهم تجارةٌ ومَغنم ، فلذلك يتمنونها، ويَودون لقاءَها ، ويكرهون ملاقاة ذات الشوكة وهى النفير ، لأنهم ألف مقاتل، على رأسهم أبوجهل، والشوكة : السلاح .	غيرَ ذات الشوكة
أن يُظهر الإسلام .	أن يُحق الحق
بوعده وأمره فى آياته المنزلة فى هذا الشأن .	بكلماته
يستأصلهم بالهلاك .	ويَقطع دابر الكافرين
تطلبون منه الغوث والنصر .	تستغيثون ربكم
متتابعين ، فريقاً بعد فريق ، أمام المؤمنين ووراءهم .	مُردفين
يجعله غاشياً لكم ، ومحيطاً بكم .	يَغشيكم النعاسَ
فتنعسون أمناً واطمئناناً من الله ، لا إعياء وكلالا .	أَمَنةً منه
وسوسته ، وتخويفه لكم من العطش .	رجزَ الشيطان
وليقويها بالثقة بلطف الله .	وليرْبط على قلوبكم
يجعلها ثابتة فلا تسوخ فى الرمال ، ويمكنها فيها، فلا تزلَّ فى معارك الحروب .	ويثبت به الأقدام
أنى معينكم ، وموفقكم فى تثبيت المؤمنين وتقويتهم .	أنى معكم

الألفاظ	شرحها
فثبتوا الذين آمنوا	احملوهم على الثبات فى مواطن الحرب ، ومقاساة شدائده ، بتكثير عددهم ، وتقوية قلوبهم ، وتبشيرهم بنصر الله لهم .
فاضربوا فوقَ الأعناق	فاضربوا أيها المؤمنون الكفار فى أعالى الأعناق والهامات ، حيث المذابح والمقاتل .
واضربوا منهم كلَّ بنان	اضربوا الأطراف ، والغرض : اضربوهم فى جميع الأعضاء : أعاليها وأسافلها .
ذلك بأنهم شاقوا الله	ذلك العقاب الفظيع الذى وقع بهم ، بسبب أنهم شاقوا الله ، وغالبوه وخاصموه .

العير والنفير

العير بكسر العين : القافلة من الرجال والدوابّ التى تحمل الميرة ، أى مواد الطعام وعروض التجارة ، من بلد إلى بلد ، ومنها عير قريش التى أقبلت من الشام ، محملة بالتجارة ، وعليها أربعون راكباً ، تحت إمرَة أبى سفيان ، فنهض النبيّ وأصحابه من المدينة ليتلقوها .

والنفير : الجماعة من الناس ، والقوم ينفرون معك ، وينهضون للقتال ، ومنها نفيرُ قريش ، وهم الذين نفروا مع أبى جهل تحت إمرة عُتبة بن ربيعة ، ليمنعوا عير أبى سفيان أن تقع فى قبضة محمد وأصحابه ، وبسبب العير والنفير كانت موقعةُ بدر ، ثم ضرب المثل للشخص الذى لا خير فيه ، ولا يصلح لمهم من الأمر ، بأنه : لا فى العير ولا فى النفير .

قصة العير والنفير
أو غزوة بدر

(ا) خروج المسلمين لملاقاة العير

أقبلت عيرُ قريش من الشام فى طريقها إلى مكة ، تحمل التجارة إلى قريش ، وعلى رأسها أبو سفيان ، وفيها أربعون فارساً ، فأعلمَ جبريلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرها ، فأخبر بها المسلمين ، وندبهم إليها ، وقال لهم : هذه عير قريش فيها الأموال ، فاخرجوا إليها ، لعل الله يُنفِّلكموها — أى يتفضل بها عليكم — فسر قوم وفرحوا ، وأعجبهم أن يخرجوا إليها ، ويعترضوا طريقها ، لكثرة الخير وقلة القوم ، وانبعثوا مع النبىّ وخفّوا إلى لقاء العير ، وتباطأ قوم وكرهوا الخروج ، فأسرع رسول الله لا يَلوى على من اعتذر أو تباطأ ، وسار فى ثلثمائة وثلاثةَ عشر من أصحابه ، منهم حول سبعة وثمانين من المهاجرين ، والباقى من الأنصار ، وقد ظن من خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يخوضون حرْباً ، ولا يلاقون عدوّاً مستعدّاً ، فلم يكثر استعدادهم .

(ب) أبو سفيان يهرُب محاذياً ساحل البحر

وكان أبو سفيان وهو فى عوْدته يتوجس خيفة من محمد وأصحابه ، فأخذ يتحسس عنهم الأخبار ، ويسأل كل من لقى من الركبان ، تخوفاً من وقوع الأموال والعير فى قبضتهم ، حتى وصل إلى علمه من بعض الركبان ، نبأ خروج

محمد وأصحابه لملاقاتهم ، فغير طريقه ، وسار محاذياً ساحل البحر ، واستأجر ضَمضمَ بن عمرو الغِفارىّ ، وبعثه إلى مكة ، وأمرَه أن يأتى قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عَرض لها فى أصحابه ، ففعل ضمضم .

(ح) أبو جهل يخرج بالنفير من مكة لإنقاذ العير

لما سمع أبو جهل بأمر تعرض المسلمين للعير ، وقف على الكعبة ، وأخذ يحرض قريشاً على الخروج ، ويستنفرهم للقتال ، وقال : يأهل مكة ، النجاء النجاء : السرعة السرعة ، على كل صعب وَذلول من إبلكم ! قومكم ! عيركم ! أموالكم ؛ إنْ أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً ؛ وقد رأت عاتكةُ بنت عبد المطلب ، أخت العباس بن عبد المطلب رُؤيا ، فقالت لأخيها : إنى رأيت عجباً ، رأيت كأن ملَكاً نزل من السماء ، فأخذ صخرة من الجبل ، وحلّق بها فوق بيوت مكة ، فلم يبق بيت منها إلا أصابه حجر من تلك الصخرة ، ولما حدّث العباس رضى الله عنه أبا جهل برؤيا عاتكة ، غضب ، وقال : ما يكفى رجالهم أن يتنبئوا حتى تتنبأ نساؤهم ؛ وخرج فى ألف من أهل مكة ، وهم « النفير » ، ليمنع العير من وقوعها فى يد محمد وأصحابه ، فقيل له : إن العيرَ أخذت طريق الساحل ونجتْ ، فارجع بالناس إلى مكة ، فقال : لا والله ، لا يكونَ ذلك أبداً ، حتى ننحرَ الجزور ونشرب الخمور ، ونُقيم القَينات والمغنيات والمعازف ببدر ، فيتسامع جميع العرب بمخرجنا ، وأن محمداً لم يُصب العير ؛ ومضى بهم إلى بَدر ، وهى ماء كان من عادة العرب أن يجتمعوا عندها يوماً فى السنة ، يقيمون سُوقهم بها ، وهى أقرب إلى المدينة من مكة ، وقد نجا أبو سفيان بالعير ، وعسكر أبو جهل ومَنْ معه من قريش عند بدر ، ينحرون الجزور ، ويشربون الخمور ، ويقيمون الغناء ، ويتصايحون بأن محمداً وأصحابه لم ينالوا منهم مَنالا .

(د) النبيّ يستشير أصحابه

نزل جبريل عليه السلام يخبر النبيّ أن الله وعد المسلمين إحدى الطائفتين : إما العير وإما النفير ، فاستشار النبيّ أصحابه ، فقال : ما تقولون ؟ إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صَعب وَذلول ، فالعير أحب إليكم أم النفير ؟ فقالوا : بل العير أحب إلينا من النفير : العير سنحصل منها على المال ، دون موت أو قتال ، والنفير سنلاقي منه عدواً أقوى سلاحاً ، وأكثر عدداً ، ولسنا على حربه قادرين ، أو للقائه مستعدين ؛ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظهر فيه الغضب ، وقال : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل يزحف نحونَا ، وقد وعدكم الله أن ينصركم ، ويجعل لكم الغلبة إما على العير ، وإما على النفير ، فلمَ تفرون من القتال ، وتودون أن تكون لكم طائفة السلامة والمال ، والله يريد بكم أن يحق الحق ، ويظهر الإسلام ، ويبطل الباطل ، ويحبط الشرك ؟ فقالوا : يا رسول الله ، عليك بالعير ، ودع العدو فلا قبلَ لنا به .

(هـ) يا رسول الله لو خضت بنا البحر لخضناه معك

عندئذ قام أبو بكر ، فقال فأحسن ، وقام عُمر ، فقال فأحسن ، ثم قام سعدُ بن عُبادة فقال : يا رسول الله ، انظر أمرَك ، وامض بنا كيف شئت ، فوالله لو سرت إلى « عدَن » ، ما تخلف عنك رجل من الأنصار ؛ ثم قال المقداد بن عَمرو رضى الله عنه : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فإنا معك حيثما أحببت ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : « اذهبْ أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون » ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا

معكم مقاتلون . ما دامت عين منا تَطرف ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفتحت أساريره . ثم قال : أشيروا عليّ أيها الناس ، وهو يريد الأنصار ، لأنهم أكثرُ مَنْ معه ، وأراد أن يتبين ما فى نفوسهم ، لأنهم كانوا قد قالوا له حين بايعوه بَيعة العقبة بمكة فى موسم الحج ، قبل أن يهاجر إليهم : — إنا بَراء من عهدك وذمامك ، حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان النبيّ يتخوف أن يكون الأنصار لا يُرَوْنَ نُصرته عهداً عليهم وميثاقاً ، إلا على عدو يَدْهَمُه فى ديارهم بالمدينة ، أما فى خارج المدينة فلا عهد له عليهم ولا ذمة ، فقام سعدُ بن مُعاذ فقال : لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : أَجل ، قال : — قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول لما أردت ، فو الذى بَعثك بالحقّ ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته ، لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا ، وإنا لصبُرٌ عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّبه عينك ، فسرْ بنا على بركة الله .

(و) سيروا على بَركة الله

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سرّه قول سعد ، ثم قال : سيروا على بَركة الله وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مَصارع القوم ؛ ومضى رسول الله ، ونزل بهم على أقرب ماء للمدينة ، ثم رُئى أن يتركوه ، ونزلوا فى كثيب أعفر ، تسوخ الأقدام فى رماله ، على غير ماء ، فعطشوا ، فوسوس إليهم الشيطان : قال : أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على حق ، وأنتم تُصلون على جنابة ، وعلى غير وضوء ، وقد نال

منكم العطش ، ولو كنتم على حقّ ما غلبكم هؤلاء على الماء ، وسيتركونكم حتى يجهدكم العطش ، ويقطع أعناقكم ، ثم يمشون إليكم ، فيقتلون من أحبّوا ، ويسوقون بقيتكم أسرى إلى مكة ؛ فحزنوا حزناً شديداً ، وأشفقوا على أنفسهم ، فأنزل الله عز وجل المطر ليلا ، فجرى به الوادى ، فاغتسلوا وتوضئوا ، وسقُوا الركاب ، وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو ، فثبتت عليه أقدامهم ، واطمأنت قلوبهم ، وزالت وسوسة الشيطان عنهم ، وطابت نفوسهم ، وناموا آمنين بلا خوف ولا وجل، ولا إعياء ولا كلل ، ونزل : « إذ يُغشيكمُ النعاسَ أمنةً منه ، وينزلُ عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويُذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام » .

(ز) النبيّ والمسلمون يستغيثون ربهم

ولما علم المسلمون أنه لا بد من القتال ، أخذوا يدعون الله ، ويطلبون منه الغوث والنصر ، ولما نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المشركين ، وهم ألف ، وإلى أصحابه،وهم ثلثمائة وبضعة عشر ، استقبل القبلة ، ومدّ يديه يدعو : «اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تَهلك هذه العصبة لا تُعبدْ فى الأرض»، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر رضى الله عنه،فألقاه على منكبيه والتزمه من ورائه ، وأسند ظهره بيديه ، وقال : يانبيّ الله ، كفاك مُناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك وعدك ، فأنزل الله : « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » .

(ح) هو الرأى والحرب والمكيدة

ولما نزّل رسول الله بالمسلمين على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة ، أشار عليه الُحباب بن المنذر بغير ذلك ، وقال له : يا رسول الله ، أرأيت هذا

المنزل الذى نزلنا به ، أمنزلاً أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأىُ والحربُ والمكيدة ؟فقال عليه السلام : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة» فقال : يارسول الله ، إن هذا ليس لك بمنزل ، فامض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم ندفن ونسد ما وراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه ، فنشرب ولا يشربوا ، فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من رأيه ، فلما كان المسلمون فى الليلة التى سيقومون من غدها إلى القتال ، وهى الليلة السابعة عشرة من رمضان ، أزال الله الرعب من قلوبهم ، فناموا هادئين مطمئنين ، وتقووا بالراحة على القتال .

(ط) انتصار المسلمين ، ومصرع أبى جهل

ولما التقى الجمعان ، ثبت الله المؤمنين ، وألقى الرعب فى قلوب الكافرين ، وانتصر المسلمون ، « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » ، فقتلوا من المشركين سبعين ، وصرعوا أبا جهل بن هشام ، وأمية بنَ خلف ، وعُتبة بن ربيعة ، وشُعبة بن ربيعة ، صناديد قريش ، وألدّ أعداء رسول الله ، الذين آذوه وحاربوا دعوته ، وأخرجوه من وطنه ، فانتقم الله له وللإسلام منهم أشد انتقام ، وتركهم رسول الله قتلى ثلاثة أيام ، ثم قام عليهم . فنادى هؤلاء الأربعة بأسمائهم ، قال لهم : « أليس قد وَجدتم ما وعدَ ربكم حقًّا ، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًّا » ؛ فسمع عمر قول النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله : كيف يسمعون ، وأنى يجيبون وقد جيَّفوا ؟ قال : والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا .

لقد كانت وقعة بدر أول صيحة اندك بها صرح الشرك ، وارتفعت منارة الإسلام ، وعلت كلمته ، وتألق نوره ، لقد كانت البوق المؤذنَ بإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ، والله أكبر ، والعزة لدينه .

(ى) النبيّ يقبل نصيحة العباس وهو أسير

ولما حقق الله ما وعد به المسلمين ، ونصرهم فى بدر على المشركين ، قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : عليك بالعير ، ليس دونها شىء ، فناداه العباس عمه ، وهو فى وَثاقه بين الأسرى : لا يصلح هذا ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : ولِمَه ؟ قال : لأن الله وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : صدقت ، وكان العباس علم ذلك من أصحاب النبيّ حينما كانوا يتحدثون فى شأن بدر وقصتها .

مجمل المعنى

١ — إن حال المؤمنين فى كراهيتهم أن يكون حكم الأنفال والغنائم ، وقسمتها لله والرسول ، وليست لأحد منهم يتصرف فيها على حسب هواه ، كحالهم فى كراهيتهم لإخراج الله لك من المدينة ، التى فيها بيتك ومسكنك ، ووطنك ومستقرك ، لملاقاة قريش فى العير أو النفير ، وهو إخراج متلبس بالحق والحكمة والصواب ، ولكن بعض المؤمنين كارهون للخروج ، لأن طبيعتهم تنفر من القتال أو لأنهم غير متأهبين ولا مستعدين له .

٢ — وهم يجادلونك ويحاورونك فى تلقّى نفير قريش ، ويفضلون عليه تَلقّى العير ، ويقولون : ما كان خروجنا إلا للعير ، ولم يكن للنفير ، لأننا لسنا مستعدين ؛ يجادلونك فى القتال بعد ما تبين لهم أنه الحق ، وأن الله وعدهم : إما أن يكون لهم العير ، وإما النفير فى القتال ، وقد مضت العير ، فلم يبق إلا القتال ، فما بالهم وهم سائرون إلى الظفر والغنيمة ، يبدو عليهم

الفزع والخوف ، كشأن الذين يساقون على الخسف والصغار إلى الموت ، ويشاهدون عياناً أسبابه ، فلا يشكُّون أنهم سيقتلون .

٣ — واذكروا أيها المؤمنون وقت أن وعدكم الله أن إحدى الطائفتين : إما العير وإما النفير ، تكون لكم ، تتسلطون عليها تسلط الملاّك على ما يملكون ، وتسخر لإرادتكم كما تشاءون ، وأنتم لما بكم من قلة الحزم وضعف الهمة ، وفساد الرأى ، وشدة الخوف والفزع ، لا تطمئنون لوعد الله ، وتحبون أن تكون لكم العير ، وهى غير ذات الشوكة والسلاح ، ولا تريدون أن يكون لكم النفير ، وهو ذات الشوكة والسلاح والقوة ، ولكن إرادة الله فوق إرادتكم ، ومشيئته فوق رغبتكم ، لأنه يريد أن يحقّ الحقّ ، ويظهر الإسلام ، ويعلى كلمة الدين ، ويستأصل شأفة الكافرين ، ويقضى على وجود المشركين ، وشتان بين ما يريد الله لكم من العزة والقوة ، وإظهار الحق ، وبين ما تريدون من إيثار الراحة ، وطلب الغنيمة من أيسر سبيل ، والخنوع إلى الذل ، والخوف من العدو ، والنكوص عن القتال ، وقد أراد الله ذلك لكم ليحقّ الحقّ ، ويثبت الإسلام ، ويظهره ، ويبطل الباطل ، ويمحق الشرك ويدحضه ، على رغم المشركين .

٤ — واذكروا أيها المؤمنون يوم أن ضاقت بكم الحيل ، وعرفتم أن لا محيص من لقاء قريش ، على كثرة عددهم وعدتهم ، ولا مَفرّ من القتال ، فأخذتم تطلبون النصر والغوث من ربكم ، وتتضرعون إليه أن ينصركم على عدوكم ، واذكروا يوم وقوف نبيكم ليلا ، وقد مد يديه ، ورفع وجهه إلى السماء ، يدعو الله أن يقويه ، ويكتب لكم الظفر ، فاستجاب له ، ووهب لكم من الضعف قوة ، ومن الخوف أمناً ، وقال لكم : لا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بأنى سأمدكم وأعينكم بألف من الملائكة مردفين ، يتتابعون فريقاً بعد فريق ، ويجيئون ألفاً بعد ألف ، يقفون من أمامكم ومن خلفكم ،

يقاتلون معكم ، ويشدون أزركم .

٥ — وما جعل الله إمدادكم عياناً بالملائكة ، ومشاهدتكم إياهم فى صفوف القتال فى صورة الأبطال ، إلا استباقاً لكم بالبشرى بأنكم ستغلبون وتُنصرون ، ولتسكنَ إلى هذا المدَد نفوسكم ، وتطمئن به قلوبكم ، ولكن النصر فى الحقيقة من عند الله وحده ، من غير أن يكون لأى سبب من الأسباب ، أو عدد من الأعداد دخلٌ فيه ، وإن كانت السنة الإلهية قد جرَت على أن تكون العدةُ والسلاح ، والجيش والقوة ، هى الوسائل الظاهرة للظفر والنصر ، ولهذا يقول جل شأنه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، والله عزيز لا يغالب فى حكمه ، ولا يراجع فى قضائه ، حكيم يفعل ما يفعل على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

٦ — واذكروا أيها المؤمنون وقد أنزل الله السكينة على قلوبكم ، وأدخل الطمأنينة إلى نفوسكم ، وجعل النعاس يغشاكم ليلةَ القتال ، فتنامون آمنين مطمئنين ، وجعل الغيث ينزل عليكم من السماء ، فيسيل الوادى بالماء ، فتغتسلون وتتطهرون وتشربون ، وتذهب عنكم الوساوس التى كان الشيطان يلقيها فى قلوبكم ، من أن قريشاً حالتْ بينكم وبين الماء وسيقتلكم الظمأ ، ولا تجدون ما به تتوضئون أو تتطهرون ، ولقد فعل الله كل هذا لكم ، ليربط على قلوبكم ، ويقويها بالثقة بلطف الله ، وتعلق الأمل دائماً برحمته ، وليجعل الأرض التى بينكم وبين العدو تتلبد ، فتثبت تحت أقدامكم ، ويملأ نفوسكم باليقين ، ويمكّن فيها الإقدام والجراءة ، فلا تزلّ فى معارك القتال .

٧ — واذكر يا محمد إذ أوحى ربك إلى الملائكة : أن اقتلوا وقاتلوا ، وأنى معكم مُعينكم وموفقكم فى تثبيت المؤمنين وتقويتهم ، فسأقذف الرعبَ فى قلوب المشركين ، وسأجعل ضرَباتكم مسددةً إليهم ، فاضربوهم حيث لقيتموهم ،

اضربوا رءوسهم ، واضربوا أيديهم وأرجلهم ، وثقوا أنهم سيهزمون ويُغلبون ولقد كان أبو داود المازنى ممن شهد بَدْراً، فقال : اتبعتُ رجلا من المشركين يوم بَدْر لأضربه ، فوقعت رأسه بين يدىَّ ، قبل أن يصل إليه سيفى ، وعن سَهم بن حُنَيف رضى الله عنه أنه قال : لقد رأيتنا يوم بدر ، وأن أحدنا يُشير بسيفه إلى المشرك ، فتقعُ رأسه عن جسده ، قبل أن يصل إليه السيف .

٨ — وقد سلط الله ملائكته والمؤمنين للتنكيل بالمشركين ، لأنهم شاقّوا الله وخاصموه ، وكل من يشاقّ الله ويخاصمه كائناً مَنْ كان ، فله عقاب شديد مثل هذا العقاب .

٩ — وليس ما أصاب المشركين من التنكيل والتقتيل إلا عقاباً عاجلا ، يذوقونه فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فقد أعد لهم عذاب النار .

(٣)

من الآية ١٥ إلى الآية ٢٣ من سورة الأنفال

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا
تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ ،
أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ،
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ –١– . فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ، وَلٰكِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ ، وَمَا
رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ، وَلٰكِنَّ اللّٰهَ رَمَى ، وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ
بَلَاءً حَسَناً ؛ إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذٰلِكُمْ وَأَنَّ اللّٰهَ مُوهِنُ
كَيْدِ الْكَافِرِينَ –٢– . إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ، وَإِنْ
تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ ، وَأَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ –٣– . يٰأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا ، أَطِيعُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ
تَسْمَعُونَ –٤– . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا : سَمِعْنَا ، وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ –٥– . إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّٰهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ ،

الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ –٦– . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ –٧– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
زَحفاً	الزحف : دبيب الصبىّ على أليته قليلا قليلا ، وسُمّى الجيش الكثيف المتوجه إلى العدو زحفاً ، لأنه لكثرته وتكاثفه يُرى كأنه يزحف ، وينتقل ببطء .
فلا تُولوهم الأدبار	فلا تُعطوهم ظهوركم ، ولا تفروا منهم .
يومئذ	يوم اللقاء فى القتال .
متحرفاً	مائلا من جانب إلى جانب بالفرّ للكرّ ، مكيدة فى الحرب غير منهزم ، أى يفعل ذلك للحيلة والمكيدة .
متحيزاً إلى فئة	منحازاً منضما إلى جماعة أخرى من المسلمين فى الحرب لينصرهم ، أو يقاتل معهم .
باء بغضب من الله	رَجعَ مستحقًّا لغضب الله وسُخطه .
ومأواه جهنم وبئس المصير	منزله ومُقامه يوم القيامة فى جهنم ، وبئس ما صار إليه فى آخرته .
وما رميتَ إذ رَميتَ	وما ألقيتَ الفزَع والرعب فى قلوب الأعداء ، إذ رميتهم بالحصباء فانهزموا .

الألفاظ	شرحها
ولكنّ الله رمى	ولكن الله رمى لك ، فأعانك عليهم ، وأظفرك بهم .
وليبلىَ المؤمنين منه بلاء حسناً	وليعطى المؤمنين من عنده عطاء حسناً ، ونصراً مبيناً .
ذلكم	ذلكم البلاء الحسن هو عطاء من عند الله للمؤمنين .
وأن الله موهنُ كيد الكافرين	وأن الله يلقى الرعب فى قلوب الكافرين ، فيضطربون ويتشتتون ، ويضعف كيدهم ومكرهم .
إن تستفتحوا	إن تطلبوا أيها الكفار النصر .
فقد جاءكم الفتح	فقد جاءكم الفتح والنصر ، ولكنه للمؤمنين عليكم .
وإن تنتهوا	وإن تتركوا معاداة النبىّ ، وتجتنبوا الكفر والضلال .
فهو خير لكم	فالانتهاء عن معاداة النبىّ واجتناب الكفر والضلال ، خير لكم .
وإن تعودوا نعد	وإن ترجعوا إلى قتال محمد ، نعد إلى نصره عليكم .
ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً	ولن ينفعكم جمعكم ، ولن يُفيدكم شيئاً .
ولو كثرت	مهما كثر عددها .
ولا تَولوْا عنه	ولا تُعرضوا عن طاعته ، ولا تخالفوه .
وأنتم تسمعون	وأنتم تصدقون ما أتاكم به من الحجج والبراهين فى القرآن ، لأنكم مؤمنون
ولا تكونوا كالذين قالوا : سمعنا	ولا تكونوا كالكفار الذين قالوا : سمعنا ، لأنهم سمعوا بآذانهم ، ولم تَفقهْ قلوبهم ، فكأنهم ما سمعوا .
وهم لا يسمعون	وهم لا يتدبّرون ما سمعوا ، ولا يفكرون فيه ، ولا يصدقون به .

مجمل المعنى

١ — بعد ما أحرز المسلمون فى بدر وهم فئة قليلة ، النصر على المشركين وهمْ فئة كثيرة ، بإذن الله ، فرض الله عليهم أن يثبتوا فى القتال ، وأوجب عليهم أن يلاقوا العدو على كثرته ، ونهاهم عن الفرار حذرَ لقائه ، قائلا لهم : أيها المؤمنون ، إذا خرجتم إلى القتال ، ولقيتم جيش الكفار كثيراً كثيفاً ، فيرى لكثافته وكثرته كأنه جسم واحد يتحرك بطيئاً ، ويدنو قليلا قليلا ، وإن كان يسير فى الواقع فى غاية السرعة — إذا لقيتم الكفار على هذه الحال ، وأنتم أقلّ منهم عدداً ، فإن الله ينهاكم أن ترجعوا عن ملاقاتهم ، وتعطوهم ظهوركم ، وتولوهم الأدبار ، فما بالكم بالفرار ؟ إنه ممنوع ومحظور عليكم ، فيجب أن تقابلوهم ، وتقاتلوهم وجهاً لوجه ، وإن كنتم أقل منهم عدداً ، فكم من فئة مؤمنة صابرة ، غلبت فئة كثيرة ، بإذن الله ، وليس الفرار والانهزام من صفات المؤمنين الصابرين ، لأن الله معهم ، يؤيدهم برُوح من عنده — ولقد نهى الله عن الفرار وتولية الأدبار ، إذا كان للخوف من العدو ، أو حذرَ لقائه ، أما إذا كان الفرار أو الميلُ عن الصفوف ، أو توليةُ الأدبار على حسب خطة تضعونها ، أو خدعة حربية تدبرونها ، فإن الله لا ينهاكم عن ذلك ، ولا يحرمه عليكم ، كما إذا انحرفتم عن مواجهة طائفة من العدو ، لتهجموا على طائفة أخرى ، أو فررتم من عدو لتخدعوه وتُغروه ، وتستدرجوه ليخرج من بين أعوانه ، ثم تكروا عليه كراً ، وتوقعوا الهزيمة به ، أو كما إذا اقتضتكم ظروف القتال أن تنحازوا إلى جماعة أخرى من المؤمنين لتنضموا إليها ، وتقاتلوا معها ، كل هذا أو أمثاله ليس محظوراً عليكم ،

ولكنه فى الحرب مستحبٌّ منكم ، وضروريٌّ لكم ، ولقد توعّد الله كل من يُولى فى الحرب الأدبارَ ، بأنه سيرجع مستحقاً لغضب الله ، مطروداً من رحمته ، وقد أعد له جزاء فراره من القتال منزلا فى جهنم ، وبئس المصير الذى ناله بفراره ، واستحقه بانهزامه ؛ وعن ابن عباس: « إن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر ، إذا لم يكن العدو أكثر من الضعف » .

٢ — وقد روى أن المسلمين لما انصرفوا من معركة بدر غالبين غانمين ، غرتهم أنفسهم ، وأخذوا يتفاخرون ، فيقولون : قتلنا وأَسرنا ، وفعلنا وتركنا ، فأراد الله أن يردهم إلى حقيقة أمرهم ، وأن ينبههم إلى الاعتماد عليه فى كل أمورهم ، فقال لهم : لمْ تقتلوهم أنتم بقوتكم وقدرتكم ، ولكن الله قتلهم بقوته وقدرته ، وبما أمدّكم به من الملائكة متتابعين ، ثم خاطب الله نبيه ، فقال له : وما ألقيتَ الخوف والفزع فى قلوب المشركين إذ رميتهم بالحصباء فانهزموا ، ولكن الله هو الذى رَمى لك فى الحقيقة ، فأعانك عليهم ، وأظفرك بهم ، لأن قبضة التراب التى رميتها فى وجوههم ، لا يمكن أن تحدث هذا الأثر البالغ الذى أحدثته فيهم ، لو كانت من فعل البشر ، وإنما كان هذا العون لكم ، لينال المؤمنون من الله جزاء حسناً ونصراً مبيناً ؛ روى عن حكيم بن حزام ، وكان فى جيش الكافرين يوم بَدْر ثم أسلم ، أنه قال : — لما كان يومُ بَدْر ، سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض ، كأنه صوت حصَيات وقعَت فى طَشت — ورمى رسول الله بتلك الحصباء فانهزمنا ، فنزل قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى » ، وإن الله لسميع لدعاء المؤمنين ، عليم بنياتهم وأحوالهم ، فأجاب دعاءهم وحقق النصر لهم ، وذلكم العون الذى أمدّكم به الله ، والظفرُ الذى كتبه لكم ، لصدقكم وإيمانكم كان يقابله تشتيت الكافرين ، وإلقاء الرّعب فى قلوبهم ، فأحبط تدبيرهم ، وأذهب ريحهم ، وأوهن

كيدهم » وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين :

٣ — لقد تعلقتم أيها المشركون حين أردتم الخروج للقاء محمد وأصحابه فى بدر بأستار الكعبة ، تستفتحون الله ، وتطلبون منه أن ينصركم ، وتقولون : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدَى الفئتين ، وأكرمَ الحزبين . فها هوذا الفتح الذى طلبتموه قد جاءكم ، ورأيتم النصر بأعينكم ، لكنه للمسلمين عليكم ، لأنهم أكرم الحزبين ، وخير الجندين ، فإن كنتم تستفتحون وتطلبون من الله النصر ، فسيجيء الله بالنصر ، لكنه عليكم لا لكم ، وإن تجتنبوا معاداة محمد ، وتتركوا ما أنتم فيه من الضلال والبهتان ، فذلك خير لكم وأسلم ، وإن تعودوا لمحاربته ومعاداته ، نَعُدْ لخذلانكم ، والتنكيل بكم ، ولن يغنى عنكم جمعكم الكثير ، وعددكم الوفير ، من الله شيئاً ، فقد هُزمتم وأنتم ألفٌ ، أمام المسلمين وهم ثلثمائة وبضعة عشر ، لأن الله مع المؤمنين ، وهو من ورائهم محيط .

٤ — وأنتم أيها المؤمنون ، عليكم بطاعة الله ورسوله فى كل ما تؤمرون به ، ولا تعرضوا عن طاعة الرسول ، لأنكم مؤمنون تسمعون بآذانكم ، وتصدقون بقلوبكم ، ما جاءكم به القرآن من الحجج والبراهين الموجبة لطاعته ، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته .

٥ — ولا تكونوا كالمنافقين والكفار والمشركين ، الذين قالوا : سمعنا ، وهم لا يسمعون ، لأنهم سمعوا بآذانهم ، ولكن لم تصدق قلوبهم ، ولم تفهم عقولهم ما سمعوا ، فكأنهم صُمٌّ بُكْمٌ ، لا يفهمون ولا يعقلون .

٦ — وإن الذين لا يعقلون ما يسمعون ، ولا يفهمون ما يلقى عليهم من الآيات البينات لكالصمِّ البكم ، الذين لا يسمعون ولا يتكلمون ، وما دامت لهم آذان لا تسمع ، وقلوب لا تفهم ، فهم بهائم تدب على الأرض ، بل هم شرّ أنواع الدوابّ والبهائم عند الله وفى حُكمه ، لأنه خلق لهم السمع ،

وخصهم دون سائر البهائم بوسيلة الفهم والعقل، لكنهم لا يفهمون ولايعقلون .

٧ — ولو علم الله فيهم شيئاً من الخير ، وأن فيهم صدقاً ورغبة إلى معرفة الحق واتباع الهدى ، لأسمعهم البراهين والمواعظ ، والآيات الموجبة لطاعة الرسول ، سماع تفهم وتدبر ، ولكن الله لم يعلم فيهم خيرا ، لفساد نفوسهم ، وخبث ضمائرهم ، فلم يُسمعهم سماع تدبر ، لأنه لو أسمعهم وأفهمهم ، ونفوسهم غير مستعدة لقبول الخير ، لم ينتفعوا بما سمعوا وما فهموا ، وانصرفوا عن الحق ، وأعرضوا عنه بقلوبهم ؛ «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم» .

(٤)

من الآية ٢٤ إلى الآية ٢٩ من سورة الأنفال

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ –١– . وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ –٢– . وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ، فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ –٣– . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ –٤– . وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ –٥– . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ –٦– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
استجيبوا لله وللرسول	أجيبوه بكمال الطاعة .
إذا دعاكم لما يُحييكم	إذا حثكم على الطاعة ، والجهاد الذى فيه حياتكم وسعادتكم .
يحول بين المرء وقلبه	يميته فتفوته فرصة تمكُّن القلب من الإخلاص والطاعة .
وأنه إليه تحشرون	وأنه إليه تجمعون يوم القيامة ، فيجازيكم على أعمالكم .
واتقوا فتنة	واتقوا ذنباً يعم ضرره ، كإقرار المنكر بين أظهركم ، أو تفريق وحدة الجماعة ، أو ترويج الإشاعات الضارة .
لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة	لا تختص إصابتها بمنْ يباشر الظلم منكم .
واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض	واذكروا وقت أن كنتم قلة أذلاء ، مستضعفين فى مكة ، تستذلكم قريش .
تخافون أن يتخطفكم الناس	تخشون لهوانكم وذلتكم أن يتخطفكم من استضعفوكم من قريش ، فلا تملكون أن تدافعوا عن أنفسكم .
فآواكم	فجعل لكم المدينة مأوى تهاجرون إليه ، وتتحصنون فيه .
وأيدكم بنصره	وقوّاكم على الكفار بتأييد الأنصار ، وإمداد الملائكة .
ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون	وأعطاكم طيبات الرزق من الغنائم ، لتشكروا الله على فضله .

الألفاظ	شرحها
لا تخونوا الله والرسول	لا تخونوهما بتعطيل الفرائض والسنن ، أو بأن تظهروا غير ما تخفون .
وتخونوا أماناتكم	وتخونوا ما اؤتمنتم عليه من مال أو عِرْض أو سر ، أو عَهد أو نصيحة .
وأنتم تعلمون	وأنتم تقصدون وتعلمون أنكم تخونون .
فتنة	محنة وبلاء .
فرقانا	هداية فى قلوبكم ، تفرقون بها بين الحق والباطل .

مجمل المعنى

١ — أيها المؤمنون، عليكم أن تجيبوا الله وتطيعوا رسوله، وتمتثلوا أمره، إذا حثكم على عمل طاعة ، أو خروج للجهاد ، أو اتباع لأحكام الدين ، لأن ذلك يحيي قلوبكم بالإيمان ، ويوجهكم إلى الخير ، ويكسبكم العزة والقوة ، فتصير إليكم الغلبة والفوز ، وتحيون حياة طيبة ، واعلموا أن الله أقرب إلى المرء من قلبه الذى هو مناط الحياة والموت ، ومنبع الأمن والخوف ، وأنه وحده هو الذى يصرفه من حال إلى حال ، وهو أملك له من صاحبه ، فيستطيع أن يكون حائلا بين المرء وقلبه ، ويمكّن فيه — على حسب مشيئته — : الإيمان والطاعة، أو الكفر والمعصية، ويبدله من الخوف أمْناً ، أو من الأمن خوفاً . وهو الذى يبعثكم يوم القيامة ، وتجمعون إليه يوم الحساب ، ليجازى كل نفس بما كسبت .

٢ — وقد أمركم الله أن تتقوا الفتنة ، وتجتنبوا العمل الذى يعم ضرره ، وينتشر

خطره ، والفتنة من أشد الذنوب ، وأخطر الجرائم ، لأن ضررها لا يقتصر على من أثاروها ، ولا تصيب فريق الظالمين والآثمين خاصة ، ولكنه يعم البرىء والمذنب ، والمصلح والمفسد ، ولهذا أعقب الله التحذير منها ، بتهديد أصحابها تهديداً مؤكداً بأشد العقاب ، فقال : « واعلموا أن الله شديد العقاب » ، والمقصود بالفتنة فى الآية : جميع الأعمال التى تصيب المجتمع بضرر أو خسارة ، أو توقع فيه شقاقاً أو كارثة ، أو تقر منكراً ، أو تروج إشاعات ضارّة ، أو أخباراً كاذبة ، توهن من قوته ، وتضعضع من عزمه أو ثقته ، وتبعث فيه الرعب والفزع ؛ وينبغى أن يُضربَ على أيدى من يثيرون الفتنة ، وأن يؤخذوا بأشد العقوبات ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تصوير الفتنة تعم ، والضرر يصيب غير من يفعله ، ووجوب المبادرة بالقضاء عليهما : « مَثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها : (أى مثلُ المطيع والعاصى) ، كمثل قوم استهَموا (أى اقترعوا) على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوْا من الماء ، مرّوا على من فوقهم ؛ فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خَرقاً ، ولم نؤذ مَنْ فوقنا ! فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوْا جميعاً » .

٣ — واذكروا أيها المؤمنون حالكم فى مكة قبل الهجرة ، وقت أن كنتم عدداً قليلا ، أذلة مستضعفين ، بالنسبة إلى قريش وقوتهم وبطشهم ، تعيشون فى استكانة ورُعب وفزع ، لا أمنَ لكم ولا اطمئنان ، وتخافون أن يتخطفكم الناس من قريش ، ويأخذوكم ليسوموكم العذاب والهوان ، فمنّ الله عليكم ، وآواكم فى المدينة ، وجعلها لكم مأوى تنزلون فيه وتتحصنون من أعدائكم ، وشد أزْركم بالأنصار ، وأيّدكم بالملائكة فى بدر ، وقوّاكم بنصركم عليهم ، وجعل لكم من الغنائم طيبات من الرزق ، لتشكروه على

عظيم فضله ، وعميم فيضه .

٤ — والله ينهاكم أيها المؤمنون عن أن تخونوا الله ورسوله ، فتعطلوا أحكام دينه ، أو تقولوا بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ، أو تظهروا غير ما تخفون ، وينهاكم عن أن تنقضوا العهود ، وتخونوا الأمانات التى اؤتمنتم عليها من أموال الناس وأعراضهم وأسرارهم ، وأنتم تعلمون أنكم مؤتمنون عليها ، فتعمدون إلى جحود الودائع ، أو انتهاك الأعراض ، أو إفشاء الأسرار ، أو إخفاء المستندات ، إن ذلك إثم كبير ؛ ولقد كان أول همّ للنبىّ صلى الله عليه وسلم ليلة أن هاجر ، أن يترك عليًّا وراءه ليرد الأمانات ، ويعيد الودائع ، وكانت عنده لأعدائه من المشركين ، وأبى أن يهاجر من مكة ، وفى ذمته لأحد من أعدائه وديعة .

أبو لُبابة يصلب نفسه على سارية ، ليكفر عن خيانته

حاصر النبىّ صلى الله عليه وسلم بنى قُريظةَ ، إحدى وعشرين ليلة ، فسألوه صُلحاً كصلح بنى النضير ، وهو أن يتركهم يسيرون إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام ، فأبى إلاأن ينزلوا على حُكم سعد بن مُعاذ الأنصارى سيد الأوس ، وكان حليفهم ، وكان حكمه : أن تُقتل المقاتلة ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرية والنساء ، فأبوا ذلك ، ثم طلبوا أن يرسل إليهم : أبا لُبابة ، وكان مناصحاً لهم ، لأن ماله وعياله كانا فى أيديهم ، فبعثه إليهم ؛ فقالوا : ما ترى ؟ هل ننزل على حكم سعد ؟ فقال : لا تفعلوا فإنه الذبح ، وأشار إلى حَلقه ، فنزلت : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله » ، قال أبو لبابة : فما زالت قدماى حتى علمتُ أنى خنت الله ورسوله .

حزن أبو لبابة ، وقام فشدّ نفسه على سارية فى المسجد، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت ، أو يتوبَ الله علىّ ، فمكث سبعةَ أيام حتى خر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك فحل نفسك ، فقال : لا والله لا أحُلها ، حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يَحلنى ، فجاءه فحله بيده ، فقال : إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصَبتُ فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالى ، فقال عليه السلام : يُجزئك الثلث أن تتصدق به .

٥ — ولما كان الإنسان شديد الحبّ والحرص على أمواله وأولاده ، وكان تعلقه بهم يتسبب عنه وقوعه فى الإثم والعقاب ، أو يدعوه إلى الاتصاف ببعض الرذائل : كالبخل والخيانة والجبن ، فقد جعلهم الله فتنة فى قوله : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » ؛ أى محنة يفتن الله بها عباده ، ليبلوهم بذلك ، ولينبههم على أن حبهما لا ينبغى أن يحملهم على الخيانة كأبى لبابة ، وأن الله عنده الجزاء الأوفى ، وأن عنده الأجر العظيم ، لمن رُزئ فى ماله ، أو أصيب فى عياله ، فآثر رضاءه ، وراعى حدوده فى الأموال والأولاد ، وجعل همه منوطاً بما ينال به أجر الله ، فهو خير وأبقى .

٦ — وقد وعد الله المؤمنين الذين يتقونه فى كل ما يأتون وما يذرون ، وفى كل ما يقولون وما يفعلون ، ويراقبونه سرًّا وعلانية ، أن يجعل لهم بسبب ذلك هداية ونوراً فى قلوبهم ، وفرقاناً يفرقون به بين الحق والباطل ، ويميزون به الخير من الشر ، ويعفو عن سيئاتهم ، ويتجاوز عن ذنوبهم ، والله ذو الفضل العظيم على عباده ، يتفضل عليهم بإحسانه ، ويعفو عن كثير .

(٥)

من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٥ من سورة الأنفال

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا: لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ -١-. وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا: قَدْ سَمِعْنَا، لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هٰذَا؛ إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. وَإِذْ قَالُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ، أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ -٢-. وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ -٣-. وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ، وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ -٤-. وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً، فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ -٥-.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإذ يمكر بك الذين كفروا	واذكر وقت أن اجتمعت كفار قريش فى دار الندوة ، ليدبروا أمر القضاء عليك .
ليثبتوك	ليُوثقوك ويحبسوك .
أو يقتلوك	أو يَنُوشوك بسيوفهم حتى يقتلوك .
أو يخرجوك	أو يخرجوك من مكة .
ويمكرون	ويدبرون لك المكايد خفية .
ويمكر الله	ويدبر الله ما يحبط به مكايدهم ، ويأتيهم بغتة .
والله خير الماكرين	وتدبير الله أنفذ من مكرهم ، وأبلغ فى التأثير والنكاية بهم .
آياتنا	القرآن .
أساطير الأولين	ماسطره الأولون فى الكتب ، أو الأباطيل والترّهات .
إن كان هذا هو الحق من عندك	إن كان هذا القرآن هو الحق الذى نزل على محمد من عندك .
فأمطر علينا حجارة من السماء	فعاقبنا على إنكاره بحجارة من سجيل تهلكنا ، كما أهلكت أصحاب الفيل .
أو ائتنا بعذاب أليم	أو عاقبنا بنوع آخر من العذاب ، يكون أشد قسوة من حجارة السماء .

الألفاظ	شرحها
وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم	وليس من سنة الله أن يصيبهم بعذاب يستأصلهم ، أو صاعقة تهلكهم ، وأنت بينهم ، لأنك بعثت رحمة للعالمين ، وهو معذبهم إذا فارقتهم .
وما كانوا أولياءَه	ما استحقوا لإشراكهم وعداوتهم للدين ، أن يكونوا ولاة لأمر المسجد الحرام .
مُكاءً	صفيرا كصوت المُكَّاء ، وهو طائر أبيض بالحجاز كالقنبرة ، مليح الصوت ، فكانوا يجمعون بين أصابع أيديهم ، ثم يدخلونها فى أفواههم ، فتحدث صفيراً .
وتصديةً	وتصفيقاً .
فذوقوا العذاب	فذوقوا عذاب القتل والأسر .

بعد أن عدّد الله على المسلمين فيما سبق من الآيات ، ما أفضل عليهم به من النعم العامة ، أنزل على نبيه : « وإذ يمكر بك الذين كفروا . . . . » ، ليذكره صلى الله عليه وسلم بنعمته عليه فى خاصة نفسه ، إذ نجاه من تآمر قريش عليه ، وتبييتهم نية الغدر به فى دار الندوة .

قصة المؤامرة

لما سمعت قريش بإسلام الأنصار ، ومبايعتهم للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، خافوا أن يعظم أمرُه ، وتقوى شوكته ، فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمره ، فدخل إبليس عليهم فى صورة شيخ ، وقال : أنا شيخ من نجد ، دخلت مكة ، فسمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم ، ولن تعدَموا منى

رأياً ونصحاً . فقال أبو البَختري : رأيي أن تحبسوه في بيت ، وتشدوا وثاقه ، وتسدوا بابه ، غيرَ كُوّة تُلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتتربصوا به رَيبَ المنون ؛ فقال إبليس : بئس الرأي ؛ يأتيكم من يُقاتلكم من قومه ، ويخلصه من أيديكم ؛ فقال هشام بن عمرو : رأيي أن تحملوه على جمل ، وتُخرجوه من بين أظهركم ؛ فلا يضرَّكم ما صنع ، واسترحتم ؛ فقال إبليس : بئس الرأي ، يُفسدُ قوماً غيركم ، ويقاتلكم بهم ؛ فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بَطن غلاماً ، وتعطوه سيفاً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمُه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل : أي الدية ، عقلناه واسترحنا ؛ فقال إبليس : صدق هذا الفتى ، هو أجوَدُكم رأياً ، فتفرقوا على رأي أبي جهل ، مجتمعين على قتله ، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمَرَه ألا يبيت في مَضجعه ، وأذنَ له الله في الهجرة ، فأمر علياً فنام في مضجعه ، وقال له : اتشحْ ببُردتي ، فإنه لن يخلص إليك أمرٌ تكرهه ، ودعا الله أن يعمّي عليهم أثره ، وباتوا مترصدين ، لكن الله طَمس على بصيرتهم ، فخرج ولم يَرَوْه ، فلما أصبحوا ساروا إلى مضجعه ، فأبصروا علياً ، فبهتوا ، وخيب الله سعيهم ، وخرج هو مع أبي بكر رضي الله عنه إلى الغار [١] بعد أن دفعا راحلتيهما إلى عبد الله بن أريقط ، وكان دليلا هادياً حاذقاً بالطريق ، واستأجراه ليدلهما على طريق المدينة ، وواعداه أن يوافيهما عند غار ثوْر بعد ثلاث ليال ؛ ولما علمت قريش بخروج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، جعلت تطلبه بقائف معروف بقفو الأثَر ، ومضى برحالهم حتى وقف على الغار ، فقال : هنا انقطع الأثر ، فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار ، فأيقنوا أن لا أحد فيه ، فرجعوا ، وجعلوا في النبيّ صلى

(١) من هنا بقية القصة التي وردت في سورة براءة في الآية -٤- ، وهي : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين » .

الله عليه وسلم مائة ناقة ، لمن يرجع به عليهم ؛ ولما سمع أبو بكر صوت من يقصّون أثرهم على باب الغار ، قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لو أن أحدهم نظر إلى قدَميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين ؛ الله ثالثهما ؟ ، يا أبا بكر ، لا تحزَنْ ، إن الله مَعنا » .

مجمل المعنى

١ — واذكر وقت أن كان يمكر بك الذين كفروا ، ويبيتون لك الكيد ، مجتمعين فى دار الندوة ، فمنهم من أشار بأن يثبتوك بالقيد ، ويشدوك بالوثاق ، ويحبسوك حتى تموت ، ومنهم من أشار بأن يخرجوك من بلدك ، وينفوك من وطنك ، وهم يمكرون ويدبرون الغدرَ بك ، والله يرد مكرهم عليهم ، ويُحبط تدبيرهم ، وتدبير الله فى نجاتك وفرارك من أيديهم ، أنفذُ من مكرهم ، وأبلغُ فى النكاية بهم ، من حَيث لا يشعرون .

٢ — وكان عليه السلام يقرأ القرآن ، ويتلو منه أخبار القرون الماضية ، فلما سمعه النضر بن الحارث ومن كانوا معه ، قالوا : قد سمعنا مثل هذه الأخبار من غير محمد ، ولو نشاء أن نقول مثل هذا القرآن لقلنا ، وما هو إلا أخبار مما سطره الأولون ؛ وقولهم هذا مكابرة ، وليس فى استطاعتهم ، فقد طولبوا بسورة منه فعجزوا ، وكان أحب شىء إليهم أن يستطيعوا فيتغلبوا ، فكيف يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا ؟

وكان النضر بن الحارث من أشد قريش معارضة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكان قد سافر إلى فارس والحيرة للتجارة ، ورجع منها بقصص سمعها من الرهبان ، كما رجع بنسخة من أخبار رُستم وإسفنديار ، وكان يجمع الكفار من قريش حوله ، ويقرأ لهم منها ، ولما قال النضر حين

سمع القرآن : « إن هذا إلا أساطير الأولين » ، قال له النبيّ : « ويلك ، إنه كلام الله » ، فقال فى استخفاف وإنكار : « اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » ، أى : إن كان هذا القرآن حقًّا ، فعاقبنا على إنكاره وتكذيبه ، بحجارة تنصبُّ علينا كالمطر من السماء التى يهبط الوحى منها على محمد ، ويتنزل عليه القرآن من جهتها ، فتهلكنا كما أهلك السجيلُ أصحابَ الفيل ، أو عاقبنا بعقاب آخر أشدّ ألما ، وأقسى عذاباً ، وهذا قول يدل على غاية الجحود والإنكار ، وعلى أن الله تعالى قد حال بين الهداية وقلوب هؤلاء بحجب وأقفال منيعة ، كما يدل على سفه العقل ، وسقم التفكير ، لأن المنطق كان يقضى عليهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، لكنه عمى العقل ، وجنون العناد .

٣ – وكان من اليسير على الله أن يُهلك النضر ومن معه من المعاندين المكابرين ، فيصيبهم بما أصاب به عادا وثمود ، ولكن الله أرسل نبيه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، فقال : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » ، أى ما كان الله ليعذب أمتك وأنت قائم فيهم لهدايتهم ، بل كرامتك عند ربك أجل وأعظم ، وسيؤجل الله عذاب المشركين حتى تخرج من بينهم ، ويَحولَ شقاؤهم دون هدايتهم ، ولو كانوا ممن يؤمنون ، ويستغفرون الله من الكفر والمعاداة ، لما عذبهم ، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون ، فجزاؤهم من الله أشد العذاب .

٤ – وكيف لا يعذبهم الله وهم – زيادة على ما هم فيه من الكفر والضلال – يصدون المؤمنين عن زيارة المسجد الحرام ، ويمنعونهم كما منعوهم فى عام الحديبية أن يحجوا ، ويزعمون لأنفسهم حق الولاية عليه ، وما كانوا أولياءه ، لم يولهم الله عليه ، لأنه بيته ، وهو صاحب الحق فى أن يولى عليه من يشاء ،

فليسوا متأهلين ولا مستحقين لهذه الولاية ، لأنهم أهل شرك ، وعبدةُ أصنام وأوثان ، فكيف يتولون على بيت الله ، إنما يتولى على البيت المسلمون المتقون ، الذين يعبدون الله حق عبادته ، ويعرفون لبيته حرمته ، ولكن كثيراً من قريش لا يعلمون أن لا ولاية لأحد على المسجد الحرام إلا للمتقين من عباده .

٥ — وإن أفعالهم القبيحة عند البيت ، التى تقوم مقام صلاتهم ، لتنافى أن يكونوا أولياء البيت ، أو محافظين على ما يجب له من هيبة ووقار ، فقد جعلوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله ، المكاء والتصدية ، أى التصفير والتصفيق ، إذ كانوا يطوفون عراة ، رجالا ونساء ، مشبكين بين أصابعهم ، يصفقون ويصفرون ، يفعلون ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى ويقرأ ، ليحدثوا جلبة وضوضاء عليه ، ويثيروا الضجيج حوله ، ويشغلوه عن صلاته ، فذوقوا العذاب الذى لقيتموه ببدر فى الدنيا ، وذوقوا عذاب جهنم فى الآخرة ، جزاء ما كنتم فيه من كفر وضلال .

(٦)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٠ من سورة الأنفال

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ —١— . وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ، فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً ، فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ —٢— . قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ —٣— . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ ، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ليصدوا عن سبيل الله	ليمنعوا الناس من الدخول فى دينه ، واتباع رسوله ، معاداة له .
ثم تكون عليهم حسرة	ثم تكون عاقبة إنفاقها ندماً وغماً عليهم ، لأنهم أضاعوا المال ، ولم يحققوا المقصود .

الألفاظ	شرحها
ليميز الخبيث من الطيب	سيغلبون فى الدنيا ، ويحشرون إلى جهنم فى الآخرة . ليميز الله الكافر من المؤمن .
ويجعل الخبيث بعضه على بعض	ويجعل الكفار بعضهم فوق بعض فى جهنم .
فيركمه جميعاً	فيتراكبوا لشدة ازدحامهم .
إن ينتهوا	إن ينتهوا عن معاداة الرسول بالدخول فى الإسلام .
يغفر لهم ما قد سلف	يعف الله عما قد سلف من ذنوبهم .
وإن يعودوا	وإن يرجعوا إلى معاداته وحربه .
فقد مضت سنة الأولين	فإن السنن الماضية عن الأمم السابقة ، وعما حدث للمشركين فى بدر ، تنبئهم بما يحيق بهم .
حتى لا تكون فتنة	حتى لا يكون شرك ، ولا يعبد غير الله فى الأرض .
ويكون الدين كله لله	ويُقضى على العبادات الباطلة ، ولا تبقى إلا عبادة الله وحده .
فإن الله مولاكم	فإن الله ناصركم ومعينكم .

مجمل المعنى

١ — إن الذين كفروا ينفقون أموالهم فى الفساد ، والتمكين للشر ، وإقامة البغى ، ومعاداة النبىّ ، ومحاربة المسلمين ، ليمنعوا الناس عن الدخول فى دين الله ، واتباع رسوله ، وسيأتون على كل أموالهم إنفاقاً وتضييعاً ، دون أن ينالوا مقصودهم ، لأن الإسلام دين الحق ، والناس يعتنقونه عن يقين وبيِّنة ،

وهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره — وستبقى لهم الحسرة والندامة والغم ، لأنهم أضاعوا أموالهم وأوقاتهم ، دون أن يقضوا على دعوة الإسلام ، التي تمضي وتنتشر أسرع من انتشار النور في الظلام ، ثم يكون مصيرهم أن يُغلبوا ويُقهروا ، ويُقضى عليهم وينتهوا ، وقد نزلت الآية في المطعِمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلا من كبار قريش ، وكان ينحر الواحد منهم لمقاتِلة الكفار في بدر كل يوم عشر جزر — أى عشرا من الإبل — وفى أبي سفيان بن حرب لما استأجر لقتال المسلمين يوم أحُد ألفين من الأحابيش ، سوَى من تطوع معه للقتال من العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقيَة ذهباً .

٢ — وليس ما وقع فى نفوس المشركين من الحسرة والندامة ، من خسارة أموالهم ، وعدم تحقيق غرضهم ، من القضاء على محمد ودينه ، هو كل ما يحل بهم من العقاب والنكال ، وإنما الذين بقوا منهم ، أو ماتوا على الكفر ، سيحشرهم الله فى جهنم حشراً ، ويُعد للمؤمنين نعيما وأجرا ، ليميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، ومن أنفق ماله للجهاد فى سبيل الله ، ومن أنفقه لمحاربة محمد ودينه ، وليجعل فريق الخبيث بعضَه على بعض ، فيجمعه متراكماً متراحماً ، ليتذوقوا من التكدس والتراكم والتراحم فى نار جهنم ، جميع ألوان العذاب والهوان ، هؤلاء هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ، وأضاعوا أموالهم وأنفسهم وحقت عليهم كلمة العذاب .

٣ — والله واسع المغفرة رحيم بعباده فأمر نبيه أن يعلن هؤلاء الكفار الذين حاربوه وعادَوه ، أنهم إن يُقلعوا عن الكفر ، ويتركوا سبيل الضلال ، ويدخلوا فى دين الله ، فإن الله سيعفو عنهم ، ويغفر لهم ما فرط من ذنوبهم ، لأن الإسلام يجبُّ ما قبله ، أما إذا عادوا إلى القتال ، وبقوا فى الكفر

والضلال ، فإنهم يعلمون بما مضت به سنة الأولين ، وأنباء السابقين ، من إهلاك الأمم التى تحزّبت على الأنبياء ، وبما حل بهم من النكال والقتل يوم بدر .

٤ — لقد أمرتم أيها المؤمنون أن تقاتلوا الكفار ، حتى لا يكون كفر أو شرك ، ولا تُعبد أصنام ولا أوثان ، ويكون الدّين كله خالصاً لله ، ولا يعبد أحد فى الأرض سواه ، فإن قاتلتموهم وانتهوْا وقت القتال عن الكفر ، واعتنقوا الإسلام ، فكفوا عنهم ، فإن الله سيقبلهم ، وهو البصير بما يعملون ؛ أما إن أعرضوا عنكم ، وأصروا على قتالكم ، فاستمروا فى قتالهم ، واعلموا أن الله مولاكم ، وناصركم عليهم ، وكونوا على يقين وثقة ، بأنه سيجعل الظفر والغلبة لكم ، إنه خير مولى ، فلا يَضيع من يتولاه ، وخير نصير ، فلا يُهزم من ينصره .

فهرس الجزء التاسع

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات
١	الأعراف	من ٨٨ — ٩٣	من ٣ — ٦
٢	»	» ٩٤ — ١٠٢	» ٧ — ٢٠
٣	»	» ١٠٣ — ١٢٦	» ٢١ — ٢٩
٤	»	» ١٢٧ — ١٣١	» ٣٠ — ٣٤
٥	»	» ١٣٢ — ١٣٧	» ٣٥ — ٤٠
٦	»	» ١٣٨ — ١٤١	» ٤١ — ٤٣
٧	»	» ١٤٢ — ١٣٧	» ٤٤ — ٥٠
٨	»	» ١٤٨ — ١٥٤	» ٥١ — ٥٥
٩	»	» ١٥٥ — ١٥٧	» ٥٦ — ٦١
١٠	»	» ١٥٨ — ١٦٣	» ٦٢ — ٦٨
١١	»	» ١٦٤ — ١٧١	» ٦٩ — ٧٥
١٢	»	» ١٧٢ — ١٧٤	» ٧٦ — ٧٨
١٣	»	» ١٧٥ — ١٨٠	» ٧٩ — ٨٣
١٤	»	» ١٨١ — ١٨٦	» ٨٤ — ٨٧
١٥	»	» ١٨٧ — ١٨٨	» ٨٨ — ٩١
١٦	»	» ١٨٩ — ١٩٨	» ٩٢ — ٩٧
١٧	»	» ١٩٩ — ٢٠٦	» ٩٨ — ١٠٤
١	الأنفال	» ١ — ٤	» ١٠٥ — ١١٠
٢	»	» ٥ — ١٤	» ١١١ — ١٢٤
٣	»	» ١٥ — ٢٣	» ١٢٥ — ١٣١
٤	»	» ٢٤ — ٢٩	» ١٣٢ — ١٣٧
٥	»	» ٣٠ — ٣٥	» ١٣٨ — ١٤٤
٦	»	» ٣٦ — ٤٠	» ١٤٥ — ١٤٨

تفسير القرآن الكريم

الجزء العاشر

تأليف

محمود محمد حمزة
المفتش بالتعليم الثانوى والفنى (سابقاً)
والأستاذ بدار العلوم (سابقاً)

حسن علوان
المراقب بوزارة المعارف

محمد أحمد برانق
المفتش العام بالتعليم الابتدائى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفين

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

تراجع الخطبة التى فى صدر تفسير الجزء الأول ، ونرجو أن يراعى فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه ، أن الأرقام التى فى صدر مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى المصاحف ، وأن الأرقام التى تخللت مجموعات آيات القرآن الكريم ، تطابق نظائرها فى مجمل المعنى .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

(١)

من الآية ٤١ إلى الآية ٤٤ من سورة الأنفال

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ -١- . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ، وَاللّٰهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ -٢- . إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ، وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ، وَلٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللّٰهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا -٣- . لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللّٰهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَلٰكِنَّ اللّٰهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ -٤- . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّٰهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ -٥- .

شرح الألفاظ

شرحها	الألفاظ
أن ما غنمتموه من غنيمة ، والغنيمة : كل منقول من مال يناله المسلمون من عدوهم عَنوة بالقتال .	أن ما غنمتم من شىء
هم بنو هاشم و بنو المطلب .	ولذى القربى
أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم وهم فقراء .	واليتامى
المنقطع من المسلمين فى سفر .	وابن السبيل
على محمد صلى الله عليه وسلم .	على عبدنا
يوم بدر الذى فرق بين الحق والباطل .	يوم الفرقان
يوم التقى المسلمون والكفار .	يوم التقى الجمعان
بجانب الوادى الأدنى إلى المدينة .	بالعدوة الدنيا
وهم بجانب الوادى الأبعد عن المدينة .	وهم بالعدوة القصوى
والجماعة التى كانت تركب الإبل التى تحمل الأمتعة فى مكان أسفل منكم ، إلى ساحل البحر .	والركب أسفل منكم
حجة و برهان وعبرة .	عن بينة
لجبنتم وتهيبتم الإقدام .	لفشلتم
ولتفرقت فيما تفعلون كلمتكم ، وترددتم بين الثبات والفرار .	ولتنازعتم فى الأمر
عصم وأنعم بالسلامة من الجبن والاختلاف والتنازع .	سلم

مجمل المعنى

١ — بيَّن الله فى الآية الأولى مصارف الغنائم التى يحصل عليها المسلمون من العدو بالقتال عنوة ، من مال ومتاع منقول ؛ أما سَلَبُ القتيل من سلاح وأدوات ومركَب فهو لقاتله ، وليس من الغنائم ، وكذلك الأرض التى يستولى عليها المسلمون من العدو ، فإنها للدولة يُنْفَق من رَيعها على المصالح العامة ؛ والأمر فى الأسرى لرئيس الدولة ، يتصرف فيهم برأيه ؛ وقد بيَّن الله أن الغنائم تقسم خمسة أقسام : — أربعة منها للغانمين ، تقسم بينهم بنسبة سهمين للفارس ، وسهم للراجل ؛ أما الخمس الباقى فكان يصرف على جانب الله ولرسوله ، ولذوى قرباه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، ويرى أبو حنيفة — ونحن نميل إلى رأيه — أن السهمين اللذين كانا لله ولرسوله ولذوى القربى من خمس الغنائم قد ارتفعا بموته صلى الله عليه وسلم ، وتصرف فى إصلاح القناطر ، وبناء المساجد والمدارس ، وأرزاق القضاة والموظفين والجند ، ومصالح المسلمين ، وتبقى ثلاثة الأسهم لتصرف كما كانت على اليتامى والمساكين وابن السبيل ، أو تصرف فيما ينبغى أن تتولى صرفه وزارة الشئون الاجتماعية ؛ وهذا الخمس من الغنيمة يجب عليكم أيها المقاتلة أن تتقربوا به إلى الله ، وتقطعوا أطماعكم منه وتقنعوا بأربعة الأخماس إن كنتم آمنتم بالله ، وبما أنزلنا عليكم وعلى محمد من الملائكة والوحى ، وبما يسرناه لكم من الفتح يوم بدر ، الذى فرق بين الحق والباطل ، حين التقى فيه جمع المسلمين وجمع الكافرين ، والله قدير على أن ينصر القليل على الكثير ، والضعيف على القوى ، والذليل على العزيز ، كما نصركم يوم بدر .

٢ — واذكروا أيضاً يوم الفرقان يوم بدر، وقد نزلتم بالعدوة الدنيا، أى بشَطِّ الوادى فى الجانب الأقرب إلى المدينة، فى أرض رخوة تسوخ فيها الأرجل، ولا يمكن المشى فيها إلا بمشقة وتعب، وليس فيها ماء، وقد نزل كفار قريش بالجانب الأبعد من المدينة، حيث الماء والأرض الثابتة، وكان ركب أبى سفيان فى مكان على الساحل أسفل من المكان الذى نزلتم فيه، فكنتم معرضين للهلاك، لوجودكم فى أرض غير صالحة، ولأن قوة العدو ستلقاكم من أمامكم ومن جانبكم، فكان سوء مركزكم وحالكم من الضعف، إلى جانب حسن مركز العدو وقوته، لا يبعث على الظن بأنكم ستغلبونهم، وتنتصرون عليهم؛ ولو كان بينكم وبينهم سابق وعد أو علم بالقتال، ثم عرفتم حالهم وحالكم، لأخلفتم أنتم الميعاد، ولم تخرجوا للقائهم تهيباً منكم، وخوفاً من قتالهم؛ فأراد الله أن تخرجوا فى قلة وعدم استعداد للقتال، وبدون علم أو اتفاق على أنكم ستقاتلون، لتستيقنوا أن ما تم لكم من النصر ليس إلا أمراً خارقاً للعادة، وهو من صنع الله، ليقضى أمراً أراده؛ وإذا أراد أمراً كان، وأصبح حقيقاً بأن يفعل، فتزدادوا لله شكراً وإيماناً، وتتلقوا تنفيذ ما يفرضه عليكم باطمئنان ورضا، لأن فيه الخير كل الخير لكم، ومن ذلك ما أوجبه من جعل خمس الغنائم التى تنالونها للجهات التى ذكرت فى الآيات السابقة.

٣ — وإنما قضى الله أمره الذى نفذ بالفعل فى انتصاركم مع قلتكم، على كفار قريش مع كثرتهم، ليهلك من هلك: أى ليصدر كفر من كفر عن حجة من الله ظاهرة، وبيِّنة منه واضحة، وبرهان قاطع من عنده، حتى لا يبقى لأحد شبهة أو شك، أو يكون له على الله حجة، وليحيا من حَيِيَ، ويسلم من أسلم، عن بيِّنة ويقين بدين الله الحق، ووجوب الدخول فيه، والتمسك به والدفاع عنه، وإن الله لسميع كل ما تنطق به ألسنتكم،

عليم بكل ما تكنُّ قلوبكم ، فيعاقب الكافرين ، ويثيب المؤمنين .

٤ — ولقد قضى الله أمره النافذ بهزيمة المشركين ، إذ جعلك تراهم فى المنام — ورؤياك وحى من الله — عدداً قليلا دون حقيقتهم ، وتخبر المسلمين بما أراك الله ، لتقوى عزائمهم ، ويتشجعوا ، ولو أن الله جعلك تراهم كثيراً كما كانوا ، وأخبرت المسلمين بما أراك الله ، لوقع الرعب منهم فى قلوبهم ، ولأصابهم الفشل والجبن ، فتهيبوا لقاءهم ، ولترددتم بين الثبات والفرار ، ووقع بينكم النزاع والخلاف فى أمر القتال ، ولكن الله سلَّمكم وعصمكم من التنازع ، والجبن والاختلاف ، لأن الله يعلم ما تنطوى عليه الصدور من الجبن أو الجراءة ، ومن الصبر أو الجزع .

٥ — وإذ جعلكم أيها المسلمون ترونهم بأعينكم وقت أن التقيتم بهم عدداً قليلا ، حتى قال ابن مسعود : لقد كنا نراهم قلة فى أعيننا ، حتى قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، وحقيقتهم ألف ، ولقد اقتضت حكمة الله أن يجعل المسلمين يرون بأعينهم عدد الكفار وقت اللقاء قليلا ، ليطابق ما رآه النبىّ فى منامه ، وما أخبرهم به ، ليقوى إيمانهم واطمئنانهم ، ويزداد إقدامهم وجراءتهم ، كما أنه جعل الكفار يرون المسلمين قلة قبل اللقاء ، ثم كثّرهم وقت اللقاء بالملائكة ، حتى يجرؤ الكفار أول الأمر فيهجموا عليهم ، ثم تفاجئهم الكثرة فَيُبْهَتُوا ويُصْدَموا ، ولا يجدوا سبيلا إلى مضاعفة قوّتهم ، ولا إلى زيادة عددهم ، لينفّذ الله أمره فيهم ، وإليه مرجع كل أمر ، فيحكم فيه بما يريد .

(٢)

من الآية ٤٥ إلى الآية ٥١ من سورة الأنفال

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللّٰهَ كَثِيراً ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ -١- . وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصَّابِرِينَ -٢- . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ ، وَاللّٰهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ -٣- . وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، وَقَالَ : لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَقَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، إِنِّي أَخَافُ اللّٰهَ ، وَاللّٰهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ -٤- . إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : غَرَّ هٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَإِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ -٥- . وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ، يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ اللّٰهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ -٦- .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إذا لقيتم فئة	إذا حاربتم جماعة من الكفار .
فاثبتوا	فاصبروا أمام العدو ولا تفروا منه .
واذكروا الله كثيراً	واستنصروا الله على عدوكم ، بأن تدعوه وتذكروه ذكراً كثيراً .
ولا تنازعوا فتفشلوا	ولا تختلفوا فيصيبكم الفشل والجبن والضعف .
وتذهب ريحكم	وتضعف قوتكم ، وتدول دولتكم .
ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم	ولا تكونوا ككفار قريش ، الذين خرجوا من مكة ليمنعوا العير ، فلما عرفوا أنها نجت لم يرجعوا .
بطراً ورئاء الناس	بَطِرِين مُرائين الناس ، والبطر : التكبر عن قبول الحق ، والطغيان بسبب النعمة .
وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم	واذكروا إذ وسوس لهم الشيطان أنهم لا يغلبون ، وأن تظاهرهم وتحديهم للمسلمين ، من الأعمال التى تجعلهم ينتصرون .
وإنى جار لكم	وإنى أحد جيرانكم من كنانة ، ومجير لكم ، وكان قد أتاهم فى صورة سُراقة بن مالك .
فلما تراءت الفئتان	فلما التقى فريق المسلمين وفريق الكفار ، ورأى بعضهم بعضاً .
نكص على عقبيه	رجع وارتد هارباً .

الألفاظ	شرحها
إنى برىء منكم	إنى برىء منكم ومن جواركم .
إنى أرى ما لا تَرَوْنَ	إنى أرى فى صفوف المسلمين جنوداً من الملائكة لا ترونهم .
فى قلوبهم مرض	فى قلوبهم ضعف إيمان واعتقاد .
غر هؤلاء دينهم	اغتر هؤلاء المسلمون بدينهم ، فحسبوا أنهم لا يُغْلَبون ، وخرجوا قِلّة يقاتلون كثرة .
ومن يتوكل على الله	ومن يثق به ويعتمد عليه .
يتوفى الذين كفروا الملائكة	يقبض الملائكة أرواح الكفار .
يضربون وجوههم وأدبارهم	يضربونهم من أمامهم ومن خلفهم .
ذلك بما قدمت أيديكم	ذلك العذاب الذى تلاقون بسبب ما كسبت أيديكم ، وما عملت من السيئات .

مجمل المعنى

١ — أمر الله المسلمين بعد ما جَنَوْا ثمرة النصر فى بدر ، أن يثبتوا ويصبروا ، ولا يتزحزحوا عن موقفهم إذا لقوا فريقاً من الكفار فى القتال ، وأن يذكروا الله كثيراً ، ويستنصروا بدعائه ، فإنه بذكره تطمئن القلوب ، وبه يذهب الخوف والفزع عند الشدائد ، وإنهم إن التزموا الثبات فى القتال ، وذكروا الله كثيراً عند شدته ، أفلحوا وفازوا بمرامهم ، وظفروا بما يريدون من النصر والمثوبة .

٢ — وأمرهم بطاعة الله ورسوله ، ونهاهم عن التنازع ، والتفرق فى الرأى ،

والاختلاف فى الكلمة ، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل والخوَر ، والجبن عن لقاء العدو ، وضعف القوة ، وذهاب الدولة ، وأمرهم بالصبر على شدائد الحرب ، لأن الله مع الصابرين ، يعينهم ويمدهم بالقوة والتوفيق .

٣ — ونهى الله المسلمين عن البطَر والأشر ، والتفاخر وحب التظاهر ، ومراءاة الناس ، والصد عن سبيل الله ، مثل ما ظهر من أبى جهل ومَن معه ، خرجوا لنصرة العير بالقيان والمعازف ، فلما أشير عليه أن يرجع لأن العير نجت ، قال : والله لا نرجع عن قتال محمد ، حتى نرِد بدراً فنشرب فيها الخمور ، وتعزف علينا القيان ، فإن بدراً مركز من مراكز العرب ، وسوق من أسواقهم ، حتى تسمع العرب مَخْرَجنا فتهابنا آخر الأبد ، فوردوا بدراً فسُقوا فيها كئوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ، والله محيط بأعمالهم ، فيجازيهم عليها .

٤ — واذكر يا محمد وقت أن زين الشيطان لهم أعمالهم فى قتالك ومعاداتك ، وحسَّن لهم أن يحاربوا المسلمين ، ووسوس إليهم بأنهم من القوة وكثرة العدد ، بحيث لا يُغلبون ولا يقهرون ، وأنه جارهم ، عليه أن يجيرهم ، بمدهم بالعون والنصح ، فلما تلاقى الفريقان ، ورأى الشيطان جنود الله من الملائكة تحارب فى صفوف المسلمين ، خاف وفزع ، ونكص على عقبيه ، وفر هارباً ، فلما قالوا له : كيف تخذلنا وأنت جارنا ومجيرنا ، قال : إنى برىء من جواركم ، وقد رجعت عما ضمنت لكم من العَون ، إنى أرى الملائكة الذين لا ترونهم ، وإنى أخاف أن يصيبنى الله بمكروه من ملائكته أو يهلكنى ، والله شديد العقاب .

٥ — وفى الوقت الذى زين الشيطان للكفار أعمالهم فى معاداة رسول الله ، والإصرار على محاربة المسلمين فى بدر ، كانت طائفة المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، ممن لم تطمئن قلوبهم بالإيمان ، وبقى فيها شك وارتياب ،

يقولون: لقد اغتر هؤلاء المسلمون بدينهم، فَتَخَيَّل إليهم وهم ثلثمائة وبضعة عشر، أن ينتصروا على ألف متسلحين متأهبين، ومن يتوكل على الله، ويثق به، ويعتمد عليه، قضى بنصره، وكتب له أن يتغلب، وإن كان أقل عدداً، وأضعف سلاحاً وأهبة، والله عزيز غالب، ناصر لمن توكل عليه، واستجار به، حكيم يفعل بحكمته البالغة فوق ما تتصور العقول.

٦ — ولو رأيت المشركين يوم بدر وهم يموتون، والملائكة يضربون وجوههم وظهورهم، ومن أمامهم ومن خلفهم، بمقامع محمية من حديد، قائلين لهم إمعاناً فى التنكيل والسخرية بهم: ذوقوا عذاب الحريق — لو رأيت ذلك لرأيت شيئاً فظيعاً وعقاباً أليماً — وذلك الضرب والتعذيب، وما لاقوا من الهول والفظاعة، جزاء ما ارتكبوا من الكفر والمعاصى، وهو جزاء عدل والله ليس بظلام لأحد من عبيده.

(٣)

من الآية ٥٢ إلى الآية ٦٠ من سورة الأنفال

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ، فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ -١- . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ -٢- . كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ -٣- . إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ، وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ -٤- . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ، لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ -٥- . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ -٦- . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ -٧- . وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ

اللّٰهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ —٨— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كدأب	كعادة .
آل فرعون	فرعون وقومه .
والذين من قبلهم	والأمم التى سبقتهم .
كفروا بآيات الله	لم يؤمنوا بما أنزل الله على أنبيائه من بينات ومعجزات .
فأخذهم الله بذنوبهم	فعاقبهم الله على كفرهم عقاباً شديداً .
ذلك بأن	ذلك التعذيب للكفار بسبب أن .
مغيراً نعمة أنعمها على قوم	مبدّلا النعم التى أنعم بها على أمة .
حتى يُغَيِّروا ما بأنفسهم	حتى يبدلوا نعمة الله كفراً .
وأغرقنا آل فرعون	وأغرقنا فرعون ومن معه .
وكل كانوا ظالمين	وكل أمة من الأمم التى كفرت كانت ظالمة لنفسها بما ارتكبوا من الكفر .
الذين عاهدت منهم	الكفارُ الذين عقدت بينك وبينهم معاهدة .
ثم ينقضون عهدهم	يغدرون بك ، ويخلفون ما عاهدتهم عليه .

الألفاظ	شرحها
فى كل مرة	فى كل معاهدة تعقدها معهم .
وهم لا يتقون	وهم لا يخافون الله فى الغدر ، ولا يبالون ما فيه من عار .
فإما تثقفنهم	فإن تظفر بهم فى القتال ، أدغمت إن الشرطية فى ما : الزائدة .
فشرد بهم من خلفهم	فنكّل بهم ، لتشتت وتشرد بهم الذين ينتظرون من ورائهم ، واجعل أولئك عبرة لهؤلاء .
لعلهم يذكرون	لعل الذين من خلفهم يتعظون بما حصل لمن نكلت بهم من الكفار .
وإما تخافن من قوم خيانة	وإن لاحت لك من قوم من الكفار بينك وبينهم معاهدة ، أمارة على أنهم سيخونونك وينقضون عهدك .
فانبذ إليهم على سواء	فاترك واطرح عهدهم ، وعاملهم بمثل ما عاملوك به ، وأعلمهم بتحللك من عهدهم .
ولا يحسبن	ولا يظنن الكفار يا محمد .
سبقوا	أفلتوا ونجوا من العقوبة .
إنهم لا يعجزون	إنهم لا يفوت الله أن يأخذهم ، ولا يعجزه عقابهم .
وأعدوا لهم	جهزوا لقتالهم .
من قوة ومن رباط الخيل	من تدريب الجيش وإعداده ، وتجهيزه بجميع الأدوات والوسائل ، ورباط الخيل : اسم للخيل المعدّة للقتال فى سبيل الله .

الألفاظ	شرحها
ترهبون به عدو الله وعدوكم	تخيفون به أعداءكم وأعداء الله منكم ، فلا يجرءون على قتالكم .
وآخرين من دونهم	وتخيفون به أعداء آخرين ، يقفون من وراء المقاتلين لكم .
يوفَّ إليكم	تعطون جزاءه وافياً ، بنماء المال الذى أنفقتم منه فى الدنيا ، وبثواب الله فى الآخرة .
وأنتم لا تظلمون	وأنتم لا تنقصون شيئاً من جزائكم على ما أنفقتم .

مجمل المعنى

١ ـ إن عادة كفار قريش الذين كفروا بالله ، وكذبوا النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ كعادة فرعون وقومه ، والأمم الذين كانوا من قبلهم : كقوم نوح ولوط وعاد وثمود ، لقوا من العقاب أشده ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، جزاء ما ارتكبوا من الكفر ، وما فعلوا من المعاصى .

٢ ـ وذلك العقاب الذى أحله الله بالأمم التى كذَّبت أنبياءها ، سببه أن عدل الله قد اقتضى أنه إذا تفضل على قوم أو أمة بنعمة ، استحقوها بما هم فيه من أعمال صالحة ، وأحوال مرضية ، فإنه لا يسلبهم هذه النعمة ، ولا يبتليهم بدلا منها بنقمة ، إلا إذا تغيرت حالهم ، وساءت أعمالهم ، فكفروا بالله ، وفعلوا المعاصى ، وارتكبوا الفساد والموبقات ، فيسلبهم الله نعمته ، ويحل بهم غضبُه ، ويهلكهم بذنوبهم ، وتلك سنة الله ، ظاهرة بيّنة فى أحوال الأمم التى تستهين بدينها ، وتضيّع أخلاقها ، ويشيع الفساد

بينها ، فيحل الهوان والذل والشقاء بها — ذلك لأن الله يسمع ويعلم جميع ما تأتى الأمم وما تذر ، وما تقول وما تفعل ، فيرتب على كل قول أو فعل ، ما يليق به من إبقاء النعم أو تركها .

٣ — وإن تغيير الله نعمة القوم بنقمته عليهم ، وإحلال غضبه عليهم محل رضاه ، لجزاءٌ وفاق لعملهم ، كحال آل فرعون ومَنْ قبلهم من الأمم المهلَكة ، إذ كانوا يعيشون فى جنات ونَهَر ، وزروع وثمر ، فلما كذبوا بآيات ربهم ، الذى خلقهم وأنعم عليهم ، والتى جاءتهم بها الأنبياء لتهديهم ، غيّر حالهم ، فأهلكهم بسبب ما ارتكبوا من الذنوب ؛ ولما كان كفر فرعون وقومه أشد ، وطغيانه أعظم ، جعل الله عقابهم بالإغراق ، ليكون أشد هولا ، وأكثر فظاعة ، وكذلك اليهود والمشركون من قريش ، جعلنا لكلٍّ نقمة ، على حسب حالهم من الكفر والبهتان ، والعِداء والطغيان ، وكلٌّ من الفرق المذكورة من غرقى آل فرعون ، وقتلى قريش وغيرهم ، كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصى ، حيث عرضوها للهلاك والعقاب .

٤ — وقد بيَّن الله أن شرّ المخلوقات التى تدبّ على الأرض ، هم الكفار الذين أصروا على الكفر ، ولجُّوا فى الضلال ، فلا يتوقع منهم أن يكونوا مؤمنين ، ومردوا على نقض المعاهدات المتكررة التى عقدتها معهم ، والنكث بالعهود التى أخذتها عليهم ، فجعلهم سبحانه غاية الشر وأصله ، إذ أن شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصرون على الكفر ، وشر المصرّين على الكفر الناكثون للعهد ، فهم لا يتقون عاقبة الغدر ، ولا يبالون ما وراءه من العار والنار ؛ وقد نزلت هذه الآية فى يهود بنى قريظة ، الذين حكم النبىّ فيهم بأن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ؛ فقد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يمالئوا ولا يناصروا عليه أحداً ، وأن يلتزموا الحياد ، فنكثوا عهدهم ، بأن أعانوا مشركى مكة بالسلاح ، فلما ذكّرهم النبىّ

بالعهد ، قالوا : نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدهم على الحياد مرة ثانية ، فنكثوا ومالوا مع مشركى مكة يوم الخندق ، وانطلق كعب بن الأشرف زعيمهم إلى مكة فحالفهم ، فنزل قوله تعالى : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة، وهم لا يتقون » .

٥ — هؤلاء المشركون واليهود ، الذين كفروا وأصروا على الكفر ، ولجُّوا فى العدوان ، إن تظفر بهم فى الحرب ، فأوقع بهم تقتيلا وتنكيلا ، واجعلهم عبرة وعظة للذين يقفون من خلفهم ، يشدون أزرهم ، ويعينونهم عليك من المنافقين والمشركين والكفار ، وشرد هؤلاء الخونة الذين يساعدون أعداءك ، ويحاربونك فى الظلام ، بما تريد من النكال الذى توقعه بهم ، ليتذكروا ويتعظوا ، فلا تحدثهم نفوسهم أن يظاهروا الأعداء عليك ، أو يقفوا لمحاربتك .

٦ — وإن توقعت من قوم معاهدين لك خيانة وغدراً ، أو لاحت لك منهم أمارات تدل على أنهم ينقضون ما عاهدوك عليه ، فاطرح عهدهم ، وأحلَّ نفسك من ميثاقهم على طريق مستو ، وقصد بيِّن ، بأن تعلمهم بذلك إعلاناً واضحاً ، وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بيناً ، أنك قطعت ما بينك وبينهم ، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهُّم بقاء العهد ، فيكون ذلك خيانة لهم ، ويكون سبيلك كسبيلهم ، والله لا يحب الخائنين الذين يغدرون بذمتهم ، وينقضون عهدهم .

٧ — وَلاَ يَظُنُنَّ الكفار الذين سبقوا أنهم أفلتوا وهربوا ، وأننا عاجزون عن إدراكهم ، أو قد فاتنا طلبهم ، كلا ، إنهم أين توجهوا لا يستطيعون أن يخرجوا من سلطاننا ، أو يفلتوا من أيدينا .

٨ — وعليكم أيها المسلمون أن تكونوا دائماً مستعدين للقتال ، وألا تدخروا وسعاً فى الاستعداد للحرب ، وأن تجهزوا أنفسكم بكل أنواع القوة ، من مصانع

حربية ، وآلات وأدوات وقذائف ، وخيل ترابط وتُعد للحرب ، وأن تتدارسوا كل أنواع الخطط الحربية برية وجوية ، وأن تبثوا فى صفوفكم الروح المعنوية ، وتستعملوا جميع ضروب الدعاية التى تخذّل العدو ، وتصدع صفوفه ، فإن هذا يخيف منكم عدو الله وعدوكم ، وكلّ مَن دونهم ممن يؤيدونهم ، وينتظرون أن يحل الضعف والوهن بكم ، فلا يجرءون على قتالكم ، ولا يطمعون فيكم ، لأن الاستعداد للقتال أمنع للقتال ، ولأن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول : « نُصرت بالرعب » ؛ وأنتم لا تعلمون أعداءكم الذين يؤيدون من يحاربونكم ، ولكن الله يعلمهم ؛ وكل مال تنفقونه لإعداد العتاد ، وأخذ الأهبة للقتال ، قل أو كثر ، وفى سبيل الجهاد ، وإعلاء كلمة الله ، ستنالون به جزاء كاملا فى الدنيا والآخرة ، لا تنقصون منه مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء .

(٤)

من الآية ٦١ إلى الآية ٦٦ من سورة الأنفال

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ —١— . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ، هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ —٢— . يَأَيُّهَا النَّبِىُّ، حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ —٣— . يَأَيُّهَا النَّبِىُّ، حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ —٤— . أَلْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ؛ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وإن جنحوا للسلم	وإن مالوا إلى المسالمة والمصالحة .
وإن يريدوا أن يخدعوك	وإن يريدوا أن يخدعوك فيظهروا لك المسالمة ، وهم ينوون أن يحاربوك .
فإن حسبك الله	فإن الله كافيك شرورهم ، وناصرك عليهم .
وألَّف بين قلوبهم	جعل قلوبهم مؤتلفة متحابة .
حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين	كافيك الله فى جميع أمورك ، وكافى أتباعك المؤمنين .
حرض المؤمنين على القتال	بالغ فى حثهم عليه ، وترغيبهم فيه .
لا يفقهون	جهلة لا يعقلون ، لأنهم لا يقاتلون عن إيمان واعتقاد ، وإنما يقاتلون للبغى وإثارة الفتن .

مجمل المعنى

١ — وإن رأى الأعداء ما عندكم من قوة واستعداد، فوقع الخوف منكم فى قلوبهم ، ومالوا إلى مسالمتكم ومصالحتكم ، فسالموهم وصالحوهم ، وإن دعوك إلى الصلح فأجبهم إليه ، ولا تخش أن يظهروا لك السلم ، وصدورهم مطوية على الكيد لك ، والغدر بك ، لأن الله يسمع ما يقولون ، ويعلم ما ينتوون فيرد كيدهم إلى نحورهم .

٢ — وإن كانوا بميلهم إلى السلم والصلح يريدون أن يخدعوك ، ويدبروا الكيد لك ، فيظهروا المهادنة، ويبطنوا الخيانة والغدر ، فاعلم أن الله سيكفيك شرورهم ، وينصرك عليهم، لأنه هو الذى أيدك بنصره لك على الكفار فى بدر ، وبقوة إيمان المؤمنين الذين كانوا معك من المهاجرين والأنصار ، وقد ألف بين القلوب المتفرقة من الأنصار ، وجمع على المحبة والمصافاة والألفة الأوس والخزرج ، وكانوا يعيشون على الفرقة والضغينة ، وكانوا أشد خلق الله حمية وعصبية ، فألف الله بالإيمان قلوبهم ، وجمع على آصرة الدين نفوسهم ، وقد ظهرت المعجزة ، وتجلت قدرة الله فى اجتماع هذه القلوب التى أكلتها الضغينة ، وفرّقتها العداوة ، وطحنتها الحروب سنين طويلة ، حتى بلغ التعادى بينهم حداً لو أنفق مُنفق جميع ما فى الأرض من المال والذخائر للتأليف بين قلوبهم ، وقيام الصلح والصفاء بينهم ، لم يقدر على التأليف والإصلاح ، ولكن الله ألّف بالإسلام قلوبهم، حتى صار المؤمن أخا المؤمن، يعينه ويحدب عليه، وينصره ويقاسمه عيشه ، إنه غالب على أمره ، حكيم فى صنعه .

٣ — أيها النبىّ ، لا تخش بأس الكافرين ، فقد قوى أمرك ، واشتد بأسك ، والله كافيك أنت ومن معك من أتباعك المؤمنين شر الكفار وتدبيرهم — قيل نزلت : « يأيها النبىّ حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »، بعد إسلام عمر ، قال ابن مسعود : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة ، حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً، حتى صلّى عند الكعبة ، وصلينا معه .

٤ — ولقد كفل لكم الله أيها النبىّ النصر ، وكتب لكم الظفر ، فحث المؤمنين على القتال ، ورغبهم فيه، وقد وعدكم الله أن عشرين صابرين منكم سيهزمون مائتين ، وأن مائة ستهزم ألفاً ، وأن واحداً سيهزم عشرة من الكافرين ، لأنهم قوم جهلة ، لا يقاتلون عن إيمان واعتقاد ، ولا يجاهدون احتساباً

لثواب الله ، وابتغاء مرضاته ، كما يفعل المؤمنون ، وإنما يقاتلون للحمية والعصبية ، واتباع خطوات الشيطان ، وإثارة البغى والطغيان ، فلا يستحقون إلا القهر والخذلان .

٥ — وقد فرض الله فى أول ظهور الإسلام على كل مسلم أن يقاتل عشرة من الكافرين ، لأن المسلمين كانوا قلة ، ولا بد أن يثبتوا أمام قوة الكافرين وكثرة عددهم ، وشدة بغيهم وعدوانهم ، فكانوا يشحذون عزمهم ، ويتحاملون على أنفسهم ؛ ولما كثر عدد المسلمين ، وعلم الله أن فى بعضهم ضعفاً فى بدنه ، خفف عنهم ، ففرض على كل مسلم أن يثبت ويصبر ، بل يغلب ويفوز على اثنين من الكفار ، وأن مائة صابرة من المؤمنين ستغلب مائتين ، وألفاً سيغلب ألفين من الكافرين بإذن الله ، لأن نصره وتأييده دائماً مع المؤمنين الصابرين .

(٥)

من الآية ٦٧ إلى الآية ٧١ من سورة الأنفال

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ —١— . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ —٢— . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٣— . يَأَيُّهَا النَّبِيُّ، قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى: إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٤— . وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ، فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ —٥— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ما كان لنبيّ	ما صح لنبيّ وما جاز له .
يثخن فى الأرض	يكثر القتل، ويبالغ فيه فى كل مكان .
عرض الدنيا	متاعها وحطامها بأخذ الفداء .
لولا كتاب من الله سبق	لولا حكم من الله سبق بألا يعاقَب مخطئ فى اجتهاده .
لمسّكم	لنالكم وأصابكم .
فيما أخذتم	بسبب أخذكم الفداء .
لمن فى أيديكم	للذين فى قبضتكم وتحت أيديكم .
فأمكنَ منهم	فأظفرك بهم .

١ – فداء الأسرى فى بدر

وقع فى أيدى المسلمين يوم بدر سبعون أسيراً ، وكان فيهم : العباس بن عبدالمطلب عم النبيّ ، وعَقيل بن أبى طالب ، فلماجىء بهم ، استشار فيهم أصحابه ، فقال أبو بكر : قَوْمُكَ وأهلك ، استبقِهم لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تُقوّى بها أصحابك ؛ وقال عمر : كذّبوك وأخرجوك ، فقدّمهم واضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وإن الله أغناك عن الفداء ، مكّن علياً من عقيل أخيه ، ومكّن حمزة من العباس أخيه ، ومكّنى من فلان – وكان نسيباً له – فنضرب

أعناقهم ، فلم يهو صلى الله عليه وسلم ذلك وقال : « إن الله ليُلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال : فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم، ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً »، ثم خيّر أصحابه بين القتل وأخذ الفداء فقالوا : نأخذ الفداء، نقبل فداء الأسرى ، فنزلت : « ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى » ، عتاباً له على أخذ الفداء وعدم القتل ، فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان ، فقال : يا رسول الله أخبرني ، فإن أجد بكاء بكيت ، فقال : ابك على أصحابك فى أخذهم الفداء ؛ وإنما عوتبوا لأن التصرف فى صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم بالقتل أو الاسترقاق والتملك كان أولى ، ولأنه كان ينبغى انتظار الوحى فى أمر الأسرى .

٢ — إسلام العباس بن عبد المطلب

كان العباس أحد الأسرى فى بدر ، فكلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفدى نفسه ، ويفدى ابنى أخويه ، عقَيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث، فقال : يا محمد، تركتنى بقية حياتى أتكفف قريشاً، فقال النبيّ عليه السلام: «أين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك، وقلت لها : إنى لا أدرى ما يصيبنى فى وجهى هذا ، فإن حدث بى حدث فهو لك، ولعبد الله وعُبيد الله والفضل وقُثَم أبنائى ؟»، فقال العباس : وما يدريك ؟ قال : «أخبرنى به ربى تعالى»، قال : فأشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل، فنزل قوله تعالى : « يأيها النبيّ، قل لمن فى أيديكم من الأسرى، إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ

منكم » ، فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إسلام العباس مال من البحرين ، فرّقه على المسلمين ، وأخذ منه العباس ما قدر على حمله ، فكان يقول : هذا خير مما أخذ منى ، وأرجو المغفرة .

مجمل المعنى

١ — ما صح لنبيّ وما استقام له أمر دعوته ورسالته ، إلا إذا اشتد على من يقع فى يده من الأسرى ، فيبالغ فى تقتيلهم ، حتى يستأصل شأفة الضلال والشرك ، ويعلى دين الله فى الأرض ؛ ولكنكم لم تقتلوا الأسرى الذين وقعوا فى أيديكم يوم بدر ، وآثرتم أن تأخذوا منهم الفداء ، ابتغاء متاع الدنيا وحُطام الحياة ، والله يريد لكم ثواب الآخرة بإعزاز دينه ، وقمع أعدائه ، وهو عزيز ينصر أولياءه على أعدائه ، حكيم فى عمل ما يليق لكل حال ؛ وإنما كان الأمر بالإثخان ، والمبالغة فى قتل الأسرى ، ومنع الافتداء ، حينما كانت الشوكة للمشركين على المسلمين ، فلما تحولت الحال ، وصارت الغلبة والقوة للمؤمنين ، خيّرهم الله فى الأسرى بين أن يمنُّوا عليهم بإطلاقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء منهم ، فى قوله تعالى : « فإمّا منًّا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » .

٢ — ولولا حكم سبق من الله ، بأنه لا يعاقب المؤمنين على الخطأ فى الاجتهاد فى الأمور التى لم ينزل فيها أمره وحكمه ، ولم يتلقوا فيها نهياً صريحاً عن فعلها — لولا ذلك لأصابكم من الله أشد العذاب ، بسبب أخذ الفداء من الأسرى ، وتركهم ليعودوا إلى قتالكم ومعاداتكم .

٣ — ولقد أباح الله لكم الغنيمة والفدية ، فخذوا منها نصيبكم الذى جعله الله لكم ، وأنفقوه فى شئون حياتكم حلالا لكم ، لا عتاب فيه ولا عقاب ،

وتمتعوا به رزقاً طيباً من عند الله ، واتقوه فلا تقدموا على فعل شىء قبل أن يعهد إليكم فيه ، وإنه لغفور لما تسرعتم فى فعله من قبول الفداء ، رحيم بكم لإحلال ما أخذتم من الغنيمة والفدية ، قبل أن تتلقوا فيهما حكم الله .

٤ — يأيها النبىّ ، قل للأسرى الذين وقعوا فى أيدى المسلمين ، ودفعوا الفداء آسفين على دفعه : إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، فإن كان إسلامكم عن إيمان صادق ، ونية خالصة ، فإن الله يعلم ذلك ، وسيؤتيكم أكثر وأفضل من الفداء الذى أخذ منكم ، ويعفو عنكم ، ويتجاوز عما فرط من كفركم وإساءتكم ، والله غفور للمؤمنين من عباده ، رحيم بهم ، فلا يضيق عليهم .

٥ — وإن كان هؤلاء الأسرى الذين أخذْت الفداء منهم ، وأطلقت سراحهم ، يريدون أن يخونوك ويعودوا إلى قتالك ، فلا يهمك أمرهم ، فإنهم قد خانوا الله من قبل بالكفر والعصيان ، ونقض العهود والمواثيق ، فلم يتركهم فى الضلال والطغيان ، ولكنه أمكنك منهم ، ونصرك عليهم ، وأوقعهم فى الذل والأسر تحت يدك ، والله عليم بما يئول إليه أمرهم ، حكيم فى عمل ما يليق بشأنهم .

(٦)

من الآية ٥٤ إلى الآية ٥٨ من سورة الأنفال

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ، أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ، إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ —١— . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ —٢— . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللّٰهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ، أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ —٣— . وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ . فَأُولٰئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللّٰهِ ، إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ —٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
وهاجروا	وفارقوا قومهم وأوطانهم ، حبًّا لله ورسوله ، وهم المهاجرون .
وجاهدوا بأموالهم	صرفوها فى إعداد الخيل والسلاح للقتال ، وأنفقوها على المحاويج .
وأنفسهم	وجاهدوا بأنفسهم بالقتال ، واقتحام المعارك .
والذين آووا ونصروا	هم الأنصار ، آووا المهاجرين إلى ديارهم ، ونصروهم على أعدائهم .
بعضهم أولياء بعض	يتولى بعضهم بعضاً فى التوارث والنصرة ، والمعاونة والمؤازرة .
مالكم من ولايتهم من شىء	ليس لكم أن تتولَّوْهم فى شىء .
فتنة فى الأرض وفساد كبير	قوة للكفر ، وضعف للإيمان .
المؤمنون حقاً	الذين حققوا الإيمان بالهجرة والنصرة ، وبالجهاد بالنفس والمال .
رزق كريم	نعمة وعطاء من أكرم الرزق لامنَّة فيه ، ولا تبعة عليه .
فأولئك منكم	من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار .
أولو الأرحام	ذوو القرابة .
بعضهم أولى ببعض	بعضهم أولى بميراث بعض من الأجانب .
فى كتاب الله	فى حكمه .

مجمل المعنى

١ — جعل الله سبحانه وتعالى الإسلام أساس الرابطة التى تربط بين المسلمين ، ورتب عليها حقوق الميراث والمناصرة والمعاونة بينهم دون غيرها ، فإذا لم تربط بينهم رابطة الإسلام فلا توارث ولا تناصر ولا تعاون ، كما جعل المسلمين فى ارتباطهم وتعاونهم طبقتين .

ا : الطبقة الأولى : المؤمنون المهاجرون ، الذين سبقوا بالهجرة من مكة ، وتركوا ديارهم ، وفارقوا قومهم ، وبذلوا أموالهم فى إعداد وسائل الجهاد من خيل وسلاح ، وإنفاق على الذين لا يجدون ما ينفقون ، وخرجوا بأنفسهم للقتال ، واقتحام المعارك ، وخوض المهالك ، فى سبيل إعلاء كلمة الدين ، وإعزاز المسلمين ؛ والأنصار الذين آوَوُا المهاجرين فى ديارهم ، وأحبُّوهم وأكرموهم ، وآثروهم على أنفسهم ، ونصروهم بالنفس والمال فى القتال — هذه الطبقة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، آخى رسول الله بينهم ، كما جعل الله بعضهم أولياء بعض ، فالمهاجرون والأنصار يتولى بعضهم بعضاً ، أى يتوارثون ، ويتعاونون على أساس الهجرة والنصرة ، فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصارىّ ، إذا لم يكن له بالمدينة ولىٌّ مهاجر ، واستمر الأمر كذلك حتى فتحت مكة ، ولم تكن هجرة ، فجُعل التوارث على أساس القرابة ، لا على أساس النصرة والهجرة .

ب : والطبقة الثانية : طبقة المؤمنين الذين لم يهاجروا من مكة ، وهؤلاء ليس لهم شىء من ولاية المهاجرين والأنصار ، فلا يورِّثونهم ولا يعاونونهم حتى يهاجروا إليهم ، ويتركوا ديار الأعداء ، اللهم

إلا إذا استغاثوا بهم ، وطلبوا أن ينصروهم ، وينقذوهم من المشركين باسم الدين ، وبرابطة الإسلام، لا باسم الحمية الجاهلية، وعصبية القبيلة، فعليهم حينئذ أن ينصروهم، وينقذوهم من هوان المشركين ، وذل الكافرين ، بالمال والقتال — هذا إذا لم يكن بين المسلمين وبين الكفار الذين يستنصرون عليهم عهد وميثاق ، فإن كانوا كذلك ، فلا يجوز أن ينصروهم ، لكيلا ينقضوا ما بينهم من عهد وميثاق ، حتى تتم مدته ، والله بما تعملون بصير ، فلا تخالفوا أمره ، حتى لا يحل بكم عقابه .

٢ — والذين كفروا لا يصح للمسلمين أن يكونوا لهم أولياء ، فلا يتوارثون ولا يتآزرون ولا يتناصرون، وإن كانوا أقارب، لأن رابطة الإسلام وحدها، هي التي تقرر العلاقات والحقوق بين الأفراد والجماعات ، وإنما الكفار بعضهم أولياء بعض ، يتوارثون ويتعاونون كما يشاءون ؛ وإن لم تفعلوا أيها المسلمون ما أمركم الله به من التواصل والتوارث ، على أساس نسبة الإسلام لا على نسبة القرابة ، وإن لم تقطعوا العلائق بينكم وبين المشركين ، تحصل محنة في الأرض بالحروب، وما يترتب عليها من الغارات والجلاد والأسر ، ومفسدة عظيمة بانتشار الشرك ، فيقوى الكفر ، ويضعف الإسلام .

٣ — وقد أثنى الله على المهاجرين والأنصار المجاهدين في سبيله، لأنهم صدقوا في إيمانهم ، وحققوه بالهجرة من الوطن إن كانوا مهاجرين ، وبنصرة من هاجر إليهم من المهاجرين إن كانوا أنصاراً ، وبذلوا النفس والمال للجهاد في سبيل الله ، ووعدهم الله بأنه غفر لهم ذنوبهم ، وأثابهم أجراً عظيماً ، وأعد لهم رزقاً كريماً ، وعيشاً حلالا طيباً، لا مَنّ فيه ، ولا تبعة عليه .

٤ — وقد تفضل الله على المؤمنين الذين تأخروا في الهجرة إلى ما بعد عام

الحديبية ، فجعلهم — فى مقام التشريف والإنعام — من جملة المهاجرين السابقين ، تفضلا منه ، وترغيباً فى الهجرة لمن لم يهاجر ، حتى كان فتح مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاهجرة بعد الفتح» ، ونزل قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » ، أى فى الميراث فى حكم الله وأمره ، وحينئذ أصبح الميراث على أساس القرابة ، لا على أساس الهجرة والنصرة كما كان ؛ إن الله بكل شىء عليم ، بمن آمنوا وهاجروا ، ومن آمنوا ونصروا ، ومن آمنوا ولم يهاجروا ، ومن كفروا ولم يؤمنوا .

سورة التوبة

نزلت بالمدينة ماعدا الآيتين الأخيرتين فكيتان ، وآياتها ١٢٩ آية

(١)

من الآية الأولى إلى الآية ١٥ من سورة التوبة

بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ —١— . وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ : أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ —٢— . إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا ، وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ —٣— . فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا ، وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ — فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ —٤— . وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى
يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَعْلَمُونَ —٥— . كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
رَسُولِهِ ؟ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَمَا اسْتَقَامُوا
لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ —٦— . كَيْفَ
وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ؟ يُرْضُونَكُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ —٧— . اشْتَرَوْا
بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ —٨— . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُعْتَدُونَ —٩— . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ —١٠— .
وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ، وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ،
فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ، لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ —١١— .
أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ، وَهُمْ
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ، إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ –١٢– قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ، وَيُخْزِهِمْ
وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ
غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ –١٣– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
براءة	إخبار من الله بثبوت انقطاع ما بين المسلمين والمشركين من عهد وعصمة .
فسيحوا فى الأرض	فاذهبوا فى الارض أيها المشركون جميعاً آمنين .
غير معجزى الله	لا تفوتونه ولا تفلتون من نقمته عليكم ، وإن أمهلكم .
مخزى الكافرين	مذلهم فى الدنيا بالقتل والأسر والنهب ، وفى الآخرة بالعذاب .
وأذان	إخبار من الله بوجوب إعلام الناس جميعاً بالبراءة .
يوم الحج الأكبر	يوم عرفة .
فإن تبتم	فإن رجعتم نادمين عن الشرك ، الموجب لتبرؤ الله ورسوله منكم .
فهو خير لكم	فالتوبة خير لكم فى الدنيا والآخرة .

الألفاظ	شرحها
ولم يظاهروا عليكم أحداً	ولم يعينوا عليكم أحداً ، بالسلاح أو المئونة أو الجيش ، أو نقل الأخبار .
فأتموا إليهم عهدهم	أدوه تاماً كاملا .
فإذا انسلخ	فإذا انقضى .
الأشهر الحرم	الأشهر التى يحرم فيها القتال .
اقتلوهم حيث وجدتموهم	اقتلوهم فى الحل والحرم .
وخذوهم	وخذوهم أسرى
واحصروهم	قيدوهم ، وامنعوهم من التصرف فى البلاد .
كل مرصد	كل ممر ومجتاز ، ترصدونهم وترقبونهم فيه .
حتى يسمع كلام الله	حتى يفهمه .
استجارك	طلب منك أن تُجيره وتحميه .
أبلغه مأمنه	أبلغه مكان أمنه .
فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم	ما داموا مقيمين لعهدكم ، فأقيموا لهم عهدهم ، وأوفوا لهم .
وإن يظهروا عليكم	وإن يقدروا عليكم ، ويظفروا بكم .
لا يرقبوا فيكم إلاً	لا يحفظوا ولا يرعوا فيكم حلفاً ولا قرابة .
ولا ذمة	ولا عهداً .
وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم	وإن نقضوا عهودهم التى عقدوها معكم فى الظاهر ، وأكدوها بأيمانهم .
وطعنوا فى دينكم	نسبوا إليه العيب والنقص ، واستخفوا به وكذبوه ، وقبحوا أحكامه .

شرحها	الألفاظ
رؤساء الكفار وصناديدهم ، الذين يتولَّوْن عقد المعاهدة ثم ينقضونها .	أئمة الكفر
ليست لهم عهود صادقة يوفون بها .	لا أيمان لهم
قاتلوهم بقصد رجوعهم عن الشرك ، والدخول فى الإسلام ، لا بقصد الأذى	لعلهم ينتهون

حكمة ترك البسملة

قدمنا فى الصفحة العاشرة من تفسير الجزء الأول ، أن جميع سور القرآن الكريم تفتتح بالبسملة ، ما عدا سورة التوبة ، وحكمة ترك البسملة فى أولها عند إنزالها ، أنها أنزلت فى رفع الأمان عن الكفار ، الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه ، من ذكر اسمه تعالى مشفوعاً بوصف الرحمة ، يدل على هذا أنه لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمه على بن أبى طالب ليعلنهم بانتقاض العهود بين المسلمين والمشركين ، وقرأ ذلك على الناس يوم الحج الأكبر — كما سيأتى — ونادى فيهم : ألاَ لا يطوف بالبيت عريان ، وألا يحج البيت مشرك ، لم يُبَسْمِل .

إعلان البراءة من المشركين

عقد النبىّ صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية سنة ست من الهجرة مع قريش ، على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم

دخل فيه ، وقد دخلت خزاعة فى عقد محمد صلى الله عليه وسلم وعهده ، ودخل بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ؛ وفى سنة ثمان من الهجرة ، نقضت قريش عهدها ، فأعانت بنى بكر بالسلاح والرجال على بنى خزاعة ، فقتلوا منهم وهزموهم ، ونهض قوم من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مستغيثين مما أصابهم به بنو بكر وقريش ، فخرج النبىُّ من المدينة لعشر مضين من رمضان ، سنة ثمان من الهجرة ، وفتح مكة ، ودخل من دخل فى دين الله من العرب ، وبقى منهم من بقى على الشرك ونقض العهد .

واستمر المشركون من العرب بعد عقد الصلح على عاداتهم الجاهلية ، من الطواف بالبيت عرايا مصفّرين مصفقين ، بحال تؤذى النبىّ ، وتأباها أحكام الشريعة وآداب الإسلام ، ولا تليق بما للبيت العتيق من حرمة وجلال ، وبما ينبغى لشعائر الله من تأدب وخشوع ؛ فبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه سنة تسع من الهجرة ليحج بالناس ، وفى أثناء سيره نزلت : « براءة من الله ورسوله . . . » ، فأرسل النبىّ ابن عمه على بن أبى طالب ، وأمره أن يقرأ على الناس يوم الحج الأكبر : يوم النحر : آيات من أول سورة براءة ، وأن ينادى فيهم : ألاّ يطوف بالبيت بعد هذا العام عريان ، وألاّ يحج مشرك ، فلحق علىّ بركب الحج فى ذى الحليفة على ستة أميال من المدينة ، وكان فيه أبو بكر أميراً ، وكان على بن أبى طالب مأموراً أن يؤذّن فى الناس بما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، فبلغ كل منهما رسالته ، وأدى أمانته ؛ ويعتبر هذا اليوم حداً فاصلا بين الشرك والتوحيد ، وفيه هوى نجم الوثنية ، وارتفع صرح الإسلام فى جميع أنحاء الجزيرة العربية .

وقد سئل ابن عُيَيْنَة رضى الله عنه : لِمَ لَمْ تبدأ سورة التوبة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ فقال : لأن اسم الله سلام وأمان ، وسورة التوبة براءة من المشركين ،

ونبذ لعهدهم ، وإعلان لمحاربتهم ، فلا يكتب اسمه جل شأنه فى النَّبذ والمحاربة ، قال الله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » .

مجمل المعنى

١ — يخبركم الله أيها المسلمون : أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذى عاهدتم به المشركين ، وأنه منبوذ إليهم ، ومردود عليهم ، فلا عصمة لهم ، ولا حرمة لدمائهم ، وأن الله تعالى قد ضرب لهم أجلا أربعة أشهر ، يذهبون فيها إلى إلى حيث يشاءون آمنين مطمئنين ، فى أى جهة من جهات الأرض ، فى الحِل والحرم ، حتى يتدبروا أمرهم ، وينظروا فيما هم صائرون إليه ، فإما أمان فى ظلال الهدى والإسلام ، وإما قتل فى حمأة الضلال والشرك والبهتان ؛ واعلموا أيها المشركون أنكم بعد هذا الأجل الذى ضرب لكم ، لن تعجزوا الله أينما كنتم ، ولن تُفلتوا من سلطانه أينما ذهبتم ، ولن تسلموا من غضبه ونقمته مهما أمهلكم ، وأن الله تعالى مخزى الكافرين بالذل والقتل والأسر فى الدنيا ، وبالعذاب والنكال فى الآخرة .

٢ — وأن الله يخبرك يا محمد بوجوب إعلام الناس جميعاً هذا العام ، فى يوم الحج الأكبر ، أى يوم النحر ، بأن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، ويجب أن يعلموا أنهم لم يعُد لهم عهد ولا حرمة ولا ذمة ، فإن تابوا عن الكفر والغدر ، ورجعوا عن الضلال ، ودخلوا فى الإسلام ، ففى التوبة خير لهم ، لأنها تجعل لهم كل حقوق المسلمين ، وتعصم أنفسهم وأموالهم فى الدنيا ، وتدخلهم الجنة ، وتحميهم عذاب النار فى الآخرة ، وإن أصروا على الشرك والغدر ، فليعلموا أنهم فى قبضة الله ، لا يفوته طلبهم ، ولا يعجزه هربهم فى الدنيا ، أما فى الآخرة فبشّرهم بأن الله قد أعد لهم عذاباً أليماً .

٣ — هذا الإعلام بنقض العهد ، وإعلان الحرب ، إنما هو للناكثين الغادرين من المشركين ، لكن الذين عاهدوكم منهم ، ولم ينقصوكم شرطاً من شروط المعاهدة ، ولم ينقضوا من الميثاق الذى أعطوْه إليكم شيئاً ، ولم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ، كما أعانت قريش بنى بكر بالسلاح والمال — هؤلاء الذين بقوا على عهدهم، لا تعاملوهم معاملة الغَدَرَة الناكثين ، بل أتموا إليهم مدة العهد والميثاق الذى أعطيتموهم إياه ، لأن الوفاء بالعهد من صفات المسلمين المتقين ، الذين يحبهم الله ويرضى عنهم .

٤ — ولقد أمهل الله المشركين الذين عاهدوكم ، وأوفوا بعهدهم ، حتى تنتهى مدة العهد الذى بينكم وبينهم ، والمشركين الذين عاهدوكم ثم غدروا بكم ، حتى تنقضى المدة الباقية من الأشهر الحرم ، وهى خمسون يوماً ؛ أما المشركون الذين لم يتقيدوا معكم بعهد خاص ، فاتركوهم أربعة أشهر تبدأ من يوم النحر ، يسيحون فيها فى نواحى الأرض آمنين مطمئنين ، ويذهبون فيها كيف يشاءون ، فإذا انقضت الأشهر الحرُم ، وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، فردوا على المشركين الناكثين عهدهم ، واستحلوا دماءهم ، واقتلوهم كلما عثرتم عليهم ، وحيث وجدتموهم فى الحل والحرَم ، واضربوا عليهم الأسر ، لتأخذوهم للقتل أو الفداء ، أو المنّ عليهم ، وامنعوهم أن يدخلوا بلادكم ، ولا تأذنوا لهم فيدخلوها بأمان ، وارقبوهم ، واقعدوا لهم فى كل موضع ومجتاز وممر ، حيث تغتالونهم ، وتوقعون الأذى بهم بطريق القتل والاغتيال ، فقد أحلّ الله لكم دماءهم وأموالهم ، وأباح لكم نهب أموالهم ، وقتل خيلهم ، وإتلاف مواشيهم ، إن عجزتم عن الخروج بها إلى دار الإسلام ؛ والمفهوم من قتل المشركين أنه إنما يكون لغير الرهبان والنساء والإطفال والشيوخ ، الذين لا يد لهم فى الحرب ، ولا رأى لهم فيها ، فإن هؤلاء لا يجوز قتلهم ؛

هذا — وقد أجمع المسلمون على استحلال سرقة أموال المحاربين والأعداء ، وإتلاف معداتهم ، ومعاقلهم ومعسكراتهم ، لكن المشركين إذا تابوا عن الشرك ، ودخلوا فى الإسلام، وأقاموا الدليل الفعلى على تحقيق اعتقادهم، وصدق إيمانهم ، بتنفيذ أحكام الدين ، خصوصاً إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهما أبرز أركانه، لأنهما العبادتان المتعلقتان بالبدن والمال — فإن فعلوا ذلك ، فليس لكم عليهم سبيل ، فهم حينئذ إخوانكم فى الدين ، فخلوا سبيلهم واعصموا دماءهم وأموالهم ، ولا تأسروهم ، ولا تمنعوهم من الدخول إلى دياركم ، والتعامل معكم ، فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ،وإن الله يغفر الذنب ، ويقبل التوبة عن عباده رحمة بهم .

٥ — وإن سألك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم أن تُعطيَه الأمان والجوار ، فلا يصيبه قتل أو نهب أو أسر أو عدوان ، حتى يجيء إليك ويسمع القرآن ، ويفهم أحكامه وأوامره ونواهيه ، فأعطه هذا الأمان ، وامنحه حق الجوار حتى يسمع كلام الله ، فإن انتهى وأسلم فهو مسلم ، لا يحل ماله ولادمه ؛ وإن أصر على الشرك فأرجعه سالماً إلى بلده ومأمنه ، وأبلغه وطنه ومسكنه ، ثم قاتله إن شئت من غير غدر أو خيانة ، وذلك لأن المشركين جهلة ، لا يعلمون ما الإسلام وما حقيقته ، فلابد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا ويتدبروا ، ثم يكون الأمر لهم أو عليهم ؛ جاء رجل من المشركين إلى علىّ رضي الله عنه ، فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتى محمداً بعد انقضاء هذا الأجل ، يسمع كلام الله ، أو يأتيه لحاجة ، قُتل ؟ قال : لا ، لأن الله يقول : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره » .

٦ — ولا ينبغى فى أى حال أن يكون للمشركين الذين يضمرون الغدر ، وينقضون العهد ، عهد يعتد به عند الله ، فيأمنون به عذابه فى الآخرة ؛

وعهد عند رسوله يعصمهم من القتل فى الدنيا ، أما الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام ، ولم ينقضوا عهدهم ، فاحترموا عهدهم ، وأقيموا على الوفاء لهم ، ما داموا على استقامة من الوفاء بعهدهم ، والمحافظة على ميثاقهم ، ولا يضمرون الغدر لكم ، لأن الله يحب لكم أن تكونوا من المتقين ، الذين يحترمون عهودهم ، ولا ينقضون مواثيقهم .

٧ — وكيف يكون لهؤلاء المشركين الناكثين الغادرين عهد معتد به عند الله ورسوله ، وهم إن يظفروا بكم أيها المسلمون ، وتكن لهم الغلبة عليكم ، ينكّلوا بكم تنكيلا ، لا يراعون فيكم حلفاً أبرموه معكم ، أو عهداً قطعوه لكم ؛ إنهم يقولون بأفواههم ما يرضيكم من الوفاء بالعهد ، وهم يعاهدونكم ، ويعدُونكم بالإيمان والطاعة ، ولكنهم يبطنون الكفر والعداء لكم ، حتى إذا ظفروا بكم ، لم يبقوا على شىء مما عاهدوكم عليه ، أو وعدوكم به ، لأن قلوبهم تأبى ما تنطق به أفواههم ، وتنطوى على عدائكم ، والغدر بكم ؛ وأكثر هؤلاء المشركين فاسقون متمردون ، لا عقيدة تردعُهم ، ولا مروءة تمنعهم .

٨ — إنهم باعوا الإسلام والقرآن بعرض رخيص زائل ، وهو اتباع الأهواء والشهوات ، ومتاع الدنيا الذى كان يغريهم به صناديد قريش ، ليُضلوهم عن الهدى والإيمان ، فعدلوا عنه ، وصرفوا غيرهم عن قصده ، لبئس ما صنعوا ، ولساء ما فعلوا !

٩ — إن المشركين لا يراعون فى أى مؤمن صلة قرابة ، أو حرمة حِلف ، أو مروءة وفاء ، أو محافظة على عهد ، لأن خصومتهم للإسلام لا تمحوها رابطة من روابط الدم أو المروءة أو الشرف ، فجاوزوا حد الاعتدال فى الاعتداء عليكم ، ومضوا إلى أقصى غاية الظلم والشر والغدر بكم .

١٠ — ولسنا نأمركم بقتالهم لمجرد تعذيبهم ، وإنما نريد أن نجمعكم وإياهم على

غاية واحدة ، وعقيدة واحدة ، وأن ينضموا معكم تحت لواء الحق ، وراية الإسلام ، فإن تابوا عن الشرك توبة نصوحاً ، واعتنقوا الإسلام بإخلاص وصدق ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فليس لكم عليهم من سبيل ، وإنما هم إخوانكم فى الدين لا فى النسب ، وأخوّة الدين أقوى من أخوّة النسب ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإنما نبين لكم الآيات المتضمنة لأحكام معاملة المشركين المعاهدين ، ليتعلموها ويتبعوها .

١١ — وإن جاءكم المشركون فأعطوكم العهود ، وأكدوها بالأيمان ، وأظهروا الإسلام ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصاروا إخواناً لكم فى الدين ، ثم نكثوا أيمانهم ، ورجعوا إلى الكفر ، وأخذوا يعيبون دينكم ، ويقبحون أحكامه ، ويسبون النبىّ ، فقاتلوهم واقتلوهم ؛ إن هؤلاء رءوس الكفر ، وزعماء الضلال ، ليست لهم أيمان صادقة ، ولا عهود حقة ، ولا سبيل إلى أن تعطوهم أماناً ، أو تُبقوا لهم عهداً ، وليكن غرضكم فى قتالهم ، بعد ما وقع منهم من النكث والرِّدة ، انتهاءهم عن الكفر والضلال ، وعودتهم إلى حظيرة الهدى والإسلام .

١٢ — لا ينبغى أن تتوانوا فى قتال هؤلاء المشركين الذين بدءوكم بالعداء ، وقدموا لكم الأذى ، وغدروا بكم ، وحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها فى معاهدتهم ، وتشاوروا فى أمر الرسول بدار الندوة ، فحزموا أمرهم على قتله ، فكانوا سبباً فى خروجه من مكة ، وهم الذين بدءوكم بالمقاتلة والمخاصمة ، لأن رسول الله جاءهم بالقرآن الكريم ، وتحداهم به ، فعدلوا عن معارضته بالحجة ، إلى قتاله ومخاصمته ، ثم إلى أذى المسلمين الذين آمنوا به وصدقوه ، فهم البادئون بالقتال ، والبادئ أظلم ، فما يمنعكم أن تقاتلوهم كما قاتلوكم ، وأن تدرءوا الشر بالشر ؟ ولا ينبغى لكم أن تخشوهم ، وتتهيبوا مقاتلتهم ، بعد ما كابدتم من شرهم وأذاهم ، فإن الله هو الأحق أن

تخشوه ، وتخافوا عقابه فى ترك قتالهم ، لا أن تخشوْا قتالهم ، وتخافوا أن ينالكم مكروه من لقائهم ، إن كنتم تؤمنون إيماناً حقًّا بالله ورسوله ، لأن المؤمنين لا يخشون أحداً إلا الله ، وحقيقة الإيمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يخاف إلا عقابه ، ولا يبالى بمن سواه .

١٣ — والله يعدكم أنكم إن تقاتلوهم فسينصركم عليهم ، وسيتجرعون كئوس العذاب من أيديكم ، وسيلقى بهم أسرى فى قبضتكم ، فيشعرون بالخزى والذل منكم ، ويكتب لكم الفوز والغلبة عليهم ، ويثأر لفريق من المؤمنين ، ويشفى صدورهم مما بها من غل وحنق على المشركين الذين قتلوا قوما منهم غدراً وخيانة ، وهم بنو خزاعة حلفاء رسول الله ، الذين أخذهم بنو بكر غيلة وغدراً ، وأعانتهم قريش عليهم بالسلاح والرجال ، فانتقم الله منهم ، وقهرهم بأيدى المؤمنين ، فأذهب الغيظ الذى كان يملأ قلوب بنى خزاعة ، بما كابدوا من المكاره والمكايد ، ولقد أنجز الله وعده ، ونصر جنده . والله يعلم أن بعض المشركين الناكثين سيتوبون ويسلمون ، وأن الله سيقبل توبتهم ، ويعفو عنهم ، لأن لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويتوب على من يشاء من عباده ، لأنه عليم بأمرهم ، لا تخفى عليه خافية ، حكيم لا يأمر ولا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

(٢)

من الآية ١٦ إلى الآية ٢٢ من سورة التوبة

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ؟ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ —١—. مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ، أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ —٢—. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ، فَعَسَى أُولٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ —٣—. أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ —٤—. الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ، وَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ —٥—. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ، وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ —٦—. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ —٧—.

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولمّا يعلم الله	ولم يتبين منكم المخلص من غيره .
ولم يتخذوا من دون الله	غير متخذين من غير الله ولا رسوله ولا المؤمنين .
وليجة	بطانة .
مساجد الله	المراد : المسجد الحرام ، الذى تكون إليه قبلة كل مسجد .
شاهدين على أنفسهم بالكفر	مثبتين على أنفسهم الكفر بعبادة الأصنام ، وتكذيب الرسول .
حبطت أعمالهم	فسدت وبطلت .
يعمر مساجد الله	يقوم برمها وتنظيفها وفرشها ، وإحياء العبادات فيها .
سقاية الحاج	أهل سقاية الحاج .
الظالمين	الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ، ومعاداة الرسول .
أعظم درجة	أعلى رتبة ، وأكثر كرامة .
الفائزون	الذين يفوزون بالحسنى ، ونيل الثواب عند الله .
مقيم	دائم .

مجمل المعنى

١ – لا تظنوا أنكم بمجرد أن تعلنوا إسلامكم، ستتركون دون أن يمتحنكم الله، بما يتبين منه صدق إيمانكم، وصحة اعتقادكم، وذلك بالبراءة من المشركين الناكثين، ونبذ عهودهم، وبالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الإسلام، وتنفيذ أحكام الدين، وإحباط الشرك، وبالإخلاص فى إعلان البراءة والجهاد، وحينئذ يتبين المؤمن الصادق فى براءته وجهاده، والمنافق الخائن المتستر تحت ما يظهره بلسانه من الإسلام، ويُخفى فى نفسه الكفر والنفاق، فيتخذ من نفسه بطانة للمشركين تضادُّ الله ورسوله والمؤمنين، فيواليهم، ويُفشى إليهم أسرار المسلمين، والله خبير بكل ما يصدر من الناس، عليم بما تنطوى عليه صدورهم؛ وفى هذه الآية بيان من الله بأن مجرد إعلان الإسلام ليس كافياً، وأنه لابد أن يبتلى الله الناس، بما يظهر به المؤمن من المنافق، ويتبين باطنه وظاهره «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا: آمنا، وهم لا يفتنون».

٢ – ليس المشركون أهلاً لأن يعمروا المسجد الحرام، أو غيره من المساجد التى يعبد فيها الله، ويذكر فيها اسمه، وليسوا أهلاً لأن يحجوا بعد ما نودى فيهم بألا يقربوا المسجد الحرام بعد الأذان فيهم، وألا يقوموا على خدمته بالسِّدانة: (وهى خدمة الكعبة)، أو السِّقاية أو الرِّفادة: (وهى إخراج قريش مالاً تشترى به طعاماً للحجاج)، لأنهم يدينون بالشرك، ويسجدون للأصنام، وذلك إقرار منهم بالكفر، وشهادة منهم على أنفسهم بأنهم مشركون لا يعبدون الله، فكيف يزعمون أنهم يعمرون مساجده بالإصلاح أو العبادة، أو يصونونها عما لا يليق أن يذكر فيها

من عبادة هذه الأصنام ، والتوسل إليها كأنها تضر وتنفع ، أو ترى وتسمع ؛ أولئك قوم قد أبطل الشرك جميع ما يدعونه من تعمير المسجد الحرام ، فهو من حق المسلمين الذين يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ، وقد أعد الله لهؤلاء المشركين ناراً يعذبون فيها يوم القيامة ، ولا يغادرونها .

٣ — إن عمارة المساجد: مرمّتها وكنسها وتنظيفها ، وتزيينها بالفرش ، وتنويرها بالمصابيح ، وتزويدها بالمرافق التى تلزم للمصلين قبل الصلاة ، وإحاطتها بالصيانة والبعد عن مواضع اللهو والصخب ، وأحاديث العبث واللغو ، وإمدادها بالكتب الدينية والعلمية والمصاحف ، وإحياءها بالعبادة والتلاوة ، ومدارسة العلوم — إن عمارة المساجد على هذا الوجه الذى بيّنّا إنما هى من صفات المؤمنين بوحدانية الله ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وباليوم الآخر وما فيه من البعث والحساب والجزاء ، الذين لا يخشوْن فى دين الله لومة لائم ، ولا يخافون قتلا أو جهاداً فى سبيله ، وإن المرتجى لهؤلاء المؤمنين الذين يتصفون بهذه الكمالات ، أن يجعلهم الله من المهتدين المستحقين للطفه ورضائه ، فلا يطمعنّ الكفار بأنهم وصلوا إلى مواقف الاهتداء ، بأعمالهم التى يحسبون أنهم بها محسنون .

٤ — يقال إن المشركين سألوا اليهود ، قالوا : نحن سقاة الحاج وعمّار المسجد الحرام ، أفنحن أفضل ، أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود عناداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أفضل ؛ وافتخر العباس بن عبد المطلب بالسقاية ، وافتخر شيبة بن طلحة بالعمارة ، قبل أن يُسلما ، وافتخر علىّ بالإسلام والجهاد ، فصدّق الله عليًّا وكذبهما ، وأنزل : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله . . . » ، وفى هذه الآية ينكر الله على المشركين أن يشبهوا أعمالهم فى سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، — وقد أحبطها الشرك ، وأفسدها الضلال والكفر — بأعمال المؤمنين التى أثبتها الإيمان والجهاد ، ونفى المساواة بين أعمال المشركين والمؤمنين ،

ووصف المشركين بأنهم ظالمون لا يهديهم الله إلى الخير ، ولا يوفقهم إلى الإيمان ، فقد ظلموا أنفسهم بترك الإيمان بالله، وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وظلموا المسجد الحرام ، إذ جعله الله متعبداً له ، فجعلوه هم متعبداً لأوثانهم .

٥ — وقد أوضح الله مراتب فضل المؤمنين، بعد بيانه عدم استوائهم فى المنزلة مع المشركين ، وبيّن أن أقصى درجة يبلغها المؤمنون ، إنما تكون للذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان ، وطهروا أبدانهم بالهجرة إلى موطن الرسول ، وتركوا ديارهم وأبناءهم وعشيرتهم وأموالهم، لا يلوون على شيء غير الإيمان ، ثم بذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد فى سبيل الله ؛ وهذه الآية ترسم حدود المؤمنين الصادقين ، وهى الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال — وهم المستحقون للفوز بنيل ثواب الله، الظافرون برضاه .

٦ — ولما كان الإيمان والهجرة، والجهاد بالنفس والمال ، هى الصفات التى يستحق بها المؤمنون الفوز المطلق، فقد أثابهم الله، وبشرهم عليها بثلاث :

ا — بالرحمة لتيسيره الإيمان لهم .

ب — وبالرضوان لأنه الغاية من إحسان الرب لعبده ، وهو مقابل الجهاد الذى هو بذل النفس والمال ، فلا شيء يعدلهما بل يفوقهما غير رضا الله ، بل هو خير من إسكان الجنة ، ففى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يقول : يأهل الجنة ، هل رضيتم ؟ فيقولون : يا ربنا ، كيف لا نرضى وقد باعدتنا عن نارك ، وأدخلتنا جنتك ؟ فيقول : لكم عندى أفضل من ذلك ، فيقولون : وما أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحِلُّ عليكم رضائى ، فلا أسخط عليكم بعدها » .

ج — وبجنات لهم فيها نعيم دائم لا ينقطع ، مقابل الهجرة التى تركوا بسببها أوطانهم التى نشئوا فيها ، وكانوا بها منعمين ، والله عنده أجر عظيم لعباده المؤمنين المتقين ، أولا يعدله يدانيه أجر الدنيا ومتاعها.

(٣)

من الآية ٢٣ إلى الآية ٢٧ من سورة التوبة

يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لاَ تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ –١– . قُلْ : إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ، وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ –٢– لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ –٣– . ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ –٤– . ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ –٥– .

الألفاظ	شرحها
أولياء	أنصاراً وحلفاء وخلصاء .
إن استحبُّوا الكفر	إن اختاروا الكفر وأصروا عليه .
ومن يتولهم	ومن يناصرهم ويحالفهم .
وعشيرتكم	أقاربكم وجماعتكم .
اقترفتموها	اكتسبتموها .
تخشون كسادها	تخافون بوارها بفوات وقت رواجها ، لغيبتكم عن مكة فى موسم الحج .
ومساكن ترضونها	منازل تعجبكم الإقامة فيها .
فتربَّصوا	انتظروا .
حتى يأتى الله بأمره	حتى يأذن الله بفتح مكة ، فيفوتكم فضل الهجرة .
الفاسقين	الخارجين عن الطاعة بموالاة المشركين .
فى مواطن كثيرة	فى مواقف ووقعات حربية كثيرة : كبدر وقريظة والنضير وخيبر وفتح مكة
حنين	واد بين مكة والطائف ، كانت فيه وقعة بين المسلمين وهوازن .
ضاقت عليكم الأرض بما رحبت	لا تجدون فى الأرض على رحبها وسعتها مكاناً تطمئن فيه نفوسكم ، من شدة الرعب .
سكينته	رحمته التى تسكن إليها النفوس وتطمئن .
وأنزل جنوداً لم تروها	أمدكم بجنود من الملائكة ، لم تروها بأبصاركم .
يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء	يوفق للإسلام بعد ذلك من يشاء من المشركين ، ويتوب عليه .

مجمل المعنى

١ — لما أمر المسلمون بمكة أن يهاجروا ، قالوا : إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا ، وذهبت تجارتنا ، وهلكت أموالنا ، وخربت ديارنا ، وبقينا ضائعين ، فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء . . . » ، إلى آخر الآية ، فهاجروا ، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه ، فلا يلتفت إليه ولا يوادُّه ، ولا ينزله فى منزله ، ولا ينفق عليه ؛ ثم رُخص بعد ذلك فى جواز الإحسان والمحبة فقط للأقارب المشركين ، إذا جاءوا إليهم يطلبون مساعدتهم ، كما رخص النبي لأسماء بنت أبي بكر فى الإحسان والمحبة لأمها المشركة ، حينما جاءت إليها من مكة ؛ وفى هذه الآية يجعل الله الرابطة بين أفراد المسلمين ، التى تستوجب الموالاة والتعاون والتناصر ، هى الالتقاء عند وحدة العقيدة والدين ، ومؤازرتهما ، والانتصار لهما ، وذلك بالإيمان والهجرة والجهاد ، فهذه الأمور الثلاثة هى الأواصر التى كانت تربط بين المسلمين ، لا القرابة ولا العشيرة ولا الموطن ، إلى ما قبل فتح مكة ؛ ولهذا خاطب الله المؤمنين بأن يقطعوا ولايتهم ، ويقضوا على أسباب الروابط بينهم وبين الكافرين ، مهما كان بينهم من القرابة ، وحضهم على الهجرة ، وترك آبائهم وإخوانهم ، وجميع أقاربهم ، وعدم موالاتهم إن اختاروا الكفر ، وأصروا عليه إصراراً لا يرجى معه الإقلاع عنه أصلا ، وآثروا الإقامة فى ديارهم ، وقد نسب الله الظلم والكفر لمن يواليهم ويناصرهم ، لأن المسلم الذى يعين الكافر ، ويؤثر مخالفته ومودته ، والإقامة معه لقرابته ، ويقاطع المسلمين ويجافيهم — كافر مثلهم .

٢ — ولما نزل الأمر بالهجرة ، وبعدم موالاة الأقارب الذين يختارون الكفر ، أو الإقامة فى ديار الكفر ، جعل الرجل يقول لأبيه ، والأب لابنه ، والأخ لأخيه ، والزوج لزوجته : إنا قد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من سارع لذلك معهم ، ومنهم من أبى أن يهاجر ، فنزل فى الذين تخلفوا ولم يهاجروا : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم . . . » إلخ ، أى قل للذين تخلفوا ولم يهاجروا، فآثروا الإقامة فى مكة، ولم يلحقوا بإخوانهم المهاجرين والأنصار فى المدينة : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وأقاربكم ، وأموالكم التى اكتسبتموها ، والأمتعة التى اشتريتموها للتجارة والربح ، وتخافون أن يفوت عليكم وقت رواجها ، بسبب تغيبكم عن مكة فى موسم الحج ، والدور والبساتين التى تنزلون بها ، وتعجبكم الإقامة فيها — إن كان ذلك وما إليه من عرض الدنيا ومتاعها ، أحب إليكم من أن تهاجروا إلى الله ورسوله ، ومن أن تقاتلوا أعداءهما ، وتجاهدوا فى سبيلهما ، فانتظروا حتى يأذن الله للمسلمين بالقتال وفتح مكة ، وعند ذلك تضيع عليكم فضيلة الهجرة والجهاد ، وتأسفون على قعودكم عن طاعة الله فى المبادرة إليهما ، وعلى دخولكم فى زمرة الفاسقين الذين لم يمتثلوا أوامر الله فى عدم موالاة المشركين ، وفى التباطؤ عن الهجرة فى سبيل الله ورسوله والمؤمنين .

يوم حُنَين

لما بلغ هوازن فتح مكة سنة ثمان من الهجرة ، جمعهم مالك بن عوف النصرى ، من بنى نصر بن مالك ، وكانت له الرياسة فى جميع العسكر ، وانضمت إليهم ثقيف وهم أهل الطائف ، وهم الذين ارتضع فيهم رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، وبنو جُشَم وفيهم دُريد بن الصِّمَّة الشاعر ، وهو شيخ كبير ، استصحبوه ليسترشدوا برأيه ، فنزلوا بأوطاس : (وهو واد فى ديار هوازن) ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمى عيناً عليهم ، فأتاه وأخبره بما شاهد من أمرهم ، فعزم رسول الله على أن يخرج للقائهم ، واستعار من صفوان بن أمية الجمحى — وهو على الشرك — مائة درع ، وركب صلى الله عليه وسلم بغلته الدُّلدُل ، وخرج فى اثنى عشر ألفاً من المسلمين ، واستعمل على مكة عتّاب بن أسيد ، وقال رجل من المسلمين ، لما رأى كثرة جيش النبيّ صلى الله عليه وسلم : لن يُغلب هؤلاء من قلة ، وفى ذلك نزل قوله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً » ، ونهض رسول الله حتى أتى وادى حنين ، وهو أحد أودية هوازن ، بين مكة والطائف ، وكانت هوازن قد كمنت فى جانبى الوادى ، فلما تصافّ الجيشان ، حملت هوازن على المسلمين فى غبش الصباح حملة رجل واحد ، فانهزم جمهور المسلمين ، لا يلوى أحد على أحد ، ولا يلتفت فرد إلى فرد ، وثبت رسول الله ، وثبت معه أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وأسامة بن زيد ، وأيْمُن بن عبيد وربيعة بن الحارث ، والفضل بن عباس ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم على بغلته : الدلدل ، فقال لها : البِدِي دُلدُل ، فوضعت بطنها على الأرض ، وكان ممن ثبت مع رسول الله وقت الهزيمة والفرار :

« أم سُلَيم »

وهى مثل للمسلمة المؤمنة المجاهدة الشُّجاعة ، كانت يوم حنين مع زوجها أبي طلحة ، وهى حامل فى ابنها عبد الله بن أبي طلحة ، وقد رئيت فى هذا اليوم حازمة وسطها ببُرد لها ، ومعها جمل زوجها أبي طلحة ، وقد خشيت وقت الرعب ، والفزع الذى استولى على ألباب المسلمين ، أن يغلبها الجمل فينفر منها ، فأدْنت رأسه منها ، وأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أم سليم ؟ قالت نعم ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؛ اقتُل هؤلاء الذين يفرون عنك ، كما تقتُل هؤلاء الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا يكفى الله يا أم سليم فيقاتلهم ؟ وكان معها خنجر فى يدها ، فقال لها أبو طلحة : ما هذا الذى معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته معى ، إن دنا منى أحد من المشركين بعجتُه به ، فقال أبو طلحة معجباً بشجاعة امرأته : ألا تسمع ما تقول أم سليم يا رسول الله ؟ وقد قتَل أبو طلحة وحده فى هذا اليوم عشرين رجلا واستلبَهُم ، فلما لاذ المسلمون بالفرار ، ولم يثبت معه إلا أولئك الأبرار الأبطال الذين ذكرنا ، نزل صلى الله عليه وسلم عن بغلته إلى الأرض ، واستنصر الله وهو يقول :

أنا النبيُّ لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وأخذ قبضة من تراب وحصى ، فرمى بها فى وجوه الكفار ، وقال : شاهت الوجوه ، وقال للعباس وكان صيّتاً — أى جهير الصوت — : أى عباس ، ناد أصحاب السَّمُرة — أى أصحاب الشجرة التى كانت عندها بيعة

الرضوان عام الحديبية . فنادى بأعلى صوته : يا أصحاب السمُرة ، يا معشر الأنصار ، فأجابوا : لبيك لبيك ، واجتمع لرسول الله منهم مائة رجل فاقتتلوا ، وأشرف رسول الله عليهم وهم يقتتلون ، وقال : الآن حَمِيَ الوطيس ، فانهزمت هوازن ، واستمر القتل فى ثقيف ، فقُتل منهم سبعون رجلا وفروا ، وكان سبْيُ هوازن يومئذ ستة آلاف نفس ، ومعهم ما لا يحصى من الإبل والغنم ، فجاء إلى النبىّ وفد منهم مسلمين راغبين فى العطف عليهم ، والإحسان إليهم ، وقالوا : يا رسول الله : إنك خير الناس وأبرّ الناس ، قد أخذت أبناءنا ونساءنا وأموالنا ، فقال لهم النبىّ : اختاروا إما ذراريكم ، وإما أموالكم . فقالوا : يا رسول الله ، لا نعدِلُ بالأنساب شيئاً ، فرد عليهم رسول الله نساءهم وأولادهم ، وكان فى السبْيِ الشيماء بنت حليمة ، أخت النبىّ من الرضاع ، فأكرمها رسول الله ، وأعطاها وأحسن إليها ، ورجعت مسرورة إلى بلادها .

٣ — لقد نصركم الله أيها المؤمنون على المشركين فى كثير من مقامات الحرب ومواقفها المشهودة ، مثل وقعات بدر وقريظة والنضير وخيبر وفتح مكة ، وغيرها من مشاهد القتال التى وطنتم أنفسكم فيها على لقاء العدو ، كما نصركم يوم حنين بعد أن أعجبتكم كثرتكم ، وغرّتكم قوّتكم ، فظننتم أنكم لا تهزمون ، ولكنكم هزمتم أول الأمر ، ولم تنفعكم تلك الكثرة ، لكى تعلموا أن النصر إنما يأتيكم من عند الله ، وفررتم ، وضاقت بكم الأرض من شدة الخوف ، وهى رُحْبٌ واسعة ، فلم تجدوا فيها مفرًّا تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب ، وجددتم فى الهرب حتى بلغت فلولكم مكة ، ولم يثبت مع النبىّ إلا عدد قليل من أهل بيته وأصحابه .

٤ — ثم أدرككم الله بغوثه ، وأمدكم بنصره ، فأنزل رحمته على رسوله وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه ، فسكنت قلوبهم ، واطمأنت نفوسهم ، اطمئناناً

تبعه نصر الله ، وأمدكم بجنود من ملائكته لم تروها بأبصاركم ، وإن كانت آثارها ظاهرة فى انتصاركم ، وبادية فى انهزام العدو أمامكم ، وأنتم أقل منهم عدداً ، وأضعف بأساً ، ومنّ عليكم بالعزة وعذب الكفار ، فسلطكم عليهم تقتلون وتأسرون منهم ، فنالوا جزاءهم على كفرهم .

٥ — ثم اقتضت حكمته جل شأنه أن يوفق بعض الذين هزموا وأسروا فيُسلموا ، فيتفضل عليهم ، ويقبل توبتهم ، لأنه واسع المغفرة ، يصفح عن المشركين الذين يتوبون ، ويتجاوز عما سلف من كفرهم ، لأنه كثير الرحمة ، يتفضل على من يشاء من عباده ويثيبهم .

(٤)

من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٥ من سورة التوبة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاء ، إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ –١– . قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ، وَهُمْ صَاغِرُونَ –٢– . وَقَالَتِ الْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ابْنُ اللّٰهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللّٰهِ ، ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللّٰهُ ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ ؟ –٣– . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللّٰهِ ، وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهًا وَاحِدًا ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ –٤– . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللّٰهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ –٥– . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ

الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ —٦— . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ —٧— . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ —٧— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إنما المشركون نجس	إنما المشركون ذوو نجاسة ، لخبث طباعهم ، ولأنهم لا يتطهرون ولا يجتنبون النجاسات .
فلا يقربوا المسجد الحرام	لا يصح لهم أن يدخلوا الحرم ، ويقتربوا من المسجد الحرام ، ولا أن يحجوا ويعتمروا ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية .
بعد عامهم هذا	بعد العام التاسع من الهجرة ، وهو العام الذى نزلت فيه براءة .
وإن خفتم عيلة	وإن خفتم فقراً بسبب منعهم من الحج والعمرة ودخول الحرم ، وانقطاع المكاسب التى كانت تأتيكم منهم .

الألفاظ	شرحها
فسوف يغنيكم الله من فضله	فسوف يتفضل الله عليكم ، فيدخل الناس فى الإسلام ، ويقدمون عليكم للحج والعمرة ، فيعوضون عليكم ما فاتكم بسبب منع المشركين .
إن شاء	إن اقتضت مشيئته ذلك ، لحكمة يعلمها هو .
قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر	قاتلوا غير المشركين ، من الذين لا يؤمنون بوحدانية الله ، ولا بالبعث والحساب ، على ما ينبغى أن يكون الإيمان .
ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق	ولا يحرمون على أنفسهم وعلى غيرهم ، ما ثبت تحريمه فى الكتاب والسنة ، وفى أصل دينهم الذى نسخه الإسلام ، الذى هو دين الله الحق ، الناسخ لسائر الأديان .
حتى يعطوا الجزية	حتى يقبلوا أن يعطوا ما يفرض عليهم من الجزية .
عن يدٍ وهم صاغرون	عن انقياد وطاعة ، وهم أذلاء .
قولهم بأفواههم	قول صادر من ألسنتهم ، لا يؤيده برهان ، ولا يقبله عقل .
يضاهئون	يشابه قولهم فى الكفر والشناعة .
قول الذين كفروا من قبل	قول المشركين الذين كانوا يقولون قبلهم : الملائكة بنات الله .
أنى يؤفكون	كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ؟
أحبارهم	الأحبار : علماء النصارى .

الألفاظ	شرحها
أرباباً من دون الله	كالأرباب والآلهة ، بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرمه .
والمسيح ابن مريم	واتخذ النصارى المسيح ربًّا معبوداً ، وقالوا : إنه ابن الله .
سبحانه عما يشركون	تنزه الله عن أن يكون له شريك يعبد .
يريدون أن يطفئوا نور الله	يريدون أن يبطلوا دين الله .
بأفواههم	بأباطيلهم وكذبهم .
بالهدى ودين الحق	بالقرآن والإسلام .
ليظهره على الدين كله	ليظهر دينه وهو الإسلام على كل دين آخر .
ليأكلون أموال الناس بالباطل	ليأخذون أموال الناس رشوة ، فيصدرون لهم أحكاماً باطلة ليست فى الدين .
يكنزون الذهب والفضة	يجمعونهما ويحفظونهما .
ولا ينفقونها فى سبيل الله	ولا يخرجون زكاتها التى تصرف فى مصارفها .
فذوقوا ما كنتم تكنزون	فذوقوا عذاب المال الذى كنتم تكنزونه .

مجمل المعنى

١ — أيها المؤمنون ، إن المشركين قوم ذوو رجس ونجاسة ، لخُبث نفوسهم ، وفساد باطنهم : ولأنهم لا يتطهرون ، ولا يغتسلون من النجاسات ، والله سبحانه وتعالى قد حرّم دخول مساجده على كل ذى نجاسة ، حرمها على الحائض والجنب ، فمن باب أولى أن يحرّم المسجد الحرام على المشركين

الذين لا يغتسلون ولا يتطهرون ، فهم ممنوعون أن يدخلوا الحرَم ، فيقربوا المسجد الحرام ، وأن يحجوا إليه أو يعتمروا ، كما كانوا يحجون أو يعتمرون فى الجاهلية ، بعد هذا العام ، العام التاسع من الهجرة ، الذى أعلِم فيه المشركون بنبذ عهودهم ، ومنع دخولهم الحرم ، وقتلهم إن فعلوا ، وإن كنتم تخافون أيها المسلمون أن منع المشركين من الحج والعمرة ، وتحريم قربهم من المسجد الحرام ، قد يمنع عنكم فائدة ومغنماً ، وتتوقعون فقراً بسبب انقطاع التجارة والمعاملة معهم ، فثقوا أن الله سوف يتفضل عليكم ، فيهيئ لكم أسباب الرزق والكسب التى تغنيكم عنهم ، إذا اقتضت مشيئته — جل شأنه — ذلك ، حتى لا تتعلق آمالكم إلا به ، ولا يتجه قصدكم إلى غيره ، لأنه عليم بأحوالكم ومصالحكم ، حكيم فى إرادته لكم ، وتحقيق آمالكم ، فقد يسوق لبلادكم المطر فتنبت وتُخصب ، أو يوفق إلى الإسلام قوماً آخرين فيأتون إليكم حاجّين معتمرين ، فتبيعون إليهم ، وتتعاملون معهم ، فتجنون ربحاً ، وتفيدون خيراً .

٢ — والله يأمركم فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل ، فغيروا فى أصولهما ، وحرفوا ما فيهما من الأحكام ، ففسد إيمانهم ، وضلوا فى اعتقادهم ، فثلّث النصارى ، وثنّى اليهود ، وأنكروا حقيقة الآخرة والحساب ، والجنة والنار ، فصار إيمانهم المبنىُّ على هذا الفساد كَلَاَ إيمان ، لأنهم لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر الإيمان الحقيقىّ ، الذى ورد فى كتبهم ، وجاءتهم به أنبياؤهم ، ولا يحرّمون ما حرّمه الله ورسله عليهم ، وثبت فى أصول كتبهم ، وجاء القرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم مطابقاً له ، ومصدقاً به ، ولكنهم غيروه وبدلوه ، فلم يعتقدوا دين الإسلام وهو دين الحق الثابت ، الذى نسخ سائر الأديان — يأمركم

الله فى هؤلاء الكتابيين أن تقاتلوهم ، حتى يدخلوا فى الإسلام ، أو يقبلوا أن يُعطوا الجزية لبيت مال المسلمين ، قبول انقياد وطاعة ، ويدفعوها بأيديهم ، لا يستنيبون فيها أحداً ، وهم أذلاء صاغرون .

٣ – وقد بيّن الله أن اليهود والنصارى خالفوا أصول دينهم ، التى وردت فى التوراة والإنجيل ، وغيروا فيها ، فقال اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، مثل المشركين الذين عبدوا الأوثان والأصنام ، ولا فرق بين من يعبد صنماً ، ومن يعبد عزيراً ، أو يعبد المسيح ، لأن الشرك هو أن يُتَّخذ مع الله معبود ، وقد اتخذ هؤلاء مع الله إلهاً ، وادّعوا أن له ولداً ، وأن له شريكاً ، وهو قول باطل داحض ، يقولونه بأفواههم ، دون أن يعتمد على حجة أو برهان ، أو يستسيغه عقل ، وهو يشابه قول المشركين من قبلهم ، الذين كانوا يقولون : اللات والعزى بنات الله ، ويقولون : الملائكة بنات الله ، يا عجباً لشناعة القول ، وسوء الفهم ! كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل ، ويميلون عن الهدى إلى الضلال ؟ وقد أوردنا قصة عزير فى الجزء الثالث ، فى الصفحة (١٥) ، فارجع إليها إن شئت .

٤ – ولم يقتصر ضلال اليهود والنصارى على أنهم جعلوا لله شريكاً ، ونسبوا إليه – سبحانه – ولداً ، ولكنهم اتخذوا علماءهم من الأحبار والرهبان كالآلهة ، فأطاعوهم فى تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله . قال عدىّ بن حاتم : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عنقى صليب من ذهب ، وهو عليه السلام يقرأ سورة (براءة) ، فقال : ياعدىّ ، اطرح هذا الوثن ، فطرحته ، فلما انتهى فى قراءته إلى قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » ، قلت : يا رسول الله ، لم يكونوا يعبدونهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : أليسوا يحرمون ما أحل الله

فيحرموه ، ويحلون ما حرم الله فيستحلوه ؟ فقلت : بلى . قال : ذلك عبادتهم ؛ ولم يقتصر أمر النصارى على أن قالوا: المسيح ابن الله ، ولكنهم اتخذوه إلهاً معبوداً ، وما أمِرَ أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، وعزير والمسيح فى كتبهم ، إلا أن يعبدوا إلهاً واحداً عظيم الشأن ، لا إله غيره ، هو الله سبحانه وتعالى ، وأن يطيعوا أمره ، ولا يطيعوا أمر غيره ، فكيف يصح أن يكونوا أرباباً ، وهم مأمورون مستعبدون ؟ تنزه الله عن أن يكون له شريك فى الملك ، أو يكون معه إله ، أو أن يكون مولوداً أو أن يكون له ولد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ! .

٥ — إن المشركين والمبطلين من اليهود والنصارى ، الذين يعارضون محمداً ويكذبونه ، ولا يقرون بوحدانية الله ، يريدون أن يبطلوا دين الله ، ويطفئوا نوره ، وقد جاءت الحجج والبراهين مشرقة ، ناطقة بأن الله واحد لا شريك له حقاً ، وأن محمداً رسول الله صدقاً ، فأضاءت القلوب ، وانتشرت فى الآفاق هداية ونوراً ، فكيف تستطيع أقوالهم الكاذبة التى تخرج من أفواههم الضعيفة ، وأنفاسهم المنقطعة ، أن تطفئ نوراً يأبى الله إلا أن ينتشر ، أو تبطل ديناً يأبى الله إلا أن يظهر ، رضى الكافرون أو كرهوا ؟

٦ — وكيف يستطيعون أن يطفئوا نور الله ، أو يحبطوا دينه ، بكذب من القول ، وإفك من الباطل ، وهو الذى أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه القرآن هدى للمتقين ، مبشراً بالإسلام دين الحق ، ليظهره وينصره على الأديان كلها ، فينسخها ويزيلها ، رغم المشركين ؟

٦ — وكما أن اليهود والنصارى ضلوا سبيل الهداية والحق فى اتباع أحبارهم ورهبانهم ، فى تحريم ما أحل الله ، واستحلال ما حرمه ، فإن الله يعلمكم أيها المؤمنون ، أن كثيراً من هؤلاء الأحبار والرهبان أنفسهم ، يحكمون للناس بغير ما جاء فى شرائعهم ، أو يرتشون ليخففوا من هذه الأحكام التى

وردت فيها ، ويتسامحون فى تنفيذ الشرائع على قومهم ، نظير أخذ الأموال منهم ، بسبب الأحكام الباطلة ، والفتاوى الفاسدة ، التى يصدرونها لهم ، مخالفة لما أنزل الله فى التوراة والإنجيل ، ومثل هؤلاء الأحبار والرهبان ، الذين يأخذون أموال قومهم سُحتاً ، أولئك الذين يجمعون الأموال من أتباعهم ، ولا يتصدقون منها ، ولا يخرجون زكاتها — وهذا هو المقصود بكنزها ، سواء أكانت ظاهرة أم مستترة — لتنفق على مستحقيها ، وفى طاعة الله وإعلاء دينه ، هؤلاء وهؤلاء ، قد أعد الله لهم عذاباً أليماً فى جهنم ، فبشرهم بها يا محمد ، وأعلمهم أنها فى انتظارهم ، ليُلقوا فى هاويتها .

٧ — وذلك يوم القيامة ، حينما يجدون أموالهم تلك التى جمعت بالفتاوى الباطلة ، والتى كُنزت فلم تخرج زكاتها ملقاة ، وتحتها النار تحمى عليها ، لتستمر متوهجة ملتهبة على وجوههم ، لتشوّه منظرهم وتؤلمهم ، وعلى جنوبهم وظهورهم ، حيث المواطن الحساسة من أجسامهم ، لتكون أشد وجعاً ، وأكثر ألماً ، وخُصت الجباه والجنوب والظهور بالذكر ، لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، ونأوا بجانبهم عنه ، وأولوه ظهورهم ؛ ويعذبون فوق ذلك بالتوبيخ والسخرية ، فيقال لهم : هذا هو المال الذى كنزتموه ، ولم تُخرجوا زكاته ، فذوقوا عذاب ما كنتم تكتزون ؛ وعن النبىّ صلى الله عليه وسلم : « ما أدّى زكاته فليس بكنز ، وإن كان باطناً ، وما بلغ أن يزُكى فلم يزكّ فهو كنز ، وإن كان ظاهراً » .

(٥)

من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٥ من سورة التوبة

إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثنا عشرَ شهرًا في كتابِ اللهِ
يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذٰلِكَ الدِّينُ
القَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ –١– . إِنَّمَا النَّسِيءُ
زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَامًا
وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ، لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ، فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ ،
زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ –٢– يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا ، مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ : انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ
إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ –٣– . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ،
وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ –٤– إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لَا تَحْزَنْ ، إِنَّ اللهَ
مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ،

وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ —٥— . انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ —٦— .لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ، وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ، وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ : لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ —٧— . عَفَا اللهُ عَنْكَ ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ؟ —٨— لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ —٩— إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ —١٠— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
إن عدة الشهور عند الله	إن عدد الشهور القمرية التي تكوّن سنة . في حكم الله وتقديره .

الألفاظ	شرحها
فى كتاب الله	فى القرآن .
يوم خلق السموات والأرض	وهذا العدد أمر ثابت مستقر بحكم الله، منذ خلق السموات والأرض .
حُرُم	حُرّم القتال وانتهاك المحارم فيها .
الدين القيم	الشرع المستقيم ، الذى كان عليه دين إبراهيم وإسماعيل .
فلا تظلموا فيهن أنفسكم	فلا تجعلوا فى الأشهر الحرم الحلال حراماً ، والحرام حلالا ، بسبب النسىء ، فتظلموا أنفسكم بما ارتكبتم فيها من إثم .
كافة	جميعاً ، أى مجتمعة كلمتكم ، ومتحزبين عليهم .
النسىء	تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، وزيادة شهور السنة من اثنى عشر إلى ثلاثة عشر شهراً .
زيادة فى الكفر	كفر آخر مضموم إلى كفرهم ، لأنه تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله .
يُضَل به الذين كفروا	يزادون بالنسىء ضلالا على ضلالهم القديم .
يحلّونه عاماً	يحلون الشهر المؤخر عاماً ، ويحرمون مكانه شهراً آخر غير محرم .
زُين لهم سوء أعمالهم	خدعوا حتى ظنوا أن قبيح أعمالهم حسن .
انفروا	اخرجوا إلى الغزو والقتال.
اثاقلتم	تثاقلتم وتباطأتم وتقاعستم .

الألفاظ	شرحها
أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة	أرضيتم بما فى الحياة الدنيا من زينة فانية ، ومتاع ذاهب ، بدل الآخرة وما فيها من نعيم مقيم ؟
فى الآخرة	بجنب الآخرة .
قليل	حقير لا يؤبه له .
ويستبدل قوماً غيركم	يستأصلكم ، وينشئ بذلكم قوماً آخرين ، ليسوا من ذرياتكم ، يطيعون الله ، ويؤثرون الآخرة على الدنيا .
ولا تضروه شيئاً	ولا يضر تثاقلكم عن الغزو فى نصرة دين الله شيئاً .
إذ أخرجه	إذ تسبب فى خروجه .
ثانى اثنين	أحد اثنين ، وهما النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وصاحبه أبو بكر .
الغار	ثقب فى أعلى جبل ثور ، قريب من مكة .
فأنزل الله سكينته عليه	ألقى الله فى قلبه الأمن والطمأنينة ، فسكن وذهب عنه الخوف .
كلمة الذين كفروا	الدعوة إلى الشرك والكفر .
كلمة الله	الدعوة إلى الإسلام .
خفافاً وثقالا	شباباً وشيوخاً ، ومتخففين من العيال ، ومثقلين بهم .
لو كان عرضاً قريباً	لو كان ما دُعوا إليه مغنماً قريباً سهل المأخذ من أعراض الدنيا .
وسفراً قاصداً	وسفراً مريحاً معتدلا ، ليس فيه مشقة .
لاتبعوك	لخرجوا معك .

الألفاظ	شرحها
الشقة	المسافة الطويلة الشاقة .
يهلكون أنفسهم	يهلكون أنفسهم بالحلف الكاذب .
لِمَ أذنت لهم	مالك قد أذنت لهم فى القعود عن الغزو ، حين استأذنوك ؟
وارتابت قلوبهم	شكّوا فى دينهم ، واضطربوا فى عقيدتهم .
فهم فى ريبهم يترددون	فهم فى شكهم متحيرون .

قصة النسىء

كان العرب قد تمسكوا بتعظيم الأشهر الحرم الأربعة وهى : ذو القَعدة ، وذو الحِجة ، والمحرم ، ورجب ، من عهد إبراهيم وإسماعيل ، وحرموا فيها القتال وانتهاك الحرمات ، حتى أن الرجل إذا انفرد بقاتل أبيه أو أخيه فى هذه الأشهر ، لم يمسسه بسوء ، رعاية لحرمتها ، ولما كثرت الغارات بين العرب ، واستمر بينها القتال ، أصبح كثير منهم يعتمد فى عيشه على إعمال السلاح والسلب والنهب ، فكانوا إذا توالت عليهم ثلاثة من الشهور الأربعة الحرم ، شق عليهم ذلك وأملقوا ، وكانت كنانة أهل دين ، وتمسك بشرع إبراهيم ، فظهر من بينهم رجل يدعى القَلَمَّس كان يقف عند جمرة العقبة ويقول : اللهم إنى ناسئ الشهور ، وواضعها مواضعها ، ولا أعاب ولا أجاب ، اللهم إنى قد أحللت أحد الصَّفرين يعنى المحرم — وحرمت صفر المؤخر ، وكذلك فى الرجبين يعنى رجب وشعبان ، فنسأ الشهور للعرب ، ثم خلفه على ذلك ابنه عبّاد ، وخلف عباداً ابنه أمية ، ثم ابنه عوف ، ثم ابنه جُنادة بن عوف ، ثم ظهر الإسلام — فكان النسىء

للعرب يقوم به بيت من كنانة ، يختصون به ؛ وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمع إلى صاحب النسىء من شاء منهم ، فقالوا : أنسئنا شهراً ، أى أخرعنا حرمة الشهر المحرم ، فاجعلها فى صفر ، فيحل المحرم ، فيغيرون فيه ويقاتلون ، ثم يجعلون صَفر شهراً محرماً ، ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة ، ويسمون ذلك الصفر المحرم ، ويسمون ربيعاً الأول صفراً ، وربيعاً الآخر ربيعاً الأول ، وهكذا ، وتصير السنة ثلاثة عشر شهراً : أولها المحرم المحلل ثم المحرم الذى هو فى الحقيقة صفر ، وتدور السنة ويدخل فيها شهر زائد ، فتصير ثلاثة عشر شهراً كما ذكرنا ؛ ثم رفضوا تخصيص الحرمة بأشهر معينة ، وجعلوها لعدد من الأشهر ، هو أربعة بدون تخصيص ؛ ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنه تعالى لما ذكر أنواعاً من قبائح أهل الشرك وأهل الكتاب ، ذكر أيضاً نوعاً منه ، وهو تغيير العرب أحكام الله تعالى ، لأنه حَكَم فى الوقت بحكم خاص ، فإذا غيروا ذلك الوقت ، فقد غيروا حكم الله تعالى .

مجمل المعنى

١ — إن عدد شهور السنة القمرية فى حكم الله وتقديره ، منذ أن خلق السموات والأرض ، اثنا عشر شهراً ، لا ثلاثة عشر شهراً كما يفعل ذلك المشركون ، حسبما يوافق أهواءهم ، فيجب اتباع أمر الله فيما ثبت واستقر فى كتابه ، من تخصيص وتعيين شهور السنة ، التى فرض شرائعه وأحكامه على حسب عددها وتخصيصها ، وجعل بها معرفة السنين ، وإجراء المعاملات بين الناس ، وتنفيذ أحكام الشريعة ، وإقامة العبادات على حسبها ، قال جل شأنه : « وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد

السنين والحساب » ، وقال : « يسئلونك عن الأهلة ، قل : هى مواقيت للناس والحج » ؛ ومن الاثنى عشر شهراً هذه أربعة أشهر حُرُم ، معظمة عند الله من عهد إبراهيم عليه السلام ، هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، وذلك الحساب الصحيح ، والعدد المحدود لشهور السنة وللأشهر الحرم ، هو الشرع المستقيم ، والدين القيم الذى يجب أن تتبعوه ، فلا تجعلوا الحرام منها حلالا ، فتنتهكوا فيه الحرمات ، وتقوموا بالغارات ، وتعلنوا القتال ، فتأثموا بذلك ، وتظلموا أنفسكم ، واحزموا أمركم ، واجمعوا كلمتكم ، وكونوا يداً واحدة ، وكلمة واحدة ، لتقاتلوا المشركين جميعاً ، كما أنهم يحزمون أمرهم ، ويجمعون كلمتهم لقتالكم ، جميعاً ، واعلموا أن الله معكم بالإمداد والنصر ، لأنكم عباده المتقون .

٢ — إن النسىء — وهو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر ، وجعله حلالا ، وجعل السنة ثلاثة عشر شهراً — تغيير لأحكام الله ، ومعصية زادتهم كفراً إلى كفرهم ، وهم ضالون به ، لأنهم يجعلون شهراً حلالا فى عام ، ثم يعودون فيجعلونه حراماً فى عام آخر ، حتى يوافقوا عدد الأشهر الأربعة الحرم التى حرمها الله ، دون تخصيص ولا تعيين ، والله سبحانه وتعالى عين أشهراً بالذات ، ورتب عليها أحكاماً وأعمالا ومواقيت ، وقد عميت بصائرهم ، وخُدِعوا عن أنفسهم ، فحسبوا أن قبيح أعمالهم ، وسيئ أفعالهم حسن ، فاستمروا عليه ، ولم يهدهم الله إلى اتباع ما رسم فى الأوقات ، وما فرض من الأحكام ، لأن الله لا يريد أن يهدى الكافرين إلى الصراط المستقيم .

غزوة تبوك

فى رجب من سنة تسع من الهجرة ، أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتجهز لغزو الروم ، وكان إذا أراد غزوة لا يبين للناس مقصده ،

إلا هذه الغزوة ، فقد أعلم الناس بمقصدهم إليها ، لبعد الطريق ، وقوة العدو ، وكانت هذه الغزوة امتحاناً قاسياً للناس ، كشف عن حقيقة المؤمنين ، وعمن فى قلوبهم مرض من المنافقين ، لأنها كانت فى شدة الحر ، والبلاد مجدبة ، والناس فى عسرة ، والثمار قد أوشكت أن تطيب ، فأحب بعض الناسَ القعود عن الخروج مع النبىّ للغزو ، إيثاراً للسلامة ، وإخلاداً للراحة ، وليجنوا الثمار ، ويجمعوا الغلات ، وتجهز بعضهم كارهين ! وسمى جيش هذه الغزوة جيش العسرة ، وأنفق فيها أبو بكر لتجهيز الجيش جميع ماله ، وقدم عثمان ثلثمائة بعير ، محملة طعاماً ، وألف دينار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إكباراً وتقديرا لبذل عثمان : « لا يضر عثمان ما فعل بعد اليوم » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ وهو فى جهازه للروم للجَد بن قيس أخى بنى سلِمة : «هل لك يا جدُّ العامَ فى جلاد بنى الأصفر ، تتخذ منهم سرارى ووُصفاء؟» فقال : يارسول الله ، أوَ تأذن لى فى القعود ولا تفتِنّى ؟ ، فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عُجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأذن لى بالقعود ، وأعينك بمالى ؛ وبنو الأصفر هم الروم ؛ فأعرض عنه رسول الله وقال : « قد أذنت لك » ، فنزل فيه قوله تعالى : « ومنهم من يقول : ائذنْ لى ولا تفتنى » ، وتخلف عبد الله بن أبىّ ، ومن تبعه من حزب المنافقين ، فنزل فى شأنهم هذا قوله تعالى : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلَّبوا لك الأمور » ، وتخلف ثلاثة من أعيان الأنصار من غير شك ولا نفاق : هم كعب بن مالك ، ومُرارة بن الربيع ، وهلال ابن أمية . فقال رسول الله : «لا يكلمن أحدٌ أحداً من هؤلاء الثلاثة» ، ثم تاب الله عليهم ، وسيأتى ذكرهم ؛ وخرج مع رسول الله ثلاثون ألف مقاتل ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس ، وقد لقوا فى الطريق شدة

عظيمة من العطش والحر . ولما وصلوا إلى الحِجر وهى أرض ثمود قرب الشام ، نهاهم رسول الله صلى الله عليه سلم عن ورود مائها ، ووصل رسول الله صلى الله عليه سلم إلى « تبوك » ، وهى مدينة بين الحجر وأول الشام ، وأقام بها عشرين ليلة ، وقدم عليه بها يوحنا صاحب أيلة ، فصالحه على الجزية ، فبلغت ثلثمائة دينار ، وصالح أهل أذرُح : (بلد فى أطراف الشام، مجاورة لأرض الحجاز) ، على مائة دينار فى كل رجب من السنة ، وصالح أكَيْدِر صاحب دُومة الجَندل على الجزية ، وحقن دمه وخلّى سبيله ، وكان نصرانياً ، لكنه أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، ثم رجع رسول الله إلى المدينة فى رمضان ، فاعتذر إليه الثلاثة الذين تخلفوا عنه ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامهم ، وأمر باعتزالهم ، فاعتزلهم الناس خمسين ليلة ، حتى ضاقت الدنيا فى وجوههم ، ثم تاب الله عليهم ، وعفا عنهم ، وأنزل فيهم قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . . . » ، الآية ، وفى هذه الغزوة نزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، مالكم إذا قيل لكم : انفروا فى سبيل الله اثاقلتم . . . » ، وما بعدها من الآيات .

٣ — وقد وجه الله عتاباً وتقريعاً لمن تخلفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ، ولم يخفوا إلى القتال معه ، ولم ينهضوا للجهاد ، ومعنى الآية : مالكم تتثاقلون وتتباطئون إذا طلب إليكم أن تخرجوا للقتال والجهاد فى سبيل الله ، وتميلون إلى الخمول والكسل والإخلاد إلى الركود والقعود فى دياركم ؟ هل تفضلون الدنيا الفانية وما فيها من شهوات ولذات زائلة ، وراحة مع الذل والخنوع والبؤس والفقر ، على الآخرة وما فيها من نعيم دائم ، طريقه ما تكرهونه وتنصرفون عنه من مشاق الغزو ، ومتاعبه التى تستتبع الراحة الكبرى ، والهناءة الدائمة ؟ وليس التمتع بالدنيا ولذائذها الفانية إلى جنب

الآخرة ونعيمها المقيم ، إلا شيئاً حقيراً تافهاً لا يؤبه له .

٤ — وقد هدد الله المؤمنين الذين يقعدون عن النفير ، ويتباطئون عن الخروج للغزو والجهاد بعذاب أليم ، يقاسونه فى الدنيا ذلا وخضوعاً وضعفاً ، واستخذاء لأعدائهم ، وناراً يصلونها يوم القيامة ، وأوعدهم بأن يستأصلهم جميعاً ، ويقضى عليهم بالفناء ، ويستبدل بهم قوماً آخرين ليسوا من أصلهم ولا من ذرياتهم ، يصلحون للبقاء ، ويرثون الأرض ومن عليها ، لأن الأرض لا يرثها إلا عباد الله الصالحون ؛ فلا تظنوا أيها القاعدون المتباطئون أن تثاقلكم يضر الله شيئاً ، أو يخذل دينه ، أو يهزم نبيه ، فقد أراد الله أن يعلى كلمته ، وينصر نبيه ، والله قدير على أن يهلككم ، ويستبدل بكم قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ؛ وهذه الآية توجب نفير جميع المسلمين ونهوضهم إلى القتال ، عند اشتداد شوكة المشركين ، أو تحرشهم بالمسلمين ، وإذا عيّن ولىُّ الأمر قوماً للجهاد ، وندبهم إليه ، لم يكن لهم أن يتثاقلوا أو يتباطئوا عنه ، وصار فرض عيْن عليهم أن يلبوا وأن ينهضوا .

٥ — وإن كنتم لا تعينون النبيّ ، وتقعدون عن الخروج معه إلى الغزو ، وتركتم نصره ، فالله كفيل بنصره ، فقد نصره وهو فى قلة قليلة — هو والصديق أبو بكر — على العدو فى كثرته وقوته ، ومنعته فى دياره يوم أن ألجأه كفار قريش إلى أن يخرج من مكة ، وليس معه أحد إلا صاحبه أبو بكر ، ونصره حين اختبأ فى ثقب بأعلى جبل ثور ، جنوبىّ مكة ، وليس له واق أو عاصم هو وصاحبه أبى بكر إلا الله ، وقد خشى أبو بكر أن ينال النبيّ سوء ، وظن أن الكفار الذين تعقبوهما لو نظروا تحت أقدامهم لرأوهما ، فضمه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى صدره ، وهدأ من روعه ، وقال له : لا تحزن ، إن الله معنا ، ينصرنا ويرعانا ، ويحفظنا ويتولانا ، وقد أنزل الله الهدوء والطمأنينة ، والسكينة والأمن على قلب نبيه ، لأنه

مؤمن بقوته ، واثق بنصره ، وأحاطه وقوّاه بجنود من الملائكة لم يرها أحد من الناس بعينيه ، فصرفت عيون المشركين عنه ، ودكّ الشرك وأحبط كلمته ، وهوى بها إلى الدرْك الأسفل ، وأعلى الدين ورفع رايته ، والله عزيز لا يغلبه غالب ، حكيم فى تأييده وتدبيره ؛ وقد أوردنا قصة مؤامرة قريش على النبىّ صلى الله عليه سلم يوم الهجرة ، عند قوله تعالى فى سورة الأنفال : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك . . . » ، الآية فى الجزء التاسع الصفحة ١٤٠ فارجع إليها إن شئت .

٦ — فعليكم إذا دعيتم للنفير ، وطلبتم للجهاد ، أن تخرجوا إليه جميعاً ، سواء أكنتم شباناً أم شيباً ، وسواء أخفّت عليكم النقلة أم ثقلت ، فرساناً أم مشاة ، لا يتخلف منكم إلا الزمنى الذين لا يستطيعون ، والصبية والنساء ، فقد تعين عليكم الجهاد فى سبيل الله ، لإعلاء دينه ، وعزة المسلمين ، وأن تبذلوا فيه أموالكم وأنفسكم ، ومن لم يجد إلا نفسه بذل نفسه ، ومن لم يجد إلا ماله بذل ماله ، ومن وجدهما معاً بذلهما راغباً مختاراً ، وذلك الجهاد خير لكم فى الدنيا والآخرة من القعود عنه ، ومن الميل إلى الكسل ، وإيثار الراحة والدعة ، وسعة العيش والتمتع بالأموال والأولاد ، إنكم إن اطلعتم على الغيب ، علمتم أن الجهاد هو الخير لكم فى الدنيا والآخرة .

٧ — ولو أنك بدل أن دعوتهم للخروج للجهاد ، وما فيه من مشقة بُعد السفر ، وشدة الحر ، وقلة الراحلة والزاد ، واحتمال القتل ، دعوتهم إلى الخروج للحصول على مغنم من مغانم الدنيا ، ومنفعة ينالونها بسهولة ، وسفر هيّن ليّن ، فى طريق معبد واضح المعالم ، لا تعب فيه ولا عناء ، لخرجوا معك ، وما تباطئوا أو تقاعسوا ، ولكنك دعوتهم إلى سفر طويل ، محفوف بالمكاره والمتاعب ، وبذل النفس والمال ، فتقاعسوا وأحجموا ؛ وحينما تعود إليهم ظافراً منتصراً ، سيلتمسون المعاذير لأنفسهم فى التخلف ، ويحاولون ستر

نفاقهم ، بأن يحلفوا لك أنهم لم يستطيعوا الخروج ، ولو أن لديهم قدرة من صحة أو مال ، لما تأخروا ، ولخرجوا معك ؛ إنهم لا يكتفون بالنفاق والقعود عن الخروج معك ، ولكنهم يهلكون أنفسهم بما يحلفون من أيمان كاذبة ، أنهم غير مستطيعين ، والله يعلم أنهم مستطيعون ، وأنهم كاذبون .

٨ — فى هذه الآية أدب قدسىّ نحب أن ندل عليه ، ليأخذ الناس أنفسهم به فى حياتهم الدنيا ؛ لقد أذن النبىّ لطائفة من الناس أن يتخلفوا عن الخروج إلى الجهاد ، وقبل منهم ما عرضوا من أعذار مختلفة ، دون أن ينتظر الوحى من الله ، ليكشف له أمر الصادقين والكاذبين ، والمؤمنين والمنافقين ، فعاتبه الله فى فعل لم يتلق الأمر فيه من عنده ، ولو فوجئ بالعتاب ، وبُدِه بالحساب ، لشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشاء لطف الرفيق الأعلى أن يطمئنه بالعفو أولا ، حتى يتلقى العتاب فى سكينة وتدبُّر ، فلا يعود إلى فعل ما يجيز عليه العتاب ، أو يقفه موقف الحساب ، فهل يدرى ذلك الحكام والرؤساء ، وأصحاب السلطان والوزراء ، ويترفقون بمن خالف عن أمرهم ، حينما يوجهون إليهم اللوم أو العتاب ، ليقروا قلوبهم فى صدورهم ، فلا تطير خوفاً وفرَقاً ، ويعيدوا الهدوء إلى نفوسهم ، فيتلقوا اللوم ، ويتقبلوا التقريع ، ثم لا يعودوا إلى ما يجر ذلك عليهم بعد .

لقد عفا الله عنك يامحمد ، لِمَ سارعت فأذنت بالقعود لمن اعتلّ بعذر عن الخروج معك إلى الجهاد فى غزوة تبوك ؟ وكان الأولى أن تؤخر الإذن حتى يظهر لك صدق من صدق فى الاعتذار عن الخروج ، ويتبين كذب المدعين المنافقين ، ويفتضح على رءوس الأشهاد أمرهم ، فلا يتهيأ المقام لهم متمتعين بالعيش فى أمن ودعة ، ولا يتسنى لهم الابتهاج بأنهم غروك وخدعوك بالأكاذيب » قال عمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما

النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لم يؤمر بهما : إذنه لطائفة من المنافقين فى التخلف عنه ، وأخذه الفداء من الأسرى ، فعاتبه الله كما تسمعون .

٩ — ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يخرجوا للجهاد أو لا يخرجوا ، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أو يقعدوا ، لأنك تعلم أن المؤمنين حقاً من المهاجرين والأنصار ، إذا أمرتهم بشىء ابتدروا إليه ، وسارعوا إلى إجابتك ، دون تباطؤ أو تردد ، فلا يستأذنونك فى القعود أبداً ، كراهة أن يجاهدوا ، لأن الاستئذان والتردد فى هذا الوقت ، إحدى علامات النفاق ، والله عليم بالمتقين الذين يخرجون للجهاد دون تباطؤ ولا تردد ، والمنافقين الذين يختلقون المعاذير للقعود .

١٠ — ولكن الاستئذان فى القعود ، وعدم الخروج للجهاد ، هو من عادة المنافقين ، لأن الباعث على الجهاد ، وبذل النفس والمال ، هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فلا يشعرون فى قرارة نفوسهم بباعث يحفزهم على الجهاد ، فيكرهونه ويبدون المعاذير لتركه ، لأن قلوبهم لم يستقر فيها الإيمان ، لكنها فى ريب وشك من نبوة محمد ، ووحدانية الله ، وهم فى تردد وحيرة من هذا الشك الذى يساور نفوسهم ، يخفونه فى نفوسهم ، وتبديه أعمالهم وتصرفاتهم .

(٦)

من الآية ٤٦ إلى الآية ٥٩ من سورة التوبة

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً، وَلَـكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ، وقِيلَ: اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ –١– . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ، وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ –٢– .لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ، وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ. حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ، وَهُمْ كَارِهُونَ –٣–. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ –٤– . إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا: قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ، وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ –٥– . قُلْ: لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا، هُوَ مَوْلَانَا، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ –٦– . قُلْ: هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا، فَتَرَبَّصُوا، إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ –٧– قُلْ: أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ، إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ –٨– . وَمَا مَنَعَهُمْ

أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ، وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ —٩— فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ —١٠— وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ : إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ، وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ —١١— . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا ، لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ —١٢— . وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ —١٣— . وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ ، سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ —١٤— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولو أرادوا الخروج	ولو كان فى نيتهم أن يخرجوا معك للغزو .
لأعدوا له عدة	لاتخذوا له أهبة من السلاح والزاد والراحلة ، واستعدوا له .
كره الله انبعاثهم فثبطهم	كره الله نهوضهم للخروج ، فكسّلهم ، وصرفهم عن الرغبة فيه ، والاستعداد له .

الألفاظ	شرحها
وقيل : اقعدوا	قال بعضهم لبعض : اقعدوا وتخلفوا .
مع القاعدين	مع القاعدين الذين لا يستطيعون الخروج ، من النساء والصبيان والزَّمنَى .
لو خرجوا فيكم	لو خرجوا معكم ، واختلطوا بكم .
ما زادوكم إلا خبالا	ما زادوكم بخروجهم إلا فساداً وشرًّا .
ولأوضعوا خلالكم	ولسعَوا بينكم بالنميمة والشقاق، وإفساد ذات البين .
يبغونكم الفتنة	يريدون أن يفتنوكم ، ويوقعوا بينكم الخلاف ، ويلقون فى قلوبكم الرعب من أعدائكم .
وفيكم سماعون لهم	وفيكم نمامون يسمعون أخباركم ، فينقلونها إليهم .
لقد ابتغوا الفتنة	لقد أرادوا بك الفتنة والشر ، بصدّ الناس عنك فى أحُد ، وتدبير الفتك بك فى العقبة .
من قبل	فى أحُد من قبل غزوة تبوك ، التى تخلفوا ولم يخرجوا معك فيها .
وقلّبوا لك الأمور	دبروا لك المكايد والحيل ، ورددوا كل الآراء التى يتخذونها لخذلانك .
جاء الحق	جاء النصر والتأييد من عند الله .
وظهر أمر الله	غلب دينه .
ائذن لى	أعطنى الإذن فى التخلف عن الخروج للجهاد .
ولا تفتنى	ولا توقعنى فى الفتنة والمعصية بسبب الخروج .
ألا فى الفتنة سقطوا	ألا إنهم وقعوا وتردَّوا فى المعصية ، بسبب تخلفهم .

الألفاظ	شرحها
حسنة	غنيمة وظفر .
مصيبة	انهزام .
قد أخذنا أمرنا	قد نجونا بأنفسنا ، وتلافينا الوقوع فى الشدة والمصيبة التى نزلت بالمسلمين ، بقعودنا عن الخروج معهم .
ويتولوا وهم فرحون	وينصرفوا عن مجتمع المسلمين الذين يتحدثون فيما وقع بهم ، وهم فرحون بما أصابهم .
إلا ما كتب الله لنا	إلا ما قضاه الله ، وأراده بنا ، من خير أو شر .
هو مولانا	هو ناصرنا ومتولى أمورنا .
هل تربَّصون بنا	هل تنتظرون بنا .
الحسنيين	الاستشهاد فى سبيل الله ، أو الانتصار فى القتال .
بعذاب من عنده	بعقوبة تهلككم ، أو قارعة تحل بكم .
أو بأيدينا	أو أن تُقتلوا وأنتم على الكفر بأيدينا .
لن يُتقبل منكم	لن يثيبكم الله وأنتم على النفاق والكفر ، على ما أنفقتموه مختارين أو ملزمين .
فلا تعجبك أموالهم	فلا تستحسن ما أوتوا من الأموال والأولاد .
إنهم لمنكم	إنهم لمسلمون .
يفرَقون	يخافون القتل إن أعلنوا الشرك ، فيتظاهرون بالإسلام .
ملجأ	مكاناً يلجئون إليه ، ويمنعهم من المسلمين ، من رأس جبل أو حصن أو قلعة .

الألفاظ	شرحها
أو مغارات	أو سراديب يستترون فيها .
أو مُدَّخلا	أو مكاناً يدخلون فيه ، فيخفيهم عنكم .
لولوا إليه	لفروا إليه منكم .
وهم يجمحون	وهم يسرعون إليها .
يَلْمِزك فى الصدقات	يعيبك فى قسمة الصدقات .

مجمل المعنى

١ — لو كان المنافقون المتخلفون على عزم صادق ، ونية خالصة ، فى إرادة الخروج معك ، كما اعتذر لك بعضهم بأن وقت الخروج أزف قبل أن يتهيئوا له — لأعدوا له العدة ، واتخذوا له الأهبة ، من الزاد والراحلة والسلاح ، وغير ذلك من المعَدات الضرورية للمسافرين فى الجهاد ، والراحلين للقتال ، ولكنهم كانوا يبيتون النية على عدم الخروج ، فلم يستعدوا ولم يتهيئوا ، ولقد أراد الله بكم خيراً فى عدم خروجهم ، لأنه يعلم أن خروجهم ضارّ بكم كل الضرر ، فلم يرد أن يوفقهم إليه ، ولم يحرك فى نفوسهم ميلا ونشاطاً ورغبة فيه ، فخذلهم عنه ، وصرف نفوسهم عن الاهتمام به ، وأوقع فى قلوبهم حب القعود ، وشجع بعضهم بعضاً عليه ، فقال : اقعدوا مع القاعدين من أولى العجز والضرر ، كالعميان والأطفال ، والزمنَى والنسوان .

٢ — ولا تأسَوْا ولا تحزنوا أيها المؤمنون على تخلفهم عنكم ، وعدم خروجهم معكم ، لأنهم لو خرجوا معكم ما استفدتم من ورائهم شيئاً ، ولم يزيدوكم

قوة ، بل سعوا بينكم بالفساد والشر ، وأوقعوا فيكم الخلاف والشقاق ، والعداوة والبغضاء ، ولأسرعوا بين صفوفكم ، ليجدوا فرجة فيها ، لينفذوا منها ، فينشروا بينكم الشقاق ، ويصدعوا الصفوف ليفتنوكم ، ويوقعوا الخلاف بينكم ، ويلقوا فى قلوبكم الرعب والخوف من لقاء أعدائكم ، وفيكم ضعفاء الإيمان ، يروجون لهم هذه الأراجيف ، وينشرون بينكم الإشاعات والأكاذيب التى نقلوها عنهم ، لتوهينكم وإضعافكم ، ثم ينقلون لهم أخباركم ، ويكونون عيوناً لهم عليكم ، والله عليم بما تنطوى عليه ضمائر الظالمين ، من أولئك المنافقين والسماعين .

٣ — وليست هذه أول مرة يتخلف المنافقون فيها عن نصرتك ، ويقعدون عن الخروج معك ، ويحاولون تثبيطك وتخذيلك ، فلقد طلبوا الفتنة من قبل هذه الغزوة ، وأرادوا بك الشر فى سابق المواقف ، التى كانت تتطلب معونتك ومساعدتك ، وبذلوا كل ما يستطيعون للغدر بك ، والانتقاض عليك ، والنكول عن مناصرتك ، ألم ينصرف عبد الله بن أبى وأصحابه عنك يوم أحُد ؟ ألم يتخلف عنك بعسكره وكانوا نحو الثلث عدداً من عسكرك ، وانصرف عنك بمن معه من المنافقين وأهل الريب ؟ أتذكر يوم عسكرت بجيشك فى أعلى ثنية الوداع ، وعسكر هو والمنافقون أسفلها حذاء عسكرك ، ليبغوا لك الغوائل ، ويشتتوا شملك ، ويفرقوا أصحابك ، ويفتكوا بك ، فردهم الله خاسئين ، بعد أن دبروا لك كل صنوف الكيد ، وقلَّبوها ظهراً لبطن ، ونظروا فى كل أنواع الحيلة ونواحيها ، فلم يؤثر مكرهم وكيدهم فى أمرك ، حتى جاءك الحق والنصر والتأييد الإلهى ، وظهر أمر الله ، وغلب دينه ، وعلت شريعته ، وهم كارهون لظهور دين الله ، وانتشار شريعته ، فلم يؤثر مكرهم وكيدهم ، وإثارتهم الشر فى أمرك شيئاً ، بل رد الله كيدهم إلى نحورهم ، وهتك أستارهم ، وكشف أسرارهم .

٤ - ومن المنافقين من يتعلل بأباطيل كالجد بن قيس، حينما طلبت منه أن يخرج معك إلى غزو بنى الأصفر - وهم الروم - فيقول لك : ائذن لى فى التخلف ولا تفتنّى برؤية بنات الأصفر ، فقد علم قومى أنى لا أتمالك نفسى عن النساء إذا رأيتهن ، ولكنى أعينك بمالى إن شئت ، والله يعلم أنه لم يمتنع عن الخروج معك خوف الفتنة من النساء ، ولكنه امتنع نفاقاً وكيداً لك ، ولهذا كان عدم خروجه معك هو وأمثاله سقوطاً لهم فى الفتنة ، وتردّياً فى الهاوية ، بجرأتهم على الاستئذان فى التخلف باعتذار كاذب، استحقوا من أجله العذاب ، الذى أعده الله لهم فى جهنم المحيطة بالمنافقين الكافرين، إحاطة السِّوار بالمعصم يوم القيامة .

٥ - هؤلاء المنافقون لست منهم وليسوا منك ، فهم يتألمون ويحزنون حينما ينالك توفيق ، ويصيبك ظفر وانتصار ومغنم ، ويفرحون حينما يسمعون أنك أنت والمؤمنين قد أصابتكم هزيمة ، أو حلت بكم كارثة ، ويقولون شامتين : لقد أخذنا أمرنا ، واحتطنا لأنفسنا ، وأعملنا الحيلة حتى لا نخرج مع محمد وأصحابه ، فيحل بنا ما حل بهم ، ويغشون مجتمع المسلمين ليسمعوا الأخبار السيئة عن هزيمتك وهزيمة المؤمنين ، فيستشفوا من الغيظ ، وينصرفوا عنكم ، وهم فرحون بما أصابكم .

٦ - قل لهم يا محمد : لا تفرحوا فى مصائبنا، فنحن قوم مؤمنون، نعتقد أنه لن يصيبنا من خير أو شر ، إلا ما كتبه الله لنا ، وقدره علينا ، ونحن نؤمن أننا ظافرون، سواء أقتلنا أم انتصرنا، فإن انتصرنا فإن حُسنَى الانتصار لنا، وإن قُتلنا فإن الاستشهاد فى سبيل الله خير وأعظم أجراً ، والله ناصرنا ، إليه نفوض أمورنا ، ونعتمد عليه فيما نفعل وما ندع ، وهو كافل المؤمنين ، ومتولى أمورهم، وهم يتوكلون ويعتمدون عليه، ويفوضون أمورهم إليه ، بعد أن يأخذوا فى الأسباب ، ويؤدوا ما وجب عليهم .

٧ – قل لهم يا محمد لتردهم إلى الحقيقة والصواب : ماذا تنتظرون أن يحل بنا ، إنه لا يحل بنا إلا إحدى الحسنيين ، ولا ينالنا إلا إحدى العاقبتين : إما الانتصار فى الجهاد، أو الاستشهاد فى سبيل الله، وكلتاهما يشتاق كل مؤمن أن ينالها، ويظفر بها ، ولكنا لا ننتظر لكم إلا إحدى السُّوءَيَيْن : إما أن يصيبكم الله بعذاب من عنده فيوقع بكم القحط ، ويرسل عليكم صاعقة تهلككم ، كما أهلكت أمم الكفر قبلكم ، وإما أن ينصرنا عليكم ، فيعذبكم بأيدينا ، فتقتلوا وتؤسروا ، وتُنهب أموالكم ، وتُسبى ذراريكم ، فتربَّصوا وانتظروا ما سيحل بنا من الخير ، لأننا متربصون ومنتظرون ما سيحل بكم من الشقاء والعذاب .

٨ – قل لهم : إن ما أنفقتموه من مال، سواء أكان عن رغبة واختيار منكم تسترون به حالكم ، وتخفون به حقيقة أمركم ، كما عرض الجد بن قيس على النبىّ أن يتخلف عن الخروج ، ويعينه بماله ، أم كنتم ملزَمين بإنفاقه، كارهين لإخراجه ، حتى لا يصيبكم ضرر ، أو لا يؤذيكم أحد – لن يتقبل الله هذا الإنفاق منكم على أية حال ، ولن يثيبكم عليه ، لأنكم فاسقون ، وعتاة متمردون ، لا تستحقون أن يثيبكم الله على ما تفعلون.

٩ – وما منعهم أن يقبل الله نفقاتهم ، ويثيبهم على صدقاتهم ، ثم يحبط جميع أعمالهم ، إلا أنهم فقدوا أساس التوفيق والهداية ، لأن أساس المثوبة ، والطريق إلى رضاء الله ، هو الإيمان ، وهؤلاء كفروا بالله ورسوله ، ودلت مظاهرهم على حقيقة أمرهم ، وأعلنت عما تخفى نفوسهم ، فلا يُصلون عن إيمان واعتقاد ، ولا يقومون إلى الصلاة منشرحين نشيطين ، ولكنهم يُصلون كسالى متثاقلين ، ولا ينفقون الأموال عن رغبة ورضا ، ولكنهم ينفقونها على كره منهم ، فكأنهم لا يُصلون ولا ينفقون رجاء ثواب ، أو خوف عقاب، ولكنهم يسترون بهما ، حتى ينظموا فى سلك المسلمين

وهم منافقون ؛ وقد خص الله من أعمال البر التى تكشف عن حقيقة المؤمن والمنافق الصلاة والنفقة ، لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية ، والنفقة فى سبيل الله أشرف الأعمال المالية ، ويطلب إظهارهما فى الإسلام ، وكثيراً ما نبه القرآن على أن الخير للمسلم مكفول بأدائهما على أكمل وجه .

١٠ — فلا تستحسن أيها الإنسان ما أعطيناهم من أموال وأولاد فى الحياة الدنيا ، فإنما نستدرجهم بحب الأموال والأولاد ليفتتنوا بها ، ويلجُّوا فى عتوّهم وطغيانهم ، اعتماداً عليها ، ثم نزيدهم حرصاً عليها ، وحبًّا لها ، فإذا ما ألزموا بالإنفاق منها ، وقتل وأسر أولادهم فى الحرب ، زادوا حسرة وعذاباً ، لأنهم لا يبتغون وجه الله بما ذهب من أموالهم التى يحبونها ، ويحرصون عليها ، بل جعلها الله من أسباب شقائهم وبلائهم ، هذا إلى ما ينتظرهم من العذاب فى الآخرة ، إذ يموتون وهم على كفرهم ؛ وهذه الآية تشير إلى أن الله تعالى قطع رجاء المنافقين عن جميع منافع الآخرة ، وبيّن أن الأشياء التى يظنونها سعادة لهم فى الدنيا ، قد جعلها الله أسباباً ليعذبهم بها فى الدنيا أيضاً ، كما يعذبهم فى الآخرة على كفرهم ونفاقهم .

١١ — ومن أخلاق المنافقين أنهم يتظاهرون بالإسلام ، خوفاً من أن يصيبهم أذى من المسلمين ، لأنهم قوم جبناء ، يخافون أن يعلنوا عن حقيقة أمرهم فتؤذوهم ، ولذلك يحلفون أمامكم بالله إنهم لمن جملة المسلمين ، وإنهم لكاذبون ، فليسوا منكم ، ولكنهم يخافون أن يظهروا ما هم عليه فيقتلوا .

١٢ — وإنهم لو وجدوا شيئاً يحميهم منكم ، ويبعد أذاكم عنهم ، كحصن يلجئون إليه ، فلا تستطيعون أن تصلوا إليهم ، أو سراديب تسترهم عن أبصاركم ، أو مسلكاً يدخلون فيه فيختفون عنكم ، لانصرفوا ورجعوا إليه مسرعين ، وأظهروا أمرهم ، وأعلنوا ما يخفون فى نفوسهم من الكفر والنفاق ، حينما يجدون أنفسهم فى مأمن منكم ، وبعد من قبضة أيديكم .

١٣ — ومن عادة بعض المنافقين أن يلمزوك ويعيبوك فى قسمة الصدقات والغنائم ، وهم يعلمون أنك تقسمها على حسب ما تراه لمصلحة المسلمين ، ولكنهم يقيسون العدل فى قسمتها ، على حسب ما ينالهم منها ، فإن كان نصيبهم كبيراً ، وحظهم منها عظيماً ، رضوا ، ووصفوك بالعدل والإحسان ، وإن لم يكن لهم منها نصيب ، أو كان نصيبهم أقل مما كانوا ينتظرون ، غضبوا وسخطوا ، واتهموك بالظلم وعدم الإنصاف .

بينْا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسِّم مالا ، إذ جاءه ذو الخُوَيْصِرة التميمىّ ، فقال : اعدِل يا رسول الله ، فقال : « ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » فنزلت الآية ، وعندها قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى يا رسول الله فأقتل هذا المنافق ؛ فقال : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى ، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة » .

١٤ — ولو أنهم أخذوا ما تفضل الله به عليهم ، وأعطاهم إياه رسوله ، راضين طيبة به نفوسهم ، وقالوا كفانا ما مَنَّ الله به علينا ، وقسمه لنا ، وعلقوا آمالهم بما سيؤتيه الله إياهم ، ويزيدهم منه ، وكانت رغبتهم إلى الله لا إلى غيره ، لكان خيراً لهم ، وأليق فى الاعتراف بالنعم ، وتقدير المنن .

(٧)

(من الآية ٦٠ الى الآية ٦٨ من سورة التوبة)

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِى الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ ، وَفِى سَبِيلِ اللهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ —١— . وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ، وَيَقُولُونَ : هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ : أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ، يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ؛ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ —٢— . يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ —٣— . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ، ذَلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ —٤— . يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ، قُلِ : اسْتَهْزِئُوا : إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ —٥— . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ : أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ؟ —٦— . لَا تَعْتَذِرُوا ، قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا

مُجْرِمِينَ –٧– . الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ –٨– وَعَدَ اللّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ ، وَلَعَنَهُمُ اللّهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ –٩– .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
للفقراء	الفقير من لا شيء عنده .
والمساكين	والمسكين من عنده شيء ، لكن لا يكفى لحاجته وحاجة عياله .
والعاملين عليها	وهم الجباة والمستخدَمون ، الذين يعملون فى تحصيلها وصيانتها .
والمؤلفة قلوبهم	وقوم إسلامهم ضعيفٌ ، وقوم من الكفار يُعطَونَ من الصدقة ، ليتألفوا على الإسلام .
وفى الرقاب	وينفق من الصدقة فى فكّ الرقاب ، بأن يعان الأرقّاء والأسارى منها بالمال ، لينالوا حريتهم .
والغارمين	والذين استدانوا لأنفسهم فى غير معصية ، وعجزوا عن أداء الدين .

الألفاظ	شرحها
وفى سبيل الله	وفقراء المجاهدين والحجيج ، ومن انقطعت الصلة بينهم وبين وطنهم .
وابن السبيل	المسافر المنقطع عن ماله .
أُذُن	يسمع ويصدِّق كل ما قيل ، من غير أن يتدبَّر فيه ، ليميز ما يمكن أن يُقْبل ، وما لا يقبل منه .
أُذُن خير لكم	نعم يسمع ويصدق كل كلام فيه خير ومصلحة لكم ، مما ينبغى سماعهُ وقبوله .
ويؤمن للمؤمنين	يصدقهم ، لما يعلم من إخلاصهم وصِدقِهم .
للذين آمنوا منكم	للذين أظهروا الإيمان منكم فيقبله منهم ، لا تصديقاً لهم ، ولكن رحمة بهم ، وستراً عليهم .
يحادد الله ورسوله	يعاده ويخاصمه .
الخِزى	الذل والهوان ، المقارن للفضيحة والندامة .
يحذر المنافقون	يتحرزون ويخشون .
تنزَّل عليهم سورة	تنزل على المؤمنين سورة فى شأن المنافقين .
تنبئهم بما فى قلوبهم	يسمعونها مذاعة من أفواه الرجال ، فكأنها تخبرهم بما يخفونه فى قلوبهم .
مخرج ما تحذرون	مظهر ما تخافونه ، من إنزال سورة تكشف عن مخازيكم ، المستكنة فى قلوبكم .
قد كفرتم	قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ، والطعن فيه .
بعد إيمانِكم	بعد إظهار إيمانكم .
بعضهم من بعض	متشابهون فى النفاق ، والبعد عن صفات المؤمنين .

الألفاظ	شرحها
يأمرون بالمنكر	يأمرون بالكفر والمعاصى .
وينهون عن المعروف	ويصدون عن الإيمان .
ويقبضون أيديهم	ويضنون بالإنفاق فى سبيل الله .
نسُوا الله	أغفلوا ذكر الله ولم يتبعوا أوامره ، ولم يجتنبوا نواهيه .
هم الفاسقون	هم البالغون أقصى غاية فى التمرُّد ، والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة .
هى حسْبهم	هى كافيتهم عقاباً وتعذيباً .
ولعنهم الله	أبعدهم وطردهم من رحمته ، وأهانهم .
ولهم عذاب مُقِيم	ولهم عذاب مستمرٌّ فى الدنيا والآخرة .

مجمل المعنى

١ — لما ذكر الله تعالى المنافقين الذين يلمزون النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قسمة الصدقات ، ويعيبونه بأنه يعطى منها من يشاء ، ويحرم من يشاء ، وأنه يخص بها أقاربه ، ويأخذ لنفسه ما بقى ، وكانوا يسألونه فوق ما يستحقون ، بيّن تعالى مصرِف مستحقيها ، وعيّن أنواعهم ، ليُفْهِم هؤلاء المبطلين بأن توزيع الزكاة والغنائم ، إنما يجرى على حسب ما فرضه الله تعالى ، لا حسبِ رغبة النبيّ كما يفترون ؛ وذكر أن المستحقين للزكاة والصدقات هم :

ا — الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون .

ب — والمساكين الذين لا يكفيهم لحاجتهم وحاجة عيالهم ما يملكون وما يكسبون .

جـ — والمستخدَمون الذين يعملون فى تحصيل الزكاة وجمعها ، والمحافظة عليها ، حتى توزّع على مستحقيها ، فهؤلاء يتقاضون أجورهم منها .

د — ومن كان يتألّفُ النبىُّ قلوبهم من الكفار ، ليشعروا أن فى الإسلام تعاطفاً وتراحماً فيسلموا ، أو من أسلموا ورغبتهم فى الإسلام ضعيفة ، فيتألفون بإجزال العطاء لهم ، ليتمكن الإسلام من قلوبهم ، ولو كانوا أغنياء ، وغير هؤلاء ممن كان يرى النبىّ أن فى إعطائهم غُنْماً للإسلام ، وتقويةً له ، وتكثيراً لأهله .

هـ — ويبذل من الصدقات للأرقّاء والعبيد ، لمساعدتهم على كسبِ حرّياتهم ، والفوز بعِتْقِهم وفكّ رقابهم ، وللأسارى المسلمين لافتدائهم ، ونحو ذلك مما يساعد على فكّ العانى ، وتحرير الرقيق .

و — ويُعْطَى من الزكاة مَنْ ركِبته الديون التى التزم بها فى غير معصية ، كأن كان تاجراً وأصابَتْه خسارة ، أو مزارعاً واستدان على زراعته فأكلتها الآفات ، أو هبطتْ عليها الأسعار هبوطاً لم يستطع معها أن يفى بالتزاماته ، أو وقع فى غرامة شديدة لضمان مَدِين أعْسر ، أو لإصلاح ذات البين .

ز — والغزاة والمجاهدون فى سبيل الله ، والحجاج والمبعوثون لتحصيل العلم ، أو للتعريف بالإسلام ، أو الدعاية للوطن ، يستحقون أن يعطَوْا نفقاتهم من الزكاة .

ح — ويستحقها كل مسافر ومغترِب ، قطعه السفر والاغتراب عن الاتصال ببلده ، والوصول إلى ماله ، كأن يسافر إنسان إلى بلد وتقوم حرب ، فيُمْنع من السفر .

هذه هى مصارِفُ الصدقات ، وللمتصدِّق أن يدفعها إلى أحدهم أو بعضهم أو كلهم كما يشاء، فرض الله لهم ذلك، لأنه العليم بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم ، لا يفعل إلا ماتقتضيه الحكمة من محاسن الأمور ، التى من جملتها سَوْقُ الحقوق إلى مستحقيها .

٢ — ومن المنافقين من يؤذون النبىّ ، ويعيبونه بأنه رجل أُذُنٌ ، (وهو ما يقال له فى اللغة العامية : وِدَنِى) ،يسمع ما يقال له من غير أن يتدبره ، ودون أن يمحص خطأه من صوابه ، وصدقه من كذبه — كبرت كلمة تخرُج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً — قل لهم : نعم هو أذنٌ ، ولكنه أذن فى الخير والحق، وما ينبغى سماعُه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإصلاح ذاتِ البين ، لا فى غير ذلك من الشرّ والضلال، ومن أباطيلكم التى تُموِّهونها ، وتظنون أنه قد سمعها ورضيها منكم ، ولكنه يسكت عنكم غير مصدّق لكم، وإنما يصدّق ويؤمن بالله، ويصدِّق ما يسمعه من المؤمنين لعلمه بإخلاصهم وصفاء قلوبهم ، وهو يعلم حقيقة الذين أظهروا الإيمان منكم فلا يصدقهم كما تتوهمون ، ولكنه لا يكشف عن سريرتهم ، ولا يفضح سوء نياتهم ، رحمة ورفقاً بهم ، ورجاء أن يثوبوا إلى رشدهم ، فيقع الإيمان فى قلوبهم ؛ وهؤلاء الذين يؤذون رسول الله بما يفترون عليه من الكذب ، ويقولون عنه : إنه أذن، لهم أشدُّ العذاب من الله ؛ وقد نزلَتْ فى فرقةٍ من المنافقين ، قالوا فى حقه عليه السلام ما لا ينبغى ، وقالوا فى حقه: إنه أُذُنٌ يسمع كل ما يقال له،إنْ حقًّا وإن باطلا، فقال بعضهم : لا تفعلوا، فإنا نخاف أن يبلُغَه ذلك فيوقع بنا ، فقال الجُلاَس بن سُوَيد أحدهم: نقول ما شئنا، ثم نأتيه فننكر ما قلنا، ونحلف فيصدقنا بما نقول ، إنما محمد أذن سامعة .

٣ — ولقد دأب المنافقون على أن يؤذوا النبىّ ، وأن يقولوا فيه ما لا ينبغى ، وأن

يتخلّفوا عن الجهاد باعتذارات كاذبة، فإذا ما كشفتم أمرهم، وعرفتم حقيقتهم جاءوا يعتذرون بأنهم لم يقولوا ما نُسب إليهم من العيب فى النبىّ ، وأنهم لم يتخلّفوا عن الجهاد تخذيلا للمسلمين ، ويؤكدون اعتذارهم بأيمان يحلفونها لكم ، ليرضوكم بهذه الأيمان ، ويخدعوكم فتصدقوهم ، وكان يجب عليهم أن يحرصوا على رضا الله ورسوله قبل رضاكم ، فإن الله ورسوله إذا رضيا عنهم رضيتم أنتم عنهم ، ورضا الله ورسوله لا يكون بالأيمان الكاذبة ، وإنما يكون بالطاعة وصدق الإيمان ، والتأدُّب فى حقه عليه السلام حاضراً وغائباً ، فهذه الأيمان الفاجرة التى يحلفونها لكم ، إنما يرضى بها من من ينحصرُ طريق علمه فى الأخبار ، لكن النبىّ صلى الله عليه وسلم يطلعه الله على الأسرار ، ويكشف له عما وراء الأستار ، فكان ينبغى لهم ألا يحلفوا هذه الأيمان الكاذبة ، وأن يخلصوا الله قلوبهم، ويطيعوا رسوله إن كانوا مؤمنين كما يقولون .

٤ — ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن من يخالف الله ويحاربُ رسوله ويعانده ، فقد حقّت عليه نار جهنم ، يمكث فيها ولا يخرج منها أبداً ؟ وهذا العذاب المقيم هو نهاية الخزْىِ العظيم، والذلّ والهوان، المُقْتَرِن بالفضيحة والندامة، جزاء نفاقهم ، وكفرهم المستتر ، وسوء طويّتهم .

٥ — لقد علم المنافقون أن الله تعالى يُطلع نبيّه على ما يدور بينهم من أحاديث تتضمن المطاعن فى النبىّ صلى الله عليه وسلم، فليحذروا ، وليخشَوْا أن ينزل الله على رسوله سورة فى شأنهم ، تنبئه بما يخفون فى قلوبهم ، ولا يقولونه بأفواههم ، فيذيع وينتشر بين الناس ، فإذا بهم يسمعون مكنونات صدورهم ذائعة على الألسنة، ويصبحون كأنهم يتلقَّوْن أخبار ما أخفوا فى نفوسهم أحاديث منتشرة بين الناس ؛ ألا فليستهزئوا كيف شاءوا ، فإن الله مظهر ما يخفون ، ومخرج للناس ما كَمَنَ فى صدورهم، وما تحرَّزوا

وخشُوا أن يُنْزِل الله نبأه على رسوله ، فينشر مخازيهم ومثالبهم المستكنة فى قلوبهم .

٦ — ولئن سألت المنافقين عما قالوا ، وفاجأتهم بما تحدثوا فى شأنك ، وما كان منهم من عيب فى الدين والقرآن ، واستهزاء بقوة المسلمين ، وتوقُّع لهزيمتهم ، أجابوك معتذرين : بأن هذا الحديث صدر منهم بقصد التسلية ، وأنهم خاضوا فيه للَّهو واللعب ، والتخفيف من مشقة السفر ، لئن فعلوا ذلك لا تقبل اعتذارهم ، وجابهم بحقيقة أمرهم ، وقرِّعْهُم على سوء خلقهم ، وقل لهم : إنكم كنتم حقاً تستهزئون بالله ورسوله وبالقرآن ؛ رُوِىَ أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير فى غزوة تبوك ، ومعه ركبٌ من المنافقين ، مضَوْا فى سيرهم يستهزئون بالقرآن وبالرسول ، ويقولون : انظروا إلى هذا الرجل ، يريد أن يفتتح الشامَ ، ويأخذ حصون بنى الأصفر ! هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال : احبسوا علىَّ الركْب ، أى أوْقِفوا إلىَّ هذا الركب من المنافقين الذين كانوا يتحدثون ويستهزئون — فأتاهم ، فقال : قلتم كذا وكذا ، فقالوا : يا نبىَّ الله ، ولا والله ما كنا فى شىء من أمْرِك ، ولا من أمر أصحابك ، ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الرَّكب ، ليقصِّر بعضنا على بعض السَّفر .

٧ — لا تشغَلوا أنفسكم باعتذار غير مقبول ، فإن كذبه معلوم ، لقد أظهرتم الكفر وأعلنتم عنه باستهزائكم بالنبىّ ، بعد أن أظهرتم الإيمان وادعيتموه ، ومع ذلك فسنرى من يتوب منكم ، ويندم على ما فرط منه ، ويصدق فى إيمانه فنعفو عنه ، ومن يُصِرّ على النفاق والكذب ، وهؤلاء ، سيعذبهم الله يوم القيامة لإصرارهم على النفاق والإجرام ، وبقائهم على الكفر والضلال .

٨ — إن للنفاق أمارات وصفات متأصّلة فى طباع المنافقين والمنافقات ، غُذِّيت بها نفوسهم ، وأشربتها قلوبهم ، هم جميعاً يتشابهون فيها ، ولا يمكن

بحال أن تكون كصفات المؤمنين ، فهم كاذبون حينما يحلفون لكم ، إنهم لمنكم وما هم منكم ، فهم يأمرون بالمنكر ، ويحثون على الكفر والمعاصى ، ويصدون عن الإيمان والطاعة ، ويبخلون بأموالهم ، فلا ينفقون منها فى وجوه البرّ والطاعة ، ولا يُراقبون الله ولا يخشوْنه ، وغفلت قلوبهم عن ذِكر الله ، فنسيهم وخذلهم ، وأبعدهم من فضله ورحمته ، لأنهم فَسقوا وتمرّدوا ، وخرجوا عن طاعة الله .

٩ ــ والله سبحانه وتعالى قد أعد للمنافقين والمنافقات الذين أظهروا الإسلام وأخفَوا الكفر ، وللكفار الذين جاهروا بكفرهم وأظهروه ، نار جهنم ، يعذّبون فيها عذاباً شديداً ، ويخلّدون فيها دائماً ، وهى كفاية وجزاء لهم على سوءِ أعمالهم ، وقد أهانهم الله ولعنهم ، وطردهم من رحمته ، وكتب عليهم عقاباً دائماً مستمرًّا ، لا ينقطع فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا يقاسون تعَب النفاق ، ويعيشون منه فى بلاء دائم ، لا يأمنون أن يفتضح أمرهم ، وينزل بهم العذاب حينما تنكشف أسرارهم ، أما فى الآخرة فيصْلوْن عذاب النار .

(٨)

من الآية ٦٩ إلى الآية ٧٤ من سورة التوبة

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ، فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ -١- . أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ -٢- . وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ -٣- . وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ

أَكْبَرُ ، ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ —٤— . يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ، جاهِدِ
الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَاُغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ،
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ —٥— . يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ
الْكُفْرِ ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا
نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا
لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ —٦— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
كالذين من قبلكم	أنتم فعلتم مثل فعل الأمم المهلكة الذين من قبلكم .
فاستمتعوا بخلاقهم	فتمتعوا بما قدر لهم من ملاذ الدنيا .
وخضتم	دخلتم فى الباطل .
كالذين خاضوا	كالخوض الذى خاضوه ، والباطل الذى دخلوا فيه .
أولئك	الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة .
حبطت أعمالهم	بطلت أعمالهم التى كانوا يستحقون عليها جزاء حسناً ، لو قارنت الإيمان .
ألم يأتهم	المراد بهم : المنافقون .

الألفاظ	شرحها
نبأ الذين من قبلهم	الأخبار ذات الشأن للأمم السابقة .
أصحاب مدين	هم قوم شعيب ، ومَدْين قرية على البحر الأحمر ، بها البئر التى استقى منها موسى لبنات شعيب .
المؤتفكات	قرَى قوم لوط ، ائتفكت وانقلبت بهم ، فصار عاليها سافلَها ، وأُمطروا حجارة من سجيل .
فما كان الله ليظلمهم	فكذبوا رسُلهم فأهلكهم الله ، فلم يظلمهم بذلك .
بعضُهم أولياءُ بعض	بعضهم أعوان وأنصار لبعض .
سيرحمُهم الله	سيُفيض عليهم آثار رحمته من النصرة والتأييد .
ومساكنَ طيبة	ومنازل يطيب فيها العيش .
جنات عدْن	جنات إقامة دائمة .
ورضوانٌ من الله أكبر	وبعض رضا الله على عباده المتقين ، خير لهم من الجنة وما فيها .
الفوز العظيم	الجزاء الأكبر الذى لايَعْدِله أى حظ من حظوظ الدنيا .
جاهد الكفار	قاتل الذين يجاهرون بالكفر بالسيف .
والمنافقين	وخذ المنافقين الذين يسترون الكفر ولا يجهرون به ، بالحجة وإقامة الحدود .
واغلُظْ عليهم	وعاملهم بالشدّة ، ولا تأخذك بهم رأفةٌ فى دين الله .
وكفروا بعد إسلامهم	أظهروا ما فى قلوبهم من الكفر ، بعدما أعلنوا الإسلام .
وهَمُّوا بما لم ينالوا	حاولوا ما لم يتحقق لهم من الفتك بك ، وتدبير الكيد لك .
وما نقَموا	وما أنكروا وما عابوا .

مجمل المعنى

١ — أنتم أيها الكفار فى أخلاقكم وأعمالكم ، تُشبهون الأمم الذين من قبلكم فى أخلاقهم وأعمالهم ، وسيهلككم الله كما أهلكهم ، فأنتم تعتزُّون بقوتكم ، وتُعجَبون بأموالكم وأولادكم ، وأولئك كانوا يعتزّون بقوتهم ، ويُعجبون بأموالهم وأولادهم ، فلم تنفعهم قوّتهم ، ولم تُغْنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، مع أنهم كانوا أشدّ منكم قوة ، وأكثر أموالا وأولاداً ، وتمتعوا بما قُدِّر لهم أن يتمتعوا به ، وما أوتوا من ملاذّ الدنيا الفانية ، ونسوا الآخرة ، وغفَلوا عن ذكر الله ، وتركوا طاعته ، وعصَوْا رسله ، وأنتم مثلُهم تستمتعون كما استمتعوا ، وتفعلون مثل ما فعَلوا ، ودخلتم فى الباطل ، واتّبعتم طريق اللهو واللعب ، وكذّبتم نبيكم ، فسلكتم سبيلهم ، ونسجتم على منوالهم ، وقد أبطل الله جميع ما عملوا من حسنات كانوا يُجزَوْنَ عليها لو كانوا من المؤمنين ، وكذلك أحبَط الله جميع أعمالكم بكفركم ، أحبطها فى الدنيا ، لأنها لم تهيئ لكم استقرار النفس ، والاطمئنان فى الحياة ، ولم تكسبكم محبة الناس ، ولأنكم لاتعملون الأعمال الطيبة ابتغاءَ وجه الله ؛ وأحبطها فى الآخرة ، لأنكم ستدخلون فيها جهنم وبئس المصير ، وأنتم وهم خاسرون كلّ الخسران فى الدارين ، لقد كانت أعمالكم فى الدنيا ضارةً بكم ، غير نافعة لكم ، وكانت نهايتكم فى الآخرة جهنم وبئس القرار .

٢ — وقد شبّه الله فى الآية السابقة حال المنافقين والكفار ، وسوء سلوكهم مع محمد صلى الله عليه وسلم ، بحال الكفار من الأمم السابقة على سبيل التعميم ، ثم نصّ فى هذه الآية على أمم بأعيانها ، كانت أنباؤها معروفةً

للعرب ، وكانت بلادهم قريبة من بلادهم ، ووردت بعض أخبارهم فى شعْرهم ، وكانوا فى وقتهم أكثر الأمم عدداً ، وأنبياؤهم أعظم الأنبياء ، قد اشتهر أمرهم ، واستفاضت بين الأمم أخبار رسالاتهم ، فنوح أول الرسل ، وقد أهلك الله قومه بالغرق ، كما أهلك عادا بالريح ، وثمود بالصيحة ، وقوم إبراهيم بسلب النعمة ، وأصحاب مَدْين بعذاب يوم الظُّلَّة ، والمؤتفكات بجعل أعاليها أسافلها ؛ فذكَّرهم الله بأنباء هذه الأمم ، وخوَّفهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم ، إن استمروا على ما هم فيه من الضلال والبهتان ، وكان أكثرهم عالمين بأحوال هذه الأمم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم شعيب أصحاب مَدْين ، وأصحاب القُرى التى أرسل إليها لوط ، هؤلاء غضب الله عليهم ، وأهلكهم بعد أن جاءتهم رسلهم بالحجج والبينات والهدى ، فكذَّبوهم وكفروا بهم ، فاستحقوا العقاب جزاء ما ارتكبوا ، فما ظلمهم الله بما أصابهم ، ولكنهم أسخطوا ربَّهم ، فاستوجبوا العقوبة ، فظلموا أنفسهم ، وما كان الله جل شأنه ليعاقبهم دون أن يستحقوا العقاب .

٣ — ولما ذكر الله فى الآيتين السابقتين أحوال المنافقين والكفار ، وما هم عليه من أوصاف قبيحة ، وأعمال فاسدة ، ذكر المؤمنين والمؤمنات ، وما هم عليه من صفات طيّبة ، وفضائل كريمة ، فالمؤمنون والمؤمنات يجمع بينهم الإخاء والمحبة ، والولاية والنُّصرة ، وهم على نقيض المنافقين ، إذ أن المؤمنين يأمرون بالمعروف الذى ينتظم كلَّ خير ، وينهوْن عن المنكر الذى ينتظم كل شر ، أما المنافقون فيأمرون بالمنكر وينهوْن عن المعروف ، والمؤمنون يقيمون الصلاة ، فيذكرون الله ويخشوْنه ، والمنافقون قد نسوا الله ، وغفلوا عن ذكره ، والمؤمنون يؤتون الزكاة ، والمنافقون يقبضون أيديَهم ، ويبخلون بالنفقة ، والمؤمنون يطيعون الله ورسوله فى كل ما أمر به وما نهى

عنه ، ولكنّ المنافقين قومٌ فاسقون متمرّدون ، خارجون عن طاعة الله ؛ وباتصاف المؤمنين بهذه الصفات الفاضلة ، استحقوا أن يرحمهم الله ، كما استحق الكفار عذابه ، لأن الله عزيز قادر على أن يُعزّ أولياءه ، ويقهر أعداءه ، وهو يبنى أحكامه على أساس الحكمة فى معاملة أهل الطاعة وأهل المعصية .

٤ — وكما أوعد الله المنافقين والمنافقات بنار جهنم ، وعَد المؤمنين والمؤمنات بالرحمة فى الآية السابقة ، وفصل أنواع هذه الرحمة ، بأنها جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ينعمون فيها دائماً ، وينزلون منها منازل يطيب فيها عيشهم ، وتُسَرّ نفوسهم ، وتفرح قلوبهم ، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، فى جنات عدن ، وفى ضيافة ربهم ، حيث يرون ما لا عَيْن رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وخير من ذلك وأعظم ، رضوان الله الذى يُفْضِلُ به عليهم ، ورضا الله أكبر فى نفس العبد ، وأعظم من أى نعيم فى الجنة ، حيث يصل إلى قلوبهم منه لذةٌ ومسرة ، هى ألذُّ إلى نفوسهم ، وأقرُّ لعيونهم من كل نعيم أصابوه فى الجنة ، فقد روى أن الله تعالى يقول لعباده إذا استقرُّوا فى الجنة : هل رضيتم ؟ فيقولون كيف لا نرضى يا ربّنا ؟ فيقول : إنى سأعطيكم أفضل من هذا كلّه ، وهو رضوانى ، أرضى عنكم فلا أسخط عليكم أبداً ؛ فهذا هو الجزاء الأكبر ، والفوز الأعظم ، الذى لا يعدِله أىُّ حظٍّ من حظوظ الدنيا والآخرة .

٥ — يأيها النبىّ ، قد أمرك الله أن تقاتل بالسيف الكفّار الذين يجاهرون بالكفر ، ويعلنون لك العداء ، وأن تجاهد المنافقين بالحجّة والبيّنة وإقامة الحدود ، ولا تأخذك بهم رأفة ولا رحمة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فإن مأواهم جهنم ، وبئس المصير مصيرهم .

٦ — وإنما استحق الكفار والمنافقون أن تقاتلهم ، وتجاهدهم بالغِلظة والشدة ،

لأنهم فوق الكفر والنفاق ، يُنْكرون ما صدر عنهم من القبائح ، ويؤيِّدون إنكارهم بأنهم يحلفون بالله ما قالوا الذى نُسِب إليهم ، والحق أنهم قالوا ، وهم يعتقدون أنهم قالوا ، ولكن الشَّقاء غلب عليهم ، فأيَّدوا كفرهم ونفاقهم بالأيمان الكاذبة ، وقالوا كلمة الكفر ، وهى إنكار نبوة محمد ، والاستهزاء به ، وهمُّوا بقتل النبيّ ، ولكنهم لم ينالوا ما أرادوا ، مع أن النبيّ وأصحابه لم يكونوا شرًّا عليهم ، ولم يجلبوا أذى أو بؤساً لهم ؛ وإذا كان لهم أن ينقِموا عليهم شيئاً ، أو يعيبوا عليهم أمراً ، فليس إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، مع أن حقّ الله على من أغناه أن يشكره ، وكان رسول الله قد دفع عن عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين دِيَةً كانت قد تغلَّظت عليه ، فصار جزاؤه منه أن يعيبَه ويتآمر عليه ، ومع ذلك ، فإن باب التوبة مفتوح ، وفضل الله عظيم ، فإن تاب هؤلاء المنافقون قبِل الله توبتهم ، وكان ذلك خيراً لهم ، وإن استمروا على ما كانوا عليه من التولِّى والانصراف عن الإيمان ، يعذِّبهم الله فى الدنيا بالقتل والأسر والنهب ، وجميع فنون العذاب ، ويعذِّبهم بنار جهنم فى الآخرة ، وليس لهم فى الأرض على سعَة أقطارها ، وتباعد أطرافها ، من ولىّ أو نصير ينجيهم من عذاب الله ؛ رُوِى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلا : «فإن يتوبوا يَكُ خيراً لهم» ، قال الجُلاَس وهو من عُصبة المنافقين : يا رسول الله ، لقد عرَض الله علىّ التوبة ، والله لقد قلتُ وصدق عامر ، فتاب الجُلاس وحسنت توبته ، فماذا قال الجُلاس :

لما أقام رسول الله فى غزوة تبوك شهرين ، ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين عن الجهاد ، فيسمعه من خرج منهم معه فى هذه الغزوة ، قال الجُلاَس بن سويدٍ وهو أحد المنافقين الذين خرجوا مع النبىّ مستهزئاً بما نزل ، وبما سمعه فى شأن المنافقين من الطعْنِ والعيب : لئن كان حقًّا ما يقوله محمد

فى إخواننا ، وهم أشرافنا وسادتنا فنحن شرّ من الحمير ، فقال له عامرُ بن قيس الأنصارى : أجَلْ ، والله إن محمدا لصادق، مصدق، وأنت شرّ من الحمار ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستحضره وسأله عما قال . فحلف بالله ما قال ، فرفع عامر يده، فقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيّك تصديق الكاذب ، وتكذيب الصادق فنزل : « يحلفون بالله ما قالوا . . . » ، إلى آخر الآية .

(٩)

من الآية ٧٥ إلى الآية ٨٣ من سورة التوبة

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ : لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ، وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ —١— . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ —٢— . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ، بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ ، وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ —٣— أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ، وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ —٤— . الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ، وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ —٥— . اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ —٦— . فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ ، وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَالُوا : لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ : نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا

يَفْقَهُونَ —٧— . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا ، وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ —٨— . فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ، فَقُلْ : لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ —٩— .

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
لئن آتانا من فضله	لئن أغنانا وأعطانا الأموال .
لَنَصَّدَّقَنَّ	لنخرجنّ الصدقة من أموالنا .
ولَنكونن من الصالحين	ولنكونن مطيعين ، مؤدين ما فرضه الله علينا .
بخلوا به	منعوا حق الله ، ولم يفوا بعهده .
وتولَّوْا وهم معرضون	وانصرفوا عن طاعة الله ، وقلوبهم معرضة عنها .
فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم	فأورثهم البخل وحب المال ، نفاقاً متمكناً فى قلوبهم .
إلى يوم يَلْقَوْنه	إلى يوم القيامة الذى يلقون فيه جزاء عملهم .
بما أخلفوا الله ما وعدوه	بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه ، من التصدق والصلاح .
وبما كانوا يكذبون	وبسبب كذبهم ونقضهم العهد .
يعلم سِرَّهم	يعلم ما أسروه فى نفوسهم من النفاق ، بالعزم على إخلاف ما وعدوه .

الألفاظ	شرحها
ونجواهم	ويعلم ما يتناجون به فيما بينهم ، من المطاعن فى الدين ، والعيب فى محمد .
علاَّمُ الغيوب	يعلم ما خفى ، لا يعزُب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء .
يلمزون المطَّوِّعين	يعيبون المتبرعين .
فى الصدقات	بسبب إخراجهم الصدقات ، ويقولون : ما أعطوها إلا رياء .
فيسخرون	فيهزءون .
سخِرَ الله منهم	جازاهم الله على سُخْرِيتهم بالسوء .
سبعين مرة	لا يُقْصَدُ بالعدد التحديد والغاية ، ولكن السبعين عدد جارٍ فى لغة العرب مَجْرَى المثل للتكثير .
المخلَّفون	المنافقون الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يتخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك ، فأذن لهم .
بمقعدهم	بقعودهم عن الغزو .
خلافَ رسولِ الله	مخالفين لرسول الله .
وقالوا : لا تنفروا فى الحر	قال بعضهم لبعض كما قالوا للمؤمنين ، تثبيطاً لهم : لا تخرجوا للغزو فى الحر .
رَجَعَك الله	ردك من تبوك .
فاستأذنوك للخروج	فطلبوا أن يخرجوا معك فى غزوة أخرى .
أوّل مرة	أول ما دعوتكم للخروج فى غَزْوَةِ تبوك .
فاقعدوا مع الخالفين	فاقعدوا مع الذين شأنهم القعود والتخلف .

استغنى فبخل

روى أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال عليه السلام : « يا ثعلبة، قليل تؤدِّى شكره ، خير من كثير لا تطيقه» ، فراجعه وقال : والذى بعثك بالحق ، لئن رزقنى الله مالا ، لأعطينَّ كلَّ ذى حق حقه ، فدعا له النبىّ أن يرزقه الله مالا ، فاتخذ غنماً ، فنمت كما ينمى الدود ، حتى ضاقت بها المدينة ، فتنحى عن المدينة ونزل وادياً ، وانقطع عن صلاة الجمعة والجماعة ، فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل : كثر ماله ، حتى لا يسعه واد ، قال : « يا ويح ثعلبة » ، ثم بعث رسول الله رجلين ، لأخذ الصدقات ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومرَّا بثعلبة ، فسألاه الصدقة ، فقال ما هذا إلا جزية ، وقال: ارجعا حتى أرى رأيى ، فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلِّماه: «يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة » ، (قالها مرتين) ، فنزل قوله تعالى : « ومنهم من عاهد الله . . . » ، إلى آخر الآية ، فجاء ثعلبةُ بالصدقة، فقال النبىّ : « إن الله منعنى أن أقبل منك » ، فجعل التراب على رأسه ، فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه، فلم يقبلها، وجاء بها إلى عمر رضى الله عنه فى خلافته ، فلم يقبلها ، وهلك فى زمان عثمان رضى الله عنه .

مجمل المعنى

١ - ومن قبائح بعض المنافقين ، كثعلبة بن حاطب الذى تقدم خبرُه ، ونزلت هذه الآية فى أمره ، أنهم سألوا النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ الله أن يُغنيهم ، وعاهدوا الله أنه إذا حقق مُناهم ، واستجاب لدعاء نبيه

فيما طلبوا، وأعطاهم من فضله ، وأغدق عليهم من نعمه، ليتصدقُنّ من المال ، وليخرجُنّ زكاته ، وليكونُن من عباده الصالحين، الذين يفعلون ما أمر الله به ، ويجتنبون ما نهاهم عنه .

٢ — فلما حقق الله لهم ما أرادوا ، وأعطاهم المال الذى طلبوا ، شحّت نفوسهم ، فبخلوا بالصدقة ، ولم يخرجوا الزكاة ، ولم يُوفوا بما عاهدوا الله عليه ، ولم يشكروه على فضله ، وانصرفوا عن طاعة الله ، فلم يتّبعوا أوامره ، ولم يؤدُّوا فروضه ، وأعرَضوا بقلوبهم عن أداء ما وجب عليهم ، جحوداً وإنكاراً لحقوق الله ، وكفراناً بنعمه .

٣ — فجعل الله عاقبة إخلافهم ما عاهدوا الله عليه ، ومنعهم الصدقة ، أن أورثهم نفاقاً راسخاً متمكناً فى قلوبهم ، إلى يوم يلقَوْن فيه جزاءهم عليه ، وهو يوم القيامة ، بسبب إخلافهم ما وعدوا الله تعالى ، من التصدق والصلاح ، وباستمرارهم على الكذب ، ونقض العهد .

٤ — كيف ينافقون ويُخلفون، ويبدون غير ما يخفُون؟ ألم يعلموا أن الله مُطّلعٌ على ما أسرُّوا فى نفوسهم من النفاق ، بعزمهم على نقض العهد ، وإخلاف الوعد ، عالم بما يتهامسون به ، وما يتناجون به فيما بينهم ، من عيب فى الدّين وذمّ فى المسلمين ، واستهزاء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الله يعلم ما خفِىَ وما بطن ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ؟

٥ — وهو عالم بما قاله المنافقون الذين يعيبون المتبرّعين بالصدقات ، الباذلين النفقات ، ويتهمونهم بالرياء ، ليثبّطوهم عن عمل الخير ، ويعيبون الفقراء الذين يكسبون أجرهم بالعمل ، ويبذلون فيه جهداً ومشقة ، ثم يتصدقون ببعضه ، ويستبقون لعيشهم بعضه ، فيستهزئون بهم ، ويقولون : إن الله لغنىٌّ عن صدقاتهم ؛ هؤلاء المنافقون المستهزئون ، سيجزَون على

استهزائهم بالعذاب والنَّكال ، فيملأ قلوبهم غيظاً يأكل صدورهم فى الدنيا ، ويعد لهم عذاباً دائماً شديد الإيلام فى الآخرة .

عامل يتبرع بنصف أجره

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثَّ الناس على الصدقة ، فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقيَّة من ذهب ، وقال : كان لى ثمانون ، فأقرضتُ ربى أربعين ، وأمسكت لعيالى أربعين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت » ، فبارك الله له ، حتى صولحت تماضر إحدى زوجاته الأربع بعد موته ، عن ربع الثُّمن على ثمانين أوقية من ذهب ، وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصارى بصاع من تمر ، فقال : بتُّ ليلتى أجرَ الجرير : (أى الحبل) على صاعين ، فتركت صاعاً لعيالى ، وجئت بصاع صدقة ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات ، فلمزهم المنافقون ، وطعنوا فيهم وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً ، وإن الله ورسوله لغنيَّان عن صاع أبى عقيل ، فنزل قوله تعالى : « الذين يلمزون المطَّوِّعين ، من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم ، فيسخرون منهم ، سخر الله منهم . . . . » .

٦ — لقد بلغ من سخط الله على هؤلاء المنافقين ، أنه لا يصفح عنهم ، ولا يغفر لهم ، سواء أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم يا محمد ، وسواء أأقللتَ من الاستغفار أم أكثرت منه ، لأنهم سدُّوا على أنفسهم جميع أبواب الصفح والمغفرة ، فجاوزوا الحدَّ فى كفرهم بالله ورسوله ، وتمرَّدوا على الله ورسوله ،

وفسقوا عن طاعتهما ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ، لأنهم مطبوعون على الغىّ والضلال .

٧ - إن الذين اختلقوا الأعذار ، واستأذنوا النبىّ أن يقعدوا ولا يخرجوا معه فى غزوة تبوك، فأذن لهم، لأنه يعلم أن لا فائدة تُرتَجى من خروجهم، قد فرحوا بقعودهم ، لأنهم خالفوا رسول الله فيما يرغب من خروج كل مسلم للجهاد والغزو ، وكرهوا الجهاد معه، لأنهم لا يحبون انتصار الإسلام، إذ أن الكفر والنفاق راسخ فى قلوبهم ، فلم يبذلوا أموالهم ونفوسهم ، ضناً بها على القتال مع محمد، وبخلا بها فى سبيل إعلاء الدين، ورفع كلمته ، ولم يكتفوا بقعودهم ، ولكنهم عملوا على تثبيط من خرج منهم مع محمد، وتخذيل المؤمنين عامّةً، وانتهزوا فرصة دعوة النبىّ للجهاد ، والخروج لغزو الروم فى الصيف وفى شدة الحر ، فقالوا : لا تخرجوا للغزو فى الحر ، فتعرّضوا أنفسكم للجهد والعطش ، وتُلقوا بأنفسكم فى الهلاك ،. وما علموا أن الحرّ الذى ينتظرهم فى نار جهنم ، ويقاسونه دائماً ، أشدُّ من حرارة صيف فى غزوة، ولكنهم ليسوا من أهل الفطانة والفَهْم ، حتى يفقهوا الخير من الشرّ ، ويميزوا الضارّ من النافع .

٨ - إنهم سيضحكون فى الدنيا قليلا بتخلّفهم عن النبىّ ، وقعودهم عن الغزو ، لكنهم سيبكون يوم القيامة كثيراً ، جزاء ما قدموا من سوء عملهم ، وفساد قلوبهم ، وما كسبوا لأنفسهم من النفاق .

٩ - فإن ردّك الله إلى طائفة منهم بقيت على النفاق ، وأصرّت على الكفر ، وعدت إلى المدينة بعد الانتهاء من غزوة تبوك ، وطلبوا منك أن يخرجوا معك فى غزوة بعدها ، فلا تمنحهم هذا الشرف ، ولا تأمن جانبهم ، ولا تطمئن إليهم ، وقل لهم : لن أسمح لكم بالخروج معى أبداً ، ولن أشرفكم بالجهاد فى سبيل الله وقتال أعدائه ، لأن المحنة قد كشفت عن

أمركم ، فلم أجد فيكم خيراً ، ورضيتم بالقعود ، وتخلفتم عن الخروج عندما دعوتكم إليه أول مرة، كانت الحاجة فيها إليكم أشد، فاقعدوا مع المتخلفين من المنافقين، الذين ديدنهم أن يُخذّلوكم، ويمنعوكم شرف الجهاد مع رسول الله .

(١٠)

من الآية ٨٤ إلى الآية ٩٢ من سورة التوبة

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ -١- وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ -٢- وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ : أَنْ آمِنُوا بِاللهِ ، وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ، اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ ، وَقَالُوا : ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ -٣- رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ، وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ -٤- لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ -٥- أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ -٦- وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ، وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ -٧- لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ، وَلَا عَلَى الَّذِينَ

لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ —٨— وَلَا عَلَى الَّذِينَ
إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ، قُلْتَ : لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ، تَوَلَّوْا
وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ، أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ —٩—

شرح الألفاظ

الألفاظ	شرحها
ولا تصل على أحد منهم مات	ولا تصل صلاة الجنازة على من مات من المنافقين.
ولا تقم على قبره	ولا تقف عند قبره وقت الدفن أو للزيارة مكرماً ، أو داعياً له بالرحمة .
وتزهق أنفسهم وهم كافرون	تقبض أرواحهم بصعوبة ، وهم على كفرهم .
أولو الطول منهم	أصحاب الغنى والسعة والفضل .
ذرنا	اتركنا .
مع القاعدين	مع الذين لهم علة وعذر فى التخلف عن الخروج .
الخوالف	العاجزين من النساء والصبيان والزمنى ، وأصحاب الأعذار من الرجال .
وطبع على قلوبهم	وختم الله على قلوبهم بخاتم النفاق ، فلم ينفذ إليها الإيمان .

الألفاظ	شرحها
لا يفقهون	لا يفهمون ما فى الجهاد من سعادة ، وما فى التخلف من شقاوة .
المعذّرون	المقصّرون الذين يُبدون أعذاراً باطلة .
وقعد الذين كذبوا الله ورسوله	لم يجيئوا للنبىّ ليعتذروا ، وظهر أنهم كاذبون فيما ادّعوه من الإيمان بالله ورسوله
الضعفاء	الهرمى والزّمنى ، والنساء والصبيان الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد .
حرَج	إثم فى التأخر .
نصحوا لله ورسوله	أخلصوا فى الإيمان بهما .
ما على المحسنين من سبيل	ليس على المحسنين جُناح ، ولا طريق إلى معاتبتهم ومؤاخذتهم .
لتحملهم	لتهيئ لهم الدواب التى تحملهم ، وتحمل زادهم ومتاعهم .
تفيض من الدمع حزناً	تسيل دموعها من الحزن .
ألاّ يجدوا ما ينفقون	لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه فى الجهاد والغزْو مع النبىّ .

عبد الله بن أُبىّ يطلب أن يكفن فى قميص النبىّ

رُوى أن عبد الله بن أبىّ رأس النفاق فى المدينة ، لما حضرته الوفاة ، ذهب ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مؤمناً حسن الإيمان ، فسأله أن يعطيه قميصَه ، ليكفّن فيه أباه ، ثم سأله أن

يدعوَ له ، وأن يصلّي عليه ، فأعطاه النبيّ القميص إكراماً له ، وتطييباً لقلبه ، لأنه كان رجلا صالحاً ، وقال : إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئاً ، وإنى لأرجو أن يُسلم بفعلى هذا ألف رجل من قومه ، فحقق الله رجاء نبيه ، وأسلم من الخزرج ، ألف رجل ، لما رأوا عبد الله بن أبيّ وهو فى ساعاته الأخيرة ، يطلب التبرُّك بثوب النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ ولما مات قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى عليه ، ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزل : « ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً . . . » ، إلى آخر الآية ، فلم يصل رسول الله صلاة الجنازة على أحدٍ من المنافقين بعدها .

مجمل المعنى

١ — ولا تصلّ يا محمد صلاة الجنازة على من يموت من المنافقين ، لأن المنافقين كالكافرين ، لا تجوز الصلاةُ عليهم بعد موتهم ، ولا تقم على قبورهم بعد أن يُدْفنوا ، ولا تدْعُ لهم بالرحمة والمغفرة ، لأنهم لا يستحقون دعاءك ، فإنهم كفروا بالله ورسوله ، ومن كفر فإن الله بريء منه ، لا يُدخله فى رحمته ، ولا يتفضل عليه بمغفرته ، ولأنهم أصرُّوا على الكفر ، وتمرّدوا على الله ، وخالفوا عن أمره ، وفسقوا عن طاعته .

٢ — ولقد كان نفاق عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ، وزهوه بماله وأولاده وعشيرته ، وقعوده عن نصرة النبيّ ، واستمراره فى الطعن على الإسلام ، والعيب فى محمد ، ثم إدراكُه لما كان عليه من ضلال حين حضرته الوفاةُ ، وطلبه قميص النبيّ ليتكفن فيه تبرُّكاً به — كان ذلك مناسباً لتكرار نزول آية : «ولا تُعجبك أموالهم وأولادهم . . .» ، تذكيراً للناس بأن الأموال والأولاد لا تنفع المرء شيئاً ، وإنما ينفعه إيمانه الصادق ،

وعمله الصالح ، يوم ينكشف عنه الغطاء ، ويقفُ بين يدى الله ، فيرى أمامه ما عمل من خير ومن شر مُحْضراً .

٣ — وإذا أنزل اللهَ عليك يا محمد سورةً تبين وجوب الإيمان بالله ، والجهاد مع رسوله لإعزاز دينه ، وإعلاء كلمته — جاء إليك أولو الطَّوْل ، وأصحابُ الفضل، الذين يجدون السَّعة والغنى والقُدْرة ، ويملكون الزَّاد والراحلةَ ، ولهم قوة وجلد على السفر ، جاءوا إليك يستأذنونك فى التخلُّف عن الخروج معك للجهاد ، ويطلبون أن تتركهم مع العَجَزة القاعدين ، أصحاب العلل والأعذار من المرضى والزَّمْنى وذوى العاهات .

٤ — وقد ارتَضوا لأنفسهم أن يكونوا فى صفٍّ الخوالف من النساء ربَّات البيوت ، اللائى شأنهن لزومُ المنازل، ومع من لا غناء منه، ولا خير فيه، من الأطفال والهرْمى والزمنى ، ففقدوا العزة والكرامة ، وختم الله على قلوبهم، فلم يفهموا ما فى الجهاد فى سبيل الله من عِزَّة فى الدنيا ، وسعادة فى الآخرة ، وما فى التخلف من ذلٍّ فى الحياة ، وشقاء بعد الموت .

٥ — ولئن تخلف هؤلاء عن الغزو ، واستأذنوا فى القعود ، لقد نهض إليه من هم أخلص نيَّة ، وأصدق إيماناً ، وهم رسول الله ، ومن سارع معه إلى الجهاد فى سبيل الله ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيراتُ فى الدارين ، وأحقٌ بالنَّصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنَّة والكرامة فى الآخرة ، وأولئك هم المفلحون الفائزون بنعم الله ورضوانه .

٦ — وقد هيأ الله لهم فى الآخرة جناتٍ جمعت كل أسباب النعيم ، لا انتهاء للسعادة فيها ، ولا نهاية للإقامة بها ، وذلك رضا من الله ليس بعده رضا ، وفوز ليس وراءه فوز .

٧ — فى الآية السابقة بيَّن الله أحوال منافقى المدينة ، وفى هذه الآية يبين الله

أحوال منافقى الأعراب ، وهم الذين جاءوا إلى النبىّ يوهمون أن لهم عذراً فى التخلف عن الخروج إلى الجهادْ ، ولا عذر لهم ، ويبدون أعذاراً باطلة غير مقبولة ، كما فعل أعراب أسدٍ وغَطفانَ ، حينما قالوا للنبىّ : إن لنا عيالا ، وإن بنا لجهداً ، فأذن لنا فى التخلُّف ، وكما فعل رهط عامر بن الطفيل ، حينما قالوا للنبىّ : إن غزونا معك أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا ، فقال لهم عليه السلام : سيغنينى الله عنكم ، وهو يعلم أن أعذارهم واهية ، وأن حججهم باطلة ، ومن منافقى الأعراب أولئك الذين دعوا إلى الجهاد فلم يجيئوا ولم يعتذروا ، وتخلفوا ، وظهر أنهم كذبوا الله ورسوله فى ادعائهم الإيمان والطاعة ؛ هؤلاء المعذرون ولا عذر لهم ، المتخلفون القاعدون الذين لم يعتذروا من الأعراب — هؤلاء يعلم الله الكافرين منهم ، وسيصيبهم بعذاب أليم ، بالقتل والأسر فى الدنيا ، وبعذاب النار فى الآخرة .

٨ — والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولهذا لا يكلِّف الضعفاء من النساء والصبيان والهرْمى والمرضى ، ولا يكلف الفقراء الذين لا يجدون نفقات السفر والراحلة التى تحملهم ، أن يخرجوا إلى الغزو والجهاد ، ولا يجعل عليهم حرجاً وإثماً فى التخلف عنه ، ما داموا ناصحين لله ورسوله ، مؤمنين بهما ، مطيعين لأوامرهما ، فهذا ما يطلب منهم ، وهو الإحسان كل الإحسان لله ولرسوله ، وليس على المحسنين من جنَاح ، ولا إلى معاتبتهم من سبيل ، فالله سبحانه وتعالى يغفر لهم ويتولاهم برحمته .

٩ — وليس من حرج وإثم على أولئك الفقراء الذين رغبوا فى الجهاد ، ولكنهم لم يملكوا له وسائله من الزاد والسلاح والراحلة ، وجاءوا إليك يا محمد يلتمسون أن تهيِّئ لهم الوسائل التى يستطيعون بها الجهاد ، ويسألونك أن تحملهم معك إلى الأعداء ، فاعتذرت لهم ، وقلت : «لا أجد ما أحملكم عليه» ، فانصرفوا

محزونين ، تفيض عيونهم دمعاً ، لأنهم لم يجدوا النفقات التى يتطلبها خروجهم للجهاد ، فحُرموا المشاركة فيه ، وقعدوا باكين محزونين ؛ قيل نزلت هذه الآية فى بنى مقرّن ، وكانوا سبعة إخوة ، كلهم هاجروا وصحبوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فى غزواته ، فلما جاءوه ليحملهم فى غزوة تبوك ، قال لهم معتذراً : «لا أجد ما أحملكم عليه» ، فتولَّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ، لأنهم لم يجدوا ما ينفقون فى الجهاد ، وقعدوا عنه باكين مكرهين .

وبقية قصة المنافقين فى أول الجزء الحادى عشر .

فهرس الجزء العاشر

الرقم	أسماء السور	أرقام الآيات فى المصاحف	أرقام الصفحات
١	الأنفال	من ٤١ — ٤٤	من ٣ — ٧
٢	«	« ٤٥ — ٥١	« ٨ — ١٢
٣	«	« ٥٢ — ٦٠	« ١٣ — ١٩
٤	«	« ٦١ — ٦٦	« ٢٠ — ٢٣
٥	«	« ٦٧ — ٧١	« ٢٤ — ٢٨
٦	«	« ٧٢ — ٧٥	« ٢٩ — ٣٣
١	التوبة	« ١ — ١٥	« ٣٤ — ٤٥
٢	«	« ١٦ — ٢٢	« ٤٦ — ٥٠
٣	«	« ٢٣ — ٢٧	« ٥١ — ٥٨
٤	«	« ٢٨ — ٣٥	« ٥٩ — ٦٦
٥	«	« ٣٦ — ٤٥	« ٦٧ — ٧٩
٦	«	« ٤٦ — ٥٩	« ٨٠ — ٨٩
٧	«	« ٦٠ — ٦٨	« ٩٠ — ٩٨
٨	«	« ٦٩ — ٧٤	« ٩٩ — ١٠٦
٩	«	« ٧٥ — ٨٣	« ١٠٧ — ١١٤
١٠	«	« ٨٤ — ٩٢	« ١١٥ — ١٢١

297.207:H23tA:v.6-10:c.1
برانق، محمد احمد
تفسير القرآن الكريم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01009514

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT